



## © أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات  
رئيس مجلس الإدارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف  
مدير التحرير: غسان زقطان  
مستشار التحرير: فيصل دراج

شارك في التحرير: فيصل حوراني  
عبد الفتاح القلقيلي  
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النممن  
كمال عبد اللطيف  
محسن بوعزيزي  
كريم مروة

إدارة: رفيف الأسمر  
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب  
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

A W R A Q F E L A S T I N I A



فصلية فكرية عربية تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

العدد «٦ و ٧» ربيع وصيف ٢٠١٤

#### المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله - فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ - ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٣ - ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfalastinia

#### الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله - فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ - ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000009090480252510

## الفهرس

### الافتتاحية

#### ٧ ثقافة الحرية والتنوير خيارنا

يحيى يخلف

#### غزة أن تكون هناك

١٢ فايز السرساوي / سيرة ذاتية

١٧ غزة أن تكون هناك

عاطف أبو سيف

٢٣ عيد ميلاد

شمعة واحدة... ومطر من الصواريخ

أحمد يعقوب

٢٧ نحن أبناء الموت

أسماء الغول

٣١ نصوص الحرب، غزة ٢٠١٤

هند جودة

٣٩ بروفا للنجاة

رنا مرتجى

٤٣ عن بائع الحلب

منال مقداد

٥١ الحب والكراهية: يومياتنا من غزة

سليم النفرار

٥٧ في علبة الحرب

وسام عويضة

٦١ حرب أخرى وتمضي

ناصر رباح

٦٥ أنا وأولادي والعدوان على غزة

سما حسن

٦٩ رسائل الحرب ...

نجوى شمعون

#### أوراق فلسطينية

٨٣ الذاكرة الوطنية الثقافية

روحي الخالدي: المعرفة الموضوعية

والنظر السياسي الحديث

د. فيصل دراج

٩٩ استهداف عرفات، والحماية الدولية

فيصل حوراني

#### أوراق فكرية

١٠٩ الشرق الأوسط الجديد وإعادة رسم

خارطة المنطقة

صلاح عبد الشافي

- ٢٠٣ سميح القاسم الشاعر والرسام  
الى ان تكتمل الدائرة  
سعاد نصر- مخول
- أوراق من الذاكرة
- ٢١١ أوراق من دفترتي  
هاني فحص
- مراجعات
- ٢٣١ نهاية الحداثة اليهودية  
د. فيصل دراج
- ٢٣٥ المرأة والحصار...
- كتاب "الحصار" لمي الصايغ أمودجًا  
محمود شقير
- ٢٤١ زمن الخيول البيضاء (الملهة الفلسطينية)  
قراءة عبد الفتاح القلقلي
- ملف
- ٢٥٠ "في الذكرى العاشرة لفتوى محكمة  
العدل الدولية حول الجدار في الأرض  
الفلسطينية المحتلة"
- ١١٩ الارض في الصراع مع الصهيونية  
الارض هي الموضوع والميدان والاطار  
عبد الفتاح القلقلي
- أوراق ثقافية
- ١٣٧ اَرْتَبَاكَتُ... لا حَوَافَّ لَهَا  
وسيم الكردي
- ١٥١ مختارات للشاعر الأرجنتيني روبرتو  
خواروث
- ترجمة وليد السويركي
- ١٦٣ أبواب العودة  
نسب أديب حسين
- ١٧٥ محمود درويش شعرية الخلق الجمالي  
د. عبدالله عيسى
- ٢٠٠ سميح القاسم..وداعا  
المحرر
- ٢٠١ في وداع سميح القاسم  
يحيى يخلف



## العدوان على غزة ومستقبل القضية الفلسطينية

يحيى يخلف

بينما هذا العدد من (أوراق فلسطينية) مائل للطباعة وقع العدوان الاسرائيلي على قطاع غزة،عدوان مدمر استهدفت به الآلة العسكرية الاسرائيلية المدنيين الفلسطينيين وبيوتهم، وارتكبت مجازر وجرائم تندرج في تصنيف جرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية.مثل هذا العدوان تصعيدا خطيرا ومنعظفا في الصراع بعد انسداد الأفق السياسي وتوقف المفاوضات ، واستمرار نهب الأرض ومواصلة الاستيطان،والاجتياحات، والاعتقال،ومواجهة المقاومة الشعبية الفلسطينية السلمية في الضفة الغربية بالرصاص الحي، اسرايل التي تنكرت للحقوق الفلسطينية، ووضعت العقبات والعراقيل وقامت باجراءات لمنع قيام دولة فلسطينية وهي تهدف لإدامة الاحتلال وترويض الشعب الفلسطيني،وتقليل سقف توقعاته، وجعل العالم يتعايش مع هذا الوضع الذي يعني حكماً ذاتياً للسكان دون سيادة على الأرض.

هذا ما يفسر الحل العسكري الذي تواجهه به اسرايل المقاومة بشكليها السلمي أو المسلح في الضفة وغزة من اجل ابقاء الحصار وخنق الشعب الفلسطيني واحباطه.

ويحدث هذا العدوان في وقت يشهد فيه المحيط العربي انقاسما واضطرابات داخلية، والمحيط الإقليمي تجاذبات وصراع محاور، والأمم المتحدة عجزا في القيام بدورها لفرض وحماية الأمن والسلم الدوليين.

لم يكن هناك تأثير يذكر للعامل العربي الرسمي في دعم واسناد المقاومة الباسلة ضد العدوان على غزة،فقد كانت معظم الدول العربية منشغلة بأزماتها وحروبها الداخلية ضد خصومها أو ضد القاعدة وداعش في سورية والعراق وليبيا واليمن وتونس وغيرها، ومثل تعاطف خطر داعش بامتداده الخارجي قلقا يشي بما يبئ للمنطقة العربية برمتها من خطط التقسيم، واعادة رسم الخرائط.

وعلى الصعيد الإقليمي تباينت المواقف، وبرزت حرب باردة بين ماسمي بمحور الاعتدال، ومحور  
مشاكس يدعي دعم المقاومة، محور الاعتدال بقيادة مصر والسعودية ، ومحور المشاكسة وبرز  
فيه اسم قطر وتركيا، لكن موقف المشاكسة تراجع أثناء اتفاقات التهدئة والمفاوضات لصالح  
الاعتدال حين تصدرت مصر المشهد بطرحها مبادرة لوقف اطلاق النار تمّ تطويرها حين طرح الوفد  
الفلسطيني الموحد للمفاوضات شروطا وافقت عليها مصر.

وعلى الصعيد الدولي فشل مجلس الأمن بسبب الضغوط الأميركية في التوصل لقرار وقف لاطلاق  
النار، واعتبر ذلك فشلا للمجتمع الدولي.

استغلت اسرائيل هذا المناخ العربي والإقليمي والدولي لتشن عدوانها على غزة تحت ذريعة  
تدمير القدرة العسكرية لحماس وقوى المقاومة، وضرب منصات الصواريخ، وتدمير الأنفاق. لكن  
مجريات المعركة أظهرت أن عدوان اسرائيل عجز عن تحقيق أهدافه أمام المواجهة الشجاعة  
لمقاومي العدوان، وانزال خسائر فادحة بجنودها، وعدم نجاحها في تدمير الأنفاق العسكرية، مما  
أوقع الحكومة الاسرائيلية ورئيسها ووزير دفاعها في حالة ارتباك، وانتقل هذا الارتباك الى المجتمع  
الاسرائيلي أي الى ما يسمى بالجبهة الداخلية، وأخذت وسائل الاعلام توجه سهام نقدها، مما دفع  
الجيش الاسرائيلي لمحاولة زعزعة الجبهة الداخلية الفلسطينية، وضرب الحاضنة الشعبية للمقاومة،  
هكذا دفعت اسرائيل بآلتها العسكرية بما تمتلكه من طائرات متطورة ومدافع ودبابات وتكنولوجيا  
في عدوان ضد المدنيين من خلال قصف بيوتهم وانزال افدح الخسائر بالأرواح ، ومن الجدير  
ذكره ان غالبية هؤلاء الضحايا هم من النساء والأطفال. أمام هذه الجرائم ارتفعت أصوات  
نخب سياسية، ومنظمات حقوقية وكتاب ومتقنين وجماهير التواصل الإجتماعي تطالب السلطة  
الفلسطينية بسرعة التوقيع على اتفاقية روما والانضمام الى محكمة الجنايات الدولية من اجل رفع  
قضايا على مجرمي الحرب من سياسيين وعسكريين في الكيان الصهيوني، مما مهد الطريق لقرار  
القيادة الفلسطينية باتخاذ الإجراءات القانونية لانضمام دولة فلسطين لاتفاقية روما.

وإذا كان ثمة عناصر قوة في هذا المشهد، فإن عنصر الوحدة الوطنية بين الشعب الفلسطيني  
والمقاومة وحكومة التوافق الوطني كان من أهم العناصر التي مثلت مكسبا استثنائيا للقضية  
الفلسطينية، مكسبا لو حافظ على ديناميته لشكل رافعة نهوض وطني يعزز مسار القضية  
الفلسطينية ومستقبلها وتحديد مسار اهدافها نحو التحرر وانجاز الاستقلال وسائر الحقوق  
الوطنية التي أقرتها الشرعية الدولية في الأمم المتحدة.

ومن مظاهر تجليات الوحدة وانهاء الانقسام كان تشكيل الوفد الموحد للمفاوضات حول التهدئة



برعاية مصر، تحت مظلة منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية، وتوحد الوفد على مطالب وشروط جرى عليها اجماع، وفشلت محاولات اسرائيل في دق اسفين بين اعضائه، وظل الوفد موحدًا و متمسكا بالقضايا التي تم الاتفاق عليها، لكن هذه الوحدة التي تفيأ الشعب والسلطة والمقاومة ظلالتها في زمن الحرب ، تتعرض لمخاطر في زمن التهدة أو وقف اطلاق النار، بعد تصريحات وتجادبات من هنا وهناك، وهو ما يطرح اسئلة كبرى يتوقف عليها مستقبل القضية ومستقبل شكل ومحتوى الحركة الوطنية الفلسطينية، ومن هذه الاسئلة: هل يحكم الضفة وغزة سلطة واحدة ممثلة بحكومة التوافق الوطني تشرف على الإعداد للانتخابات الرئاسية والتشريعية وانتخابات المجلس الوطني، وكذلك الاشراف على جهود إعادة الإعمار، وادارة معبر رفح، وتشغيل المطار والميناء، أم ان الفصائل وخصوصا حماس تنصب نفسها حكومة موازية تنتزع بحكم الأمر الواقع معظم تلك الصلاحيات؟

ومن هذه الأسئلة أيضا: هل تتعامل الدول العربية وخصوصا مصر مع فصائل وميليشيات أم تتعامل مع سلطة شرعية يقودها الرئيس محمود عباس ، هل تتعامل مع دولة فلسطين ام مع قوى تمثل امارات او أمراء حرب أو ميليشيات عسكرية لكل منها أجنات خاصة؟

ومن هذه الأسئلة كذلك: ماهو دور المحاور الإقليمية والامتدادات الخارجية ، هل تتدخل باتجاه إعادة وتكريس الانقسام أم باتجاه تعزيز المصالحة والوحدة الوطنية؟

ومن الأسئلة الكبرى، والأكثر أهمية: بعد معركة غزة، هل تصنف حركة حماس نفسها حركة تحرر وطني، أم تصنف نفسها حركة دعوية اسلامية تنتمي لحركة الإخوان المسلمين؟

لقد دعم الشعب الفلسطيني على مختلف انتماءاته حركة حماس وحركة الجهاد وغيرها من الفصائل التي شاركت في صد العدوان كل الدعم والمساندة انطلاقا من خيار المقاومة والتحرر الوطني لا من أي منطلق عقائدي أو ايدولوجي، ولا شك ان تحديد حماس لهويتها سيحدد المسار لمستقبل القضية، ومستقبل النظام السياسي، ومستقبل الإعمار، وفتح المعابر ، واعادة تشغيل المطار، وانشاء الميناء، وقبل ذلك كله انجاز دحر الاحتلال ورحيله من التراب الوطني لدولة فلسطين كما حدده قرار الاعتراف بها من قبل الأمم المتحدة، دولة بحدود الرابع من حزيران وعاصمتها القدس. من المبكر قراءة وتحليل مسار الأحداث بعد معركة غزة، خصوصا أن المخاوف لا تزال صدى لتصريحات وليس لسياسات، وبالتالي يتعين علينا التريث قبل اطلاق الأحكام.

ولعل حالة النهوض ممثلة بالحراك الشعبي في الأرض الفلسطينية تمثل عنصرا هاما من اجل الحفاظ على الوحدة الوطنية، وابقاء البوصلة متوجهة نحو التناقض الرئيس مع الاحتلال.





غزة، أن تكون هناك



## سيرة ذاتية فايز عطاالله سالم السرساوي

### معلومات شخصية :

مكان الميلاد : مدينة غزة / حي الشجاعة

تاريخ الميلاد : ١٩٦١ / ٦ / ٢٤

الحالة الاجتماعية : متزوج واب ولولين

### المؤهلات العلمية :

\* ماجستير فنون جميلة - اكااديمية الفنون الجميلة - استانبول - تركيا ١٩٨٦

\* مراحل التعليم الاساسية بمدارس مدينة غزة المختلفة

### الخبرات العملية :

\* ١٩٩٤ - حتى اللحظة /قائم باعمال وكيل وزارة الثقافة ، مدير عام مديريةية المراكز الثقافية ، مدير دائرة المراكز الثقافية ، منسق عام النشاطات الثقافية

\* ١٩٩١ - حتى اللحظة / جمعية الشبان المسيحية - غزة - مشرف عام برنامج الفنون الجميلة ( عمل تطوعي )

\* ١٩٩١ - ١٩٩٤ كلية غزة الثانوية - مشرف عام لمساق الفنون الجميلة ( البرنامج النموذجي )

\* ١٩٩٠ - ١٩٩١ وكالة الغوث الدولية / رام الله / معهد الطيرة للبنات - مدرس للتربية الفنية

\* ١٩٧٩ - ١٩٨٠ مجلة العلوم ( ثقافية - اجتماعية ) دار العلوم / غزة - رسام ومصمم فني

### اصدارات ثقافية :

\* مجلة عشتار ( ادبية - فنية ) ١٩٩٣ - ١٩٩٦

\* ابتسامه الشقائق ( ديوان شعر ) منشورات الدائرة الثقافية - بلدية غزة ٢٠٠٥

\* اضواء على مسيرة الحركة التشكيلية الشبابية بقطاع غزة ١٩٩٠-٢٠٠٢ ( دراسة اكااديمية ) منشورات مجلة رؤية / الهيئة العامة للاستعلامات ٢٠٠٤

\* نشر عدد من المقالات ذات الاختصاص الفني و الثقافي في المجلات و الصحف المحلية .

## نشاطات فنية / اجتماعية :

- عضو الهيئة العامة لرابطة الفنانين التشكيليين الفلسطينيين
- عضو الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين
- عضو اللجنة الثقافية / جمعية الشبان المسيحية - غزة
- مشرف عام برنامج الفنون الجميلة / جمعية الشبان المسيحية - غزة
- عضو اللجنة الثقافية و الاستشارية / جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني
- محاضر منتدب من وزارة الثقافة لفترات متفاوتة بجامعة الاقصى في غزة
- المشاركة في العديد من المعارض التشكيلية داخل الوطن وخارجه
- الاشراف المباشر على العديد من الدورات التدريبية للكوادر في مجال الفن التشكيلي
- المشاركة في العديد من اللقاءات و المحاضرات ذات الاختصاص .
- تصميم عدد من الانصاب التذكارية و الجداريات الفنية و اخراج لعدد من المنشورات الثقافية
- مدير تحرير مجلة عشتار ( ثقافية - فنية ) صدرت في غزة ١٩٩٣- ١٩٩٦
- عضو هيئة التحرير لمجلة ( دفاتر ثقافية ) صدرت برام الله
- عضو لجنة الصندوق الثقافي ( المنحة النرويجية ) وزارة الثقافة
- عضو لجنة تحكيم مهرجان القدس السينمائي الاول/ غزة ٢٠١٠
- المدير الفني لمهرجان المتوسط الدولي - غزة ١٩٩٥
- المدير الفني لموسم المنطار الثقافي / غزة ٢٠٠٤
- عضو الهيئة الادارية / مؤسسة فلسطين المستقبل
- عضو الهيئة العامة / مؤسسة الطفولة المبكرة

## مشاركات دولية :

- \* مهرجان النحت الدولي - حيفا - ١٩٩٦
- \* اسبوع التبادل الثقافي بين الشعوب ( ترشيح وزارة الخارجية الفلسطينية ) - اليابان ١٩٩٧
- \* الاقامة لمدة ستة اشهر بالحي الدولي للفنون - باريس ( بعثة وزارة الثقافة الفلسطينية ) اكتوبر ١٩٩٩ - مارس ٢٠٠٠
- \* المشاركة بمعرض كتاب الطفل الدولي - باريس - مدرب لرسومات ادب الاطفال ٢٠٠٢
- \* المشاركة بمهرجان ساو باولو الدولي ( العولمة المضادة ) البرازيل ( ترشيح معهد كنعان التربوي النمائي ) ٢٠٠٣
- \* تلبية دعوة الحي الدولي للفنون - اقامة لمدة اسبوعين - ٢٠٠٤
- \* المشاركة بمهرجان الفنون العربية ( وفد وزارة الثقافة ) الصين ٢٠٠٦

## معارض فنية :

- \* ١٩٨٤“ منحوتات في الهواء الطلق ” حديقة أكاديمية الفنون الجميلة / اسطنبول
- \* ١٩٨٥“ اساليب معاصرة” متحف الفن الحديث /اسطنبول
- \* ١٩٨٩ ” معرض فنون الشباب ” السنة الدولية للشباب/ وزارة الثقافة التركية – انقره
- \* ١٩٨٩“ فنانون من غزة ” / جمعية الشبان المسيحية – غزة بمشاركة عدد من الفنانين الفلسطينيين
- \* ١٩٩٠ فنانون ينحتون الزمن / القدس - قاعة الحكواتي
- \* ١٩٩٠ فنانون ينحتون الزمن / روما
- \* ١٩٩٢ ” معرض نيسان ” جمعية الشبان المسيحية / غزة
- \* ١٩٩٢ ” مهرجان القدس الاول للثقافة و الفنون ” قاعة الحكواتي / القدس
- \* ١٩٩٣ ” معرض مرج الزهور للفنون التشكيلية ” قاعة عرض الجامعة الإسلامية /غزة
- \* ١٩٩٣” سلام لنا و للعالم ” معرض ثلاثي بمشاركة تيسير البطينجي و فوزي العمراني / غزة
- \* ١٩٩٥ ” ٥٠ عاما على تأسيس الامم المتحدة ” نيويورك
- \* ١٩٩٦” صورة ذاتية ” بالتعاون مع المركز الثقافي الفرنسي ومؤسسة صابرين للانتاج الفني / عدد من البلدان الاوروبية
- \* ١٩٩٧”معرض بينالي الاسكندرية التاسع عشر ” مصر
- \* ١٩٩٨” خمسون عاما على النكبة ” قاعة المركز الثقافي / الناصرة
- \* ٢٠٠٠ ” فايز السرساوي ” معرض شخصي / الحي الدولي للفنون / باريس
- \* ٢٠٠١ ” ظلال الانتفاضة ” قرية الفنون و الحرف / غزة
- \* ٢٠٠٣ ” العولمة البديلة ” ساو باولو / البرازيل
- \* ٢٠٠٤ ” مآل حال ” قاعة مركز رشاد الشوا الثقافي / غزة
- \* ٢٠٠٩ ” ميلاد مدينة ” قاعة عرض الفنون – جمعية الشبان المسيحية / غزة

## جوائز وشهادات تقدير

- \* ٢٠٠٣ شهادة تقدير – مهرجان ساوباولو للفنون / البرازيل
- \* ٢٠٠٠ شهادة تقدير – ادارة الحي الدولي للفنون / باريس
- \* ١٩٩٨ شهادة تقدير – مكتب رئاسة السلطة الوطنية الفلسطينية
- \* ١٩٩٧شهادة تقدير مع جائزة الشرف الاولى ” معرض بينالي الاسكندرية
- \* ١٩٩٣ عدد من شهادات التقدير من قبل وكالة الغوث الدولية للجهود التي ساهمت في انجاح المخيمات الصيفية
- \* ١٩٩٢ شهاد شرف وتقدير مهرجان القدس الاول للثقافة و الفنون / القدس
- \* ١٩٨٦ شهادة شكر و تقدير وزارة الثقافة و السياحة التركية







## غزة، أن تكون هناك

### تقديم

عاطف أبو سيف

ليست الكتابة فعل استنطاق للحاضر، ولا هي تأمل في الماضي ولا إبحار في الدهشة المتولدة من المستقبل، بل هي لحظات وعي وارتداد وسط سكرات غياب حادة. إنها نوبة من نوبات الحياة فيما الموت بالكاد يترك متسعاً لقدميك الصغيرتين تتلمسان أفق الخطو.

وبذلك فإن الكتابة لا تسعى لأن تكون برهاناً على شيء، ولا تفسيراً لشيء آخر، كما لا تزعم أنها الأكثر تعبيراً والأصدق، ولا هي تمثل فاحشة القسوة المرعبة امام مشاهد الموت، ولا هي صليب الرهبان ولا سوط الحسينيين يجلدون به آلامهم، بل هي تفصيل آخر، ربما صغير أيضاً، من تفاصيل لحظات الحرب المهولة، مجرد فعل آخر من تلك الأفعال القليلة التي تقوم بها وانت غير واثق من أنك ستعيش اللحظة القادمة.

لا ترف في الكتابة وسط الموت، ولا متعة في الحديث عن وقع خطواته في النواحي، كما أنك لا تجد في الجلوس في قلب العتمة ضائعاً تحاول أن تلتقط شيئاً مما يعنيه ما يحدث سياحة ذهنية، ولا في التفكير فيما يدور حولك عبادةً. لست وحدك لكنك وحيد رغم كل شيء. فالموت قد لا يتركك تكمل السطر الذي تخطه، كما أن صوت زناناته - رسله المزعجين في السماء- يقترح عليه بقوة أن لا محال فهو قادم قادم وأن الأمر مجرد وقت. وعليه فأنت تعرف أن ما تقوم به بلا فائدة تقريباً، وانك تلهو مثلما تلهو طفلك "يافا" بلعبتها فزعة وهي تنظر صوب السماء عبر النافذة تلاحق عينها الصاروخ الخاطف للحياة في الشارع الخلفي. تسأل نفسك لماذا عليك أن تتحمل كل هذا؟ لماذا عليك ان تفكر

به. الأمل لا يعود أماً حين نساها، الأشياء مثل لمسة الريح لطراوة الفاكهة تحيا بالتفكير وبالمعايشة، فقط تجاهل آلامك قليلاً، تعتمد نسيانها، ستكتشف انها لم تعد موجودة. خذ مشاعرك واحاسيسك، وضع قلبك في صندوق صدى وأقفل عليه بكل ما اوتيت من جحود ونكران.

لكنك الآن تفعل عكس ذلك. تفكر بعمق فيما يدور حولك، تمسك بالتفاصيل من قاع البئر، تخرجها من سبات الأمل الغافي على حواف الروح وفي اتون القلب، إنك تصب بنزناً على نار تأكل هشيم الحياة فيك وحولك، تشعل شيب الرأس الفتّي، وتخرج أسماك العمر من بحر الحياة. تحاصر أنامل يديك بحر الكتابة، تقتل نسيانك الجميل بسكين نهم يتلذذ بقطع الشرايين والاوردة.

تحس بأنك فقط عبر هذا الأمل تتأكد انك حي. كأنك تريد ان تعلن صراخك شارة نجاة من قاع البئر لعل السعأة والادلاء يلتقون صوتك في عتمة الصحراء أو لعل زبد الموج يحمل ترانيم الصدى إلى شطآن وخلجان يكون للروح فيها علامات الحياة. انت تقول أنا لا أريد أن انسى، أريد أن اتذكر، أن احفر اخدوداً في قوقعة الواقع الصلبة تسير في حكايات هذا الأمل، ان اعيد عزف الأغنية للمرة الألف حتى لا تضع ترويدة الأمل في فم الأطفال حين يولدون في بهجة النسيان. أريد أن أقول أنني مازلت حياً وسط الركام اتنفس ويدق قلبي، يعلو ويهبط صدري، وتتحسس أصابعي قسوة الأسمنت يحاصر جسدي، وتدفع قدمي أسياخ الحديد المدببة عن نعومة ساقي. مازلت تفصيلاً صغيراً في تفاصيل الدمار التي خلفتها الصواريخ والبوابات والطائرات، لكنني التفصيل الذي يلمع في وجه قاتلي، يعمي بصره ويدل عليه. مازلت في مكاني لم يخطفني الموت ولا حملني إلى ملكوت أجهل كنهه. انا الشاهد الحي على المجزرة، انا دليل الحياة التي كانت هنا قبل ان تلتهمها الزنانة، انا صديق من رحلوا وحامل حكاياتهم، وانا صدر البيت وعجزه، وانا اول القول وآخره، وانا حدوتة الرواية، وانا سطرها الأخير.

مازلت أرقد هناك في بحيرة الأمل أصبح فيها حتى أصل شاطيء الأمن. لا سفينة لدي ولا قارب صيد حتى أعبّر بسرعة الرصاصة من عالم إلى عالم. مازلت أقف وسط دهشة الموت أعلن أن الحياة أبقى وان النجاة بصعوبة عناقها ممكنة، وانني اليتيم الذي تلذذ رجال ونسوة الحي بتركه يعبط الأمل، وانني المجروح الذي وقف وسط الخلق يتشعبط اطراف السرير لينجو، وانني تُركت في الجب وحيداً دون تنهيدة ألم منهم وهم يسرون بلذة ورضا على طريق الخيانة.

\*\*\*\*

لماذا الكتابة إذأ، خاصة وانت محاط بكل وسائل الموت، وانت كالإسفنجة مشبع ببحيرته، تقطر كل جوانبك شاهداً آخر علي وجوده. لماذا الكتابة إذا لم تكن متأكداً من أنك ستقرأ ما كتبت، وان الحياة ستعطيك فرصة تأمل تلك العبارات التي خرجت منك في كسرات الموت؟ لماذا لا تستمتع بما

تبقى لك من سويغات باللهم مع أطفالك او بتأمل برهة الحياة القصيرة التي تتوفر لديك الآن بدلاً من الجلوس أمام ورقة بيضاء في عتمة الليل والسير على أسطرها حافياً مكشوف الرأس والقلب والعقل، عارياً بأملك وحنك وخوفك وضعفك.

لا إجابة على الإجابة.

فثمة أشياء نقوم بها لأن ثمة حاجة غير مدركة للقيام بها. وليس تفسير الشيء بالشيء الآخر برهاناً على وجوده، بل قد يكون نفيًا له. لكن المؤكد انك حين تكتب وسط كل هذا القتل والانفجارات وصراخ الجيران وزعيق سيارات الإسعاف، ووسط طنين الزنانة وهدير البوارج وفحيح الدبابات، وسط كل هذا فإن ثمة فعلاً ما يشير إلى انك حي وانك قادر على المشاركة في إدارة القرص في الاتجاه المخالف، فكل شيء حولك يقود إلى الموت ويشير إليه ، إلا أنت فتشير إلى الحياة المتبقية وسط هذا التسونامي المستيقظ حولك كل دقيقة. أنت بذلك تقول كلمة واحدة لمن سيقراً ما كتبت بان هناك في تلك المدينة التي ضربها الموت من أسفل ومن أعلى ومن البر ومن البحر، في تلك المدينة التي قست عليها ربح الصحراء وعض البحر نسيم قلبها، ثمة نفوس تتنفس وثمره أياك ترتعش وقلوب ترتجف وقهوة صباح لم تشرب وكؤوس شاي تنتظر الصباحات الطازجة، وشباك لم يرمها الصيادون في البحر، واغنية مازال يدندن بها في الطريق إلى المدرسة - يتواصل اللحن وهو لا يصل، وأن ثمة عاشقة مازلت تنتظر بحرقه وميض جوالها يبعث رسالة من شاب يمسك العمر في عنق الموت. وثمره صورة لرجل وزوجته مع أطفالهم الخمسة يبتهل إلى الموت كل ثانية أن لا يلمس أي منهم وان تظل الصورة حياة وليست مجرد صورة.

\*\*\*\*

هذه النصوص، في هذا الملف، تقول كل ذلك. تقول بان الحياة ممكنة ليس لأننا نمارسها ما استطعنا لها سبيلاً، وليس لأنها جميلة وممتعة، ولكن لأن الحياة مثل شعلة اللهب تدل عليه، وهي شامة الفتى تدركه امه وهي فانار الميناء. هذه النصوص على اختلافها وتنوعها في اشارات جديدة من أرض الحياة هنا في غزة حيث يصارع الموت نفسه من أجل أن يقضي على كل شيء حتى على ملك الموت نفسه وعلى إسرافيل حتى لا يفيق الناس بعد ذلك. الموت يلتهم كل شيء حتى أسنانه الحادة يلتهمها، حتى عينيه الموعلة في زئير الرعب يلتهمها. لا يبقى على شيء إلا هذه النصوص.

هذه النصوص تسجل الحياة. الفن ليس محاكاة للواقع وفق الفهم الأرسطي، هنا يصح الفن - الكتابة- الواقع الحقيقي. لا واقع آخر غير هذه النصوص ولا جملة مفيدة واحدة في كتاب الموت الذي تبرع وكالات الانباء في قراءة سطوره كل لحظة كخبر عاجل من غزة إلا تلك الجملة الصغيرة الحادة المفجعة ولكن المليئة بهجة البقاء التي تخطها هذه النصوص.

لا شيء يدل على جوهر الحياة وغناها أكثر من تلك الحفلة المتواضعة التي يقيمها أحمد يعقوب لطفله فيما شقته في أبراج المقوسي في ضاحية النصر بمدينة غزة تترنح من ثمالة القصف في كل ناحية. لحظات الفرح تلك إذانة لبحث الطائرات المحموم عن الموت.

"حان وقت الاحتفال مع خمسة أشخاص، (نحن العائلة..) وفي وقت التصوير، انفجر صاروخ بالقرب من المبنى. (في الصورة يبدو طفلي الأصغر وهو خائف جدا). وبدلاً من غناء عيد ميلاد سعيد لك يا ليندا، بدأنا بغناء أغنية تيمون ووبومبا stand by me المعروفة والمحبوبة لأطفالي " هكذا تحتفل العائلة بالحياة رغم وقع الموت.

ولا أكثر أماً من بروفة النجاة التي تقوم بها رنا الشابة التي لم تبلغ السابعة عشرة في حال باغتهم الصاروخ. بروفة الكاتبة الشابة على الإمساك بكل تفاصيلها فقد يكون امامها ٣٩ ثانية لأن تنجو عليها أن تتأكد من أنها تستطيع فعل ذلك. لأنها لا تريد ان يباغتها الشيطان وهي ضعيفة في مناجاة مؤلمة. " أتمنى ألا يرى صديقي الذي يرقد شهيداً في قلبي، وألا يرى البسمة التي ستذكرني فيما بعد بالبكاء، أتمنى ألا يراني وأنا أبكي جثثاً وموت، أتمنى ألا يراني عاجزة عن حصر ما أريد في حقيبة واحدة وأنسى أن أخبئ ما تبقى في روحي في فضاء كبير".

إنه ذات الاشتياق للحياة بعاديتها ونعومتها وانسيابيتها التي تفتقدنا منال مقدار وهي تشتاق لصوت بائع الحلب بترنيمته الشهيرة حين يدعو الأطفال للشراء منه. منال بعالمها الفطري تكتب حياتها كما هي بلا تأمل ولا تفكير فالحياة تباغتها كما الموت، لكنها لا تخطب ودها بل تلوح لها من بعيد حيث تلتقط أنفاسها الأخيرة. وتناجي منال الله قائلة

[يا الله... هل تصلك رسائلي؟ هل تسمع صوت بكائي المختنق؟ هل تدرك ضعفي وقلة حيلتي؟ يا الله لماذا لا تصدقني حين أتوسل إليك: لا أريد الحرب ولا أريد لحياتي أن تنتهي؟!]

تلك الحياة التي ستكون رغم كل شيء تشعر بها هند جودة حيث ستجتاز غزة عقبة الموت. تقول هند لأصدقائها

"أشعر يا أصدقائي أننا سنعيش وسنملاً غزة التي بقروا بطنها شعرا وموسيقى وحياة.

ستقشر غزة الحزن عن جلدها يوماً فآخر"

لذا فهي تطلب من قلبها أن يغني لها

"غن لي

دع صوتك يعبر إلى حلمي

يجمع ابتسامات الصغار قبل انفجارهم الأخير

ليكملوا ألعابهم والحكايا."

أما حين تعيش في علبة الحرب ويصير عليك عصياً أن تفلت من تروس خلائها فالكثابة تصير حبالاً تتسلقها لتخرج من القاع كما يود ان يفعل وسام عويضة  
"لا حبال لأتسلقها، أنا في قاع علبة الحرب، خلاط الدم الذي يقتل كل ما تبقى من إنسانيةٍ وعقلٍ، الحرب خارج إطار المعقول".

ويسجل سليم النفار بعجالة الواقف في وجه الريح تريد أن تقتلعه شذرات من يومياته في الحرب حيث نرى جاره محمد الذي يندفع لانقاذ خطيبته هيفاء في حي الشجاعية فتباغته الطائرة تسلبه الحياة. يخرج النفار بعد سبعة وثلاثين يوماً مضت سلحفاة ودهراً فيجد ان "رائحة الموت تفوح في كل الارض... وركام البيوت المدمرة لوحات سوربالية في متحف النازية المعاصرة، فهذه امرأة ذاهلة تحدث نفسها عن فقد عزيز، وتلك شاردة تطارد ظل حبيبها الغارق بدمه، وتسأل نفسها: هل يعود؟؟ واطفال يفتشون بين الركام عن مقتنياتهم الشخصية.. عن ألعابهم، عن ذكرياتهم تحت الدمار، ولكنهم يتسمون".

\*\*\*\*

جل هذه النصوص هي مناجاة شخصية كما يمكن أن نتبين من متونها، وهي كتبت في لحظات كان يمكن لها أن لا تكتمل، كما لم يكن كاتبها فيما سيفعلون بها بقدر حاجتهم لأن يمارسوا طقس الحياة عبرها. لذا فإن بعضها تميز بالتدفق والانسحاب السري والاندياح في أفق مفتوح ومتتابع فيما خرج بعض آخر على شكل عبارات قصيرة وفقرات مبتورة. كما ان بعضها ظهر شعراً وكثيرها نثراً واختلط الجنسان في دروب عدة حيث أن هاجس الكتابة أكثر الحاحاً من شروطها.

كان الكثيرون يكتبون على صفحاتهم على الفيس بوك يسجلون ما يدور حولهم او يصفون مشاعرهم بكثير من الاجتهاد لذا فإن العفوية عالية في الكثير من هذه النصوص والتشارك والتخاطب يتوفران في بعضها حيث القارئ الافتراضي دون إشعار للكاتب يقوم بالتفاعل مع هذه الكتابة. كانت الكتابة التي انتجها هذا الواقع في الكثير منها اكثر قسوة من الواقع ولم تكن هذه الكتابة إلا إيغلاً في دهاليز هذا الألم الذي خلفه لذا فهي، أي هذه النصوص، تحكي وتسرد قصصاً عن الحياة وعن الموت، عن الحب وعن الكراهية، وهي تروي ما رأي وما سمع وما خبر وما لمس كتابها، دون أن تفسره ودون ان تشرحه. حتى في لحظات التأمل العميقة التي تنكشف في سهول هذه النصوص فإن ثيمة الموت والحياة تظل مهممة لارتباطها بمدى وعي الكاتب او الكاتبة بوجوده او عدمه.

وإذا كان لهذا الملف من غاية فهو أن يكون شاهداً آخر على الجرف الساقط على غزة من فوهة البركان.



## عيد ميلاد شمعة واحدة... ومطر من الصواريخ

أحمد يعقوب

ليندا، ابنتي طيلة شهر كامل، وهي تفكر بعيد ميلادها، وتتخيله. وتقدم لي كل يوم خطة تعدلها في اليوم التالي. ليندا أرادت أن تقيم حفلة كبيرة، أرادت أن تدعو تلميذات وتلاميذ صفها كله والجيران وأصدقاءها وصديقاتها الذين يشتركون معها في تدريبات الموسيقى والجمباز. أرادت ان اشترى الهدايا لكل المشاركين في الحفلة، كتقدير لطيف لمشاركتهم، ولأنها سوف تتلقي الهدايا منهم. ليندا ارادت شراء ١٠٠ بالون من جميع الألوان والأحجام، وأن اقوم انا بنفخهم... وكانت ترغب في شراء فستان جديد موضة الفلامنكو، وأن تصفف شعرها على الطريقة الفرنسية غارسون (garçon). وبالطبع أرادت كعكة مع صورة لها فوقها مصنوعة من الكريم وبنكهة الكراميل. أرادت عدة أنواع من العصير. وموسيقى لشاكيرا والفلامنكو. وارادت وارادت وارادت..

ولأني كسول وأؤجل الاشياء الى النهاية، قلت لنفسي: " سأحضر لها ما أقدر عليه من طلباتها في يوم واحد قبل تاريخ عيد ميلادها". ولكن فجأة، انفجرت الصواريخ في سماء غزة، وصنعت في الارض زلازل وبراكين.

طائرات ال F١٦ مع طائرات ال Dron، بدون طيار، في ذهاب واياب ترمي وابلا من الصواريخ.، وكذلك أطلقت حماس الصواريخ. وبدأت الأجواء تفضي الى كارثة.

. نحن في غزة نعاني من نقص الكهرباء لسنوات، ولكن الان مع عدم وجود الإنارة فإن المناخ الحربي يخلق صورة شبكية للمدينة. غياب الكهرباء، يعني عدم وجود الماء، ويعني أنك سوف تستخدم

الادراج نحو الطابق الحادي عشر حيث أعيش مع عائلتي قريبا من شاطئ البحر شمال مدينة غزة. عدم وجود الكهرباء هو غياب الحياة، والآن، مع التفجيرات، هو تدمير حياة الكثيرين. كانت ليندا حزينة جدا، وتبكي لمجرد أنها خسرت حفلة عيد ميلادها، وتسالني "ماذا أقول لصديقاتي وأصدقائي؟" وتبكي أيضا الهدايا المفقودة. وعدتها أن نفعل ذلك عندما تنتهي هذه الكارثة، وسوف نفعلها تماما كما أرادت. ولكنني قلت لنفسي. "إن نجونا".

غالبا ما يؤسفني أنني تزوجت وأنجبت أطفالا.. و أتساءل "ما ذنب هذه المخلوقات؟" لكنني اعود وأقول. "الشعوب التي تحت الاستعمار، ألا يجب أن يكون لها أطفال؟".

الضحايا الحقيقيون هم الأطفال، كم من الخوف يعانون؟ كم من الصدمات يتعرضون؟، كم من الذكريات السيئة يخزنون في ذاكرتهم؟ وفي اللاوعي. وما نوع الشخصية التي ستكون لهؤلاء الأطفال مع كل هذا العنف الذي يمتصونه؟.

أطفال الحي، لا يلعبون بطرق أخرى غير لعبة الحرب؟ أنا نفسي عندي طفولة مليئة بالمعاناة، نتيجة لعدة حروب عشتها، وقررت القراءة والبحث وبعده لغات وكان لسفري إلى مختلف البلدان أن يعلمني التعايش مع الثقافات المختلفة، وكان علي أن أجادل طويلا وكثيرا، وأن أدخل في تجارب مختلفة. وثمة أشياء كثيرة كان علي أن أخسرهما، كي أصل إلى بدايات التسامح.

في كثير من الأحيان لا أعطي أجوبة على أسئلة أطفالي وعمما تقوله الصور المأساوية التي يتم تمريرها على شاشة التلفزيون، وأقول لهم: "سوف أشرح لكم في وقت لاحق". لكن الأحداث على الأرض تضعني في مواقف محرجة مع أطفالي. فأطفال الحي، و المدرسة. يتحدثون عن كل شيء، ويعرفون القصة المأساوية كاملة.

أدونيس، ابني الأكبر (١٠ سنوات) يقول لي؟ "لماذا علي الإعتياد مع الحرب لماذا؟، لماذا لم انولد في بلد آخر دون حرب؟ ولماذا لا يمكن أن نساfer؟ لماذا اسرائيل تغلق الحدود؟ ولماذا يهاجموننا؟ وما السبب في أننا نهاجمهم.. ولماذا... ولماذا، ولماذا؟

نديم، طفلي الأصغر (٤ سنوات)، يفهم ما كان يتحدث به أدونيس، ويضع يده اليمنى قرب رأسه. ويبدأ بتريد النشيد الوطني الفلسطيني، بلغته الطفولية غير المكتملة بعد.. اما ليندا فإنها تصر على حفلتها.

المدينة مغلقة، والشوارع فارغة، مشهد محزن للغاية ويعطي الشعور بالمهانة. مولد كهرباء العمارة يعمل بنظام متكشف "حربي". ثمة صور تلفزيونية لضحايا القصف في مختلف أنحاء قطاع غزة،



الغالبية العظمى من الأطفال تحت الأنقاض، والبعض متفحمين، وآخرين تناثرت اجسادهم الى قطع وأشلاء. لا أريد لأطفالي رؤية هذا. فأغبر القناة، لأن الدرا ما الكبرى كانت عندما ذكرو أسماء الضحايا، احدهن هي صديقة ليندا، وكان اسمها على قائمة المدعوين لعيد الميلاد. زوجتي تمكنت من إعداد كعكة ،فلقد كان لدينا بعض المكونات في البيت. مع شمعة واحدة مخصصة للانارة.

ليندا غيرت تعاليم وجهها عندما رأتها، وبدأت تبتسم. الأطفال لديهم معجزة النسيان...فأن يكونوا سعداء فتلك غايتهم التي يبحثون عنها وحتى لو كانت جزئية ومؤقتة فإنها تجعلهم ينسون كل المعاناة.

وأخيرا حان وقت الاحتفال مع خمسة أشخاص، (نحن العائلة..) وفي وقت التصوير، انفجر صاروخ بالقرب من المبنى. (في الصورة يبدو طفلي الأصغر وهو خائف جدا). وبدلا من غناء عيد ميلاد سعيد لك يا ليندا، بدأنا بغناء أغنية تيمون وبومبا stand by me المعروفة والمحبوبة لأطفالي ، في عدة حروب ومنذ عدة سنوات، تعلمت أن ألعب دور المهرج لأولادي، فعندما يثور انفجار، ويصابون بالهلع، ويقفزون من أماكنهم بوجوه شاحبة، وعيون بلا دموع، وأفواه مفتوحة دون صراخ، وبعيون مليئة بالحسرة، ينظرون الى وجهي وكأنهم يقولون: "بابا افعل شيئا لأجلنا " أنا نفسي لا أعرف ما يجب القيام به، وأنا نفسي لست بطلا، وكشخص أنا خائف أيضا، لكن علي تغيير المسألة إلى ملهاة والبدء بالتهريج، كي احافظ على صورة الأب أمام أبنائي، لأول مرة في اول حرب خرجت معي اغنية stand by me ، لأنها تبدأ ب " دوم دوم دوم... dom..dom..dom" وهم يرددونها بأصوات عالية وصاخبة وساخرة..وبالتالي كانت بمثابة العلاج النفسي للأطفال لإخراج الغضب من دواخلهم. ولم نغني happy birthday to you ، ولم نضع موسيقى الفلامنكو، أو شاكير،أما كانت اغنية... تيمون وبومبا " قف الى جانبي stand by me "...

ليندا أتمت ثمانية سنوات من عمرها، فترة زمنية عانت فيها من عملية الرصاص المصبوب و كارثة عام ٢٠١٢ وجميع المعارك من ٢٠٠٦ حتى اليوم. كم حرب اخرى ستعيشها ليندا إذا لم ينته هذا الصراع المزمّن لأكثر من ستين عاما؟

ليندا تصر:عندما يتوقف القصف وينتهي كل شيء فإنها ستقيم حفلة عيد ميلادها كما تخيلتها وكماخطت لها. وأنا أقول لنفسي: " ان نجونا "

٢٠١٤ غزة



## نحن أبناء الموت

أسماء الغول

هل تستطيع أن تبقى حياً؟

ابقَ حياً إذن، راوغ الموت، لا تجعله يغلبك، لا تفكر به، لا تتخيل هذه الجثث لأطفالك، اقفز عن خوفك، لا تنتظر تهدئة، ولا تأمل بالنجاة، ابقَ حياً فقط.. لا تفكر باللغة.. لن تجدها، لا تبق في بيتك.. ابحث عن المكان الآمن في زمن الحرب..

\*\*\*

المشهد يبدو بتلك البساطة والفداحة: انه لحم محترق.. لا معالم إنسانية سوى صندل في إحدى الأقدام، شعرت أني أهتز، الأرض تتمدد من تحتي، كان اليوم الأول في الحرب حين تواجدت في تلك الزاوية بالصدفة من صالة المستشفى، لم تنقذني سوى يد الطبيب التي وضعها على عيني، منذ تلك اللحظة بدأت أعرف على روائح جديدة سأكتشفها بعد ذلك.. لكنها هذه المرة كانت اللحم البشري المحروق مخلوطة بالبنزين.

\*\*\*

في الحرب تصبح الذاكرة واحدة، فتقسم أن هذه العائلة استشهدت في حرب ٢٠١٢ ولكنك تكتشف أنهم قضوا في حرب ٢٠٠٨، وتؤكد جازماً أن ذاك المنزل قصف من قبل في ٢٠٠٨ ولكنك تكتشف أنه في ٢٠١٢، ثم تقول أن هذه الطفلة استشهدت في حربنا هذه ٢٠١٤ ولكن الأيام تتماهى وتطول لتصبح ثعباناً واحداً فلا تتأكد هل في الحرب قبل التهدئة أم بعدها؟.

\*\*\*

لا أرتدي درعاً واقباً، ليس عندي واحد، ولم يكن عندي في تغطيتي لثلاثة حروب، فكرت أن الصحافي خالد حمد مات بقذيفة قتلته وهو يرتدي هذا الدرع في حي الشجاعية، فمن أي موت سيحميني؟ انه مخصص للقتل الأنعم الأكثر منطقية وربما آدمية.. لرصاصة، لقبلة يدوية.. وليس لقذائف وصواريخ .. تهبط عليك لتنهشك

\*\*\*

في الحربين السابقتين واجهت مشكلة مع الخوف.. في هذه الحرب أشعر أن الخوف انفصل عني ومشي بعيداً.. كنت أرتعب من فكرة أنك حين تموت لا تعرف أنك تموت، تموت فقط.. فلم يرجع إلينا أحد الشهداء ليقول لنا عن الموت قصفاً.. هل يختلف عن الموت عادياً؟.. هل يتشابهان؟.. هل نكف عن القلق على أبنائنا وإيجار المنزل، ودين الدكارة؟.. وإذا كنا أحياء عند ربنا كيف لا نقلق على أحيائنا من بعدنا.. هل هناك درجة من الرضى والراحة لا تجعلنا نقلق؟.. هل نصل إلى السعادة الكاملة فنعرف أن أهل الدنيا مثقلون بخوفهم وحياتهم وحربهم فنشفق عليهم؟.. يبدو أنني مازلت أواجه مشكلة مع الخوف.. مع الموت..

\*\*\*

الصورة من وراء الكاميرا مضخمة.. مهيبة.. تفخم اللحظة، لكن في الواقع إن جسد الشهيد كتلة صماء تخضع للفيزياء تماماً وليس للحياة التي نقيسها عليه.. لم يعد يحتاج إلى ملابس أو عطر أو استحمام.. يموت الإنسان وتموت معه كل الحكايات، حين تراهم في الثلجات أو على أرضيات المستشفيات أو في المنازل المهذومة.. تبدو نهاية حاسمة حازمة ليس كما تشعرها في الإعلام بمقدمات وتمهيد.. الموت لا يسألك رأيك حين يقترب منك.. تنتهي.. هكذا دون رحمة من أحد ولا يبقى منك سوى صورك أو حسابك على الفيسبوك.. ولا يشفع لهذه قسوة حينها سوى الإيمان

\*\*\*

السماء تختلف.. طعم ريقك يختلف.. رائحة المكان تختلف.. مشاعرك الأولى التي عادة ما كانت تجتاحك حين تعود لمدينتك الأم وفي حالتها هي رفع يصبح التعبير أمامها عاجزاً.. كان يوم السبت الثاني من أغسطس بعد الجمعة السوداء التي قصفت فيها المدافع المدنين بعشوائية.. اكتشفت أنني أحفظ الكثير من الأدعية وأنا أرددها أثناء توجهي إلى هناك مع ثلاثة صحافيين وهذه المرة أرتدي درعاً أعطاني إياه السائق الشجاع رغم أنني نبهته أنه ليس وقت النبالة الآن.

مجرد دخولنا تم قصف منزل عياد أبو طه وقتلت الطائرات أربعة منهم، توجهنا لمستشفى

الكويتي رأيت الطفل رزق أبو طه (عاما واحدا)..تشعر أن سخونة الحياة واللعب والضحك لا تزال عالقة بجسده..كنت أول من أبلغت أمه عن استشهاده..شعرت أي لو كنت بمكانها لن أقبل إخفاء الأمر عني..أمسكت صدرها صارخة بي "كيف بدو يرضع هلقيت؟"..شعرت بالفجيعة وأنني لن أتلو الأدعية في المرواح، فبعد ما فعلته بنفسي وبها لن أفجع بموتي..وهذا ما حدث لم أمت ولكني رددت الأدعية..الإنسان ضعيف حتى في يقينه، مكابر حتى في ذنبه.

\*\*\*

ماتت هنادي وأسماء..ابنتا عمي ومعهما عمي وزوجته وابنيه محمد ووائل وثلاثة من أبناء وائل ملك واسماعيل ومصطفى بعد قصف صواريخ طائرات الاف ١٦ منزل المخيم الاسبست بصاروخين، ومات معهم منزل الذاكرة والطفولة والوعي الأول والانتفاضة الأولى في مخيم بينا برفح.. منزل جدي جمعة الغول الذي ولدنا جميعاً أحفاده من جيل الثمانينات فيه..

ماتت هنادي وأسماء دون أن أنفذ وعدي لهما "بدنا نطش في غزة"، لم يكن الحلم الشخصي أكبر من سعادة بسيطة تتغلب على الفقر والهم..الكل يقول أنهما الآن في "طشة" السعادة الأزلية فيخف الألم وأتمنى لقاءهما لأرى الابتسامة المفتوحة على الأبد.



## نصوص الحرب، غزة ٢٠١٤

هند جودة

٩ يوليو

في غزة،

لا يكفي أن تسد أذنيك كي لا تسم

ولا أن نغمض عينيك كي لا ترى

كل الأصوات واضحة

كل الأماكن متاحة

والصواريخ تقتحم عمرك بلا خجل

كلها تخترق روحك بقسوة وحرقة المجهول!

١٣ يوليو

أقرب قصف لمنزل من بيتنا منذ بدء الحرب حدث قبل دقيقة

يا الله على حجم الصوت وطعم الغبار وانخلاع القلب

## ١٩ يوليو

ثلاث ساعات من الكهرباء في اليوم من الآن فصاعدا  
غزة تعيش على طريقة العتمة ببطارية ضعيفة تسلط على قلبها بعض ضوء  
قلبها الذي أصبح يتقن لغة العمى جيدا.  
ويستعمل بصيرته جيدا أيضا

الليل في غزة له طعم انتظار عجيب  
وكل انفجار يخطوك يصيب غيرك بلا شك  
وكل عتمة تحيط بك على درج البيت تعني أنك ستلمس خطواتك وتشحذ سمعك لاتجاه القذائف  
وأنك تتشبه جيدا بروحك وجسدك مع كل اهتزاز يصيب أعمدة بيتك

غزة ترتجف على وقع الانفجارات ولأنها تلسع المحتل في عينيه، في عينيه تماما،  
يتخبط ويأكل أطفالها

## ٢٤ يوليو

غن لي  
ارفع صوتك الطري  
على كفين من قمح البلاد  
ارفعه رغيفا  
يعجنه النحيب

غن لي  
دع صوتك يعبر إلى حلمي



يجمع ابتسامات الصغار قبل انفجارهم الأخير  
ليكملوا ألعابهم والحكايا

غن لي  
اصعد سلم الموسيقى  
درجة درجة  
ثم خذ بيدي إلى آخر الحزن  
خذي بعيدا  
إلى أول الحنين  
غن لي  
اعرف على كف الموت لحنك  
ثم تعال حيًا وغن  
دائمًا تعال حيًا وغنّ

## ٢٨ يوليو

كانت ليلة الأمس هادئة للمرة الأولى منذ واحدٍ وعشرين يوما  
جاء الصباح على غير العادة هادئا أيضا  
صور البيوت المهذمة المسواة بالأرض لم تغادر خلفية تفكيري  
كانت الشجاعية تبكي رمادها، تبحث عن الجدران التي ما عاد لها بديل سوى الفراغ والجثث  
تركنا نحصي البيوت التي ما عادت واقفة بعد ومنتشل الموتي من تحت الركام،  
تركنا لصدمة الخراب، وفجائع الحكايات والقصص التي على الذاكرة أن تخلدها جيدا، كي يظل  
الجرح عميقا ونازفا ولا ينسى  
ورغم كل ذلك الغضب الذي صبه آلة الاحتلال على عظام الشجاعية ولحمها وعلى أعصابنا التي

تلقت تلك الصور إلا أنني لم أستطع منع نفسي من الابتسام حين رأيت دبابتهم المعطلة وخمنت أنها قريباً ستكون تذكارة للحرب في ناصية أحد شوارع غزة.

وأنا سنمر عليها مؤشرين بأصابعنا للصغار وقد نلتقط إلى جانبها الكثير من الصور التذكارية وممناسبة انتهاء رمضان وأن العيد غداً وأن غزة التي أخذت صورتها مع الموت هذا العام تحاول الابتسام فتبدو أسنانها مكسورة وابتسامتها حزينة إلا أنني سأقول كل عيد وغزة أكثر حياة وصلابة واحتمالاً، كل عيد وغزة تمسح دمعها وتبتسم

### ٣١ يوليو

ساعات طويلة بلا كهرباء بعد استهداف مخازن الوقود قبل يومين والآن ولساعة واحدة قمنا بتشغيل مولد كهرباء صغير لشحن بطاريات الأجهزة والتواصل مع العالم وقبل ساعات أيضاً أعلنت شركة الاتصالات عن احتمالية انقطاع خدمة الانترنت والاتصالات لو نفذ مخزون الوقود وذلك خلال ثلاثة أيام

أتمنى أن لا يحدث ذلك ، وأن تتوقف الحرب قبل أن نفقد حتى القدرة على توصيل صوتنا إلى العالم يعني أن نموت بصمت وأن نصرخ بلا أذان

اللعنة

### ٣ أغسطس

غزة تشتاق الحياة  
شوارع المدينة تفتقد صخبها  
وبحرها الذي يرمي على شاطئها الطويل يشفق صياديه وعشاقه  
وأنا أشتاق عصافير غزة لا تطير فزعة،  
وأن تعود لتنقر النوافذ وتثر الزرققة  
غزة تشتاق الحياة  
وتريد أن تحتضن بيوتها المحطمة

تريد أن تقبل الشهداء مرة أخيرة وإلى الأبد.

## ٤ أغسطس

أشعر يا أصدقائي أننا سنعيش وسنملاً غزة التي بقروا بطنها شعرا وموسيقى وحياء  
ستقشر غزة الحزن عن جلدها يوما فآخر  
ستبكي طويلا حين تفتقد أطفالها على الوجبات الثلاثة وستفقد دفتهم في فراشهم أو بين ذراعيها  
ستكنس غزة رمادها  
وستكون سنديرا العصر الحديث التي لا تضيع حذاءها لأنها بكل بساطة حافية القدمين  
غزة التي ترشح دمها في ملابسها، تموت نازفة وتدفن أبناءها قطعاً لا تلتئم  
غزة التي مشينا في شوارعها ضاحكين تنتظر خطواتنا من جديد وقوارب الميناء التي احترقت تنتظر  
أصابعنا لزبت عليها ونبتسم رغم دمة في القلب  
سنحيا وسنلتقي وسنصنع حياة تليق بالمدينة التي لاتستحق إلا أن تفرح مرة وإلى الأبد

## ٥ أغسطس

أن تغسل امرأة في غزة  
يعني أن هناك ماء وكهرباء وحبل غسيل طويلاً، وأنها تعيش حياة عادية في يوم عادي وهذه أمنية

## ٨ أغسطس

الثامنة في صباح الجمعة  
هل ستأتي الحرب من جديد؟  
هل سنعود نتفقد ابتسامات الصغار بعد كل قذيفة لنرى أيها نقص وأيها لم يكثر  
وأيها استبدلها بنظرة دهشة تفتقر القلب؟  
أيتها الثامنة،

أنتظر مرورك كما تفعل عاشقة غير اعتيادية في بلد غير اعتيادي  
تتوَجس أن يخطف الصاروخ حبيبها الذي قال أنه سيأتي في الساعة الثامنة، الساعة التي لم تأت بعد

في الثامنة

سنصمت جميعا

وستتجه حواسنا إلى الفضاء البعيد

آذاننا ستستعد لتعيد اكتشاف القذائف التي تقترب

أو تبتعد

وحلوقنا ستجف قليلا قليلا ونحن ننتظر ما بعد الثامنة

في الساعة القادمة

من سيقف في ميناء غزة البعيد

ليلوح للمدينة التي تتشاءب نعاسها ولا تمد يدها الجريحة

إلى فمها لتعيش صباحا عاديا

وتستعد للصلاة وهي تتوضأ بالصبر

٩ أغسطس

في الحرب

أنا امرأة تنقص ولا تزيد

تنقص طفلا

تنقص بيتا

تنقص شارعا كاملا

تنقص حلما أو اثنين

وفي الحب

لم أعد أعرف شكل الضحك  
منذ ذهب فارس الليل الأخير  
إلى شارع الضوء وحيدا

### ١١ أغسطس

وكانت غزة اليوم سمكة تعود إلى الماء  
كانت امرأة فاتنة مخدوشة الوجه  
تغتسل في الشمس  
لا تخجل من جروح ركبتيها وعضة في القلب!  
كانت غزة  
تمشي في الشوارع برقة فتاة  
وسرعة مقاتل  
تتفقد النوافذ وتشهق للحطام  
تلتقط صور الخراب  
وتفرح بمن تبقى على قيد الحياة  
هكذا سمعت خطى المدينة تهزول في الطرق  
تكبر للمآذن المحطمة  
تحصي أطفالها  
تمسح رؤوس اليتامى ودمعهم  
وهي تلملم ثوبها الممزق فوق جسدها المحروق

### ١٣ أغسطس

أفكر في البلاد التي وعدت بالشمس

وأشرفت نوافذ مكسورة وأضرحة  
ثم حلمت بالرجوع  
فأفقدت الحنين رشده وما عادت  
بلاد تمعن في الذهب  
تمنح أساورها لأول العابرين مقابل بندقية  
وتشرب مايرشح من دمعها  
تلك البلاد التي تخترع حياة على خلفية المأساة  
فتبدو الصورة لاذعة  
وصعبة على البلع

### ١٩ أغسطس

سأقف على الطريق التي تؤدي إليك  
ورودي في يدي  
من ابتسامتي تنبت مدينة تضحك،  
وأشجار قلبي تملؤها العصافير  
سألوح لرصاصك المنتظر  
وأنا أعرف أنه لا يخطيء الطريق  
وأنا أعرف أن عينيك تقنص جثثهم التي تتربص بي  
أنا المدينة التي تنتظرك بالملح والشمع  
وأرغفة الحب المدورة  
أنا المدينة التي تغسل البحر كل صباح  
وتقبّل النوارس  
أنا غزة

## بروفا للنجاة

رنا مرتجى

### الشیطان

أتمنى ألا يراني الشيطان وأنا ضعيفة كما الآن، أتمنى ألا يرى صديقي الذي يرقد شهيداً في قلبي، وألا يرى البسمة التي ستذكرني فيما بعد بالبكاء، أتمنى ألا يراني وأنا أبكي جثثاً وموتى، أتمنى ألا يراني عاجزة عن حصر ما أريد في حقيبة واحدة وأنسى أن أخبئ ما تبقى في روحي في فضاء كبير، أتمنى ألا يراني وأنا أرقص في العتمة وأخون الحرب واثقة بأني لا أخون الذين اشتروا تذاكر سفرهم إلى الله، أتمنى ألا يأتي الشيطان ليشاطرنى قلب أمي لتزغرد ومن ثم تبكي لسنين ، أتمنى أن يفهم الشيطان أن لا أحد يلصق العار بمدينة رسخت صور العذراء في قلوب قاطنيها، أتمنى ألا يخطر الشيطان ببال الأم التي تبكي ابنها في غرفته التي تضم بندقيته وكوفيته وقيمه الجديد ورسائل حب المراهقة ورغم ذلك فهي لم تعد تضم روحه! أتمنى ألا يأتي الشيطان مشياً على الأقدام محطماً خوفي بأخذي إلى الله، سأحمل الخوف لا تقلقوا يا رفاق ولكني لا أريد الذهاب إلى الله الآن!

### صاروخ إرشادي

٥٣ ثانية أو أقل، وإن كنت تملك حظ الأنبياء يمكنك أن تضع الاحتمال الذي يقول "أو أكثر" في رأسك: كتعريف بسيط لما يسمى صاروخ إرشادي: هو كلمة السر لأبواب جهنم في سيناريو يوم القيامة اليومي في غزة.  
ماذا ستكفي ٥٣ ثانية لأفعل يا الله؟ حسناً، لقد اعتدت الاتكال على نفسي في كل الأمور، منذ بداية

الحرب حضرت حقيبة تضم قليلاً من ملابسها التي أحب والتي لم أرتديها بعد، وبعضاً من الكتب التي احترت في أمر اختيارها في بداية الأمر، وقررت في النهاية أخذ بعض التي تحتوي على التواقيع والإهداءات والتي مازالت على ال "تو ريد ليست"، لم أنسَ شهادات تفوقى المدرسية وشهادات الإنجازات الصغيرة والكوفية التي أهداني إياها صديقي المقدسي خلال زيارتي البيتمة إلى المدينة خلال طيلة فترة حياتي، لم أنسَ تذكاري صديقتي ربما التي أهدتني إياه قبل سفرها بأيام، وبعض أوراق المحادثات خلال حصص الدوام المدرسي وبعض الرسائل الأخرى مع أصدقاء آخرين، واتسعت الحقيبة بعد عناء طويل لرسائل المعايدات وبعض ألبومات الصور والهدايا أيضاً.

لقد جنت، لا أخفيكم خجلي من البوح بذلك ولكن هذا ما حدث، لقد قررت عمل "بروفا" لما قد يحدث إن تلقيت صاروخاً إرشادياً فوق رأسي وأنا نائمة ليلاً، لأعرف كمية الأمور التي سأتمكن من القيام بها، قمت بتثبيت "التايمر" وبدأت الأفكار المفزعة تتضارب في عقلي، هل سأصرخ أولاً ليستيقظ أخي الصغير الذي يشاطرنى الغرفة والذي لا يعرف النوم إلا بوجود إضاءة - بينما أنا لا أجيد النوم بها وأعاني بسببه منذ وُلد وإلى هذا الحين- مما يجعل النوم أصعب عليّ خلال فترة الحرب بوجود أصوات القذائف والقصف المتواصل بالإضافة للإضاءة أيضاً. هل سأرتبك وأنسى الحقيبة؟ هل سأرتبك أمام أمي التي لن تكف عن الصراخ بأهمية العجلة وبأنني سأسبب لهم المصائب كما هي العادة دوماً بسبب كوني بطيئة وأشبه بالأموات بتنقلاتي؟ كدت أجن وأنا أضع الاحتمالات المختلفة لولا أن أمي قاطعت عليّ خيالاتي مخبرة إياي بأننا سنقيم عند عمتي قليلاً لأن منطقتهم آمنة أكثر.

بعد أن عجزت عن حصر ما أريد بحقيبة واحدة، و بعد أن عجزت عن وضع سيناريو واضح لما سأفعل لو سقط صاروخ إرشادي بالقرب من منزلنا، نسيت بأني قد لا أستطيع حصر روعي في فضاء هذا الكون الكبير، إن سقط صاروخ عليّ مصادفة وأنا أركض هاربة، أو إن لم يتمهل الطيار بإنزال الصاروخ الذي يتبع الإرشادي قليلاً..

## موسيقى

هذا الحانوتي الذي لا يكف عن الصراخ بازدياد عدد الشهداء يجعل الحرب أكثر قسوة ووقع الأخبار أشد وجعاً، تساءلت ماذا سيحدث لو أنني أستمع للموسيقى بدلاً من مشاركته في إحصاء عدد الشهداء؟ وبدلاً من إحصاء عدد الغارات والطائرات والصلوات التي يتلوها كبار السن والصرخات التي يطلقها الرُضع؟ هل سأخونهم بفعلي ذلك؟

في الحرب، أعني في هذه الحرب -سأكمل السابعة عشرة بعد أيام و عشت ثلاثة حروب بخطوط سير



مختلفة- أقلعت عن عادة إدمان الراديو واستمعت للموسيقى، أتمنى أن يعلم الشيطان أنني لم أخن الذين اشتروا تذاكر سفرهم إلى الله والذين ينتظرون دورهم في الطابور المكتظ، بل خنت الحرب فقط.

## حياة

أخشى ألا أعود إلى حياتي بعد الحرب، للأسف لا يجمع ذهني أي علاقة بين مصطلح الجمال وغزة، اللهم إلا ذاك البحر الذي يكفيني عبقه لأكتب الأشعار إلى الأبد. حسناً، الآن هذا البحر يعبق برائحة دماء الذين كانوا يلعبون الكرة على شاطئه وأخذهم الشيطان إليه بعد أن ضربهم بصاروخ من آله التي كانت تحوم في السماء التي لم تعد تكتظ بالملائكة بعد أن قرر الله أن يسلط جُل غضبه الأبدي على بقعة غزة من العالم فقط.

عفواً، ولكن كيف سأعود إلى حياتي وأنا أشعر بالذنب لأني حية وأتأنس إلى هذه اللحظة؟ -هذا وقد نفيت خلال طرحي للسؤال احتمال موتي خلال الأيام القادمة في هذه الحرب اللعينة.

أسفة لأني على قيد الحياة إلى الآن، لا أعتذر لأثير ضمائر العالم ولا أعتذر للحرب، أنا أقدم اعتذاري للأمم التي لم تكن الحرب كافية لأن تعد وجبة ابنها المفضلة ولكنها كانت كافية "وبزيادة كمان" ليعود إليها مستشهداً فتزغرد في جنازته ومن ثم تبكي دماً في لياليها الفارغة منه لسنين، أقدم اعتذاري للأطفال الذين وعدهم أباهم بالأمان بدلاً من العيدية التي مرت مرور الكرام ولم يحصلوا عليها هذا العام لأن شبح العيد مر بالحرب، أعتذر لأن أباهم ذهب في رحلة أبدية إلى الله -حسب رواية الأم- وبقي وعد الأمان قائماً بلا أعياد في الطريق لتأتي، أعتذر إلى الذي كان يرشح العرق من جسده طيلة سنين الكدح واقترض من البنوك و"دفع دم قلبه" ليشتري منزلاً يأويه وعائلته وكانت الحرب كافية لتذهب السنين سُدى وتبقي القروض غير المسددة بفوائدها المركبة أيضاً، وأخيراً أقدم اعتذاري لأنني إلى الآن على قيد الحياة إلى غزة، لأنني يا حبيبتي المتعبّة والمتعبّة لا أدري حقيقة مشاعري تجاهك إلى الآن، وأقبح ما في تلك الحقيقة أنني لن أعرفها أبداً، ولم تكن أصلاً ليوم ما موجودة، وأن كل طريق مؤدي إليها مؤدي إلى الهلاك أيضاً.

## الجار الرقم

جارنا أبو أشرف لديه شاحنة نقل، في يوم من أيام الحرب طلب أحدهم أن يستعيرها ليوم واحد فقط؛ لينقل أثاث منزله القابع في المناطق التي لم تكف المدفعايات عن قصفها، كان من المفترض أن يعيدها الرجل ليلاً ولكن أبو أشرف رفض ذلك كي لا تظنه الكائنات المضيفة التي تحوم في السماء

"مقاومة" فيموت، في تلك الليلة نفسها كان القصف شديداً على منطقتي ولكن كما تقول جدتي "ألف الحمد لله إلك يارب هيو طلع الصبح وطلع الضو علينا"، قرر أبو أشرف أن يغادر المنطقة صباحاً لكن الشاحنة لم تكن عنده "ليدحش" أبناءه وزوجاتهم وأحفاده فيها ويغادر فوراً، وبعد عناء شديد وجد سيارة أجرة وافق سائقها على نقلهم إلى المكان الذي سيهربون إليه على مرتين، صعد أبو أشرف وإم أشرف وأولاده "العزابية" وابنتهم وشدوا الرحال، وبقي أشرف وزوجته وولّاده الصغيرين وأحمد وزوجته وابنته الصغيرة وابنه الجنين الذي كان قد أكمل سبعة شهور من أصل تسعة التي يحتاجها الشخص ليخرج من العتمة إلى العتمة، كانوا ينتظرون بالحاكورة عودة السيارة ليلحقوا ببقية أفراد العائلة.

السيارة لم ترجع أبداً، لا لأن السائق قرر عدم العودة، بل لأن صاروخ زنانه أخذهم أجمع إلى الله. لم أبك لأن العناية الإلهية لم تتدخل لتنقذ الأطفال حتى، ولا لأنني فقدت عقلي وثمانيت لو أن أبو أشرف وإم أشرف ماتوا مع أبناءهم كي يموتوا مرة واحدة وإلى الأبد بدلاً من أن يموتوا كل يوم مذمات أشرف وأحمد وأسرتيهما، بكيت لأن المذيع وبكل بساطة أعلن الخبر عبر الراديو للجميع "استشهد ستة أفراد من عائلة الخليلي في قصف استهدفهم في حي التفاح شرق قطاع غزة"، هل لهذه الدرجة حياتهم كانت رخيصة يا الله ليُختصر طريقهم في هذه الدنيا في عبارة كهذه؟ ويا ليتها على الأقل كانت صادقة يا الله لأن الجنين يُعد فرداً أيضاً، له ملابس وسرير ينتظر خروجه من رحم أمه، جاوبني على سؤال واحد يا الله هل تظن أن أم أشرف ستحتفظ بسرير وملابس حفيدها الجنين أم لا؟

### إلى صديق مقرب وعدته بأن أبقى حية:

قطعت وعداً لصديقي بأن أبقى على قيد الحياة رغماً عن أنوفهم - الأنوف التي أقصد معروفة لكم أجمع- ردّ بأنه يرغب بأن أعيش لأنني من المفترض أن أفعل ذلك لا بسبب رضا أحدهم أو غضبه، أخبرني صديقي بأنه سيفقد جزءاً من روحه إن مت.

أسفة لأنني أنفذ الوعد بأبشع الطرق، ولكني لم أعد أحتمل أي موت بطيء بعد الآن، أريدهم يا صديقي أن يتكوننا وشأننا فقط، أن يتكوننا ننهي رحلتنا بهذه الحياة بسلام.

يا صديقي ها أنا حية ومازلت على وعدي إلى الآن، لكن هل تعلم لماذا؟ سأجاوبك فقط لأنني أعلم أنك تجيد فن إخفاء الأسرار، أنا حية إلى الآن لأن الموت أسهل طرق النجاة في الحرب، والحياة أصعبها، الحياة أصعبها تماماً.

## عن بائع الحلب

منال مقداد

في غزّة كم مرّة علينا أن نموت لتقتنع الحياةً بجدارتنا بها؟ وكم معجزةً تلزمننا لندافع عن أحلامنا  
وكرامتنا؟

أيُّ قلوبٍ تلك التي يجبُ أنْ نحملها حتى لا نصرخ ونبكي -نحنُ الكبار- أمام صغارنا؟ وأيُّ قدرةٍ  
عجيبةٍ أو موهبةٍ عليها أن تُولّد معنا؛ لنحوّل صوت الصواريخ والقذائف والطائرات إلى موسيقى،  
نطربُ بسقوطها المفاجئ على آذاننا أو نرقصُ ونزفُ شهداءنا على إيقاعها؟  
في غزة...

عليك أن تكونَ بارعاً في نسج الحكايا، لطالما صغارُها يكبرون فجأة، وعليك أيضاً أن تكونَ سريعاً  
مفاجئاً كالصاروخ، تقنعهم بالحياة رغم أن الموت يوشح أرواحهم.

أنا بخيرٍ تماماً، حاولتُ النوم مراراً عندما عبأ الهدوءُ سماء المدينة، ولكنه ما زال ضعيفاً خفيف الظل،  
يغادرنا مسرعاً؛ لتشنّ الطائرات غاراتٍ جديدة.

كل ما في الأمر أنني لا زلتُ أدربُ روحي على تقبّل هذا الضجيج، وقلبي على مزيدٍ من التماسك  
والقوة.

حلويات تسمى كرايبج حلب

ولأن غزة مصابئة، وعاجزة أن تنام، من حقّها علينا أن نحرسها وندللها حتى تتعافى من وجعها.  
لا تقلقوا أبداً...

غزة ما زالت قادرةً على الغناء حين تودّع شهداءها، غزّة ما زالت تفتح ذراعها لتستقبل أبناءها شهداءً وتغطيهم بترابها، غزة ما زالت بخير !

الوضع أسوأ مما تتخيلون، الأمر لا علاقة له بالشجاعة والصمود من عدمها، الليلة الماضية كانت الأعنف منذ بداية الحرب أو العدوان على غزة، هذه المرة لم أبك -كعادي- الصّوت المتواصل العنيف الذي سمعته ربّما منعني من أية ردة فعل.

في الصّباح بعد آخر هجومٍ نفذته الطائرات على المدينة، استجمعتُ قواي وبدأتُ عملية جمعٍ لممتلكاتي الخاصة، من أوراقٍ ثبوتية، شهاداتٍ مدرسية وجامعية، دروع تكريم، هدايا، ما تبقى من رسائل كنتُ قد تلقيتها من عمي داخل السجون الإسرائيلية، هاتفي المحمول، اللابتوب وغيرها.

نظرتُ مطولاً إلى مكتبتي الخاصة، لا بدّ أن أحتفظ بأقل عددٍ ممكن منها؛ لأنه ليس من السهل حمل كل هذه الكتب وقت الهروب، قررتُ فرز الكتب التي تحملُ توقيعاً خاصاً من كاتبها. أحسستُ بغصةٍ لا أريد أن أفقدَ مكتبتي للمرة الثانية كما في الحرب الأولى.

للحظةٍ أخرى أحسستُ بالقهر يكاد يقتلني، ما هي كل هذه التفاصيل التي تشغلي وربّما لن أقدر على الاحتفاظ بها عندما يكون الموت أسرع منها إليّ؟

ولطالما الموت سيأتي مباحثاً سريعاً دون اتفاقٍ بيننا، سأذهبُ معه مجردة، بلا ذاكرة أو أوراق أو كتب أو أحبة أو أصدقاء أو هدايا أو أحلام. سأذهبُ معه وحيدةً خفيفة...

هامش:

أصدقائي اللي استعاروا كتب مني، لما أموت مسامحتكم فيها، بس كمان ديروا بالكم كثير عليها، وابن عمي مكتبتي إن سلمت وما صارت ملك للحرب فهي الك.

أكلّمُ الله كثيراً، وغزّة!

هنا... تفتحُ صفحهُ السّماءِ قلبها إلى النّور، بعد ليلٍ قد امتلأ بالقذائفِ والخوفِ والصّراخ، فكيف نقولُ صباحكٍ خيرٍ يا غزّة؟!

ملءِ الأملِ أقول: لعلّه صباحٌ خيرٍ يا غزّي؛ بعد أن وشّحت الجراحُ وجهك، وأصابَ قدميكِ التعب، لعلّه كذلك بعد أن سلبَ القتلُ حقك في الحياة والغناء، لعلّه كذلك.

[يا غزّة لوّني سماءً ليلك بوجوه الأطفال والشهداء، ولتملئين حنجرتك بالصلاة، وروحك بالسكينة.]

فيما طائراتُ الاستطلاع تَأْكُلُ رأسك؛ تمرُّ قذيفةٌ رَما تُسْقِطُكَ بعد أن مَلَأَ رَوْحَكَ الانهيار. تنكسرُ، تصرخُ، تبكي بجنونٍ، وثمةُ أغنيةٌ ثوريةٌ تقطعُ صراخَكَ، تملؤك بالحماسِ والصمود فتهددكَ.

[يا غزّة هل تميتينِ خوفَكَ بالأغنيات؟ وهل تعطينا نحنُ -نصفُ الأموات- الحياة؟]

القذيفةُ التي أخافتَكَ أو لم تُخِفِكَ، قتلتُ أحداً من أصدقائِكَ أو جيرانِكَ أو أقاربِكَ، وأصابتِ الكثيرين؛ تركتَ فيكَ مشاهدَ الدّم والأجسادِ المتناثرة، بوَسَ عائلاتهم، اختناقُ أرواحِهِم، بكاءهم، وعجزاً كبيراً تكلمَ فيه الله والمدينة وتستعجلُ الخلاص.

[يا الله... الطفلةُ التي صارت فرأشهُ وذهبت إلى السماء، كم عليها أن تنتظرَ لتختبئَ في حضنِ أمها؟ كيف سيصبرُ الطفلُ الذي قَبِلَ عائلته وغابت في أطراف الغيم؟]

فيما صدري مكتظُّ بالاختناق؛ أملاً أرواحِ الأصدقاءِ بالحياة. أحيكُ من قلقهم ستائر، ألونُ فيها شحوبهم. هذا الوجعُ يقتلعُ شيئاً من قلقِ الرّوح. وفي حضرته، تدنو ساعةُ الأجل ولا ذاكرةٌ سوى الطّرقاتِ الباهتة، وصفيرِ الموتِ حينَ يعلو في صدري!

[يا الله... هل تصلُّك رسائلِي؟ هل تسمعُ صوتَ بكائيِ المختنق؟ هل تدركُ ضعفيَ وقلّةَ حيلتي؟ يا الله لماذا لا تصدّقني حينَ أتوسّلُ إليك: لا أريد الحرب ولا أريد لحياتي أن تنتهي؟!]

صباحاً لا يوقظُكَ صوتُ بائعِ الكعك، أو بائعِ السردين. غابتُ أصواتهم لأنهم ظنّوا أنّ منازلهم ستحميهم من استهدافِ الطّائراتِ الحربيّةِ الإسرائيليّة، لم يكونوا يعلمون أنّ بيوتهم هي الهدفُ الأساسيُّ لهذه الحرب.

صباحاً يوقظُكَ صوتُ صاروخِ طائراتِ F١٦، وهو يسقطُ على منزلٍ، أو مسجدٍ، أو أرضٍ فارغةٍ، أو مستشفى، أو مبنى حكومي بالقرب من بيتك فيدمره. أو رَما يكونُ بعيداً عنه، ولكنّ صوتَه يملأُ الفضاء فتسمعه.

في هذه البقطةِ القلقة، تكونُ قد هيأتِ نفسَكَ للهروبِ من منزلك، أو قد تستقبلِ الموتَ فجأةً؛ ببساطة لأن القذيفةَ أحبّت أن تعانقَكَ. وقتٌ طويلٌ من الخوفِ والقلقِ والترقبِ لاحتمالاتٍ مفتوحةٍ لما سيكون خلالِ الدقائقِ أو الساعاتِ القادمة. وحينَ يختفي صوتُ القذائفِ والصّواريخِ من سماءِ الحي الذي تسكنه لتتجهِ إلى حيٍّ آخر لتنفذَ ذات الغارات، تظلُّ طائراتُ الاستطلاع تحلّقُ حتّى تنزعَ الطمأنينةَ من قلبك. تحاولُ أن تنسى وجودها؛ فتشغَلُ بترتيب البيت وتنظيفه، رَما من آثار الغبار الذي تطايرَ جراءِ القصفِ الغريب، أو لأنك قرّرتَ أن تتركَ نوافذَ بيتك مفتوحةً صباح مساء خوفاً من صاروخٍ قريبٍ قد ينفجر، فيسقطُ زجاجُ النوافذِ ويسببُ لأحدمك الأذى.

لا موسيقى هادئةٌ ترافقُ انشغالك، أو أغنيةٌ سهّلُ على قلبك أن تندنّها؛ لأنه لا قدرةٌ لديك أن

تخلطُ الجمالَ بالقبح، والسَّلامَ بالحرب. لأنَّه لا قدرةَ لديكِ إلا أن تستذكَرَ صرخاتِ الثَّكالي، ودموعِ النَّاجين، وهلعِ الصَّغار، وجثثِ الشَّهداء، والمنازلِ التي أصبحت ركاماً وابتلعت كلَّ ذكرى مع غيابها. كلُّ شيءٍ على ما يرام، البيت الآن أصبحَ وكأنَّه على استعدادٍ لاستقبالِ أحبِّ الأصدقاءِ على قلوبنا. الشَّارعُ خالٍ تماماً إلا من بعض المارة الذين قد خرجوا من بيوتهم لجلبِ بعض حاجياتهم الضَّرورية. أحدُهم يخرجُ من السوبر ماركت يحمل مواداً غذائية، وآخر يحمل علبه حليبٍ للأطفال وربما أدوية، شابٌّ يبيع السجائر أمام باب منزله قد رسمَ الحزن ملامحَ وجهه.

متى سينتهي كلُّ هذا البؤس يا الله؟ هل ستنتهي الحربُ ونحن لا زلنا نمارسُ الحياة؟ أم أن الموت سيختطفنا جميعاً ويميتُ كلَّ أحلامنا؟

بائعُ الحلب لم يمر، كان جميلاً صوته حين يردد مغنياً: "وصل بياع الحلب، وصل يا حبايب.. وصل بياع الحلب، حلب يا حبايب" - هوسٌ ما قد أصابني؛ أريدُ أن أرى كلَّ الوجوه التي رأيتها طوال حياتي في غزة، الآن وهي على قيد الحياة، حتى أولئك الذين لا أعرفهم - ربَّما يكون الآن مع أبنائه يروي لهم القصصَ حتى يشغلهم عن الحربِ قليلاً، أو ربَّما يبيعُ الحلوى في منزله للجيران، ولكن من سيأكل الحلوى في هذه الأوقات؟ ومن سيخاطرُ بالخروجِ لإحضار حاجياتٍ يمكن الاستغناء عنها؟! لا بدُّ أن أتواصلَ مع أصدقائي وأقاربي خارجَ غزة، أحدثهم وأطمئنهم، سأقول لهم أننا بخير، حينها سيظنون أن الأمور عادية، وهم لا يعلمون بتاتاً أنني أعني أننا هربنا من فك الموت هذه المرة ولا زلنا أحياء. أستجمعُ قواي والدموعُ تملأُ عيني والخوفُ يعبُّ روعي، أكتب ما أكتب حتى أطمئنهم، أتصفَّحُ المواقعِ الإخبارية، أبحثُ جاهدةً عن آخرِ الأخبارِ عن الحرب؛ عددِ الشَّهداء يرتفع وكذلك المصابين، تدميرِ عدد كبير من المنازل والمنشآت، أترقبُ خبراً ما يقول: سيتم إنهاء الحرب على غزة... ولكن بلا فائدة.

على الأرجح أن عددَ ساعاتِ اليومِ قد تضاعف، أو أنَّ النَّهار يبدو لي طويلاً جداً. لا بدُّ لي من غفوةٍ أنالُ فيها قسطاً من الراحة. أتوجَّه نحو سريري، أسدل الستائر خوفاً من دخول الشظايا عبر نافذة غرفتي وتقطيع جسدي إلى أشلاء، أغمض عيني لأجدني قد احتميت بجسد ابن أخي الصَّغير بعد أن سقط صاروخٌ لا أدري مكانه وهربت.

أشعل الراديو لأستمع إلى آخر التطورات، تنقطع الكهرباء، وننقطع عن العالم، ووجدنا نحن وأصوات الصواريخ والقذائف وأفكارنا المؤلمة التي لا تنقطع!

لأني نسيت

شكل السماء، رائحة الورد، لون الرصيف، دفء الشارع، ملامح غرفتي، سطوة النوم، حدائق  
النشيد، عبث الصغار، طعم المزاح، وجوه المدينة، صوت الهدوء

متى ستنتهي هذه الحرب؟

في لحظات القصف القريب من منزلك، أقصى ما يمكن أن تفعله أن تهرب بأقصى سرعة إلى المكان  
الذي قد تم الاتفاق عليه في اللحظات الأولى للحرب أنه الأكثر أماناً.

صوت انفجار قوي لصاروخين تم إطلاقهما من طائرة F16 زلزل الحي بأكمله، هذه اللحظة كافية  
لأن تذكرك بأنايتك المفرطة، وانحيازك لحياتك ثم الآخرين. أول ما تفعله أن تهرب وتحاول أن  
تحمي نفسك، ومن ذات المكان تبدأ بالنداء على من تبقى من أهل بيتك ممن لا يتواجدون في هذه  
النقطة المتفق عليها.

بعدما تبين أن القصف كان لمنزل في الشارع المجاور، وتم تدميره بالكامل، تبين أيضاً أن جميع  
المصابين والشهداء في البيت المجاور له.

ماتت معلمتي - معلمة اللغة العربية- في الصف الرابع الابتدائي، هذا ما أكدته حتى اللحظة  
المتواجدون في المكان والذي تناقله أهل الحي حتى وصلنا الخبر. هذه المعلمة التي امتازت بالحزم  
والذكاء والمرح، كانت تنادي جميع طالباتها في الفصل "يا إمي". رحلت أم الأجيال المتعاقبة، وتركتنا  
نعيد ذكرياتها معنا. لن أنسى ما قالته لي حين أمسكت يدي لما أجهشت بالبكاء حين بدأنا تعلم خط  
الرقعة، قائلة: "الي بيكون خطه جميل بالنسخ، رح يكون جميل بالرقعة"

يا الله لو أي تذكرت فقط أن أملاً حنجرتي بالدعاء لهؤلاء المستهدفين والقريبين، ربما نجت من  
الموت معلمتي!

الأمان في غزة، هو أن تبحث عن المكان الأكثر أماناً في المكان الخطر!

يسكن أخي شقته المجاورة لشقتنا من الناحية الشرقية في نفس العمارة السكنية. منذ أن بدأت  
الحرب يجتمع أخي وزوجته وأطفاله الثلاثة في الغرفة التي لا تطل على الشوارع الرئيسية أو  
بكلمات أخرى الغرفة الأكثر أماناً في بيته. ابنه الأكبر في عمر الست سنوات - وهو الحفيد الأول  
للعائلة- أذكر تماماً قبل تاريخ عيد ميلاده بشهر كامل كنا نرتب لحفلة كبيرة، ولسوء حظ هذا  
الطفل، أكمل عامه الأول في الحرب الأولى عام ٢٠٠٩، ما يعني أن ياسر ابن الست أعوام عاش حتى  
اللحظة ثلاثة حروب. كنا نعزي أنفسنا بأنه ما زال صغيراً، ولن يتذكر كل هذا الفرح والحب وهو  
في السنة الأولى من حياته ولكن ثمة غصة تحرق قلوبنا.

تسحُ ثوانٍ من المشي المتأني فقط ليكونوا في ضيافتنا، ولكن هذه المسافة الصَّغيرة لم تسمحْ لهؤلاء الصغار أن يطولوا علينا كل نصف ساعة كما اعتدنا منهم. - بصراحة - أفتقد بشدة الآن كل الصَّوْءاء التي كانوا يصنعونها بمجرد دخولهم البيت، أفتقد أسئلتهم التي كثيراً لا تجدُ إجابةً عليها، أفتقد كيف كان يستفزُّني ياسر حين يلقي أوامره علي بضرورة مساعدته في إنجاز رسوماته يومياً وتلوينها، أفتقد كل هذا الضجيج. ساعتان من بعد الغروب والهدوء يعمُّ المنطقة التي نسكنها، يتصل أبي بزوجة أخي لتنضمَّ إلينا مع أطفالها وزوجها قليلاً ونجتمع في هذا الليل حول كأس شاي، يركض الأطفال وكأنَّ دهرأً مرَّ دون أن نراهم. يبدؤون باللعب وملء أركان البيت بالصراخ. حين نادى أبي الصغار أن يجلسوا بجانبه ويهدأوا قليلاً ليشربوا الشاي، عبود قال متردداً وبصوتٍ خجول: ما بدي أشرب شاي. تبادلنا النظرات وفهمنا مقصده، فقد يبول ليلاً من الخوف حين يسمع صوت القصف. أكمل عبود بدكاء: الدنيا شوب، وأنا جاي على بالي بوظة، سيدو مش انت بتحبنا؟ جيلنا بوظة من السوبر ماركت. همَّ أبي بالخروج وبدأَتْ بحواره حتى يعدلَّ عن أمره ويظلُّ في البيت، لا أمان لطائرات الاحتلال الصهيوني، وكالعادة اختتم نقاشنا الطويل بكلمته التي صرت أحفظها عن ظهر قلب - اللي اله عمر ما بتهينوا شدة- التزمت الصمت.

خرج أبي وأنا أراقب خطواته عبر النافذة وأدعو الله أن يسلمه ويبعد الطائرات عنه. ناديتُ عليه ورددَ الصدى معي ممزوجاً بصوت الطائرات الحربية: بابا اسرع، بلا ما يصير قصف. ابتسم أبي، وللحظة خلته سعيدي نفس جملته الذي يختم بها خوفي من الحرب.

قبل عودة أبي، وجه ياسر -ابن أخي- كلامه لي مستنكراً: مش أنتِ قبل يومين قلتني جاي عبالك بوظة؟ ليش بتقولي لسيدو ما يروح؟ ولا ما بدك ناكل معك؟ أجبته: بس مشان الحرب يا عمتو، بعدين إذا صار لسيدو شو نعمل؟ أجابني وكله ثقة: اليهود ما رح يقصفوه، لأنهم بيصوروا من الطيارات، ورح يعرفوا إنه رايح عالسوبر ماركت مش رايح يقتلهم. أجبته: لأ بيقتلوا، لأنه قتلوا كثير أطفال، بدون ما يعملوا شي، كانوا متخبين ببيتوهم، ذهب إلى أمه صارخاً: يعني بتكزي علينا؟ يعني اليهود رح يموتونا كلنا.

استدركت أُمي الموقف وأجابته: عمتو بتمزح معك، بس بدها تخوفك، فأجبتُه وكلي غضب: ما بمزح: اليهود بيقتلونا بلا سبب. وفي هذه اللحظة فتح أبي الباب، وركض الصغار نحوه يقبلوه، وقال عبود الصغير: تصدق يا سيدو إني زمان ما أكلت شوكو، والله بحبك.

وأنا أتابعُ ابتساماتهم بهذه الأشياء الصغيرة، شعرت بالندم لأنني ربما أخفت الصغار، ولكن لا بدَّ لهم أن يعرفوا الحقيقة دون تجميل ولكن كان عليَّ أن أكون أكثر لطفاً معهم. كلهم يشربون الشاي ويتناولون



البسكويت ويتجاذبون أطراف الحديث، وأنا أفكر حتى تقذف طائرة الـ F16 بإحدى صواريخها على منزل في الشارع المجاور، نهرب لنجلس في ممر البيت وهو المكان الأكثر أماناً بعد أن أغلقنا باب المطبخ المواجه للشارع الثاني. الممر هو المكان الأكثر أماناً في هذا الخطر الذي يحدث بنا في هذه اللحظات. ٣\*١,٥ متاراً مربعة، كانت مساحة كافية لأن تحمي أحد عشر شخصاً من شظايا الصواريخ القاتلة.

كيف يفلت منك الصباح في غزة؟

بعد ليلة حجبت فيها الطائرات الحربية، الـ F16، والاستطلاع نجوم السماء التي تزين وحدتنا في المساء، صوبت فيها صواريخها القاتلة إلى أحلام الصغار وبراءتهم.

بعد ليلة ظل بحرهما يصرخ عله ينقذ شاطئه من الوجع الذي أصابه حين أمست الزوارق الحربية تدكه حتى مطلع الصباح؛ صار يبكي لما اتهمه أبناؤه وظنوا أنه قد خطف حياتهم وأرواحهم.

بعد ليلة كانت قد منحت لكل عين في كل بيت قذيفة دبابة، كانت قد اختارت أن تنهي حياة من زال يغني ويؤمن بالوطن والانتصار.

هكذا قد يطلع الصباح هادئاً؛ وفيما أنت تكون قد سقطت حين أنهكك التعب حتى غالبك النوم، تكون قد فقدت صباح المدينة الثكلي.

أو ربما تقتنص ليلاً هادئاً، فتمارس فيه عادة النوم التي كنت قد تعودت عليها قبل بدء الحرب. لست الآن بحاجة لمنبه حتى تستيقظ باكراً إلى عملك - فالحياة معطلة الآن - حتى ترسم نوما طويلاً، يعوض نقصا اجتاح جسدك منذ أيام.

وفيما أنت تسلم جسدك للنوم بعد أن أنهكه التعب، تصحو على صباح تنبهك فيه أصوات الموت الذي يحيط بك، وينتظرك، حتى تظل مختبئاً دون أن تملك الشجاعة لتمد نظرك إلى الخارج، وحتى إن كان هناك شجاع؛ فلن ينتبه للصباح في هذه المدينة الدامية.

تعلموا...

هكذا تفلت الصباحات من روحك دون أن تنتبه!

لن يعنني أحدٌ بقلوبنا الجريحة، ولن يمسخوا الصراخ عن أعمارنا.

هذا الصباح

سنبتلعُ حزننا

لينطفئَ الجميع!

أن تصحو من النوم بعد محاولات لإقناع نفسك أنك ما زلت بخير، وتحمل من القوة ما لم يحمله من لم لا يقعوا تحت الحرب، حتى قضيت عدداً لا بأس به من ساعات الليل في البحث عن طرق لتغيير الجو العام في البيت.

كنت قد قررت اليوم تحديداً أن أعد فناجين القهوة التي اعتدنا على شربها قبل الحرب لشربها سوياً، وأن أجهز كوباً من الحليب لجدتي التي نزلت إلى بيتنا خوفاً من القصف في شمال قطاع غزة. قررت أن أصنع وجبة الغداء بنفسني اليوم وندعو عائلة أخي لمشاركتنا - بعد أن أعلنت طوال الحرب أن لا علاقة لي في تجهيز الطعام - كنت قد قررت أن أجمع الصغار لنهلهم بالبالونات قليلاً، وأن أكون أطول بالاً وأنا أرسم مع الصغار أحلامهم. سأختبر هذه القوة والفرحة التي اصطنعتها لربما تسمع لي بالنزول إلى السوبر ماركت.

صباحاً فتحت باب غرفتي مبتسمة، توجهت إلى غرفة الجلوس، وبصوت مليء بالفرح قلت: صباح الخير، لم أجد رداً غير دموع أمي وابي، انسحبت وأكاد أحس قلبي يتوقف دون أن أسألها ما الذي جرى؟! هل استشهد أحد من أقاربنا؟ اتجهت مسرعة لأقطع على رأسي كل هذه الأفكار متسائلة: مين مات؟ أجاب أبي: خال زوجة أخيك.

ما الذي يمكن أن أفعله الآن؟ كيف سنقنعها أن تتحلى بالصبر؟ ماذا يمكن أن افعل حين سأواجه خبراً كهذا؟ فقط سأصرخ في وجه كل من يُسمعي كلمة عزاءٍ واحدة. قطعتم أمي كل هذه الأفكار لتقول: بعدها ما بتعرف إنو خالها استشهد.

ها هي دوامة الأفكار تعود من جديد، ما يعني أنني سأشهد ردة فعلها الأولى حين تعلم بخبر الاستشهاد، اتصلت بأخي كي أخبره الأمر وعليه أخذ كل الاحتياطات لمنعها من التواصل مع أحد اليوم أو سماع نشرات الأخبار، وإذ بها تجيب هاتفه لتخبرني أنه نائم، وفي قمة ارتباكي سألتني: في اشي مهم؟ أجبته: لأ، بس كنت بدي أقولك إنو اليوم غداكم عنا، ما تطبخي. ضحكت وأقفلت الهاتف.

يا للمصيبة... ماذا علينا أن نفعل؟ كيف يمكن أن نعطل هاتفها والراديو؟ كيف يمكننا أن نمنعها من سماع الأخبار اليوم؟

بعد دقائق قصيرة، تأتي حامله ابنا الأصغر، تبسم لنا، قائلة: صباح الخير، خالي دانيال استشهد! بأي يد من دفء وأمومة سنكفكف دموع الطفلة ذات الملامح التي تشبعت بالحزن والقهر وعمراً يكبرها بنصف قرن؟ الطفلة التي استوقفتني اليوم؛ وبعد أن قلت لها: "خلصت الحرب حبيبتي، وكل شي رح يرجع أحسن من أول" في محاولتي الفاشلة لأطمئنتها أو رسم ابتسامة على وجهها. أجابت: " ودارنا مين بدو يرجعها؟ أمي وأخوي صاروا عند الله، والله ما برجع حدا. احنا تعبانين!"

## الحب والكراهية: يومياتنا من غزة

سليم النفار

أيام ثقيلة كغيم شتاء قطبي، أو كوخز الأبر في العيون...تمضي الأيام ولا يمضي الجنون الذي يحتل واقعنا ومخيلتنا...كيف ارتب لكم وصفه، لست أدري...ولكن ما أعرف هو أنني لست بحاجة لبلاغة "فولتير" أو فانتازيا "رامبو" التي سعت لتشويه الحواس بما يتلائم مع الواقع المشوه ولست ساعيا لكتابة فصل في الجحيم...الواقع الغزي يضح بالأم وبالتشويه لروح الإنسان وهذا كله صناعة الاحتلال.

في رمضان ينتظر المسلمون في كل الدول العربية اذان المغرب كي ينهون صيامهم...ولكن يسبق الاذان دائما مدفع رمضان يعلن نهاية الصوم، وهذه تقاليد منذ الايام العثمانية، غير ان غزة لم تعرف هذا التقليد في العقود الاخيرة لأسباب متعددة لسنا في صدها الان، ولكن اليوم الاول من العدوان وهو اليوم العاشر للصوم، تنخلع قلوب الغزيين من صدورهم، وتنخلع نوافذ بيوتهم، وجدران منازلهم...وترعد السماء في غير موعدها..انها الطائرات...نعم انها الطائرات، ترج الارض بهوائها الثقيل، بصواريخها، برائحة البارود الذي يزكم الانوف وينشر ملح الموت، معلنا بداية الافطار في ذلك اليوم بالدم الفلسطيني.

اقفز من مكاني، أحاول تبيان الامر، لابرر لاطفالي وزوجتي سر هذا الزلزال الذي اصابنا بغتة، فافتح التلفزيون وسيلتنا في معرفة الاحداث.. ولكن لم تصل اصابعي بعد لادارة الجهاز، حتى باغتتنا ارتجاج اضافي اخر ادخل الرعب الى قلوبنا جميعا، والى قلبي انا الذي احاول التماسك، فادركت انها الحرب. نعم هي الحرب...بالكاد تناولنا فطورنا وتسمرنا امام التلفزيون نراقب ونتتبع ما يحدث لنا في هذا الحيز الجغرافي الضيق.

قتلى وجرحى وبيوت تسقط فوق ساكنيها...وقلوب تنفطر حزنا وكمدا على خسارتها لأبنائها

الصغار وفقدانها لبيوتها التي تلوذ إليها...وأبدأ في جولات من التفكير: لماذا هذه الحرب، وإلى أين تأخذنا، وما هي أهدافها

و...و...؟؟

اسئلة كثيرة في الغالب لا تجد اجوبة لها.

في اليوم الثاني خرجت اتفقد احوال المدينة والاصدقاء، كل شيء كئيب، ومريب فانت لست في مأمن ان تتجول في الشوارع...فالطائرات تصب جحيمها كيفما يحلو لها، لا يهمها الاطفال الذين يلعبون في الحدائق، او الشيوخ الذين يركنون الى وسائدهم في غرفهم الحزينة فكل شيء في المدينة مستهدف، الكل تحت النار...فقد تموت في أي لحظة وعلى أي ناصية دوغما استئذان تباغتك القذائف من البر والبحر والجو...يا الله هل تحتاج غزة كل هذا الجحيم؟؟

في اليوم الثالث خرجت الى مكتبي في شارع الوحدة.. قمت ببعض الاعمال على جهاز الكمبيوتر، وارسلت بعض القصائد والمقالات للصحف وخرجت عائدا الى البيت-فانا احاول في هكذا ظروف ان لا أتأخر عن اطفالي-فوجودي بقريهم يخفف من حالة الخوف والارتباك عندهم...ولكن وانا في الشارع انتظر سيارة للذهاب الى البيت، كنت انظر الى الطرق الخالية التي بالكاد تلمح احد المارين فيها...وتنتظر طويلا كي تعثر على سيارة تقلك الى المكان الذي تريد...الجو كئيب ومريب ولكن تمكنت من الذهاب الى البيت...وبعد دقائق معدودة كان الجوال خاصتي يرن، وعندما استجبت للمتصل عرفت انه صديقي الذي تركته في المكتب...كان يحاول الاطمئنان عني، فقد ابلغني ان المكان الذي كنت انتظر فيه السيارة قد قصف بصاروخ اف ١٦...

يا الله...يا الله...انه القدر فقط يزيحك عن الموت، ويعطيك فرصة اضافية للحياة، بمحض الصدفة وبالصدفة فقط تمارس الحياة ليوم اضافي اخر..انها غزة التي تعيش هذا الجو الكئيب والمريب.

وهكذا تتوالى الايام، تأخذك الى مفاجئات مؤلمة في كل يوم اضافي من عمر العدوان على هذه المدينة الصغيرة، هذه المدينة التي لا طموح لديها سوى الحياة كبقية خلق الله فهل هذا كثير؟

وبعد اسبوع من العدوان الذي لا يرحم الاطفال والنساء والشيوخ.. نجح العدوان في تشويه حواسنا وقتل البسمة على شفاه اطفالنا، هذه من اهم انجازات الكيان المدجج بالسلاح حتى اسنانه، ففي اليوم السابع للعدوان كنت مساء على باب العمارة التي اسكن فيها، احاول التعرف على الجو العام للناس المرتبكة الحائرة في هذا الخوف الذي يمتد بين ضلوعهم...يتحسسونه ولا يستطيعون القبض عليه، مللت من مراقبة هذا المناخ المكتظ برائحة البارود، وبحسرة الناس على فقدها.. فصعدت الى

البيت, خلعت حذائي وملابسي وارتديت ملابس البيت لاجلس الى جهاز اللاب توب خاصتي اتابع التغطيات الاعلامية والتوقعات الخاصة بمدى عمر العدوان, وجديده اليومي, كل ذلك لم يستغرق عشرة دقائق, وهي بالتأكيد غير كافية لمعرفة ما اسلفت, نعم غير كافية ولكنني توقفت عن كل شيء لان صاروخا مدويا من طائرة الاستطلاع "الزنانة" كان قد هز اركان المكان كله, تركت غرفتي واغلقت جهازي وذهبت الى الغرفة الاخرى حيث بناتي وزوجتي وامي العجوز... كانت ملامح الخوف تأكل تفاصيل واضحة من وجوههم, فحاولت تلطيف الاجواء لديهم واخفف من حدة الخوف, ليس لانني لست خائفا, بل لانني ربما امتلك ادواتي في استيعاب حصة الخوف, وتديك اعصابي بما يساعدني, على طرد الخوف او السيطرة عليه في الحدود الدنيا في عيون اطفالي, ولكن وانا احاول ذلك فرط كل شيء وتلاشى بفعل صاروخ اخر وهذه المرة من طائرة ال اف ١٦ كان زلزالا حقيقيا, تميد الارض فينا جميعا. تنخلع النوافذ من اماكنها وتنخلع قلوبنا من الصدور, كان صوت الاطفال والنساء يجرح كبريائي العاجز حتى عن محاولة ان يقول شيئا ما, وكيف اقول شيئا ما وانا مثلهم اخذني الحال ولم استطع غير تحسس اجسادهم خشية ان يكون قد اصابهم شيء ما من الانفجار...ربما استغرق الوقت بضع دقائق لأحاول اعادة بوصلة الهدوء الى دواخلي وكشط القليل من الخوف, كان ذلك بفعل تسلل البارود الى انوفنا وسقوط الستائر والزجاج...ودخول جارتنا في الشقة المقابلة وهي مختنقة من رائحة البارود ومن الخوف الذي كان ممكنا ان يأخذها الى عالم الاموات...عرفت ساعتها ان البيت المقابل لبيتنا هو الذي وقعت عليه الصواريخ.. فتحول الى كومة من الدمار والشقق المقابلة له على الشارع والسيارات التي في الشارع كل ذلك تحول الى شيء غير ذاته الاصيل...وبقي الخوف سيد الموقف عند الصغار والكبار...نعم انه الخوف, فمن قال لكم اننا لا نخاف والله نخاف على حياتنا وعلى اولادنا وعلى بيوتنا...ونحب الحياة ولكن الحياة الكريمة التي نريدها, وليست أي حياة كما يريدنا لنا الاخرون.

مازالت ابنتي الصغيرة تسألني متى تنتهي الحرب يا أبي, لكي نشترى ملابس العيد؟

اما أنا, فلا اكذب عليها, ولكن احاول تهدئة خوفها مما يحدث حولنا, وأردف قائلا: لا تقلقي يا أبنتي, سنتتهي الحرب وسوف نشترى ملابس العيد, وحتما ستفرحون بالعيد.

هكذا احاول اشاعة مناخ الطمأنينة عند ابنتي وبقية الابناء, ولكن عندما اخلد لنفسي أسأل نفسي: هل حقا سنتتهي هذه المأساة؟

أسئلة مشرعة على كل الاحتمالات, وكل الاجابات, لان الليل الغزي الذي يلتهب كل يوم, وكل ساعة وكل دقيقة بنار العدوان لا يعطيك فرصة للتأكد من أي شيء...فعشرة ايام أو يزيد مضت وفي كل يوم جديد يأتينا من عوالم تحترف قتل البهجة في عيون الاطفال...وتدمي الكبار قلقا على ابنائهم

وبيوتهم...ومصيرهم المجهول...حيث لا احد في المحيط الجغرافي يكثرث لنا...وربما البعض منا قد اعتاد على هذا البازار السياسي، والذي عملته الوحيدة: دم الفلسطيني.

العدوان مازال يفرد مظلمته السوداء على بلادنا...وانت لا تستطيع مواكبة الاخبار كلها، فعندما تستمع لإغارة في حي الشجاعية، وُلا تلبث ان تبدأ موجة الالم تعترك على الخراب والشهداء الابرياء الذين سقطوا، فيداهمك خبر مثله وربما اكثر قسوة منه في بيت لاهيا، وبيت حانون وخانونس ورفح...وهكذا على مدار الساعة غزة من شمالها لجنوبها ومن شرقها لغربها تحت ازير النار وهدير الطائرات...يا الله كم يحتمل هذا الشعب؟

كل سنتين او ثلاثة تجيء موجة قتل وخراب، ناهيك عن التفاصيل السريعة فيما بينهم.. وناهيك عن سوء الوضع الاقتصادي والحصار الذي لا يمكنك من السفر، لقضاء حاجاتك المختلفة، والمصير المجهول لمستقبل اولادك...اولادك الذين يدرسون ويتخرجون ولا توجد سوق تشغيل لهم.. فلا السوق الخاصة تحتمل كل هؤلاء الخريجين الذين سيصبحون عاطلين عن العمل، ونهبها لاخلاقيات وسلوكيات الفراغ، والسوق العامة "أعني الوظيفة الحكومية" فهي متخمة، وعليك ان تسعى بما ليس فيه مسعى...فرما تتعثر بصديق او قريب مسؤول يحل اشكاليته.. والا فعليك الانتظار.. وهو انتظار عبثي.. قد يشبه الى حد ما انتظار "غودو" في ظل هذه المآسي التي تعيشها.

الشوارع خالية...قليل من المارة المضطرين لقضاء امور ملحة، والمحال مغلقة...فقط بعض الصيدليات وبعض المحال التي تبيع الطعام سواء الخضار او اللحوم او المواد التموينية...غير ذلك، فان المدينة خالية، بالكاد تعثر على سيارة-بعد طول انتظار-لتنقل من مكان لآخر...الليل سكون فلا حراك، الشوارع مظلمة وغالبية البيوت كذلك.. وفي البيوت تتجمع الاسر في المكان الاكثر امنا في المنزل حسب تقديراتهم لموقع المنزل...هدوء مريب لا شيء يكسر رتمه سوى اصوات المدافع والطائرات التي تنثر سمومها في الفضاء الازرق، الذي احتل لونه السواد...السواد الذي يتساقط بلا مطر، يلون الجدران والشوارع...وقلوب الناس الخائفة من المجهول

ورغم كل ذلك...فان سماء غزة زرقاء وبحرها ازرق...ونفوس الفلسطينيين، عميقة في حبها للحياة، كعمق هذا الازرق...لذلك سيدافعون عن عمقهم المدجج بإرادة الحياة...ورغم الالم ورغم الخسارة، ورغم الموت، الذي يفرد مظلمته السوداء هنا، فان ارادة الحياة ستنتصر، وكما يليق بعشاق هذه الارض. رغما عن القتل الذي يتسلل الينا بين اللحظة واللحظة، لم يفقد الناس هنا قدرتهم على صناعة الحياة، ولم يسقط الحب في دهاليز الكراهية التي ينشرها العدوان، فكل قذيفة تسقط على المنازل في الشجاعية كانت تعلي وتائر الحقد والكراهية للعدوان، عند جارنا الشاب "محمد" وترفع

منسوب الحب في قلبه الذي ينفطر خوفا على حبيبته خطيبته التي تسكن الحي المستهدف, فلم يركن للهدوء والاستسلام للحظة الفاجعة, ولم يبال بالموت فدائماً يتصل, يتقصى اخبارها واخبار الحي, ولم يتسلل الخوف الى عروقه ابدًا, فقد اخذته الحمية الى الذهاب تحت وابل الرصاص, ليساعدها واهلها في الخروج سالمين من المنطقة المستهدفة.

يتواصل العدوان, يتواصل قهر المعاني الانسانية النبيلة, ولكن "محمد" كان اقوى من العدوان ووحشيته, عندما انتصر لقلبه..لانسانيته, في جنح الظلام الذي لا تنيره سوى القذائف, تسلل خلصة عن ابيه, وحيدا في الطريق الطويل يمشي الى قلبه, وفي الطريق نزع وردة بيضاء ناعسة من على كتف جدار الحديقة, دسها في قميصه ومضى الى "هيفاء" قلبه...الى الشجاعة وفي الطريق رآها وقبل ان تلامس يده يدها, تلونت الوردة البيضاء بلون الاقحوان...وتقوس ظهره كقنطرة الغدير.. لكن رائحة الحب كانت اقوى من البارود والرصاص...فغطت سماء الفضاء الرحب هنا.

هكذا يتواصل العدوان ويتواصل سهري الذي لا ينتهي, فمنذ الايام الاولى "للحرب" وحتى الان لا يعرف النوم طريقه لعيوني.. اظل اراقب واتتبع فذات يوم من ايام الاسبوع الثاني بقيت حتى الصباح وانا اقلب موجات المذياع..طبعا المذياع لانه لا كهرباء تسمح بالمتابعة عبر شاشة التلفزيون.. اتابع الاخبار وعيوني شاخصة من غرفتي الى السماء التي لا تكف عن مطرها الناري...القذائف والصواريخ و القنابل المضيفة والدخانية كل ذلك مطر عدواني يلون سماء المدينة بالحزن والكآبة...ويبسطن اجنحة الرعب فوق السماوات الواطئة لغرف اطفالنا...في تلك الليلة كان القصف والقتل يمتد من شمال قطاع غزة الى شرقها ومن جنوبها الى غربها في تلك الليلة كان الدم الفلسطيني ينثال على جنبات الطرق وداخل البيوت الامنة في حي الشجاعة الفقير...و في بيت حانون..وكانت هجرة مؤلمة من الشمال والشرق باتجاه وسط المدينة التي لم تعد تتسع...الناس النازحون من بيوتهم يفتشون الارض ويلتحفون السماء..على الارصفة يجلسون هم واطفالهم هائمون على وجوههم لا يعرفون النوم فقد اضطروا لترك بيوتهم التي اكلتها قذائف العدوان, فخلفوا كل شيء ورائهم ومنهم من نجا وترك خلفه الاولاد الجرحى والشهداء..هكذا يومياتنا تتواصل من فقد وقهر وحزن.. أحاول تلمس اضاءات ما, اوسع منافذها سيما في عيون اطفالي...الذين كبر قلقهم وهم يرون تواصل العدوان والعيد يقترب فبدأوا يسألونني: متى سنشتري يا ابي ملابس العيد...وهل سيأتي العيد؟ اسئلة كثيرة يطرحها الابناء, الذين يسعون الى لحظات هدوء وفرح كبقية الاطفال في هذا الكون... وانا تحتشد الالام في صدري جراء اسلئتهم التي أو من بشرعيتها, وبحقهم في الحياة, ولكن واقع المدينة المنكوبة والمكلومة يجعلني اتروى باختيار اجابات.. مواربة, ولكن احاول من خلالها ضخ الامل في عروقهم.. نعم يا ابنائي الاعزاء سيأتي العيد وسنشتري الملابس مهما طالت الحرب.. وغدا ستفرحون بيوم جديد وهذا اكيد

لكن ابنتي المشاكسة "لمى" وبحسها العالي.. ادركت انني اسيرهم واحاول تخفيف الالم والخوف الذي يسري في عروقهم... ولم تخجل من مصارحتي- سيما انني علمتهم وعودتهم على ذلك- انت تضحك علينا يا بابا فانا رأيت على التلفزيون بيوت الشجاعة المدمرة والشهداء والناس الذين تشردوا حولنا يسكنون المدارس وينامون على الارصفة... نعم يا بابا رأينا ذلك وهل بعد هذا يكون عيد, واي محال ستفتح في هذا الجو الكئيب واي نفس تستطيع مقاومة الحزن في هذه الاجواء؟؟ نعم لقد ادرك الابناء ان العيد ذهب ادراج الريح, فلا مكان للفرح بالزيارات و الجولات الترفيهية في المدينة التي تقطر دما وحزنا

سبعة وثلاثون يوما كأنها دهر, يمشي السلحفاة.. رائحة الموت تفوح في كل الارض... وركام البيوت المدمرة لوحات سورالية في متحف النازية المعاصرة, فهذه امرأة ذاهلة تحدث نفسها عن فقد عزيز, وتلك شاردة تطارد ظل حبيبها الغارق بدمه, وتساءل نفسها: هل يعود؟؟  
واطفال يفتشون بين الركام عن مقتنياتهم الشخصية.. عن العابهم, عن ذكرياتهم تحت الدمار, ولكنهم يتسمون ربما يهزأون.. نعم انهم يهزأون من الدمار... واداروا وجوههم نحو البحر.. يضحكون ويضحكون.. وكان احدهم ينشد شعرا:

هنا غزة

على الايام باقية

وشامخة كموج البحر..

وعاصفة على الربان,

لوطاش تقدير

وساءته بوصلة وخلجان

فلا... لا توهم النفس يا طغيان

فإما ان نكون,

وغير هذا وهمك السكران

هنا غزة

على الايام عنوان

ففيها مر ايام... لكل الغاصبين,

وانت نصيبك الخسران



## في علبه الحرب

وسام عويضة

أنا غارقٌ في هذه الحرب حتى أذني، والحرب امرٌ لا يعرفه سوى من يعيش الحرب.  
”أيتها النجمة هناك، أرجوك لا تكوني طائفة“

أنا أهذي، عقلي خارج السيطرة، تتحول الحرب إلى علبهٍ مغلقةٍ تضيق يوماً بعد يوم، جسدي متيبسٌ، ولغتي جافهٌ وممزقة.

الأمر أكبر من الخوف، رغم أي خائفٍ طبعاً، لكن خوفي يغرق في دوامة القلق على كل شيء، حتى على سلامة عقلي.

أشعر بالحزن الشديد، أبكي حد التقيؤ أحياناً، لكنني أفعل هذا سرّاً، فالحزن مخجلٌ جداً الآن، والبكاء أمرٌ ساذجٌ أمام كل هذه البشاعة.

لا حبال لأتسلقها، أنا في قاع علبه الحرب، خلاط الدم الذي يقتل كل ما تبقى من إنسانيةٍ وعقلٍ، الحرب خارج إطار المعقول،

الموت احتمالٌ قريبٌ ورحيمٌ أيضاً، كل الاحتمالات الأخرى احتمالاتٌ أكثر سوءاً وسواداً،

من هو الصديق الذي يمكن أن يكون ميتاً الآن؟، أيهم تحت الأنقاض يتنفس وتمر حياته القاسية أمامه في ظلام ما بعد الغارة؟، كيف تبدو المدينة الآن؟، هل ستنتهي الحرب وأنا قطعةٌ واحدة؟، أين سأقضي الليلة القادمة؟، هل هناك ليلةٌ قادمة؟، كيف سيمر الوقت حتى الصباح التالي؟، هل هناك صباح؟؟

الخيار الأسهل في الحرب هو الموت، والانتظار هو الأسوء.

هل أنا حيّ الآن؟

هل أنا ميت؟

\*\*\*\*

محفوظٌ أنت،

تقف وحيداً على حافة الحطام الهائل للمدينة والناس،

وحيدٌ وحي،

تنظر إلى وجهك الشاحب في المرأة، وتضحك من فكرة "الغد" التي تمد لك لساناً طويلاً وأزرق، غريب،

وفارغٌ إلا من صداع رأسك، وأحتمالات القذيفة القادمة

محفوظٌ أنت

تلفظ أنفاسك قهراً، وتعد الموتى

تعد ثقوب الحرب، وأفكار الحرب، وقصص الحرب

تسجل صوت الطائرة، وصوت الصاروخ، وصوت المدفع

تغلق عينيك عن الوجع الممتد، عن الأشلاء،

لكن صراخ الأطفال قويٌّ جداً

ورائحة الدم تعذب روحك في العتمة

والليل طويلٌ

وأزيز الطائرة يلوث روحك

"محفوظٌ أنت لأنك حي"

\*\*\*\*

لم أعد أعرف كيف أجيب على الأسئلة التي لا تبدو غبية سوى من هنا، أقصد من غزة، أقصد من داخل إعصار الموت الذي يجرف كل شيء؟

يسألني صديقي البعيد، كيف حالك؟

معقداً هذا السؤال يا صديقي، أنا نفسي لا أعرف كيف أسأل عن "حالي"، هذا الحال الممزق جداً حد اللاتعريف، هل لحالي "كيف"، وكيف يمكن أن أعرف كيف حالي، أو كيف يمكن أن أطرح هذا السؤال، ومتى؟

أنا حتماً أريد أن أفتح حواراً إنسانياً من نوع ما مع "أحدهم" خارج هذه الحرب، لعلي أشعر ولو للحظةٍ أي ما زلت جزءاً من هذا الكوكب، أو واحداً من الأحياء، لكنني لا أستطيع؟

فحتماً سيسألني ذلك الانسان على الطرف الآخر من الحياة "كيف حالك" وسيبدو غيباً جداً أن لا أعرف الإجابة.



## حرب أخرى وتمضي

ناصر رباح

هي حرب واحدة أخرى وتمضي، هكذا قلت في الأيام الأولى للحرب. في الأيام الأولى لم تكن تعني الحرب لي شيئاً أكثر من مجرد ضيف ثقيل سوف يأخذ وقته ويمضي. فنحن في غزة لا تشغلنا الحرب كثيراً فنحن في حرب دائمة ويومية مع الحياة. حرب من أجل الكهرباء ومن أجل المياه ومن أجل السفر ومن أجل فرص العمل. لقد اعتادت الحرب علينا واعتدنا عليها، في غزة نذهب للحرب كأننا ذاهبون لنشجع فريقنا في لعبة الكرة، ونهتف ويشند صراخنا كلما أحرزنا شهيداً إضافياً أو هدم لنا بيت آخر. نحن في غزة مصابون بهستيريا الشهادة فلم يعد لدينا شيء نقدمه لحياتنا البائسة سوى الموت. لذا نذهب إليه باحتفالية كبيرة وبضجة مبالغ فيها.

تسكن في غزة بكهرباء حسب الجدول، ومياه بائسة لا تصلح للشرب، وتعليم وصحة وسياسة أشد بؤساً، مسحوفة كرامتك لو فكرت في السفر، أولادك الجامعيون يبيعون السجائر على الأرصفة مع حبوب الهلوسة، وبناتك يعانين العنوسة ويفقدن أيامهن الجميلة خلف شاشات الفيس بوك. ماذا يمكن أن تقدم حينها للحياة سوى الموت! لذا تذهب غزة للحرب كمن يخرج من سجنه الطويل باحتفالية كبيرة وبضجة مبالغ فيها.

ولكن ما إن تبدأ الحرب حتى يتغير المزاج ليصبح المرء بليداً إلى حد لا يصدق، بحيث تسمع صوت انفجار قريب على بعد أمتار من بيتك ولا تتحرك، وتظل تشكك في الأمر، لا خطر يا أولاد لا تقلقوا! وتكذب، فقرار الخروج من البيت يطن بشدة فوق رأسك، الخروج من البيت يجعل من الحرب حربك الخاصة، حربك المريرة التي لم تختبرها من قبل. هو بيتك إذن، هو ساحتك الأخيرة، هو الخندق، وخط المواجهة. غير أنك تتذكر فجأة وبلوعة شديدة أنك لست جندياً ولا دخل لك بحوار

الدبابة والبيت، لا دخل لك بجدل القذيفة والجدران. ولكن من سيسمع شكواك الآن! وهكذا دفعني الله في التجربة، وقصف البيت ونحن فيه، وطالت القذيفة الغرفة العلوية وانهمرت الأتربة والشظايا وفتات الحجارة في كل مكان، كان علي أن انقذ والدي المريض بالكبد، ووالدي المريضة بالزهايمر، وعمتي المسنة الصماء، وزوجتي وأولادي الخمسة. كان علي أن انقذ مستنداتنا وأوراقنا الهامة وأن أحمل ما يمكن حمله وما لا يمكن تعويضه. فأنت تخرج من البيت وربما لن تعود إليه أبداً. ستفعل كل هذا بسرعة فائقة وبتركيز شديد، لن تهتم لصراخ البنات ولا لآلام المرضى، لن تفكر في احتمالية وصول القذيفة التالية هل هي الآن أم بعد ساعة؟ ستكون بارداً تماماً بلا قلب ويقظاً وحاداً ولن تخطئ. أيها المايسترو: كل عيون جوقة الذعر تشخص نحوك.

الحرب تعيد تعريف الحياة، وتعيد تفسير كينونتك، تعيد حساباتك مع الوقت والتاريخ. هل أنت بالفعل الشخص الذي تدعيه من إنسانية وحضارة وثقافة وجمال وتمرد وإبداع؟ أم أنك شخص أو كيان ما آخر مختلف تماماً عما تخيلته يوماً؟ هل أنت بالفعل تنتمي لهذا العام ٢٠١٤؟ أم أنك هنا بسبب خطأ ما صنعتها آلة زمن فاشلة في فيلم سخييف؟ أن تصبح مهمتك الأساس توفير كوب ماء صالح للشرب، أن تجد إضاءة لتذهب إلى دورة المياه، أن تجد بيتاً غير بيتك، أمناً من الموت، بقليل من الكرامة والكبرياء أمام مستضيفيك، أن تجد وقتاً لتبكي حياتك التي تفر من يديك بين حرب وأخرى. أنت لم تعد شاعراً، ولا حتى إنساناً حين تحمل أولادك من بيت لأخر مثل قطة مذعورة، تطاردك أصوات الرعب وصرخات الصغار وفتات القذائف. تلك الفتات الحديدية البشعة التي امتلأ بها الشارع، والتي ستجن حين يصح جمعها هوية أطفالك الجديدة. أنت لست من لحم ودم حيث تبصر أشلاء جيرانك موزعة كلوحة إعلانات على الرصيف، وتستمر في خطوك بدواعي: أنها الحياة. لست من لحم ودم مطلقاً حين ترقب عداد القتلى وهو يقفز أمام برود قلبك من مائة لألف كعداد آلة تزويد وقود لسيارتك المتعجلة. أنت لم تعد أنت، فالحرب أعادت تعريفك لنفسك. أنت مجرد غبار يبعثره هواء متوحش مع كل طلقة مدفعية. بري يطارده الجوع والصيدون والطبيعة القاسية، بدائي بلا أوراق ولا صور ولا كتب ولا معلومات ولا مستقبل. أنت آخر في الحرب، فلا ترهق روحك في الكتابة، ولا حتى في التأمل الجميل فلن يفهم أحد غيرك هذا الهراء، فماذا يعني بالله عليك أن تكتشف فجأة أن الحرب تعيد تعريف الحياة! هي حرب واحدة أخرى وتمضي.

في الحرب التي لا تنتهي.

ضعوا قلوبكم تحت الأسرة أحياناً مرهقةً مهملة، فلا يمر غبار الحروب عليها، ولا تعرفون.

ضعوا قلوبكم على الرف ساعةً قديمةً معطلة، فلا رعشة القصف تعبركم، ولا تحزنون.

في الحرب يتسع القلب، يصير قارباً للصغار، ساعة للصفاء، سماءً للكتابة.  
في الحرب يختنق القلب، تهج الكلمات، تذوب على حافته العصافير ندى أحمر، يرفرف على سارية شاهقة شاهقة، يسمونها الوطن.

في الحرب تترك قلبك جانباً وتنقذ صرة الأوراق: صورتك القديمة عند باب المدرسة، ملكية بيتك المهذوم، شهادة ميلاد لابنك، قلبك لا يهم الآن. ستنتظر الحبيبة انتهاء الحرب كي تسال : هل كنت تذكرني ؟  
في الحرب لا أحد يصدق قلبك المحزون. يصعد المسعفون على ساعديك ليسندوا سقف البكاء، الطائرات تحط حولك ظلها، وتطير روحك مثل سرب من زجاج . الوقت أنت ولا يدل شظية على الجرح غيرك، ربما تشتاق أن ترمي على الأولاد قلبك طابة، ربما تشتاق أن تفتح الشباك دون رصاصة امرأة طائشة، لا بأس هي حرب واحدة أخرى وتمضي.

في الحرب أنت أدخلتني التجربة ، أنت من جر غيلان الخرافة نحو باي، أنت من نسي الشواء على الجمر عمداً، وأصرخ: إنه قلبي، ولم تسمع، ولم تغفر، ولم تترك من الحب شيئاً فيه، من الكره شيئاً كي أتم القصيدة.

في الحرب أنت خدعتني بالنجاة شاحباً كسحابة من دخان.

في الحرب ينتحر الوقت،

يمر اليوم حين تتاح دورة المياه لك، والساعة فسحة ما بين بناية عانقتها القذيفة، وأخرى تفتح صدرها للشهيق الأخير في شارع سيغادر التاريخ حالاً، والدقيقة، لا دقائق في الحرب، حيث يقاس الوقت بالشهداء: مئة، وألفاً.

في الحرب نجلس، حيث لا سيقان تحملنا لركض .

في الحرب تتبعك القذيفة مثل كلب وفي، وجار ممل يبادلك التحية والنكتة السيئة، تحفر في الذكريات وشماً على شكل بيت، كان بيتاً جميلاً قبل وصول القذيفة.

في الحرب يخجل الأبناء من نزواتهم، يكبرون أمامنا كأننا نلتقي بجيران قدامى. كيف حالك يا بني؟ ما زلت أركض يا أبي، ما زلت أركض، واحداً في سباق الجنون.

في الحرب تغبطك الحياة على الحياة، بيوت الغرغرينا، نوافذ الهستيريا ، وإكزيما الشوارع، كل ما في المشهد المذعور يغبط أنك تبصر كل هذا، وليس يمكنك البكاء.

في الحرب لست من لحم ودم، أنت آخر في نفس الثياب، مدماة ومنتسخت وكاذبة وتشهد أنك لم تمت بعد.





## أنا وأولادي والعدوان على غزة

سما حسن

عشت حياة غير عادية، حاصرني غزة بعاداتها وتقاليدها وقوانينها، ولكنني استطعت أن أنتصر على كل هذا وأشق طريقي مع أولادي الأربعة الذين وصل ثلاثة منهم للمرحلة الجامعية واحتفظت بحضانتهم متحدية الجميع في اصرار واخترت أمومتي وقصرت حياتي عليهم، والآن تأتي الحرب على غزة لتقف في منتصف طريقي معهم، لنجد أنفسنا أنا وهم" ولدين وبنيتين" في صراع جديد مع آلة الموت الصهيونية، ورغبة لا تتقهقر في الحياة وتحقيق أحلامنا....

لذلك أكتب لكم هنا جزءاً من حياتي أثناء العدوان مع أولادي الأربعة كيف عشنا وكيف خفنا وكيف تجاوزنا، وكيف لا زلنا نحلم؟

### حرب في رمضان

كانت الحرب في رمضان، وكان الحر والصيام هما سيدا الموقف في بداية الشهر، ولكن دخول القصف والغارات على الخط غيرا كل شيء، فأصدقكم أننا لم نعد نشعر بالجوع والعطش بقدر شعورنا بالخوف والرعب والترقب خاصة أن الغارات كانت تشتد مع أوقات الافطار والسحور وكأن الصهاينة يعلمون أهمية تلك الاوقات بالنسبة لنا، فعانينا كل المعاناة وكنا نجلس أرضاً لتناول الطعام على " طبلية" وتركنا غرفة الطعام بسبب تهشم نوافذ البيت، وخوفنا من دخول شظية أو بقايا قذيفة ونحن نجلس إلى المائدة المرتفعة.

## في ليلة العشرين من رمضان

سقط شهداء في بيتي ولذلك حكاية

في تلك الليلة عادت الكهرباء مع منتصف الليل مما يعني أن وقت السحور لم يحن بعد ، ولكني قررت أن استغل الكهرباء التي تصل لساعة أو أكثر قليلا، ومثلما يتندر أولادي فهي تأتيك " مسحة زور" ، ثم تذهب، ولأن أنبوبة الغاز قد فرغت في هذا الوقت الحرج بالذات فقد أصبحت أؤمن فعلا بأن المصائب لا تأتي فرادى.

وهكذا تصرف ، وضعت الماء في الابريق الكهربائي الذي يطلق عليه العامة في غزة " الكمكم" وانتظرت حتى غلا الماء فنقلته إلى أنية حفظ السوائل الساخنة " التيرموس" واضفت له الشاي واحكمت اغلاقه لكي اضمن بقاءه ساخنا حتى موعد السحور، ثم قمت بتشغيل الفرن الكهربائي الصغير وحرصت بدخله اربعة ارغفة لتسخينها، فما لدي من خبز ليس طازجا ولا هشاً وبالتالي فهو لا يشجع كثيرا على تناوله، فلم أعد قادرة على الخروج لشراء الخبز الطازج يوميا، وهكذا تركته في الفرن لكي يسخن كما أفعل دائما ثم اقوم باخراجه من الفرن ولفه بقطعة من قماش الصوف ثم اضع فوقه بطانية وذلك لكي اضمن بقاءه ساخنا، وأفعل ذلك كثيرا في فصل الشتاء.

ولكن تجدد القصف فجأة وبصورة وحشية جعلني انسى تماما أرغفة الخبز في الفرن، وبدأنا نتجمع في غرفة ابنتي المنزوية لان القصف كان يحيط بنا من جهات ثلاث وقدرنا أن غرفتها ستكون آمنة، ولكن بعد دقيقة بدأنا نشم رائحة احتراق وهنا تذكرت الخبز الذي تركته في الفرن. اسرعت إلى المطبخ رغم صيحات صغاري وأطفأت الفرن بسرعة واخرجت الأربعة المتفحمة ووضعتها على باب الشقة لكي لا تملأ رائحة الاحتراق البيت كله، وعدت لدوري التقليدي وهو دور المنبطحه ارضا في غرفة ضيقة.

بعد انتهاء موجة القصف وهدوء الجو حولنا قليلا، خرجنا من الغرفة وأدخلت الأربعة إلى داخل الشقة فبدأ منظرها متفحما ومنتفخا وهنا علق ابني الأكبر بسخريته المعتادة: وهكذا ونتيجة للقصف المتجدد بصواريخ ال اف ١٦ فقد استشهدت اربعة أرغفة في فرن ماما وتحولت لأشلاء متفحمة، وسيتم تشييع جثمانها بعد صلاة الفجر وتناول ارغفة اخرى "رحمة ونور" على روحها.....

## أزمة مياة

استيقظ ابني صباحا وقال لي: ماما بدي اخذ دش ، حرام هيك، صار لي أسبوع بأحلم بدش ، طبعا

أزمة المياه حدث ولا حرج بسبب العدوان، واصبحنا نشترى الماء بالصهاريج وندفع مبالغ مضاعفة  
تثقل ميزانية بيتي، فأجبتة: انا موافقة

فرح ابني وأخرج ملابسه من خزانته ولكني قلت له محذرة: خلي بالك أمامك ثلاث دقائق لتنهي  
" الشاور " الخاص بك

دقيقة لتخلع ملابسك

دقيقة لترش جسمك بالماء

دقيقة لترتدي ملابسك

فرد علي: الافضل أن أعلق على صدري لافتة وأكتب عليها: هذا الشاب سبق استحمامه.....  
ثم أكمل في حسرة: لو ما في قصف على شط البحر كان رحت أخذت غطستين في البحر وخلصنا.....  
..... وأيضاً وفي ظل تقليص الماء أقسمت لأولادي اني اتوضأ بكوب ماء صغير سعته نصف لتر،  
ولم يصدقوا فتوضأت أمامهم كنموذج يجب ان يتبعوه، وامعانا في توفير الماء اشترينا بعض أقراص  
الفلافل من البائع المحاذي للبيت ولفها بالبائع في كيس ورقي ، وحين اصبحت على المائدة قبل  
الافطار لم اضعها في طبق بالطبع، فيجب أن اوفر طبقا كي لا اضطر لغسله بالماء، فأمسكت بالكيس  
الورقي ومزقته نصفين وابقيت على اقراص الفلافل بداخله واصبح الكيس بمثابة الطبق.....  
كم أسرح وافكر باختراع طرق جديدة لتوفير الماء، ماذا عن التيمم للوضوء؟

## هدنة أم ماراثون بين الحياة والموت

قرار الهدنة لمدة ٧٢ ساعة أعاد لي ذكريات كتاكييت جدتي حين كانت تطلقهم من القن ليسرحوا  
وقت الضحى في حوش الدار هنا وهناك ثم تجمعهم بعد قليل مع أمهم وتعيدهم للقن وتحسن  
اغلاقه خوفا عليهم من الققط.

ولكن نحن في غزة خرجنا من القن وسنعود له في انتظار الموت ثانية على دفعات ورشقات ، ولكن  
رغم ذلك كان خروجنا لحوش الدار يشبه كثيرا تقافز كتاكييت جدتي وحيرتها أين تقف واين تتقافز  
وكانها تعلم أن فسحتها قصيرة وعودتها للسجن في القن المظلم قريية وطويلة.

في قلب المدينة لا يجب ان تفكر بالشراء او الذهاب للبنك أو محل الصرافة، فقط عليك النظر نحو  
الحشود والتجمعات البشرية فالجميع على عجل ، وانت مثلهم ولكن ان فكرت أن تقف في طابور

البنك مثلا فسينقضي الوقت ولن تجد وقتا لتقف في طابور بيع خزانات المياه الضخمة لتخزن الماء. احترت من اين ابدأ حين كنت ازحف من طرف المدينة إلى عمقها، نظرة من خلال نافذة سيارة الاجرة إلى الطوابير حول البنك جعلتني لا افكر بالمرور أمامه.

طردت فكرة طابور البنك خاصة مع ما اشعر به من انهاك خصوصا أي لم انم دقيقة بسبب تزايد وتيرة القصف قبل اعلان الهدنة، وقررت أن ابحث عن محل يبيعي خزانا للماء.

اشترت الخزان وطلبت من " سائق توكتوك" أن يوصله لبيتي، وبحث عن بعض الخضار لأشترتها فوجدتها غير طازجة وبعضها غير متوفر حتى النعنع والبقدونس وكنت بحاجة لهما لأني قررت ان اعد طبقا من الفتوش اليوم.

الخوف واللاهث والقفن الذي ينتظر ، ومواعيد الموت المؤجلة والمنتظرة كلها تزامت في عقول وقلوب هذه الحشود والتجمعات البشرية ، وفيما كانوا يتعاونون لحياة قصيرة كان هناك من يستعد لتشيع أقارب واحبة تم العثور عليهم بين أنقاض انهارت منذ أيام فوقهم.

وهناك زيارات للمشافي القريبة، وجلسات قريبة في بيوت عزاء، ونظرات متوجسة نحو السماء تسأل : ما القادم؟ وهل هو الأسوأ....؟

## أولادي.....وفد مفاوضات

لا يخلو بيتي من المناقشات السياسية في ساعات انقطاع الكهرباء، حيث يدلي كل واحد برأيه بخصوص الوضع الراهن، ويحتدم النقاش واحترارنا في الانحياز لأحدهم دون الآخر، بالأمس جلسنا نتناقش بشأن المفاوضات الجارية في القاهرة واقترح ابني الأكبر وهو أكثرنا عقلانية ولا ينحاز لمشاعره غالبا مقترحا حيث قال لي : نتناهو يطلب ضمانات دولية لكي يتأكد أن مواد البناء التي سيتم ادخالها لغزة لن يتم استخدامها في بناء الانفاق، يعني يا ماما لما بدنا نصلح شبك الحمام في شقتنا والي انكسر مع اطاره بعد قصف بيت الجيران المجاور وأصبح بحاجة لكيس من الاسمنت لتثبيت الاطار في الجدار، معنى ذلك علينا ان نطلب مندوبا من الامم المتحدة لكي يتابع اجراءات شراء كيس الاسمنت وعملية الترميم واذا تبقى شيء من الاسمنت عندنا نسلمه للمندوب.....

ضحكنا كثيرا وهكذا هي مناقشاتنا التي نحاول ان نخرج بها من جو الحرب حولنا والتي جعلتني اكتشف ان ابناء هذا الجيل لديهم الوعي والانتماء الوطني وليس كما كنت دائما اردد أمامهم: انتو جيل انترنت، انتو جيل فيس بوك ..

## رسائل الحرب ...

الغصن الذي انكسر في الحرب  
كان يد طفلة

نجوى شمعون

كم جميل أن يكتب لك إنسان وهو يواجه الحرب والموت ... كم صعب وقاس ذلك.  
جميلة هي كتابة زمن الحرب لأنها ترقى بالعلاقات الإنسانية إلى مستويات من الصفاء والنبيل يصعب الوصول إليها خارج الحرب. فلكي يكتب إليك إنسان باستمرار في الحرب, يجب أن يرى فيك مجموعة من القيم الإنسانية التي تشكل نقيض الحرب . إذا كانت الحرب حربا, يجب أن يرى فيك السلام , إذا كانت كراهية وعدوانا , يجب أن يرى فيك الحب. إذا كانت دمارا, يجب أن يرى فيك البناء. إذا كانت خوفا يجب أن يرى فيك الأمان. وإذا كانت موتا, يجب أن يرى فيك الحياة.  
صعبة هذه الكتابة, لأنك أنت المكتوب إليه, مطالب لأن تكون في مستوى مماثل من الرقي والنبيل, وأنت لا تعيش الظروف ذاتها التي يمكن أن تساعد على التواصل بشكل قريب مع جوانب الروح الأكثر إضاءة.

قاسية لأنها تحرك إحساسا سلبيا وقاتلا بالعجز الطفولي. اللاوعي هو صوت الطفل فينا. وحين لا يستطيع طفل إنقاذ شخص يشعر بالتبخيس لذاته ,تبخيس قد يصاحبه مدى الحياة ويؤثر حتى على نوعية عطائه.

المخططون للحروب يلعبون كثيرا على هذا الإحساس بالعجز عند المتعاطفين مع ضحايا الحروب ,ويسعون الى تعميقة بداخلهم لدفعهم مستقبلا إلى التوقف عن التضامن.

حين كلمت نجوى بالتليفون في مرحلة من الحرب. كان صوتها ضعيفا جدا وخائفا ومرتجفا.

كنت واقفة فجلست, فجأة أحسست اني أصبحت طفلة مرتبكة لا تعرف ما الذي يجب أن يقال و يفعل ؟ ما الذي يمكن أن نقوله لإنسان يواجه موتا في ظروف نجهلها تماما؟ يصبح الوضع سوريايا وعمدما في قربه وبعده. فجأة أحسست أن تلك الحرب البعيدة أصبحت قريبة جدا مني ... فشعرت بالخوف... حصل لي نوع من التماهي اللاشعوي مع نجوى... دخلت في روح إنسانة ووجدت صعوبة في الخروج... أو بتعبير أصح, دخلت في الحرب ولم أستطع الخروج منها إلا بصعوبة. أصبحت الصواريخ تسقط من السماء على رأسي ... أصبح لي أبناء شهداء... ومنزل مفقود... وككل من يعيش داخل الحرب... لم أنم تلك الليلة.

بعد ذلك اختفت نجوى...ولأنني لم أكن أعرف كيف يمكن أن أبحث عنها في غزة , بدأت أبحث عنها على صفحات الفيسبوك. أصبح الفيسبوك عالما وصفحاته دولا...أصبح دولة وصفحاته مدنا...أصبح مدينة وصفحاته شوارعها. كتبت لكل من يعرفها ولا يعرفها ,كنت أريد أن اتقاسم ذلك القلق مع اشخاص آخرين, فلم يكن من العدل ان أحمله وحدي. هكذا أصبحت من خلال العلاقة مع امرأة واحدة , قريبة من كل الناس الخائفين على أحبائهم وأولادهم من الموت. أصبحت أعرف كيف يكون الخوف من الفقد في الحرب. والحرب هنا ليست اي حرب. انها حرب ضد غزة وهي جزء حي و نابض من فلسطين الجريحة بكل ما لها من دلالات عاطفية وجدانية حملتها معي منذ طفولتي.

وأنا أبحث عن نجوى في شوارع الفيسبوك بعدما تعطل الهاتف. صادفت فلسطينيين كثيرين , منهم من كان يلعن العرب, خالطين بين أنظمة عربية قد تختار لأسباب استراتيجية وسياسية ألا تتدخل في القضية. وبين شعوب متعاطفة بكل الجوارح ونبضات القلب. تألمت أكثر... رأيت كيف يخطئون بالفهم والإحساس, لكنني فهمتهم.فالتعرض للظلم القاتل أحيانا يعمي ويقتل بدوره. للظلم القاتل صواريخ غير مرئية غالبا ما لا نراها.

أجمل ما في نجوى, أنها رغم كل ما تتعرض له غزة من عدوان وظلم منذ سنين , لم تشكك في نوايانا نحن الذين نحب فلسطين. ظلت تؤمن بكونية المحبة الانسانية , وحين اختارت أن تتوجه بالنداء والصداقة النبيلة الى امرأة عربية في المهجر... قالت لي, ومن خلالي للعرب مثلي الذين يؤمنون بعدالة القضية الفلسطينية. " إننا نراكم ونبادلكم حبا بحب."

فشكرا لها على الثقة النبيلة , وشكرا لأنها اختارت أن تخاطب في الجوانب الأكثر نبلا في الإنسان... تلك الجوانب التي تدفعني أنا وآخرين للتعاطف مع القضايا العادلة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

فريدة العاطفي: كاتبة من المغرب مقيمة في فرنسا

## ٩ يوليو:

قصف عنيف يكسر الظهر , تداخل كل شيء يا فريدة... لا تميز الايام والوقت , نتعب من كثرة رصد الموت للضحايا... نتعب من الألم ثم نواصل... نتعب ولا ننحني أبدا  
الموت في كل مكان يا فريدة , والوضع صعب وخطير جدا.  
مجازر يا فريدة عائلات بتروح كلها مرة وحدة للموت والعدو بيحكي في تصعيد أكثر على غزة خلال الأيام القادمة في كل قطاع غزة القصف لم يتوقف طوال الليل والنهار.  
الموت في كل مكان عزيزتي. كل مكان عزيزي البشر والأرض والحجر والمساجد كل شيء هدف للطائرات الأطفال ايضا هدفهم. عائلات بأكملها قتلوا تحت بيوتهم من الصواريخ.  
من ٣ ايام الطائرات ليل نهار في السماء طائرات مراقبة ورصد اهداف وطائرات تقصف وأي قصف لبيت يروح معه كل البيوت من حوالبه أو أجزاء منها

## ١٠ يوليو:

فريدة صديقتي لا تسألني القلب لولا بقايا النور في القلب لمتنا من الجنون.  
الله سر قوتنا يا فريدة يمدنا بالنور لننهض.  
الوضع خطير جدا . ومع ذلك اتابع كتابة الأخبار أقصد توثيق الاخبار مع مجموعة من الزميلات والزملاء.  
طيب فريدة الوضع صعب الآن .أختي وعائلتها وعائلة ابنتيها هربوا من بيوتهم تعرضت جمعية للقصف بجانب البيت ملاصقة لبيتهم ثلاث عائلات وكلهم اطفال. الهجوم الان اصبح من البحر والسماء. ربنا يحمي غزة كلها.

## ١١ يوليو:

لم أفعل ما اتفقنا عليه أمس يا فريدة. كان القصف عنيفاً كوجه غزة, وهادئاً جاء الموت ,لا أجد وصفاً يليق بهذا الموت حتى وإن وصفت ,كانت مجزرة يا فريدة ,لم أعد أعرف الوقت ولا الكلمات,حين كتبت لك على الشات كانت عائلة أختي في مدينة اخرى وعائلة ابنتيها يتكون البيت لبيت الجيران,القصف لا يرحم يا فريدة ولا يعرف صراخ الأطفال العشرة, لا يرى عيونهم ملء الوجع ,العيون التي تصب من الكأس دمعها,حتى أنا خانتني اللغة ,خانني جسدي وتوقفت

عن تنفس الهواء للحظة، أصابتنى ربكة القصف المتواصل فوق لحمنا، ماراً بالروح ليحصد كعادته ضحكاتنا التي صنعناها بعد كل حرب.

أنا واقفة على كل جبهة هكذا شعرت، وأنا أقرأ على صفحات الفيس طاقات الحقد المنادية بإعدام غزة وهي تنفض عنها الموت.

وفي نفس اللحظة مرتبكة لرؤية شهيد هناك على مرمى البصر، قصف لدراجة هناك، ولبيت دكته الصواريخ فجراً فبكى من وحدته لتعود إليه الصواريخ مرات ومرات. ماذا أقول لك يا فريدة ؟ غزة رغم ذلك تنهض وتنفض كل الكلام، كل الساحة مفتوحة على البدايات، لا الصواريخ يمكنها أن تحسم الحرب، ولا الموت يمكن ان يتكهن بشيء، كل شيء يغلفه موت يكتب الأسماء، وينثر التراب على الأشلاء المنذورة لأهلها.

وسط كل هذا توقفت للحظة لأستدعي نور الله ليمدني بالقوة لأكمل التغطية الإخبارية، لأواصل في وقت من المفروض على كل صحافي ان يصبح جنديا داخل بيته ، أو داخل الميدان. في الميدان يغلي دمي ويفور أما أنا فأصبح واحدة أخرى تغلف دمها برهبة المكان فلا عادت هي كما هي ولا شعرت بنفسها كما هي، لا تعود النفس كما كانت ذاتها، تصبح مغلفة بهواء ملوث من أثر القصف، إنها ذاتها ولكن ليست هي، تقارع الموت وتكمل ما بدأت للحياة. دائماً نحارب لأجل الحياة حتى لو سقط منا دمنا.

## ١١ يوليو

فريدة مهما حدث لي لا أريدك ان تقلقي ما كتبه الله لي نافذ. وما أريدك ان تعرفيه أن وجودك ساعدني كثيرا شعرت بأن معنا قلوبا راقية تشد على قلوبنا وقت الوجع.

المواقف الإنسانية يا فريدة هي أساس الروح بحثها عن السلام لها وللآخرين وهذا ما تفعليها انها رسالتك سواء مع الفلسطينيين او غيرهم إنها رسالة راقية.

انت أكثر وطنية من كثيرين. قلبك يغمره النقاء والحب للإنسانية.

## ١٢ يوليو

في الحرب يا فريدة تفتش في القلب عنمن يسأل عنك وقت الموت، عنمن يتفقد ذكرياتك، وللقلب



أيضا ذاكرته العصية على النسيان، لأننا هنا في غزة لا نستطيع التفكير ، فالجميع يتصل ليبلغ عن هروبه من بيته مع عائلته وجيرانه بسبب القصف، أحياناً نضيع ، لا نعرف على من يجب الأطمئنان، الجميع محاصر بالصواريخ، الجميع يهرب من بيته، الجميع هدف للطائرات، لذا نبحث في الخارج عن من هو أقل ربة منا، ليهدهد الاصابع الراعشة والقلب المكسور ، وإن لم تجد فوحيد أنت في الصراخ و في الغناء لغزتك ، أما الأمهات فينسج الله من نوره خيطا على قلوبهن.

أكتب إليك الآن فيما أوثق خبرا عن خمسة اطفال جراء اطلاق صاروخ على منزلهم بحي الشجاعية شرق غزة. حالتهم خطيرة وكذا القلب.

الكلمات تكتب مبتورة يا فريدة على ساق واحدة تقف. تلکم بعضها فتتهاوى لتصبح اضرة للراحلين. أكتب لأن الكتابة رئة المحاصر في الحرب. نقف مندهشين من واقعنا رغم الحرب. نتأمل وقفنا كل مرة لرى غزة شامخة رغم الحرب.

## ١٢ يوليو :

انها حرب لا ضحكة فيها، لا تفكري برفع شعرك عالياً أو اسداله، لا تفكري بالطعام، وإن فكرت بأخذ حمام "للاغتسال " خذيه على عجل وباركي للماء كل هذا الصفاء رغم الحرب

، لا تفكري بالغد، أنت في اللحظة الآن ، أنت سرها وانكشافها وحقيقتها، كل شيء يتجرد امامك وينزوي، يزداد وهج الروح فيك، أنت المراقب لكل شيء حين تستيقظ روحك وتبصر وتُدرك، هذا كله لن يحدث أو يفهم إلا إذا جربته، لذا لا تحصريني كجسد مادي في الفكرة، الجسد سجن الروح والروح تعيش في كل العوالم الأخرى، لا أفكر بالموت إلا قليلاً، ولا أحد لديه الموعد معه ، يأتي على غفلة منا، لذا اهتمي بنفسك واتجهي ناحية الضوء داخلك.

الموت يحرق بكل غزة الآن، ولا احد فينا يعرف ذلك الموعد، هو يتربص بنا ونحن على طريقتنا نتربص به خائفين فقط من اللقاء ونحن أشلاء، لياخذنا كاملين في فتننا وضحتنا لا ناقصين من قطعة لحم أو من ابتسامة ترتشف الحياة كلها فينا ، هكذا يكون الموت خالصاً لوجه الحياة..

## ١٣ يوليو :

غزة مذبح متحرك يا صديقتي ..وحدها تحارب قاتلها .اليوم لما صار القصف لبيت الجيران بقيت ساعة واقفة بالبيت ، انتظر ، وأقول يا رب استر ، والشارع مليان بالناس ينتظرون ويضحكون

ويصرخون ... لا بديل عما انت فيه الآن ... الاحتلال مجرم لا يعرف الرحمة لا لطفل ولا امرأة ولا صبي ولا رجل ولا بيت او مسجد.

في التغطية للحرب غصبا عنك تشاهد كل شيء, لكنني أحاول عدم التدقيق في الأشلاء. ولا اريدك مشاهدتها لأنها تترك في النفس ما تترك. أما عنا فبمجرد ما نسمع صوت الطائرة... نتخيل كل شيء... هذا الجو النفسي نحاربه بالضحك , وبأشياء كثيرة نحتال على الحرب والموت يا فريدة.

## ١٥ يوليو

فريدة ... يا صوتي نحو العالم

فريدة ... يا يدي التي أقذف بها كل الكلمات لتكتب غزتنا  
لا أعلم إلى متى هذا الفكر أن يبقى وأن يساورني وأساوره

في لحظة الموت لا تبقى في يدي زهرة أو حتى قلم لأقابل به قاتلي، ذلك المحتل الذي يطير في سمائي ليل نهار، يقتل العصافير في السماء وعصافير الطفولة على الارض. أي وردة تلك التي أقبل أن اقطعها من حياتها لأرميها على دبابة تقترب من حدودي ؟ لتخبرها بأني اريد السلام... السلام الفعلي. أي يد هذه التي تحمل الوردة لتقول للمحتل هذه وردة الحياة مقابل الموت الذي توزعه علينا بالمجان. هل سيقبل القاتل بالوردة... ??

الوردة التي تقول نعم للحياة... ؟

أعتقد يقبل بها محملة بأرواح كثيرة من غزة وجيرانها.

## ١٧ يوليو

قتلوا أطفالا يا فريدة. كثير من الأطفال رحلوا امس واليوم وقبل ذلك , قتلوهم وهم يلعبون أو نائمين في بيوتهم. كتبت لك عن عائلة بكر، الأطفال بيتهم قرب الميناء ذهبوا للبحر من الحر , وليلعبوا فلاحقتهم قذيفة وحين هربوا منها رموهم بأخرى.

اه لو أستطيع حماية الأطفال وردّ الموت عنهم... اه قلبي يتمزق عليهم

الأطفال يا فريدة عصافير الأرض وملائكة الكون

## ١٩ يوليو

في الليل يتمدد النوم بعيداً عنا، لا نعرفه كما ينبغي للجسد المنهك، النوم عادة بعيدة المنال، صار أقرب للموت، والأطفال هدف الطائرات هدف القنلة من كل لون وصوت، اجتمعوا لحرب مع الطفل، صوت الطائرة يعلو وكأنها في شراكة دائمة مع السماء، هل من طيور أم غادرت بعيدا تبحث عن أمن في بلاد تتوحش فيها آلة الحرب؟

أكتب لك فريدة: وأنا موقنة أن هذه الليلة أيضاً هرب منك النوم، وهربت روحك أحسها تحوم في سماء غزة لعلها تحمي الاطفال هنا من دبابة تهرس لحمهم..

## ٢٥ يوليو السابعة مساء

قبل قليل قصفوا بيتاً في شارعنا يا فريدة بصاروخين استشهد الاب وابنه مع عشر اصابات منها اصابات خطيرة جدا.

ا قصف البيت وأصحابه نيام ..يا الله لماذا يحوم الموت في كل زاوية وشارع ومئذنة، في كل صليب ويد تفتش عن غدها، امتلأ المكان برائحة الموت ممتزجاً بالدماء الزكية، لا أعرف هل كانوا يحملون بغداد أجمل قبل أن يستفزه صوت الصاروخ؟

الصوت أيضاً يخطف الروح يا فريدة، الصوت يأتي مُعلقاً كل ذاكرة الأرض. في يده، هل كانوا مستيقظين ويعدون فراشهم ليناموا؟ اكتب والطائرة الملعونة تحلق في خيط الحياة الخيط الذي قصفته بنباحها، وأغلقت خلفها كل الأبواب المؤدية للحياة، أبي كعادته خاف ليس الخوف الذي نعرفه نحن خوفه يعيده للهجرة الأولى حين هجرهم الصهاينة بالسلاح والمجازر، نفس الصورة تتكرر لديه أعمق وأشد حفرًا في لحم الذاكرة، كنا نلومهم كيف تركوا بيوتهم وأراضيهم؟ الآن عرفت يا فريدة أن المجازر لا تترك أي فرصة للنازحين غير الحفاظ على حياتهم يسألنا كثيرون هل تهربون اثناء القصف؟ أبي مثلاً كبير بالسن ولا يستطيع الحركة الا بالكرسي المدولب بسبب هشاشة العظام ولا يعلم أن الصاروخ لا يترك أدنى فرصة لنا نحن الذين نقفز مسرعين من امكنتنا لا نستطيع هذا الهروب لأنه ببساطة الصاروخ يمزق لحمنا بذات اللحظة، نتساوى معه الراكض والمقعد بذات الصفة العجز، ولأن من يهرب حتى قد يطير نصفه العلوي في جهة ونصفه السفلي في جهة اخرى وكأنهما تخاصما. الصاروخ لا يترك فرصة لأحد في النجاة ومن ينجو قد يتركه ينجو ببت في القدمين او في اليد او في الروح. لا أعلم متى ينتهي هذا المسلسل الطويل؟ حقاً لا نعلم متى تنتهي مجازرهم في جسدنا الحي .

يموت الفلسطيني وهو واقف اصابعه على الزناد او في عين محتله.

(هلا فريدة وانا اكتب اليك قصفوا بيتنا بشارعنا ربنا يستر)

كوني بخير دائماً وتذكري: "لا أحد يموت ناقص عمر "

٢٥ يوليوز الواحدة زوالا

كانت رسائلي اليك تخفف عني قسوة الحرب يا فريدة، وتربط على قلبي بقبلة. كل ليلة كانت أعنف مما سبقها، اطفال يصعدون للسماء، قلوب تنهاوى، جثث تتفحم وأقدام تدوس في هروبها ومن خوفها فوق الأجساد الميتة. لي هنالك صديق هنا نكتب سوية الأخبار نوثقها ونضحك نبكي ونتبادل النكات والأغنيات، حتى وجه آخر للحرب تكتشفي ملامحك إنسانيتك وإنسانيته ضعفك وضعفه في الحرب، تتبادلين الأخبار فيبكي على اطفال هربهم الموت بقسوة، ونجمع شملنا وننهض بعد كل مجزرة أو بعد كل توثيق، هذه الحرب أخذت أشكالاً كثيرة، عرفت منها رغم جبروتها أننا نصمد ليولد الإنسان فينا الإنسان الذي قتلته الأسلحة وأحياه الموت، نعم الموت يجعلك تبصرين الحياة أقوى وأجمل وأبهى، يجعلك اكثر ألفة مع الموت، أكثر ظناً بالله وبالنجاة وبالحياة.

٢٦ يوليوز الثامنة مساء

انتهى وقت الهدنة يا فريدة. امتدت من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساء. لكن طوال هذه الهدنة المزعومة كانت الطائرة تحلق في سماء غزة. الآن عادت الطائرات الحربية أيضاً وعادت المدافع لقصف وتقصف غزة اراضيها ومواطنيها.

وقت الهدنة تم انتشار الكثير من الجثث تحت الركام وأنقاض البيوت تقريبا أكثر من ٦٠ شهيدا تم انتشارهم . وصل عدد الشهداء ١٠٠٠ شهيد، هل هذا العدد كافٍ للمجتمع الدولي ليوقف الحرب...؟! هل يكفي عدد الأطفال لتصمت الحرب.

٢٦ يوليوز العاشرة ليلا

الان هدوء فريدة... لكن طائرة تزعجنا... هي طائرة استطلاع يسمونها "الزنانة" تبقى ليل نهار تزن بصوت مزعج جدا لا نعرف معها النوم وهي مهيأة للقصف في أي لحظة... قصف إنسان، أو بيت ، او مسجد.

## ٢٧- يوليوز

هههه كمان شوي بدي اصبخ شعري بلون "احمر برغندي" انتصارا للحياة.  
اقصد أحاول أن أنتصر للحياة... أحاول يا فريدة.. لكن كل غزة مفجوعة، لا اعرف الوصف، فقدنا  
القدرة على الكلام والكتابة كما كنا.. هل سترجع كما كنا؟ ....

## ٢٨ يوليوز

سأخرج... أنا الماكراة الوحيدة الزاهبة للاحتفاء بالحياة يا فريدة، فيما وجوه الناس عابسة تفتش  
عن فرحتها المنهوبة في الحرب، وعيون الأطفال المدهشة تبتكر ضحكتها للهواء الطائر، الجميع منذ  
الصباح يخرجون لمعايدة الأقارب، لكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو الحرب وما تلاها، لا احد  
يتحدث عن العيد كعيد حتى السلام يكون غالباً سلامتكم من الحرب. الحرب التي افتزست كل شيء  
في يدها ولم تمض بعد، واقفة او جالسة تنتظر ضحاياها الجدد، أخرج لأجدد الحياة في نسيج الروح،  
علينا نحن العابرين في جوف الحرب أن نجدد البيعة للحياة، أن نهض

ونرفع للحياة عالياً نخب الحياة. سأخرج وإن عدت كتبت لك في حال

... لم تنفصل الكهرياء نصف ساعة وأخرج، أعرف ما سأراه سلفاً حفظته عن ظهر قلب، العيون  
التي تتفرس الأجساد للتأكد من كونها على قيد الحياة لربما هذا التفرس لتعمق في نفسها فكرة  
أنها على قيد الحياة، والعيون التي تفتش عن دليل في العيون، دليل على الحياة برمتها، الثقل الهائل  
للتفسير للاحساس العالي بالحياة، هل ندركه وسط استهداف مشاعرنا وقت الحرب المستمرة حتى  
اللحظة لقنص إنسانيتنا.

## ٢٩ يوليوز

لي صديقة تأخذ حبوب المنوم لم أرها الليلة على الفيسبوك، ربما ماتت من الخوف فقط.. الليلة لا  
تشبه أي ليلة يا فريدة قاسية جدا والأكثر امتلاء بالموت، انها الليلة الأعنف والأقسى علينا جميعا.  
حتى اللحظة الطائرات في السماء واحيانا على انخفاض كبير لتقنص من تريد، ربما طفل آخر يلعب  
أمام باب بيته، أو داخل غرفة نومه، كوني بخير دائما، سانام الآن او أحاول النوم ليلة أمس كانت  
حافلة وعنيفة جدا وقاسية

.....: كلنا في غزة توصلنا أن من له حياة سيعيش ومن اختاره الموت بآلة القتل سيوت ،هكذا يصبح الموت أقل وحشة ووحشية يا فريدة.

### ٣١ يوليو

لم يعد تبادل أغنيات فيروز وغيرها يفيد يا فريدة .. صار كل شيء باهتا وشاحبا كالموت،محاولات الاحتيال على الموت صارت صعبة جدا الطريق إلى الحياة ممتلئ بالموت يا فريدة ,كلما رفعت روحك عاليا بعيدا عن الموت نادتك الحرب،إنهم يقتلون الإنسان ينهبون روحه. ....

### اب ١

الوضع غير واضح يا فريدة حتى اللحظة ، في منطقة حي الجنية بيوت امسحت عن الأرض ويوجد قناصة ،النازحون صاروا بالآلاف في المدارس.

وصل عدد الشهداء حتى اللحظة ٦٣ شهيدا ،هذا غير المفقودين والشهداء تحت الأنقاض أو في الشوارع لا تستطيع سيارات الاسعاف الوصول اليهم وان وصلوا تستهدفهم الطائرات الحربية , استهداف ثلاثة مسعفين وصلوا جثتا متفحمة للمشفى.

هذه هي الحرب يا فريدة , والكتابة في الحرب هي ابنة الحرب بكل هواجسها وانزياحها.

أن أكتب أه الكتابة هنا مختلفة كأنها لغة على عكازها تحاول أن تقف لأرى وجهك. نور وجهك يقودني للخارج لأحمل أصواتهم أصواتنا جميعا في المقبرة الجماعية ،والهدنة يا فريدة تشبه الحرب كثيراً، نعرفها حين تهبط كطائر مفترس متعطش لدمنا هي أيضا تأكل لحمنا كالحرب تماماً لأن صانعيها هم أيضا صناع حرب ، ما أن يبدأ اعلان الهدنة لساعات حتى يكمل القصف دورته في كل مكان

لابد ان لا نهاية إنه استمرار للطائرات والمدفعية لتنهب الأرواح بكل الطرق الممكنة والغير ممكنة ،ما أن تحتمي عائلة مثلا بأكملها تحت الدرج ،حتى تصبح تحت الأنقاض ،صاعدة مرة واحدة نحو السماء،أكلت الحرب منا كثيراً. وكذا الهدنة المؤسسة أكلت مثلها في محاولة للسباق على لحمنا.









أوراق فلسطينية



## روحي الخالدي: المعرفة الموضوعية والنظر السياسي الحديث

د. فيصل دراج\*

شكّلت النخبة الفلسطينية المتعلّمة من نهاية القرن التاسع عشر إلى وعد بلفور عام ١٩١٧، امتداداً للنخبة العربية المستنيرة في المشرق العربي، فعالجت قضايا الحرية والاستبداد، واحتفت بالتعليم وتنشئة العقول المفكرة وتأمّلت الفرق بين قوة الغرب وتخلف العرب والمسلمين. وكان على المتعلّمين الفلسطينيين، لأسباب فُرِضت عليهم، أن يلتفتوا إلى التهديد الذي جسّده المشروع الصهيوني: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". ولعل الشعور بالتهديد، كما بتفوق "الآخر"، هو الذي أيقظ لدى المتعلّمين الفلسطينيين وعياً مبكراً بضرورة "التعرّف على الآخر" وكسر الانغلاق العثماني الموروث.

أعطى روجي ياسين الخالدي (١٨٦٤ - ١٩١٣)، الذي رحل قبل قرن من الزمن، صورة عن المثقف الفلسطيني الحديث، الذي نقد السلب المسيطر في مجتمعه، وقارن بين مجتمع فلسطيني تقليدي ومشروع صهيوني "وافد"، تسلّح بالحدائث الغربية. وعلى الرغم من نباهة فردية وانتماء إلى عائلة وطنية عريقة، فإن منظور الخالدي النقدي ارتبط بتحصيله العلمي ومساره العملي، كموظف مرموق في السلطنة العثمانية.

### ١. ملامح المثقف الحديث:

حصل الخالدي على قسط من تعليمه الأولي في مدينته القدس، وتلقى العلم، لاحقاً، في المدرسة

---

\* ناقد وكاتب فلسطيني

السلطانية في بيروت، ثم أمضى ست سنوات في "المكتب الملكي في اسطنبول"، تلتها ثلاث سنوات في "مدرسة العلوم السياسية" في باريس، تردّد خلالها على جامعة السوربون، حيث استمع إلى محاضرات في مواضيع متنوعة. غير أنه ما لبث أن بلور ثقافته النظرية بخبرة سياسية عملية، حين عين عام ١٨٩٨ "قنصلاً جزائراً" للدولة العثمانية في مدينة بوردو الفرنسية، فأمضى فيها تسع سنوات، انتخب بعدها عضواً في مجلس "المبعوثان" في اسطنبول، نائباً عن القدس في انتخابات ١٩٠٨ - ١٩١٢، حيث طرح بمثابرة قضيته الفلسطينية والأخطار الصهيونية المحدقة بوطنه.

تتكشّف شخصية الخالدي، في تكاملها الفكري، في كتابيه الشهيرين: "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكنتور هوكو" الذي نشرته دار الهلال في مصر عام ١٩٠٤، وأعيد طبعه عام ١٩١٢، و "السيونيزم أو المسألة الصهيونية" الفريد في منهجه، الذي انشغل به قبل موته عام ١٩١٣. عالج في الأول قضايا أدبية، معتمداً نظراً تاريخياً لأمس العلاقة بين الأدب والحرية، وورد في الثاني مأساة الصراع بين طرف صهيوني يأخذ بمعارف حديثة، وطرف فلسطيني مقيد إلى إرث عثماني سلبي ثقيل. يوحى كتاب "تاريخ علم الأدب" بدراسة مختصة تقارن بين الموروث الأدبي العربي، الذي عرف ركوداً طويلاً، والأدب الفرنسي الذي أعطته الثورة الفرنسية - ١٧٨٩ - حياة جديدة. غير أن الخالدي اتخذ من كتابه، الذي يبدو محايداً، مناسبة للاحتفاء بالحرية والتنديد بالاستبداد. ولعل وعيه بملامسة محرقات تتطير منها السلطة العثمانية، أقنعه بحجب اسمه عن الطبعة الأولى لكتابه، والاكتماء بتوقيع: المقدسي، نسبة إلى القدس التي ولد فيها. لم يحمل الكتاب اسم مؤلفه الصريح إلا في طبعته الثانية، بعد رحيل السلطان عبد الحميد وابتعاد أجهزته القمعية الرهيبة. أثر الخالدي، في البداية، نشر كتابه في سلسلة مقالات في مجلة الهلال، ابتداء من الجزء الرابع من السنة الحادية عشرة، أي ما يوافق ١٩٠٢/١١/١٥.

عاش الخالدي في مجتمع تقليدي عثماني تحكمه إرادة وحيدة، وأمدّه تحصيله العلمي بين القدس وبيروت بمعرفة ممتازة للأدب العربي القديم، المتمحور حول الشعر والشعراء. وبعد تجربته الفرنسية، إن صح القول، تعرّف على مجتمع جديد، قارنه بالمجتمع الذي جاء منه، ولم يخرج راضياً، مستذكراً تجربة المصري رفاعه الطهطاوي، التي سبقته بسبعة عقود وأكثر واستقرت في كتاب: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز". فبعد أن قرأ الأدب العربي القديم، في أشكاله المتوارثة المستقرة، قرأ أدباً فرنسياً متجدداً، عنوانه الأكبر فيكتور هوكو، الأديب المتمرد والمبدع في أكثر من مجال. وبسبب نظر نقدي اطمأن إلى المقارنة المشخصة وابتعد عن التجريد، أدرك الخالدي دلالة الثورة الفرنسية، التي أنتجت مجتمعاً حراً، لا مكان فيه لإرادة "الحر الوحيد"، أي السلطان الأعلى، فهو يقول: "كانت فرنسا في افتتاح القرن التاسع عشر في هرج ومرج من هول الانقلاب الكبير الذي حدث فيها، وغير معالمها وشّل منها

عرش الاستبداد وحرر العقول وبدل الظلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم..". ولم يكن الانقلاب الكبير، إلا الثورة الفرنسية، التي لم تستطع لغة المؤلف "المتوارثة" أن تعطيها ترجمة موافقة، فاكتمت بكلمة "الانقلاب" ونعته بـ "الكبير"، محاولاً أن يقرب المعنى تقريباً. والواضح أن الفلسطيني المحاصر بأجهزة مستبدة، مبهور بالانقلاب الذي جاء بالعدل والنور وقوض الاستبداد، وبكل ما لم يكن متاحاً في المجتمع العثماني. وكي لا يبدو مغترباً في حديثه ولا متطاولاً على السلطة التي يعمل عندها، يعود إلى التعاليم الإسلامية فيقول: "لو قرأنا القرآن وفهمناه، كما ينبغي، لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية. ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً، ولكن الأمم الآسيوية والإفريقية أبّت الخروج من تحت نير العبودية". والمهم في كلامه، المدافع عن الحرية والإسلام، مائل في تعبير: "كما ينبغي"، التي توحى بأن معنى الإسلام من فهم المسلمين لتعاليمه، وأن هناك "فهماً" يلبي حاجات سلطوية، يبتعد عن الفهم الصحيح للقرآن الكريم الذي ينكر الاستبداد ويحتفي بالعدل والحرية.

ربط الخالدي بين تطور الأدب وتطور المجتمع، واتخذ من الحرية مرجعاً للطرفين، مدركاً دور الاستبداد في تعطيل القرائح البشرية: "ولو طال على الأندلسيين الأمر في الحضارة وتعاقبت الأدوار على اللغة وتوالت عليهم الانقلابات لأدوا بأحسن مما جاء به فيكتور هوغو وإميل زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري. لكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فأمحلت عقولهم وسدت قرائحهم".

توسل الخالدي لغة جديدة، تتحدث عن الحضارة والعقل، ولا تتسع لكلمة "الثورة"، وتساوي بين الاستبداد وال"انقراض"، وتداعي العقول. ومن اللافت إلى حدود الدهشة إشارته إلى دور الحرية في تطور اللغة، مبتعداً عن التصور الساذج الذي يرى اللغة معطى ثابتاً، منعزلاً عن فكر الذين يتعاملون معها، بل معطى كاملاً لا يحتاج إلى تطوير وإصلاح. ولهذا يقول: "إن هناك نسبة تامة بين الحرية وبين ارتفاع لسان العرب، فكلمة اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق الأدب في العربية... وكلما زاد الاستبداد تقيدت عقول الأدباء بالسلاسل..". يذهب المؤلف إلى هدفه واضحاً إذ الحديث عن الحرية حديث عن الدولة، وإذ الحرية ارتفاع ونقيضها سقوط وتسفل، بلغة عبد الرحمن الكواكبي، وإذ حياة اللغة من حياة الأفراد، فهي تعرف الذبول، وقد تعرف النماء والازدهار، ذلك أن اللغة علاقة اجتماعية، تؤثر في العلاقات الاجتماعية الأخرى وتتأثر بها. حال الإبداع الأدبي الذي يحتاج إلى الحرية قبل أن ينهل من معين اللغة، أعبقرية كانت أو عادية لا عبقرية فيها.

تترأى غايات الخالدي في مفهوم تنويري بامتياز: "الارتقاء"، الذي هو مرادف لكلمة أخرى أكثر حدة هي: التطور، الذي يزر الثبات ويرجم الداعين إليه، والذي هو "سنة من سنن الوجود"، كما أشار المصري محمد الموليحي في كتابه "حديث عيسى بن هشام"، الذي ظهر، تقريباً، في العام الذي

ظهر فيه كتاب الخالدي. وواقع الأمر أن كتاب "علم الأدب" ينتمي إلى المناخ الفكري النقدي الذي ظهر فيه كتاب المويدي، الذي نقد تداعي أجهزة الدولة المصرية، وكتاب السوري قسطنطين الحمصي "منهل الوراد في علم الانتقاد"، الذي نشر في القاهرة عام ١٩٠٧، ونقد بدوره جمود الأدب العربي، واحتفى بالإبداع الأدبي الأوروبي احتفاء لا ينقصه التزيّد.

ينطوي منظور الخالدي الحدائي على أربعة أبعاد محددة: إشارته الواضحة إلى "الحرية والإبداع"، مدافعاً عن دولة متحررة واجبة الوجود واعتباره الدولة، في كيانها المتميز والمهيمن، مرجعاً لحرية الأفراد وتفتح إمكانياتهم ولتأمين شروط الارتقاء اللغوي والأدبي. انتبه "المقدسي" إلى دور الدولة الفرنسية في سياستها اللغوية والأدبية، اللتين دعتا إلى إصلاح لغوي يلبى الحاجات الوطنية المستجدة، وإلى إنتاج أدبي يربط بين حاضر المجتمع وآفاقه المنشودة. لم يكن في ربطه بين الدولة والأدب بعيداً عما قاله طه حسين، بعد أربعة عقود تقريباً، في كتابه الشهير: "مستقبل الثقافة في مصر". أما البعد الثاني في حادثة الخالدي فيقوم في تأكيد وحدة العلاقات المجتمعية، حيث مستوى اللغة من مستوى ما يفكر به أفراد المجتمع ويعرفونه، مثلما أن الإبداع الأدبي يستلزم مجتمعاً حوارياً ولا ينبثق عن "القواميس" وإتقان قواعد النحو والصرف. فهو يقول: "فالتكلف في زماننا للإنشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع أو سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريري والهمذاني، ليس فيه كبير فائدة، ما دام الأصل في الكلام للمعاني والمقصود من المعاني إظهار أسرار الكون". يتضمن القول نقداً للنزعة الاتباعية، التي تعيد إنتاج القديم وترى فيه فضيلة، ونقضاً للشكلائية الكتابية، التي تستظهر الكلام الموزون والمقفى، ولا تنتبه إلى الكون وأسراره، كما لو كانت المعرفة اللغوية بديلاً عن المعارف جميعها. يبدو الخالدي، وهو يربط بين الإبداع وسؤال الحرية والدولة، أكثر نباهة من أصوات "إبداعية" لاحقة أطنبت في مدح "اللغة المتفجرة" وأسرفت في الثناء على "الحساسية الجديدة"، ولم تقتصد في تقريب "الفردية الحرة" و"إمبراطورية الجسد"،.... يتلامح البعد الثالث في مفهوم السببية الاجتماعية - التاريخية، فما ينهض بالأدب يقترن بعقل تحرر من المحاكاة الصماء، علم ذاته، كما علمه غيره، الاعتراف بقيمة المتخيّل، الذي يجمع بين القائم والمحتمل ويرتبط بإنسان يعيش في مجتمع يرى في الحوار فضيلة ولا يطمئن إلى الإطلاقيات والأحكام المطلقة. فكما أن لإبداع "فيكتور هوغو" الكبير أسبابه، فإن للعقول العربية التي ما زالت مفتونة بالمقامات أسبابها أيضاً. ليس في الخالدي ما يؤمن بـ "الانبثاق"، الذي يعتقد القائلون به أن الإبداع من صنع نخبة موهوبة تقف فوق المجتمع. فقد عايش مولير، وهو ما أدركه مؤلف الكتاب، دلالة النقد الاجتماعي، الذي يوحد بين الحرية وحقوق المواطنة، ولم يستولد مسرحه من قواميس اللغة الفرنسية القديمة والجديدة.

أفرد الخالدي صفحات طويلة للشاعر فيكتور هوكو، وعرض لأعماله شعراً ونثراً، وقومه وأثنى على كفاحه، ووجه إليه تحية واسعة، مدفوعاً بأسباب متعددة. أراد هذا "المقدس" أن يشارك الشعب الفرنسي احتفاله بالذكرى المئوية لشاعره الكبير، وأن يضيء دوره "الانقلابي" الذي بشر بالثورة، ودفع ثمنه بلا حسابان، وأن يثني أيضاً على جهده في التعريف بالأدب العربي، وأن يحرض الجيل الجديد من الأدباء العرب على التعلّم منه، داخل الإبداع الأدبي وخارجه. فلولا هالة كاتب رواية "البؤساء" اللصيقة بالثورة الفرنسية، لما كان له تلك الشهرة العالمية، ولما حاول حافظ إبراهيم ترجمتها إلى العربية. يقول الخالدي في هذا المجال: "وكان لقومه الحظ الأوفر من التقلّبات السياسية والتبدّلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم أنظار العالم المتمدن بأسره"، تستوقف "التقلّبات السياسية"، أي "الثورات"، نظر العالم المتمدن، كما لو كان الإقدام على الثورات، كما النفور منها، معياراً للثقافة والتمدن والارتقاء.

يتراءى البعد الأخير، الذي هو من ثوابت الفكر التنويري العربي، في الاعتراف بكونية الإبداع الإنساني، الذي يسوّغ استفادة الشاعر العربي من غير العرب مثلما أتاح، في القرن الحادي عشر، انتقال قواعد الشعر العربي إلى الغرب. عالج المؤلّف هذا البعد في فصل عنوانه: "ما اقتبسّه الإفرنج من قواعد الشعر العربي"، الذي يدلّ على ثقافة واسعة في المجالين معاً، ويدعو إلى التعلّم من "الآخر" بمنظور نقدي لا انغلاق فيه. ولعل اقتناعه بضرورة انفتاح الأدب العربي على الأجناس الأدبية الحديثة، لأن ارتقاء الأدب من تنوع أجناسه، هو الذي وضع على قلمه، وهو يتعرّض لتعامل العرب مع الأدب اليوناني، نقداً مضمراً، ذلك أن العرب تعاملوا معه بمعايير ضيقة: "فيتضح مما تقدّم أن العرب لم يأخذوا من الأمم الذين ترجموا كتبهم إلا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئاً من ذلك. مع أنهم رأوا في كتاب المنطق لأرسطو ثناء طيباً على أوميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلّدوه ولا اتبعوا ولا نهجوا منهجه..." يستمر هذا الموقف، الذي يقبل بالعلم والتقنية ويرفض أساسهما الفلسفي بأقسط مختلفة، إلى يومنا هذا.

اقترن إقبال الدارسين العرب على الأدب الغربي، في حقوله المختلفة، بمعارفهم اللغوية، فقد كان الخالدي يعرف التركية والفارسية والفرنسية، وذهب قسطنطين الحمصي إلى فرنسا ودرس فيها الفلسفة فترة، وأقام في إيطاليا وتعلّم لغتها، وأن سليمان البستاني، الذي نشر في مصر عام ١٩٠٤ ترجمته المجيدة لـ "إلياذة هوميروس"، التي عمل فيها من ١٨٨٧ إلى ١٩٠٢، كان يعرف أربع لغات أوروبية، إضافة إلى اليونانية والتركية والفارسية، ...

مارس الخالدي النقد الأدبي من وجهة نظر حديثة، فجانّب الاختصاص الضيق، الذي يبدأ بالنصوص وينتهي بها، وقرأ الأدب كعلاقة اجتماعية تُباطنها علاقات اجتماعية أخرى، تنطوي على السياسة والثقافة وتنظيم المجتمع مقترباً، في حدود زمنه، من النقد الدنيوي الذي قال به إدوارد سعيد، بعد عقود.

## ٢. المقارنة: من المجتمع إلى الأدب:

يثير مسعى الخالدي إلى دراسة الأدب الفضول والتساؤل، ذلك أنه جاء من عائلة عريقة تتميز بسلطة اجتماعية وانتمى، بعد إنهاء تحصيله المدرسي، إلى نخبة اجتماعية مرموقة وشغل، لاحقاً، موقعاً عالياً في "السلك الدبلوماسي". كان في مساره ما يأخذه إلى العمل في دوائر السلطة، الذي كان طموحاً مسيطراً في زمانه، إذ قيمة الإنسان الظاهرية من عائلته، وإذ قيمته الفعلية من الموقع الذي يشغله في جهاز السلطة.

وإذا كان إمام الخالدي بالأدب واللغة والتاريخ أمراً مألوفاً لدى "العائلات العريقة"، فإن خروجه عن المألوف تجلّى في إنجازه دراسة مختصة، وربطها بمنهج مقارن دقيق، يستبعد الاستظهار السهل، ويؤثر التحليل والتفسير والاستنتاج. ولعل وعيه بدخول عالم الأدب من باب غير مألوف هو الذي أملى عليه عنوان كتابه "تاريخ علم الأدب"، مؤكداً أن قراءة الظاهرة الأدبية علم لا يختلف عن العلوم الأخرى، وأن له منهجه وقواعده. وسواء كان النقد الأدبي علماً، أم أنه مجرد حقل خاضع للتذوق، فإن في استعمال كلمة: "علم" احتجاجاً على الارتجال والأحكام الجاهزة، وابتعاداً عن منظور جاهز يقصر "الإبداع الشعري" على العرب.

اختار الخالدي، وهو ينقد معطيات ساذجة ترى "الأدب العربي" ولا ترى غيره، أن يذهب إلى أدب "آخر"، أخذاً بالمأثور القائل: "والضد يكشف حسنه الضد". ففي مقابل العمومية الأدبية، التي تختصر الأدب إلى قواعد النحو والصرف ولغة القواميس، قرأ "المفدسي" أدباً فرنسياً متنوعاً في مناهجه وفي أجناسه الأدبية، منتقلاً من العام إلى الخاص، قائلاً بأن "قوة الأدب" من تنوع أجناسه، وأن الأجناس الأدبية المتنوعة يأتي بها "الواقع الانقلابي"، ولا تورث توريثاً، كما لو كان لكل فترة تاريخية أنواع أدبية خاصة بها، تضيف إليها الفترات اللاحقة أنواعاً غير مسبوقة.

يقول الخالدي: "وكان عصر لويس الرابع في الأدب عصرًا مدرسيًا (كلاسيك) أشبه بعصر أوغسطس عند الرومان وبعصر برقليس عند اليونان. ونبغ من شعراء الفرنسيين في فن الفاجعات (تراجميدي) الأديب بيير كورنيل والشاعر المغلّق راسين. ونبغ في فن المضحكات (كوميدي) الأديب بوليير. ونبغ في فن الهجويات (ساتير) الأديب المدقق بوالو. فهؤلاء من نوابغ العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى "الفصاحة والبلاغة". يرمي هذا القول، الذي يحايثه وعي تاريخي لا يقَرُّ الثبات ولا يعترف به، إلى تبيان قصور الأدب العربي "الحديث" عن آداب الأمم المتحضّرة، وإلى تخلفه عن "الزمن العالمي" الذي يعيش فيه.

مرّ القول السابق على "الزمن التاريخي" مرتين: مرة أولى وهو يشير إلى "كلاسيك"، أي العصر الذي عاش قضاياها المتوارثة وهيأ الشروط لعصر جديد، ومرة ثانية، وهو يلامس حياة اللغة حيث



"اللسان" يزدهر ويبلغ منتهى البلاغة أحياناً، ويهمد ويذبل ويتكلس في فترات أخرى. وتعبيراً عن حيوية الأزمنة التي تفرض حاجات أدبية متطورة، تحدث الخالدي عن "التراجيدي، الكوميدي والساتير"، التي تعني "المأساة والملهاة والأدب الهجائي". شاء المؤلف أن يعالج موضوعه من داخله، أي أن يجد نظيراً عربياً للمفردات النظرية الفرنسية، مجتهداً قدر ما يستطيع قائلاً: الفاجعات، المضحكات، وفن الهجويات، ... عبّر في اجتهاده عن صعوبات الانتقال من ثقافة إلى أخرى، لأن ما لا يمكن ترجمته لا يمكن فهمه، وهو ما أشار النقد الأدبي العربي إليه لاحقاً بمصطلح: التبييء، الذي يعني ربط المفاهيم بثقافة المجتمع ولغته.

عمل الخالدي على تقديم مادة أدبية جديدة، وترجمة المفاهيم الخاصة بها، كاشفاً عن ريادته في مجال المقارنة الأدبية وعن غربة اللغة العربية عن الثقافة المعاصرة. فقد ترجم ما يدعى اليوم بالمدسة الرومانسية بـ "الطريقة الرومانسية" والواقعية بـ "الطريقة الحقيقية"، والمسرحية بـ "الفاجعة أو المبكية"، واكتفى بنقل بعض المصطلحات كما جاءت في لغتها الأصلية، حال "لبريك"، التي تعني الشعر الغنائي، و"دوكيمان"، التي تعني الوثائقي أو التسجيلي... طرح في هذا كله السؤال الشائك التالي: كيف يمكن نقل ثقافة ذات تطور تاريخي معيّن إلى لغة ثقافة أخرى قصّرت تاريخياً عن هذا التطور؟ فالانتقال الثقافي لا يرتبط بالكلمات، ولا حتى بالرصيد اللغوي، فهو متصل وشديد الاتصال بالمعيش الثقافي، في شكله الأدبي وغير الأدبي، وبالبيئة الاجتماعية، في حاجاتها الأدبية والفنية. ولهذا جاء العرب المشتغلون بالمسرح بلفظ: المسرحية، حين كتبوا المسرحية وعثروا على جمهور مسرحي، وغدت الواقعية كلمة معروفة وسائدة، حين كتب الأدباء العرب الرواية وعثروا على نقد أدبي يروج للقيم الواقعية في الأدب. ومع أن السياق التاريخي جعل الخالدي مغترباً في مجاله، وأثقل عليه بغربة لغوية، فقد سعى، معتمداً على وعيه الحاد، إلى التحرّر من هذا الاغتراب، فترجم وعزّب في آن: ترجم وفقاً لإمكانيات اللغة العربية في زمنه، و"عزّب" حين كان في اللغة العربية ما لا يحتاج إلى ترجمة، فهو يقول: "فالأود والبلاد والأليجي... إلخ، يقابلها في العربية المدح والغزل والثناء... إلخ، غير أن هذه الأقسام في العربية من الأقسام المعنوية وأما عند الفرنسيين فهي من الأقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف...". ثم يقول: "وأما الكوميديا فهي مصورة لأخلاق الهيئة الاجتماعية ومسائهم ومعابهم وبصورة مضحكة كروايات موليير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية..". اضطرب الخالدي أمام الوقائع الأدبية الغربية عن ثقافته العربية، فترجم التسجيلي، "دوكيمان"، وحاور ما يعرفه مثل شعر المدح والغزل والثناء، وقارن بين المتشابه القريب من الأدب الشعبي، فهو يعقد مقارنة بين الملحمة الفرنسية الشهيرة "ملحمة رولان" وبين سيرة أبي زيد الهلالي، اللتين تحيلان على الشجاعة والجرأة والقوة. بل ان انشداؤه إلى المقارنة دفعه، وبشكل لا تنقصه الطرافة،

إلى مقارنة قتال الشاعر الإنجليزي اللورد بايرون إلى جانب اليونانيين ضد الأتراك، ومواجهة المتنبي للخصوم الذين اعترضوا طريقه. وإذا كانت المقارنة الأولى "ملحمة رولان" قريبة من المعقولة، إذ لكل متخيل شعبي بطل يؤسره، فإن المقارنة الثانية ناتجة عن قياس شكلائي تنقصه المعرفة، ذلك أن اللورد بايرون لم يكن مهجوساً بالفخار الذاتي، بل لازمه شغف بالموت أقرب إلى العدمية.

قرأ الخالدي، معتمداً على منهجه المقارن، أثر الشعر العربي على الفرنجة، الذي أخذوا من العرب "علم القوافي"، واستعملوه في القرن الثالث عشر وشيئاً من "أدب الطرفاء" الذي يسخر من "علية القوم". كما قدم ملاحظات نبهة وهو يقرأ الأثر العربي في شعر "التروبادور" في فرنسا، أو "الشعراء الجوالين"، الذين حاكوا العرب، والأدب الأندلسي بخاصة، في القوافي ورقة الغزل واللحن الموسيقي.. لم ينس أن يتوقف أمام البيئة الاجتماعية، التي تحفز على التخلي عن بعض الأعراف الأدبية، واستبدالها بما هو أكثر مواءمة.

ربما يكون مفهوماً سبب المقارنة المتكررة، التي عقدها الخالدي بين "فيكتور هوغو" وأبي العلاء المعري، فلكليهما معرفة واسعة وثروته اللغوية، وكلاهما إنساني النزعة يميل إلى التأمل والسير مع حكمة الحياة. غير أن ما لا يقنع هو تلك المقارنة بين مسرحية مولير "تارتوف"، التي لها شكلها الفني الخاص بها وأغراضها الأخلاقية ومجتمعها الواضح في فئاته وقيمه، وبعض أبيات من شعر المعري، التي تميل إلى السخرية. وواقع الأمر أن الخالدي قاد المقارنة إلى مواقعها الصحيحة، تارة، حال حديثه عن شعراء "التروبادور"، والعلاقة بين ملحمة رولان وسيرة أبي زيد الهلالي، وقاده شغف المقارنة إلى مواقع أقرب إلى الاصطناع، كأن يرى "تارتوف" في شعر المعري.

لم يكن ما أنجزه الخالدي ممكناً من دون معرفة واسعة بأدبه العربي وبأدب "الآخر"، إضافة إلى وعي تحرر من الأوهام، لا يقيّد الإبداع الإنساني بدين أو بأمة، ويحتفي بقيم كونية قابلة للتفاعل والتبادل. ولم يكن في منظوره هذا، وهو الفضولي في مجال المعرفة والتنقيب، بعيداً عن طموح الألماني غوته، الذي حلم بأدب إنساني تتمتع به البشرية جميعها، والذي ذكر الخالدي عمله "فاوست" وعلّق عليه.

انطوى بحثه على بعدين، يمكن أن يدعى أحدهما: فتنة الآخر، حيث الآخر طرف أكثر تفوقاً وابتكاراً، تجلى في التفات الخالدي إلى شعر "هوغو"، وفي انجذابه إلى أفكار الثورة الفرنسية، التي جعلت من الاحتفاء بالإبداع معتقداً جديداً. أظهر البعد الثاني فاعلية "الوعي المأزوم"، الذي أدرك نقص مجتمعه واجتهد في تدارك النقص وتجاوزه. ولعل ما يثير الانتباه ركون "المقدس" إلى مصطلح "علم الأدب" تأكيداً لقيمته وتمييزاً له من قراءات بسيطة، تستظهر القديم ولا تضيف له شيئاً. ولهذا تمكن قراءة كتاب الخالدي على ضوء كتاب طه حسين الشهير "في الأدب الجاهلي"، الذي

اعتبر "تاريخ الأدب" علماً، له من القيمة ما يضعه إلى جانب العلوم الطبيعية، مثل علم الفيزياء وعلم الأحياء. تقاسم الطرفان الاحتفاء بالحرية، فواجه الأول الاستبداد العثماني بـ"حريات الثورة الفرنسية"، وجابه حسين "أنصار القديم" بحرية الإنسان المفكر.

تعين علاقة العلم بالحرية عمل الخالدي كتاباً راهناً، بعد مرور قرن على رحيل مؤلفه، ذلك أن ما نقده لا يزال واسع الحضور، في العالم العربي، حتى اليوم.

### ٣. في فضيلة المقارنة:

تُنسب إلى الخالدي زيادة الأدب المقارن في البحث الأدبي، فقد جاء بمنهج يفتح الأدب العربي على غيره من الآداب، ولا يرى فيه أدباً مغلقاً على ذاته. بيد أن الخالدي، السياسي المحترف في الفضاء العثماني، لم يعالج "الأدب المقارن" إلا لأنه كان واعياً لمعنى المقارنة وأثرها على وعي الإنسان بعامة، أكان ذلك في مجال الأدب أو في مجالات أخرى. فمثلما أنه لا وجود لهوية إلا مقارنة بهوية أخرى، تتفوق عليها أو تقصر عنها، فإنه لا وجود لنص أدبي إلا مقارنة بغيره، يتقاطع معه ويختلف عنه ويفيده ويستفيد منه في آن.

تتمثل المقارنة براءة موضوع، له خصوصيته، بمعرفة مستقاة من موضوع آخر، له خصوصية مغايرة. تفرض هذه القراءة، التي تنتج دينامية جديدة، "معرفة الأنا" التي لها موضوعها، و"معرفة الآخر"، الذي له موضوع يخصه. وفضيلة القراءة ماثلة في التعرف على الاختلاف، وفي ملامسة المشترك أيضاً. وبسبب هذه الفضيلة تقرأ "الأنا": إمكانياتها، في وجوهها السلبية والإيجابية، وتأمل "الآخر"، الذي يحرضها أحياناً، على النقد والنقد الذاتي. ولذلك تتجلى المقارنة مصدرراً من مصادر المعرفة، إذ الوقوف على شعر "فيكتور هوغو" يلزم بمعرفة الأسباب التي دعت إليه وتأمل بنيته الداخلية، ويقود إلى الوقوف على حال الشعر العربي الحديث، الذي حاول أن يقوم بثورة خاصة به. إتكا الخالدي، وهو يقارن بين الأدب العربي والفرنسي، على مادة أدبية متنوعة، ولم يعتبر "الكم المعرفي" المكثفي بذاته معياراً معرفياً. فكما أن الثقافة لا يمكن تحويلها بأدوات ثقافية فقط، كما لو كان في داخلها ما يعدلها، فإن النقد الأدبي، كما رآه الخالدي ومارسه، بحاجة إلى مواد غير أدبية تلتمس في علم التاريخ، الذي يشرح ازدهار البلاغة وهبوطها، وفي علم الاجتماع، الذي يربط اللسان بالبيئة الاجتماعية، حيث فقر الحاجات يفقر اللغة، بقدر ما يؤدي تطور الحاجات وتنوعها إلى لغة متعددة. ويلمس الاختلاف أيضاً في أشكال الحكومات، التي قد يؤدي استبدالها إلى اندثار الآداب والأمم معاً.

أقنع تكامل العلوم الباحث المقدسي، الذي عاش في مجتمع فرنسي صير العلم إلى عقيدة جديدة،

بالحديث عن "علم الأدب" الذي له، ضمناً قوانينه، إذ لا علم بلا قوانين، الأمر الذي جعله يرى "نسبة تامة بين الحرية وارتقاء الأدب"، التي تقابلها "نسبة تامة بين الاستبداد وانحطاط الأدب"، مذكراً بالقانون الفيزيائي. ولأن لكل علم، جديراً باسمه، تاريخاً له سرورة من العلو والانخفاض، رجع الخالدي إلى الأدب العربي، في حالاته المزهرة، مدافعاً عن الإسلام وشارحاً "فقر العقول" باستبداد الحكام. اطمأن في الحالين إلى مفهوم "السببية التاريخية" الذي يعطف كل ظاهرة اجتماعية على الأسباب التي أنجبتها، متأثراً بالفلسفة الوضعية الفرنسية، المسيطرة في زمنه، التي تحيل على أسمين شهيرين هما اوغسنت كونت وإميل دوركايم.

طبق الخالدي. قدر ما استطاع، منهجاً علمياً على الأدب، وأنتج نصاً لم ينتجه غيره من الفلسطينيين طيلة الفترة التي سبقت النكبة عام ١٩٤٨. وعاد وطبق منهجه في نص وطني - سياسي يقترب من الفردية، كتبه قبل موته بقليل، عنوانه: "السيونيزم أو المسألة الصهيونية". وعلى الرغم من الحدود الفاصلة بين الموضوعين، التي لم يكسرهما إلا غسان كنفاني في دراسته الرائدة عن "الأدب الصهيوني"، فإن القاسم المشترك بين نصي الخالدي مائل في المنهج العلمي، الذي يستقصي الظاهرة في وجوهها المختلفة.

#### ٤. الصهيونية في منظور موضوعي:

ابتعد الخالدي في دراسته، "السيونيزم أو المسألة الصهيونية"، التي وضعها في أواخر حياته، عن البلاغة الجاهزة، وعمد إلى دراسة دقيقة عن "جذور الصهيونية"، وطرائقها الإعلامية والسياسية، وانتهى إلى قراءة الفرق بين الممارسات العربية ووسائل "اليهودي المقيم" في فلسطين. فقد رأى المشروع الصهيوني محصلة لسببين: أولهما تاريخ المذابح اليهودية، في روسيا وأوروبا الشرقية بخاصة، التي دفعت إليها "معادة السامية"، أو "الأنتي سيمتيزم"، بلغة الأوروبيين، وصعود النزعة القومية في أوروبا في القرن الثامن عشر، التي كان أفقها: الدولة - القومية، ذلك أنه لا قومية من دون دولة تجسّد طموحاتها. لم ينسه بحثه، الذي أراد أن يكون موضوعياً، التوقف أمام الفاعلية الصهيونية، التي طرقت الأبواب جميعاً، كي تحقق ما تريد. عطف على الأسباب الثلاثة دور الدين اليهودي. فبعد أن ربط بين الصهيونية وتأسيس دولة يهودية في فلسطين يهاجر إليها اليهود المتألمون من الإضطهاد المسمى باصطلاح الإفرانج "أنتي سيمتيزم"، قرّر أن مصدرها هو: "الإعتقادات المذهبية والكتب الدينية من التوراة والتلمود والآداب العبرية المؤلفة في القرون الوسطى وفي أيامنا هذه التي برزت فيها بصورة جديدة". يتكشّف الدين اليهودي، في عبارة "بصورة جديدة"، أيديولوجيا دينية، أي فكراً دينياً يعاد صوغه من وجهة نظر أهداف سياسية.

حين يقرأ الخالدي صورة اليهودي في روسيا القيصرية يقول: "كان الروس اعتبروا اليهودية مثل مرض الجذام، كما عبّر البعض من الكتاب، لأن هذا التعبير ليس لنا". في تمييز ذاته عن الكتاب، الذين يساوون بين اليهودية والجذام، يعلن عن إدراكه لمعنى "اليهودي المضطهد"، ويتهم التاريخ الأوروبي الذي أنتج معاداة السامية. ولعل وعيه بأوروبية معاداة اليهود، هو الذي حرّضه على تناول تاريخها، في روسيا وبولندا وإسبانيا والبرتغال، وصولاً إلى "قضية درايفوس" في فرنسا، التي واكبها القائد الصهيوني هرتسل، صحافياً، ودفعتة إلى نشر كتابه "الدولة اليهودية" عام ١٨٩٦. استولد الخالدي الحقيقة الصهيونية المفترضة من التاريخ الأوروبي، واستولد مأساة فلسطين القادمة من الحقيقة الصهيونية، مؤكداً، في الحالين، أن الشعوب الصغيرة ضحية لأخطاء الشعوب الكبيرة. ارتكن إلى شكل من التوليد المنطقي، المدعم بوقائع تاريخية، حيث الصهيونية أثر ملازم لمعاداة السامية، وحيث الصهيونية ومعاداة السامية أثر ضروري للتاريخ الأوروبي العنيف، الذي "يكافئ" شعوباً يعترف بها بمعاينة شعوب أخرى لا يعترف بوجودها.

يقول الخالدي: "فتاريخ الأنتي سيتزم مطابق لتاريخ الصهيونية، أي لظهور الدعوى الأولى والشروع باستعمار فلسطين، حيث هاجر في نيسان (إبريل) سنة ١٨٨١ إلى فلسطين أفراد من يهود روسيا وأحدثوا فيها أول مستعمرة يهودية، دعوها "ريشون له زيون"، وتعرف عند العامة بعيون قارة، وريشون كلمة عبرانية معناها الأول أو الرأس، ويطلق هذا الأخير على كبير اليهود في القدس وهو الحاخامباشي". تتسم هذه السطور القليلة بلغة مقتصدة، تصف موضوعها المباشر، وبمنهج علمي يقرر اسم الظاهرة ومعناها وتاريخ حصولها كي يقترح، لاحقاً، أسلوب معالجتها.

شكل الاضطهاد الأوروبي، في رأي الخالدي، الشرط اللازم لنشوء "النهضة القومية اليهودية"، التي استلهمت أبعاداً من عصر التنوير الأوروبي، في تناقضاته المتعددة، ليس آخرها قول ديزرائيلي: "القومية مفتاح التاريخ". بيد أن ما أعطى النهضة المفترضة قواماً مادياً يتمثل بالجهد اليهودي، الذي توازعت عناصر كثيرة: الإنجيلجنسيا والفاعلية الثقافية والإعلامية، التضامن اليهودي والتخطيط الدقيق، والسلاح المالي الذي يثلم أي سلاح آخر"... يصف الخالدي السياسة الإعلامية الصهيونية، الرامية إلى التكامل وتوسيع الأثر فيقول: "واستعملوا هذه الوساطة مع بعض الجرائد السورية كجريدة النصير الصادرة في بيروت وجريدة النفير في القدس وجريدة الأخبار في يافا وغيرها. فإذا نشرت مقالة في جريدة النصير مثلاً في الدفاع عن الصهيونية، نقلتها جريدة "جون ترك" - تركيا الشابة - في الحال، وأوهمت، أن الدفاع ورد من جرائد سورية معتبرة...". ومع أن الخالدي رصد النشاط الصهيوني، في نهاية العقد الأول من القرن العشرين، فقد أدرك بحسه السياسي الرهيف حقيقة المشروع الصهيوني السائر نحو هدف محدد، فهو يقول: "لم يدع الصهيونيون شيئاً من شارات الدولة

إلا وضعوه، ولم يكتفوا بالعلم الصهيوني وطوابع البريد الصهيونية، حتى زادوا عليها المارش الصهيوني وسموه "هاتكوه"، وهي كلمة عبرانية معناها الأمل، كما اتخذت الأمة الفرنسية "المارسيليز" نشيداً لها". عمل المشروع الصهيوني على بناء رموز الدولة قبل الوصول إلى الدولة، خلافاً للأمة الفرنسية التي وعت وحدتها، وأقامت عليها كياناً سياسياً يمثل الإرادة القومية الجماعية القائمة.

مارس الخالدي وحدة المعرفة والنظر السياسي، حيث المعرفة ضرورة وطنية، وإذ للنظر السياسي مرجع موضوعي، بعيداً عن الارتجال والقياسات الخاطئة، وإذ في التعامل مع الآخرين جدية عملية تساوي جدية الخطر الصهيوني الذي يلوح في الأفق. فهو يكتب على سبيل المثال: "أما مدارس الأليانس الزراعية فأهمها مدرسة يافا التي تأسست عام ١٨٦٠، وتعرف بمدرسة "نيت"، وفيها ٨٥ تلميذاً، وبلغت مصاريفها في سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ مبلغاً قدره ١٠٨,٧٩٩ فرنكاً و ٦٤ سنتيماً، دفعت منها جمعية الأيكا ٥٤,٤٠٠ فرنك، وصرف من هذه المبالغ ما يقرب من عشرة آلاف فرنك (٩,٥١٢) لتحسين الأملاك كرفع الجدران وتحديد الحدود وغرس الأحراش والأشجار وشراء الحيوانات ونحوه، وبلغت واردات هذا الجفتلك ٥٥,٥٦٨ فرنكاً".

يفصح اسناد الفكرة بالأرقام عن جدية النظر السياسي الوطني، ويشهد على الدأب والمثابرة. استفاد الخالدي، في بحثه، من ثقافته الفرنسية، فأخذ بمنهج "كونت" الشغوف بموضوعية المعرفة، واستعان بالصحف والكتابات الفرنسية. ولهذا قرأ الميزانية الصهيونية بالعملة الفرنسية، القائمة على "الفرنك والسنتيم"، وقرأ "الظاهرة الصهيونية" كلها بمنظور حديث، يؤمن بالفعل والتنظيم والمردود، ولا يعبأ بالكلام المجرد.

اتكأ على هذا المنهج صاغ الخالدي المشروع الصهيوني في ملامحه المختلفة. فعرف "النظرية الصهيونية" في منابها الفكرية وغاياتها السياسية، وبين الأدوات العملية التي تنقل المشروع من حيز الفكرة إلى مجال التطبيق. وفي المجال الأخير عين دور النخبة اليهودية المثقفة والفضاء الإعلامي الذي تحرك فيه، من حيث هو مزيج من الثقافة والمراوغة و"اليوتوبيا المقاتلة" والقدرة المالية المبهرة. حين يربط الخالدي بين الدبلوماسية الصهيونية والقوة المالية يقول: "إنهم يريدون (الوفد اليهودي) التذاكر والتفاهم مع حكومة السلطان على أساس تنظيم المالية العثمانية، فإن الخزينة في احتياج إلى المال، ولليهود اليد الطولى في معاملات القروض والمراوحة، وفي أيديهم ثلث ثروة العالم مع قلة عددهم.. وتشرف هرتسل بالمتول بين يدي خليفة المسلمين مرتين، وقبل أن يبرح الآستانة أنعم عليه السلطان عبد الحميد بالنيشان المجيدي الأول، فذهب إلى لندن حيث قابل جمعية المكابيين في ١١ حزيران (يونيو) سنة ١٩٠١، وأعرب لهم عن ثقته بنجاح المهمة التي قابل من أجلها السلطان وطلب من اليهود للحصول على امتياز فلسطين مليوناً ونصف مليون من الجنيهات الإنجليزية".

وإذا كان هرتسل قد طلب من خليفة المسلمين شراء فلسطين مقابل مبلغ معلوم يدفع دفعة واحدة ومرتب شهري ثابت، فإن روتشيلد كان قد اهتدى إلى سلاطين صغار، يبيعون في فلسطين أرضهم لليهود المهاجرين من روسيا وأوروبا الشرقية بأموال روتشيلد وأمثاله من أغنيائهم، ويقومون بإنشاء المستعمرات: "فعددها في هذه السنين الأخيرة ثمان وعشرون مستعمرة ومساحتها ٢٧٩,٤٩١ دوماً، اشتروها بثمن بخس بمساعدة ولاة البلاد وأغنيائها. وفيها من اليهود المستعمرين ٨٠٠٠ نفس ويهاجر إليها في السنة نحو ألفين مع عدم تصريح الدولة، لكنهم يستعملون أنواع الحيل والدسائس والرشوات ولا يخرجون منها بعد دخولهم إليها بصفة زائرين".

يصف الخالدي في سطورهِ القليلة الغاضبة، بعضاً من أحوال البلاد، فيقول: "وحيث أن الأمم الهمجية تقتبس من المدنية الرذائل قبل الفضائل، فإنك ترى عرب بئر السبع مقبلين على المسكرات والغانيات مع اليهود، وقد أتاهم جوقة مؤلفة من ثلاث ممثلات جميلات وثلاثة ممثلين، واستمروا شهراً كاملاً يمثلون أمام العربان في بيوت الشعر عند حمود عروش، عضو الإدارة في بئر السبع". وحين يتوقف أمام التواطؤ بين أعيان الإدارة المحلية العثمانية وشركة "الإبكا" اليهودية، التي تنهب الأرض العربية، يقول: "وعلى هذه الكيفية شرعوا في مشتري الأرض باسم المستنطق، ومن تمنع عن البيع اتهم بجناية وألقي في السجن وضيق عليه حتى يُكره على البيع". في مقابل الفلاح الفلسطيني المغتصبة أرضه، تقف، وكما يشير الخالدي، مزارع يهودية فيها "آلات وأدوات زراعية من الطراز الأوروبي الجديد"، ومدارس وأطباء وجمعيات صهيونية منظمة، تضع في فم "عضو الإدارة" قطعة من ذهب، كي يضع جلاذوه في فم الفلاح الفلسطيني قبضة من تراب.

يقدم الخالدي بعد أن يصف المستعمرات اليهودية، التي اشترتها أموال البارون إدموند دو ريتشيلد، صورة دقيقة التفاصيل عن المستوطنات اليهودية، تتضمن المساحة وعدد السكان ونفقات المزروعات والأرباح النهائية، مروراً بالمدارس وصناديق الاقتصاد والإقراض وعدد الحيوانات والطيور، وصولاً إلى النشاط السياسي الذي ميّز كل واحدة منها.

أخذ الخالدي دور المؤرخ وعبر منه إلى دور "المسؤول الوطني" الذي يبحث عن "إدارة وطنية"، تواجه المشروع الصهيوني بأدوات وطنية. أضاءت أفكاره وحدة الأرض والفلاح، كما لو كانت مأساة فلسطين هي مأساة الفلاح الفلسطيني، الذي يحسن القتال العفوي ولا يحسن السياسة. ولم يكن مأل هذا الفلاح، في التحديد الأخير، إلا أثراً لسلطة شرقية مستبدة، تنصر ذاتها بهزيمة رعاياها، ولا تفرق بين الأرض التاريخية والسلع الكاسدة. يقول مونتسكيو: "حين يريد متوحشو لويزيانا قطف الثمار، فإنهم يقطعون الشجرة من جذعها ويقطفون ثمارها، وهكذا تفعل الحكومة المستبدة". ولقد كان في الشجرة الفلسطينية، التي قوّض الاستبداد العثماني جذورها، ما يشبه الشجرة التي



حدّث عنها كاتب "الرسائل الفارسية".

رأى الخالدي، وهو يشرح نشأة الصهيونية، أن تاريخ الصهيونية هو تاريخ معاداة السامية، وأن ما حرّض عليها مائل في صعود الحركات القومية الأوروبية وتحققها في كيانات سياسية مستقلة. وفي الحالين، يؤكد الخالدي، في الحالين، الصهيونية كظاهرة طبيعية مستقلة بذاتها، أنجزها يهود حاذقون، أمّن لهم حذقهم وحسن تنظيمهم تعاطفاً واسعاً لدى الدول الأوروبية، ومكّن هذا التعاطف، ووطنه، نفوذاً مالي شديداً.

تفتقر الأطروحة الأولى، التي تساوي بين تاريخ الصهيونية وتاريخ اللسامية، إلى الدقة والصواب. فهي تجعل من اللسامية ظاهرة حديثة، وهو أمر غير دقيق، أو تفترض الصهيونية ظاهرة قديمة، وهو افتراض مُعتل أيضاً. ويعود هذا الخلل إلى التعامل مع الصهيونية كظاهرة يهودية محضة، حددت، ذاتياً، الزمن الذي تولد فيه والمكان الذي ترحل إليه والوسائل التي تربط بين العلاقتين. ساعد على هذا التفسير قراءة قاموسية لكلمة اللسامية، التي هي كلمة حديثة أطلقها رجل الإعلام الألماني فيلهلم مار عام ١٨٧٣.

لقد وُجد كره اليهود، دون أن يكون ظاهرة أبدية، في مجتمعات مختلفة، وبأشكال لا متكافئة، قبل عام ١٨٧٣. والتعبير الذي اقترحه مار دعائي وذو أهداف أيديولوجية تحريضية ولا يعبر عن الوقائع التاريخية. وواقع الحال أن الصهيونية السياسية ولدت في الزمن التاريخي الذي فرض انحسار اللسامية، وفرض التعامل مع اليهود كأفراد عاديين يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة، عقب الثورات الأوروبية الحديثة، وخاصة الثورة الفرنسية. والإشارة إلى "الحلقات الضعيفة" في الحداثة الأوروبية الحديثة، كروسيا، لا يغيّر من الأمر شيئاً، لأن الاضطهاد، الذي كان يقع على اليهود، كان يصيب فئات اجتماعية غير يهودية أكثر اتساعاً، بأشكال مختلفة.

ولعل الحنين، المدنّر باللاهوت، إلى زمن أسطوري قديم، هو ما يكسر الأطروحة الثانية التي قال بها الخالدي، والتي ترى في الصهيونية استجابة لـ "روح العصر" القومية. فالقوميات الأوروبية، وفي صياغاتها الأخيرة، أثر من آثار الثورات البورجوازية، التي أنتجت الحداثة وأنتجتها التحديث الاجتماعي الشامل. وقد سعى هذا التحديث إلى تهميش اللاهوتي والتضييق عليه، على خلاف القومية اليهودية، التي استجارت باللاهوت وعمته، كي تستطيع العثور على تبريرها النظري. ولهذا يكون منطقياً أن تنشأ القومية اليهودية المفترضة في زمن منفصل عن الزمن التاريخي الذي شكّل القوميات الأوروبية، وأن تحقق وجودها السياسي فوق أرض غير أوروبية، في زمن تراجع السيطرة الاستعمارية.



ليس في خطاب الخالدي، رغم ارتبائه المحدود، ما يربطه بأثره يبيعون أراضيهم إلى الوكالة اليهودية، وليس فيه، وهو الباحث عن فلسطيني نموذجي، ما يربطه بأعيان المدن. فقد كان وطنياً مستنيراً حاسماً، اتكأ على ثقافته الأدبية والسياسية، وأنشأ "نظرية في الصهيونية"، عناصرها "المناخ الأوروبي الحديث" و ضعف الدولة العثمانية والأيدولوجيا الدينية اليهودية، وفاعلية الطرف الصهيوني، الواقف على أرض صلبة، متنوعة الدعائم. مزج بين العامل الموضوعي والعامل الذاتي وتوقف، وهو الوطني الغيور، أمام العامل الذاتي، الذي لا يستقيم تأمله إلا برصد وضع الإنسان الفلسطيني، الذي يتداخل فيه السلب والإيجاب معاً. تركت ممارسات الخالدي للثقافة الفلسطينية شهادة حافلة بالأبعاد المضيئة: ربط الاختصاص الأدبي بمفهوم الحرية وتحرير الإنسان، التوحيد العضوي بين المعرفة الحديثة والنظر السياسي النقدي، والانطلاق من الوقائع المشخصة التي تعيد صوغ ميزان القوى وقراءة الظواهر في عناصرها المتعددة، بعيداً عن بلاغة تلوك كلمة "الحق" ولا تدرك معناها، ذلك أن الدفاع عن الحق من دون قوة تدعمه، طريق إلى الهزيمة.

أعاد الخالدي، في كتابه : تاريخ علم الأدبي والسيونيزم"، تعريف القديم والحديث، مؤكداً أن القديم هو الجهل والاستبداد، وأن حداثة المثقف من وعيه التاريخي، الذي يقارن بين النقائص، مسترشداً بالمصلحة الوطنية.

## إشارات

١. روعي الخالدي: تاريخ علم الأدب، دمشق، ١٩٨٤ مع مقدمة ضافية للدكتور حسام الخطيب.
٢. قسطاكي الحمصي : منهل الورد في علم الانتقاد، مصر في ١١ ك ٢ (يناير) سنة ١٩٠٧، من دون ذكر دار النشر.
٣. عبد الرحمن الكواكبي ، طبائع الاستبداد، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٨٣.
٤. فيصل دراج: ذاكرة المغلوبين، الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢.
٥. نشر كتاب الخالدي عن الصهيونية، على حلقات في جريدة الحياة اللندنية، ابتداء من ٣٠ آب/اغسطس حتى ٥ أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٧، مع مقدمة منيرة للأستاذ وليد الخالدي، وجميع الاستشهادات مأخوذة من جريدة الحياة.
٦. د. هاشم ياغي: حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٣.
٧. يوسف لمدان: العرب والصهيونية (أنظر المقدمة الخاصة بدور المثقفين الفلسطينيين)، دمشق، ٢٠٠٩.



## استهداف عرفات، والحماية الدولية\*\*

فيصل حوراني\*

ياسر عرفات واحد من أشهر شخصيات النصف الثاني من القرن العشرين، وقد شغل موقع الصدارة في قيادة حركة التحرير الوطني الفلسطينية على مدى ما اقترب من أربعين سنة متصلة. وفي هذا الموقع، استحوذ ياسر عرفات على صلاحيات وسلطات سياسية وعسكرية ومالية وإدارية لم تتوفر لأي من نظرائه، لا لنظرائه من رؤساء حركات التحرير ولا لنظرائه من رؤساء الدول. والحركة التي تصدّر عرفات قيادتها، وُجدت لتجابه أعتى القوى العدوانية في عصرنا، قوة الصهيونية ودولتها، وقوى الامبريالية بدولها ومؤسساتها العديدة، أي القوى الأكثر مساندة لإسرائيل عدوة الشعب الفلسطيني ومغتصبة أرضه وحقوقه.

بتصدره قيادة حركة هذه طبيعتها وتمتّعه بالصلاحيات والسلطات التي استحوذ عليها، صارت لعرفات أهمية مضاعفة، الأهمية التي للحركة التي تصدّر قيادتها، والأهمية النابعة من هيمنته هو بالذات على سلطة القرار الفلسطيني المتصادم، بالضرورة، مع إسرائيل ومع الحشد من الدول والقوى المساندة لإسرائيل. ولهذا، ظل عرفات منذ أول أمره هدفاً للمعتدين. وبالمقياس ذاته، مثل وجود عرفات خطراً مضاعفاً على إسرائيل وما ومن يلوذون بها.

ولأن الحركة الوطنية الفلسطينية المتجددة بعد ١٩٤٨ نشأت على ساحات عربية وإقليمية

---

\*كاتب فلسطيني.

\*\* مداخلة قُدمت إلى مائدة مستديرة عقدتها مؤسسة ياسر عرفات

يوم ٢٠١٤/١/١٢ لمناقشة موضوع اغتيال عرفات.

كثيرة وتمددت وانتشرت في العالم، فقد انضاف إلى القوى العدوانية الرئيسة قوى محلية هنا وهناك ناوأَت ياسر عرفات أو ناوأها هو. هذه المناوءات، ما كان منها أحادي الجانب وما كان متبادلاً، اقتضت أن يصير عرفات في دائرة الاستهداف من قبل قوى محلية أيضاً. ثم لأن الحركة الفلسطينية نشأت من منابت عديدة ولأن كل واحد من هذه المنابت ناسف الآخر واحتمى بطرف خارجي، فقد وُجد عرفات في دائرة الاستهداف، أيضاً، من قوى فلسطينية أو قوى تحمل صفة فلسطيني.

هنا، يجدر الإنتباه إلى حقيقتين تشكلان معاً الأرضية اللازمة لأي نقاش يدار حول هذا الموضوع: حقيقة تعدُّ مصادر الاستهداف وأسبابه؛ وحقيقة تفاوت درجات الأخطار التي لاحقت عرفات، من خطر تقزيم مكانته وصلحياته إلى خطر تصفيته جسدياً. إن الانتباه إلى هاتين الحقيقتين يوجب الانتباه لحقيقة أخرى متصلة بهما، هي حقيقة التداخل بين المصادر التي استهدفت عرفات، التداخل في المصالح، وفي تحديد الأهداف، ونوع الاستهداف ودرجته. وما أكثر ما التقى الذين ضاقوا بوجود عرفات وسلوكه على ضرورة إضعاف مكانته وتقزيم نفوذه. التقى هؤلاء على هذه النقطة دون تواطؤ مسبق، والتقوا، كلهم أو بعضهم، نتيجة تواطؤ مباشر أيضاً. ويمكن القول، دون خشية الوقوع في الخطأ، إن حزمة كبيرة من الأطراف الفلسطينية والعربية والدولية تمتت، بتواطؤ بين أطرافها أو بدون تواطؤ، أن تُضعف مكانة عرفات. وكثيرون منا يتذكرون كيف بدأ هذا النوع من الاستهداف منذ بدأ تمَيُّز عرفات داخل قيادة "فتح"، وكيف استمر الاستهداف واستشرى مع استمرار صعود مكانة عرفات وتعدُّد مناصبه واتساع سلطانه. وفي هذا الاستهداف، امتزج دافعان: إضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية؛ وإضعاف عرفات ذاته. وقد تفاوتت درجة تأثير هذا الدافع أو ذاك، حسب هذا الطرف أو ذاك.

هذا يعني بفسيح العبارة أن الأخطار التي أحاطت بياسر عرفات تعددت. فهناك أخطار الأذى الذي يمكن أن تلحقه أطراف كثيرة بالحركة الوطنية الفلسطينية بوجود عرفات فيها أو بعدم وجوده. وهناك الأخطار التي تستهدفه هو بالذات بسبب المكانة الخاصة التي تحققت له والصلحيات والسلطات التي استحوذ عليها، وبسبب ما تمتع به من قدرة ومواهب قيادية، خصوصاً قدرته على بلبله أعدائه وخصومه وموهبته الفذة في قلب الموائد كلما نصب أعداء الشعب الفلسطيني أو خصوم عرفات الشخصيون مائدةً لا يرتاح هو لوجودها. (١)

غني عن البيان أن وتيرة تدرُّج مستوى الاستهداف قد اختلفت من طرف إلى آخر، وفق ظروف كل طرف، بالطبع، وبالاقتران مع نمو مكانة عرفات وقدرته على مواجهة الأعداء والخصوم والمنافسين. وغني عن البيان، أيضاً، أن وجود أطراف تستهدف عرفات قد قابله

وجود أطراف تحرص على بقائه وتدافع عنه. وقد وُجدت أطراف كهذه في الساحات كلها، الفلسطينية والعربية والإقليمية والعالمية. وهنا، يمكن للنقاش في هذه المائدة المستديرة أن يضيء تفاصيل الاختلاف والتفاوت في مستوى الاستهداف، كما يمكن أن يضيء الصورة على الجهة المقابلة. وبين يدي هذه الإضاءة، أود أن أجتذب الانتباه إلى أهمية تحديد الأطراف التي استهدفت عرفات والأخرى التي دافعت عنه. وفي السياق ذاته، تبرز أهمية وضع اليد على تفاصيل التداخل بين الأطراف ذوي الأهداف المتفاوتة. إضاءة هذه النقطة لن تكتمل إلا إذا أضاء النقاش، أيضاً، العوامل التي كانت تلجم كل طرف له مصلحة في التخلص من عرفات، أي العوامل التي كانت تحول بين هذا الطرف وبين الإقدام على إيذاء الزعيم الفلسطيني بالدرجة التي يتوق إليها الطرف المعني.

أهمية إضاءة هذه النقاط تبرز عند الحاجة لتفسير السبب الذي حمى حياة ياسر عرفات أثناء وجوده على رأس الحركة الوطنية الفلسطينية المتصادمة على الدوام مع عدد كبير من الأعداء والخصوم وحتى الحاسدين. وهذه الإضاءة تشدد الحاجة إليها حين يراد وضع اليد على السبب الذي رفع الحماية عن حياة هذا القائد بعد تمتعه بها طيلة أربعة عقود. ويمكن للإنسان أن يتساءل، وهذا على سبيل المثال، فقط، إلى أي مدى، وفي أي أوقات، كان ياسر عرفات مستهدفاً من قبل هذه أو تلك من السلطات العربية التي خاصمها، وهل كانت حياته بالذات مستهدفة من أي من هذه السلطات؟ ويمكن، وهذا أيضاً على سبيل المثال، أن نتساءل: إلى أي مدى أمكن للظروف السياسية التي أنشأها عرفات أن تحميه من استهداف إسرائيل لحياته؟

هنا، قد يفيد التمعن في طبيعة سلوك عرفات، خصوصاً ما يتعلق بجهده لحماية حياته ناهيكم بحماية مكانته، من مستهدفيهما.

كان ياسر عرفات أكثر من عرفاً من القادة الفلسطينيين عناية بأمنه الشخصي، ويمكن قضاء ساعات طويلة في استحضار التدابير التي اتبعتها في هذا المجال. غير أن عرفات كان أذكى من أن يُعوّل على هذه التدابير وحدها. فهو يعرف أن أي تدابير أمنية لن توفر حماية مضمونة لحياة زعيم حين يستهدفها طرف مقتدر ومثابر. وإذا كان عرفات قد اعتنى بتدابير أمنه الشخصي، فقد فعل هذا لحماية حياته من مؤامرات ينظمها فرقاء صغار أو غير منضبطين. أما ضمانته حياته إزاء القوى ذات الوزن الذي لا تنفع معه التدابير الأمنية، فقد سعى عرفات لتأمينها بالسياسة التي فرضت على الجميع أن يتجنبوا المس بها. وكان بين بنود هذه السياسة أن يحتفظ هو على الدوام بدرجة من الشعبية في ساحات حضوره كلها، الشعبية التي تلجم نوازح المعتدين. وكان بين هذه البنود، أيضاً، حرص عرفات المثابر، حتى المبالغ فيه أحياناً، على منع أعدائه من تشكيل بديل لقيادته. وبين

هذه البنود، برزت قدرة عرفات على السلوك السياسي في نحو يجعل وجوده ضرورة لقوى عديدة متناقضة في ما بينها.

يمكن إيراد أمثلة كثيرة توضح هذه السياسة، سنكتفي هنا بذكر عناوين لعدد منها، فقط: (١) سياسة عرفات التي لجمت مناوئيه في الفصائل الفلسطينية عن تشكيل قيادة بديلة لقيادته؛ (٢) سياسته التي لجمت كارهيه من الحكام العرب عن الذهاب بعيداً في إيذائه؛ (٣) وهي ذاتها السياسة التي حالت دون تشكل أغلبية عربية رسمية عازمة على التخلّص منه؛ (٤) سياسته التي جعلت بقاءه على رأس الحركة الوطنية الفلسطينية ضرورة للاتحاد السوفياتي وفريقه العالمي ولجمت، على مدى عقود، دوافع الولايات المتحدة للذهاب بعيداً في إيذائه.

في سياق تطبيق هذه السياسات، برع ياسر عرفات في المناورة، والمداورة، في قلب المواند، في تبديل الاتجاه لأي درجة لازمة لمنع تحقق توافق عربي ودولي على الخلاص منه، فهذا التوافق، إن اتصلت حلقاته فشملت أطرافاً فلسطينية ذات وزن، كان من شأنه أن يبطل قدرة عرفات على خلق ضوابط تلجم العدوان على حياته. ويبدو أن مثل هذا التوافق هو ما تحقق في العام ٢٠٠٤، وهو ما سنأتي إليه لاحقاً.

مستمراً في هذا السياق، أجيّز لنفسي أن أذكر ما عرفته شخصياً منذ بداية الاجتياح الإسرائيلي للبنان ومحاصرة بيروت في العام ١٩٨٢. فالذين اتخذوا قرار الاجتياح في حكومة إسرائيل حصلوا على تأييد أميركي بدرجة أو أخرى واستخدموه لتحقيق هدفهم، وأجاز هؤلاء لأنفسهم أن يعلنوا بفسيح العبارة أنهم دخلوا لبنان لاجتثاث أحشاء منظمة التحرير الفلسطينية وتدميرها. وفي اليوم الذي تلا يوم إحكام الجيش الإسرائيلي حصاره على غرب بيروت، أبلغت القيادة السوفياتية إلى ياسر عرفات رسالة. في هذه الرسالة، قالت القيادة السوفياتية لياسر عرفات إن أقصى ما أمكن التوصل إليه على الخط الأحمر بين موسكو وبين واشنطن هو الاتفاق على أن يخرج أفراد الجسم البشري الفلسطيني المقاتل من بيروت أحياء. وأوضحت الرسالة أن هذا التوافق يشمل ضمان حياة ياسر عرفات. إطلاعي على هذا النبأ جعلني أهتم بتقصي التفاصيل. وهكذا عرفت ما أضيفه هنا وهو وجود توافق دولي، قوامه أميركي سوفياتي، على ضمان حياة عرفات قبل ١٩٨٢، وهو ما استمر بعده.

ما الذي جعل الإدارة الأميركية تجيز لإسرائيل في العام ٢٠٠٤ أن تفعل ما أبت هذه الإدارة أن تجيزه لإسرائيل ذاتها في العام ١٩٨٢، حين كان أرييل شارون وزير الحرب الإسرائيلي في الحكومة التي اتخذت قرار اجتياح لبنان يتحرق لاصطياد عرفات؟ أعرف أن الإجابة على هذا السؤال توقّر

المفتاح لمعرفة حقيقة ما جرى كله، وأعرف أن من العسير استيفاء الإجابة والوصول إلى يقين بشأنها في وقت قصير. مع ذلك، وبالرغم منه، يمكن اقتراح نقاط تساعد في المناقشة:

• عندما اغتيل عرفات لم يكن الاتحاد السوفياتي موجوداً. ومن المهم أن نعرف ما إذا كانت روسيا الاتحادية قد حرصت على استمرار التوافق القديم مع الإدارة الأميركية أم أنها أهملته؟

• اغتيل عرفات بعد احتباسه في مكتبه في رام الله وتطويق القوات الإسرائيلية هذا المكتب لمدة طويلة تجاوزت سنتين؛ فهل ألغت الإدارة الأميركية خلال هذه المدة حرصها على منع حكومة إسرائيل من الفتك به؟

• فيما كان عرفات محتبساً في مكتبه، تشجعت حكومات عربية عديدة كانت تضيق به على التصرف في نحو يُظهر أنها غير حريصة على بقاء عرفات قائداً للحركة الوطنية الفلسطينية. فهل مضت هذه الحكومات، كلها أو بعضها، إلى أبعد من ذلك، هل أبلغ أي منها إلى الإدارة الأميركية رغبتهم في التخلص من عرفات؟ يرد هذا التساؤل، مع التذكير بامتناع غالبية الدول العربية عن عمل أي شيء لتمكين عرفات من حضور القمة العربية التي انعقدت آنذاك في بيروت فيما هو محتبس، ومع التذكير، أيضاً، بأن هذه الدول فعلت كل شيء لمنع عرفات المحتبس من إلقاء كلمة فلسطين في القمة عبر الاتصال الإلكتروني الذي كان متاحاً.

• عرفات المحتبس، في ما أريد له أن يصير معتزلاً يفصله عن العالم، ظل، حتى وهو في هذا الوضع، قادراً على قلب المواثيق التي أعدتها إسرائيل والولايات المتحدة وغيرها لفرض الاستسلام على الجانب الفلسطيني. وقد تجلت قدرة عرفات في هذا المجال حين تمكن وهو محتبس من إبطال محاولات إسرائيل إيجاد بديل له.

• هل اقترنت خطة تصفية عرفات جسدياً بإعدادات تواطأت عليها الإدارة الأميركية مع فلسطينيين ما، ومع عرب آخرين، لتهيئة البديل، أو أن تصفية عرفات تمت لأن إسرائيل والولايات المتحدة وعرب هذه وتلك عجزوا عن خلق الطرف الذي يأذن بإحلال بديل استسلامي محل عرفات؟

• هل يتمتع خليفة عرفات الذي انتخبه الجمهور الفلسطيني في الأرض المحتلة بالضمانة الدولية التي توفرت لعرفات ذات وقت، وهل هناك ما يمنع أن تزول هذه الضمانة، إن كانت موجودة، فيلقى الخلفُ مصير السلف؟

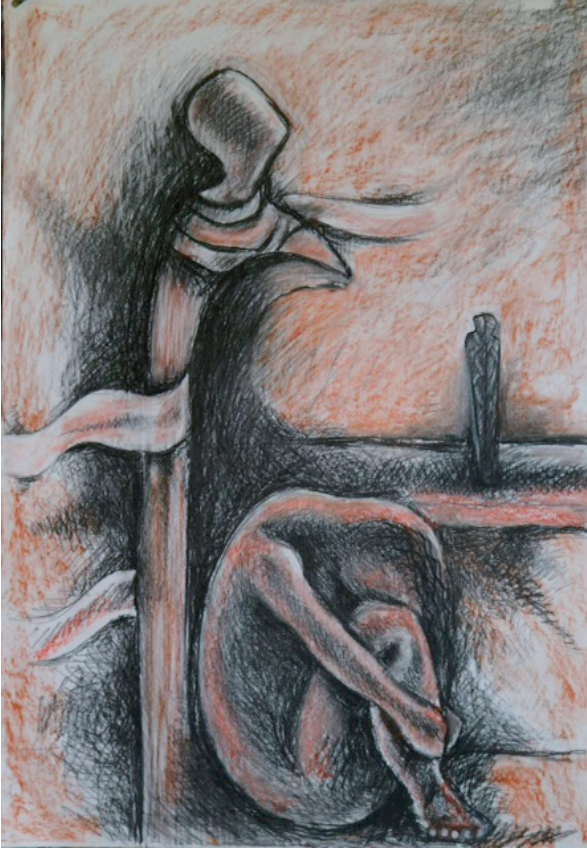
أياً ما كان عليه الأمر، هناك ما هو مؤكد، وهو أن ياسر عرفات قضى غيلة. وقد تم تدبير اغتيال الذي زادت شعبيته وهو محتبس بحيث لا تتم عملية الاغتيال جهاراً نهائياً، وذلك لأسباب كلها مفهومة وقد يرد بين الاسباب رغبة الولايات المتحدة في أن تتم تصفية عرفات بحيث يضيع دمه بين القبائل

وتتمكن هي من إدعاء البراءة أو، على الأقل، التنصل من المسؤولية.  
والتحدي المائل الآن أمام الجانب الفلسطيني هو هذا: ما الذي ينبغي عمله مما يمكن عمله لفضح ما جرى، ولتوفير القرائن الدامغة، وتعميم القناعة بدرجة معقولة من اليقين حول مسؤولية المسؤولين فعلاً عن تصفية عرفات؟ وما الذي يمكن عمله، من الآن وإلى أن يتم تعميم اليقين، لإبقاء المسألة كلها على جدول الأعمال الوطني الفلسطيني، والحيلولة دون استبعادها عنه؟  
ختاماً، أود التأكيد على أن تظهير الحقيقة لا يقتصر على تحديد المسؤولين عن الاغتيال وتوفير القرائن الدامغة، فبالإضافة إلى هذا، هناك الحاجة إلى تحديد الوسائل التي تلجم قدرة إسرائيل على التخلص من كل ممثل للشعب الفلسطيني إذا شكل وجوده الشخصي عقبة أمام مطامعها العدوانية.









أوراق فكرية



## الشرق الأوسط الجديد وإعادة رسم خارطة المنطقة

صلاح عبد الشافي\*

مصطلح الشرق الأوسط الجديد ليس بالجديد، فقد اختاره السياسي الإسرائيلي المخضرم شمعون بيريس عنواناً لكتابه الذي صدر في العام ١٩٩٣ بعد التوقيع على اتفاقية أوسلو. وقد ترك بيريس في كتابه، هذا، المجال واسعاً لخياله في رسم صورة زاهية عن مستقبل الشرق الأوسط؛ صورة يزينها الأمن والاستقرار والسلام والرخاء الاقتصادي في المنطقة. غير أن بيريس لم يعط للمصطلح أي مضامين جديدة تنم عن رؤية استراتيجية لما سيكون عليه الشرق الأوسط الجديد لجهة البنى الاقتصادية والاجتماعية وخارطة التحالفات الإقليمية والدولية.

عقيدة بوش في التطبيق

مع صعود المحافظين الأميركيين الجدد إلى قمة الهرم السياسي في الولايات المتحدة بفوز جورج بوش الإبن في انتخابات العام ٢٠٠٠، بدأت تتشكل ملامح لاستراتيجية أميركية جديدة على الصعيد الدولي. فقد جاء المحافظون الجدد إلى السلطة على أكتاف المجمع الصناعي العسكري والصناعات البترولية التي تُشكل عائلة بوش أحد أقطابها الرئيسيين في ولاية تكساس. وقد اتسمت السنة الأولى من ولاية بوش الإبن بالبراغماتية فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وتحديداً الموقف من مناطق النزاع في الشرق الأوسط، خصوصاً العراق، وإيران، والصراع العربي الإسرائيلي. وشكلت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ علامة فارقة في تبلور الرؤية العالمية للمحافظين الجدد. وأسست هذه الهجمات لمرحلة جديدة في العلاقات الدولية، هي مرحلة ما زلنا نعاني من تداعياتها حتى يومنا هذا.

---

كاتب وديبلوماسي فلسطيني.

تحت وطأة الصدمة بعد هجمات ١١ أيلول / سبتمبر وموجة التعاطف الدولي مع الولايات المتحدة، بدأت إدارة الرئيس بوش في الإعداد لمرحلة سمتها هذه الإدارة الحرب على الإرهاب، وهي لم تُعرّف أو تُحدد جغرافياً وزمانياً. بعبارة أخرى، أعلنت الإدارة الأمريكية الحرب المفتوحة. ولم تضع هذه الإدارة أهدافاً محددة للحرب باستثناء الهدف الوحيد المعلن وهو اجتثاث الإرهاب، والانتقام من منظمة " القاعدة " باعتبارها العنوان الأول للإرهاب العالمي. وبالتوازي مع الحرب على الإرهاب بدأ الحديث يدور حول الديمقراطية وضرورة استبدال الأنظمة المستبدة بأخرى ديمقراطية. وللمرة الأولى، بدأت الولايات المتحدة بالتلميح، تارة بشكل مبطن وتارة أخرى بشكل أكثر علنية، إلى " النواقص " الديمقراطية لدى العديد من الأنظمة بما في ذلك أنظمة اعتُبرت إلى حينه حليفاً مخلصاً للولايات المتحدة.

بدأت فصول "الحرب على الإرهاب" في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ مع بداية العمليات العسكرية ضد أفغانستان. ولم تجد الولايات المتحدة في حينه أي صعوبة في تشكيل تحالف دولي عسكري مستند إلى قرارات الأمم المتحدة لشن الهجوم العسكري للإطاحة بنظام طالبان الأفغاني وتنصيب حكومة جديدة موالية لها برئاسة حامد كرزاي. وفي ٢٩ كانون ثاني / يناير ٢٠٠٢، ألقى الرئيس بوش الإبن خطابه إلى الأمة عن " حالة الاتحاد ". ولأول مرة، استخدم هذا الرئيس عبارة "محور الشر"، محدداً إياه بثلاث دول هي إيران والعراق وكوريا الشمالية، وفي ٦ أيار/ مايو من العام ذاته، ألقى نائب وزير الخارجية الأميركي في حينه جون بولتون John Bolton كلمة بعنوان "ما بعد محور الشر" "Beyond the axis of Evil" أضاف فيها ثلاث دول إلى هذا المحور، هي كوبا وليبيا وسورية.

تصنيف العالم إلى عالمين أحدهما يمثل الشر وآخر يمثل " الخير " عنى فيما عناه أن دول " الخير"، طبعاً بزعامة الولايات المتحدة، يقع على عاتقها التخلص من أنظمة "الشر" بأي ثمن. وبهذا، فتحت الإدارة الأميركية الباب على مصراعيه للتدخل العسكري المباشر في مناطق مختلفة من العالم، تحت ذرائع التخلص من دول الشر، ونشر الديمقراطية، وتعميم القيم الغربية في العالم. هذا التوجه مثل البداية الفعلية لتنفيذ عقيدة أمنية وسياسية جديدة. وهذه العقيدة كانت قد بدأت تتبلور في بداية التسعينات من القرن الماضي، ثم وجدت تجلياتها مع إدارة الرئيس بوش الإبن، وأصطلح على تسميتها " عقيدة بوش " "Bush" "Doctrins" والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

١. تعزيز نظام عالمي جديد يعتمد على أحادية القطب وزعامة الولايات المتحدة.
٢. الحق في توجيه ضربات عسكرية استباقية أو وقائية لأي جهة قد تشكل تهديداً للولايات المتحدة وحلفائها.

٣. العمل خارج إطار القانون الدولي والأمم المتحدة إذا ما شكل التوجه للأمم المتحدة عائقاً أو قيوداً على أي تحرك أمني أو عسكري أميركي.

٤. مركزية الشرق الأوسط الكبير للمصالح الاستراتيجية الأميركية وتباعاً مركزية العلاقات الاستراتيجية مع إسرائيل.

في إطار هذه العقيدة، بدأت التحضيرات للحرب على العراق، تحت ذريعة امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل. لقد شكلت الحرب على العراق التنفيذ العملي للعقيدة الأمنية والسياسية للمحافظين الجدد ممثلين بإدارة الرئيس بوش الابن. وحين عجزت الإدارة الأميركية عن استصدار قرار من مجلس الأمن لدعم الحرب، بالرغم من حملة التضليل والتزوير التي أطلقتها أجهزة الأمن والاستخبارات الأميركية والبريطانية حول امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، شكلت الولايات المتحدة تحالفاً عسكرياً خارج إطار الشرعية الدولية بهدف إسقاط نظام الرئيس العراقي صدام حسين، وأعلن بوش عن انطلاق العمليات العسكرية ضد العراق في ٢٠ آذار/ مارس ٢٠٠٣. ومع سقوط بغداد والاستيلاء عليها، أعلن بوش في الأول من أيار/ مايو انتهاء الحرب.

العلامة الفارقة التي تستحق التوقف عندها قليلاً كانت قرار رئيس "سلطة التحالف المؤقتة" الحاكم الأميركي للعراق بول بريمر بحلّ الجيش العراقي والتشكيلات العسكرية والأمنية التابعة للنظام السابق كافة. لقد ساد الكثير من اللغط وتناقضت الروايات حول خلفية قرار الحلّ هذا وتبعاته السياسية والأمنية والعسكرية، كما حول الآلية التي تم فيها اتخاذ هذا القرار. لكن المتداول في هذه القضية هو أن القرار اتخذ دون مراعاة وجهة نظر المؤسسة الأمنية والعسكرية الأميركية والتي كان لها تحفظات كبيرة حول القرار. كما أنه لم تتم استشارة كولن بأول وزير الخارجية الأميركية في حينه، وهو صاحب خبرة عسكرية طويلة، ولم تتم استشارة كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومي للرئيس، ولا الجنرال مايرز رئيس أركان القوات المشتركة ونائبه. حتى جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية لم تتم استشارته. الشخص الوحيد الذي بقي صامتاً حول دوره في هذه القضية حتى بعد تركه العمل كان نائب الرئيس الأميركي ديك تشيني، وكذلك طاقم تشيني في البيت الأبيض، مما يلقي بظلال الشك حول دور نائب الرئيس في اتخاذ مثل هذا القرار، وهو المعروف عنه قلة الكلام وإيتار العمل من وراء الكواليس من أجل دفع أجندة المحافظين الجدد للأمام.

هذا القرار، الذي دفع بأكثر من نصف مليون عنصر من الجيش العراقي إلى أحضان "القاعدة" والمليشيات الأخرى، أدخل العراق في دوامة من العنف لم يسبق لها مثيل ولم يتعاف منها حتى الآن. وبتحلل الجيش العراقي، فقدت السلطة المركزية في بغداد أهم أعمدتها، ودُفعت البلاد إلى

التقسيم الفعلي لمناطق نفوذ طائفية وعرقية. فهل كان هذا القرار زلة قلم للحاكم بريمر، كما يحلو لبعض المحللين وصفه، أو أن القرار كان جزءاً من استراتيجية مدروسة؟

بعيداً عن الفرضيات والتكهنات، اتضح، بعد أكثر من عشر سنوات على انتهاء الحرب، بما لا يدع مجالاً للشك، أن المستهدف في هذه الحرب لم يكن نظام صدام وأسلحة الدمار الشامل، بل العراق بما كان يشكله من قوة إقليمية وموارد عسكرية وبشرية واقتصادية، لأن قوة العراق وموارده كانت تشكل موضوعياً قطباً يهدد المصالح الأميركية الحيوية في المنطقة مثلما يهدد حليفة أميركا الرئيسية إسرائيل. وما أرادته الولايات المتحدة في العراق هو دولة حليفة ولكنها ضعيفة ممزقة تنخرها الصراعات الطائفية والعرقية. وقد شكلت حرب العراق وتداعياتها التنفيذ العملي لما أطلقت عليه كونداليزا رايس مصطلح الفوضى البناءة "Constructive Chaos"، وذلك في العام ٢٠٠٦، حين تحدثت رايس من تل أبيب أثناء الحرب الإسرائيلية على لبنان، وبشرت بشرق أوسط جديد. وتتمثل هذه الرؤية للفوضى الخلاقة في إغراق المنطقة في نزاعات وحروب طائفية وعرقية تمكن الولايات المتحدة وحليفاتها الأوروبية الأهم، بريطانيا، وحليفاتها الاستراتيجية في المنطقة، إسرائيل، من إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بما يتلاءم مع مصالح هؤلاء الحلفاء الجيوسياسية. وليس من الصدفة أن هذه التطورات السياسية والأمنية سألقة الذكر قد حدثت بالتوازي مع وضع الخطط لمد خط أنابيب الغاز المعروف بـ BTC وتنفيذها؛ وهو الخط الذي يضمن تدفق الغاز من بحر قزوين، مروراً بالعاصمة الأذربيجانية باكو والعاصمة الجورجية تبليسي، وانتهاءً بميناء شيهان التركي على ساحل الأبيض المتوسط، بطول ١٧٦٨ كم، والذي دشّن في أيار/مايو من العام ٢٠٠٦. والهدف السياسي من هذا الخط هو تأمين إمدادات الطاقة إلى أوروبا بعيداً عن المنطقة العربية، وتعزيز الاستقلالية عن البترول العربي.

على صعيد آخر، كثفت الإدارة الأميركية برامج "دعم الديمقراطية" في الوطن العربي، وذلك من خلال صرف مئات ملايين الدولارات عبر وكالة التنمية الدولية الأمريكية USAID، ووزارة الخارجية، وشبكة من مراكز الأبحاث والفكر، خصوصاً في الدول التي اعتبرت حليفة وصديقه. وقد نُفذت هذه البرامج بالتعاون مع مؤسسات غير حكومية كثيراً ما كانت تتعرض للقمع من قبل تلك الأنظمة الحليفة لواشنطن. وكان هذا ما دفع واشنطن لرفع وتيرة انتقادها للأنظمة الحليفة. ولقد أدركت واشنطن أن ارتفاع معدلات الفقر والبطالة والأمية والقمع سيصعّد حالة التمللم في الشارع العربي بشكل مستمر، وأن الأدوات القديمة التي طالما استخدمتها الولايات المتحدة لم تعد صالحة للتعامل مع الواقع الجديد، مما يتطلب البحث عن بدائل. في هذه الفترة بالذات، بدأت إدارة بوش بإجراء اتصالات، ولو بشكل غير رسمي، مع حركة الإخوان المسلمين في مصر. وبعض



هذه الاتصالات كان يتم في منزل السفارة الأميركية في القاهرة.

إن تاريخ العلاقة الأميركية الإخوانية ليس بالجديد؛ فقد بدأت هذه العلاقة في أوائل خمسينات القرن الماضي، وتحديداً في عهد الرئيس الأميركي دوايت أيزنهاور. ففي العام ١٩٥٣، قامت وكالة المعلومات الأميركية ( US Information Agency ) بدعوة مجموعة من العلماء المسلمين إلى مؤتمر في جامعة برنستون. الهدف من وراء هذه الدعوة كان العمل على استغلال الحركات الإسلامية في مواجهة الخطر الشيوعي في المنطقة. أحد المدعوين من هذه المجموعة كان هو "سعيد رمضان"، وهو زوج ابنة مؤسس حركة الإخوان المسلمين الإمام حسن البنا، وهو أيضاً من كان يعتبر في حينه بمثابة وزير خارجية الحركة.

ومنذ ذلك الحين، أدارت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية العلاقة مع حركة الإخوان المسلمين على صعيد عالمي، بما يشمل فروع الحركة في أوروبا وأميركا الشمالية. والهدف المشترك كان دائماً هو محاربة الشيوعية والإلحاد ومحاصرة النفوذ السوفيتي الصاعد في المنطقة.

### استغلال الربيع العربي

في السابع عشر من كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٠، أقدم المواطن التونسي محمد بوعزيزي على إحراق نفسه احتجاجاً على الأوضاع المأساوية التي يعيشها، مفضلاً الموت على حياة البؤس والحرمان. ولقد شكلت هذه الحادثة شرارة انطلاق ما اصطلح على تسميته "الربيع العربي"، وتوالت الأحداث. وراحت الأنظمة تتساقط الواحد تلو الآخر كأحجار الدومينو. الملفت للنظر كان إسراع الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين إلى إعلان الدعم والوقوف إلى جانب مطالبة الثورات بإسقاط الأنظمة التي كانت على مدار عقود طويلة الحليف المخلص لواشنطن. ما الذي حدث؟ ولماذا هذا التحول السريع؟ لسان حال الغرب كان دائماً يبرر ووقوف دُوله إلى جانب الأنظمة الديكتاتورية بقدره هذه الأنظمة على حفظ الاستقرار في المنطقة في مواجهة خطر الإرهاب والتطرف. وعندما بدت هذه الأنظمة عاجزة عن القيام بهذه المهمة، فقد حان وقت تغييرها بأدوات جديدة. فالاستقرار يعني للولايات المتحدة بالأساس أمرين، الأول أمن إسرائيل وبقائها في المنطقة بما هو خط أحمر لا يمكن تجاوزه؛ والثاني عدم المس بالمصالح الحيوية للغرب في المنطقة، سواء كانت المصالح الاقتصادية أو أمنية. وبالتالي، المطلوب بديل أو بدائل تعمل على الحفاظ على هذين الأمرين.

كان من الواضح أن الثورات اندلعت في غياب قيادة سياسية قادرة على توجيهها وتنظيمها تمهيداً لمرحلة الحصاد السياسي. فاختلط الحابل بالنابل. وبدأت تظهر تشكيلات ليس لها هيكل تنظيمية،

فهي خليط من منظمات مجتمع مدني ومؤسسات غير حكومية وأحزاب صغيرة وشخصيات عامة. القوة الوحيدة المنظمة والمستندة إلى تنظيم حزبي ذي تجربة وهيكل حزبية وأجهزة إعلامية ومالية كانت هي حركة الإخوان المسلمين. وقد تلقفت هذه الحركة اللحظة السياسية، وأدركت أن الظروف نضجت كي تتسلم حركة الإخوان المسلمين السلطة، لأول مرة في التاريخ، في قطر عربي (إذا ما استثنينا سلطة حماس في غزة). وفي الوقت ذاته، أدركت حركة الإخوان المسلمين أن استلام السلطة يتطلب تحالفات إقليمية ودولية لتمكنها من السلطة. فالأولوية القصوى تجسدت، بالنسبة للحركة، في الوصول إلى السلطة عن طريق صندوق الاقتراع، تمشياً مع مطالب الثورة، ومن ثم تعزيز وإحكام قبضة الحركة على الدولة وأجهزتها، تمهيداً للبدء بتنفيذ المشروع الإخواني القديم - الجديد، وهو مشروع هدفه أسلمة المجتمع وإقصاء كل من يخالف هذا التوجه. وقد شكل هذا التوجه الإخواني القاعدة لعقد " الصفقة الكبرى" مع أميركا والغرب عموماً. فمن ناحية، تعهدت الحركة عدم المساس بالاتفاقيات الموقعة مع إسرائيل، خصوصاً إتفاقية " كامب ديفيد". وشهد التنسيق الأمني والعسكري المصري - الإسرائيلي في عهد الرئيس الإخواني محمد مرسي تطوراً ملحوظاً. كما أن الحركة أكدت، من ناحية أخرى، أنها لن تشكل تهديداً للمصالح الحيوية للغرب في الشرق الأوسط. وفي هذا السياق، أكد نائب المرشد العام للإخوان المسلمين السيد رشاد بيومي في لقاء صحافي بتاريخ ١٣ آذار / مارس ٢٠١٣ أن مصر لن تدير ظهرها للولايات المتحدة الأمريكية وأنها ستحترم اتفاقيات كامب ديفيد. ورأى السيد بيومي، أن الغرب لن يتدخل أو يضغط على مصر اقتصادياً، ولن يتدخل في شأنها الداخلي. وعندما أصدر الرئيس مرسي مراسيمه الشهيرة في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢، والتي وضع نفسه فيها عملياً فوق القانون والقضاء، كانت ردود الفعل الأمريكية والغربية باهتة جداً. لقد بات واضحاً أن العلاقات الأمريكية الغربية - الإخوانية دخلت مرحلة من الدفاء. فبدأت أبواق الإعلام الغربية بوصف حركة الإخوان بأنها معتدلة وعقلانية، فيما إنكب خبراء الشرق الأوسط في الغرب على التنظير لعملية التحول داخل هذه الحركة باتجاه حركة ديمقراطية، وروّجوا أن اسم الحركة الإسلامي لا يختلف عن اسم الكثير من الحركات والأحزاب المسيحية في الغرب.

في هذه الأثناء، اندلعت الثورة السورية في آذار/ مارس ٢٠١١؛ انطلقت بما هي حركة شعبية مدنية مطالباً بالإصلاحات الديمقراطية. وقد رأى الغرب في الثورة السورية فرصته السانحة لضرب النفوذ الإيراني في المنطقة، من خلال إسقاط حليف إيران الرئيس في هذه المنطقة، نظام الأسد، ومحاصرة حزب الله اللبناني. وقد توافقت في هذا مصالح الغرب مع مصلحة القوة الإقليمية الصاعدة، تركيا، بقيادة رئيس حكومتها رجب طيب أردوغان. رأت تركيا في صعود الإسلاميين إلى الحكم في المنطقة وسقوط نظام الأسد فرصتها لتعزيز نفوذها في مواجهة إيران.

بناء على ما تقدم، سارع الغرب ومعه تركيا التي تربطها حدود طويلة مع سورية إلى عسكرة الثورة السورية، باستخدام أدوات إقليمية عربية لها مصلحة كبيرة في ضرب النفوذ الإيراني. كانت الفرضية السائدة في الغرب هي أن النظام السوري سرعان ما سيتفكك ويسقط. وراحت تتكرر مقولة: أيام النظام السوري باتت معدودة. لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن؛ فالنظام السوري، وعلى عكس توقعات الغرب، استطاع الصمود والحفاظ إلى حد بعيد على تماسك أجهزته الأمنية والعسكرية والمدنية. كما أن دخول روسيا الاتحادية على الخط دعماً للنظام السوري وضع العصا في دوايب إسقاط النظام. إن معادلة " لا غالب ولا مغلوب" أدخلت سورية في آتون حرب أهلية دموية أدت على أرض الواقع إلى تقسيم البلد إلى مناطق معظمها مناطق نفوذ طائفية وعرقية. أضف إلى ذلك أن ما حدث في العراق وفي سورية قد رمي بظلال ثقيلة على الدول المجاورة. فالوضع الأمني في العراق أصيب بانتكاسة كبيرة، نتيجة تمكن منظمة "القاعدة" من تعزيز وجودها العسكري في سورية من خلال جبهة النصرة وداعش. كذلك الأمر بالنسبة إلى لبنان، حيث تدخل حزب الله عسكرياً إلى جانب النظام السوري، مما جعله مستهدفاً من قبل قوى سلفية، وعادت حرب التفجيرات إلى الظهور مجدداً. أما عن المأساة الإنسانية، فحدث ولا حرج، حيث تدفق مئات الألوف من اللاجئين السوريين إلى لبنان والأردن، وبشكل يفوق طاقة هذين البلدين على الاستيعاب.

بحساب الربح والخسارة، فإن الراجح الوحيد إقليمياً هي إسرائيل. فللمرة الأولى منذ قيام هذه الدولة في العام ١٩٤٨ يصل مستوى التهديد العسكري والأمني الذي تتعرض له إلى ما يقرب من نقطة الصفر. أي أن دول الجوار أصبحت منهمكة في مشاكلها الداخلية التي أصبحت تستحوذ على جل طاقتها العسكرية والأمنية.

## التحول نحو التقارب مع إيران

في الوقت ذاته، كثفت الإدارة الأميركية تركيزها على الموضوع الإيراني. ورفعت هذه الإدارة وتيرة التصعيد ضد إيران، من خلال تعزيز الحصار والمقاطعة الاقتصادية والتهديد بالحرب، وفي ذلك، استفادت الإدارة الأميركية من أجواء وتداعيات ما يحدث في مصر وسورية، من صعود إسلامي موصوف بأنه سني متفاهم مع الغرب في محاصرة الخطر الموصوف بأنه شيعي وتقليم أظافر أدواته في المنطقة. ثم لم يلبث أن جاءت هبة ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠١٣ فأدت إلى إسقاط حكم الإخوان المسلمين في مصر لتقلب الطاولة مجدداً.

ليس من الصدفة أن بداية التقارب الأمريكي والغربي مع إيران قد تزامنت مع تنحية الرئيس الإخواني

محمد مرسي عن الحكم في مصر واقتناع الغرب بأنه لا تسوية في سورية دون حوار مع النظام والبحث عن حل سياسي للأزمة. لقد فرضت هذه التطورات الجديدة على دول الغرب، خصوصاً الولايات المتحدة، إعادة صياغة تحالفاتها وأدواتها الإقليمية. وبدأت أميركا فعلاً في تقليص وجودها وتدخلها العسكري المباشر في المنطقة لصالح المزيد من الاهتمام وإعطاء الأولوية لمنطقة جنوب شرق آسيا وجنوب القوقاز. فالشرق الأوسط، بما هو مورد أساسي لمصادر الطاقة، قد فقد بعض أهميته بالنسبة لأميركا، بعد أن أصبحت هذه من كبار منتجي الغاز والنفط في العالم على ضوء تطور تقنية "Fracking" في الاستخراج. ويبدو أن أميركا تريد أن تنسحب تدريجياً من المنطقة، ولكن ليس قبل أن تؤمن وضعاً جديداً يعمل على ترتيب جديد للقوى في مناطق النزاعات في الشرق الأوسط، وتحديد النزاع على البرنامج النووي الإيراني، والحرب الأهلية السورية، والصراع العربي - الإسرائيلي. في هذا السياق، جاء الاتفاق المرحلي ما بين الغرب وإيران حول القدرات النووية الإيرانية. ومن الملفت للنظر أن ما قبلت به إيران حسب هذا الاتفاق هو ما كانت إيران ذاتها مستعدة لقبوله منذ سنوات. فالذي تغير هو موقف الولايات المتحدة وليس موقف إيران. لقد أغضب التقارب الأمريكي - الإيراني إسرائيل ودول إقليمية أخرى، وذلك ليس لخوف إسرائيل من قدرات إيرانية نووية عسكرية مزعومة، بل لقلق إسرائيل من تضاؤل أهميتها الاستراتيجية لأميركا والغرب في المنطقة وإعادة بروز إيران قوة إقليمية مقبولة غربياً. فنحن الآن أمام منطقة عربية تتنازعها ثلاث قوى إقليمية جميعها ليست بالعربية، وهي إيران وإسرائيل وتركيا. التطور الآخر هو انعقاد مؤتمر جنيف ٢ حول سورية بمشاركة مندوبين عن النظام والمعارضة السورية. وما كان للتقدم الحاصل في المسارين السوري والإيراني أن يحدث دون تفاهم أمريكي روسي، مما يؤشر لدور روسي يتجدد في المنطقة ضمن معادلة مراعاة مصالح الطرفين.

### الصورة الراهنة للشرق الأوسط

من الصعب بمكان، والمنطقة لا تزال في حالة مخاض عسير، أن نخرج بأحكام نهائية أو مطلقة لخريطة المنطقة الجيوسياسية الجديدة. لكن من المثير للاهتمام أنه بالرغم من حالة الفوضى وعدم الاستقرار بشكل عام فإن أسعار النفط لم تتأثر، وانسياب النفط والغاز إلى الأسواق العالمية لم يتأثر أيضاً. فبعد الصعود الكبير لسعر برميل النفط (برنت) في العام ٢٠٠٨، حين وصل هذا السعر إلى ما يقارب ١٤٠ دولاراً، انخفض السعر بحيث أصبح يتراوح، منذ العام ٢٠١٠ حتى اليوم، أي منذ اندلاع ما يُسمى بالربيع العربي، إلى ما بين ١٢٤ و١٣٦ دولاراً للبرميل. إن العبرة المستخلصة من ذلك هي

أن " الشرق الأوسط الجديد" أو " الفوضى الخلاقة" بدأت ملامحها تتضح؛ فالعراق يعيش حالة من التمزق يجسدها وجود دولة كردية في الشمال بحكم الأمر الواقع، ووجود دولة شيعية في الجنوب، وصراع بين الحكومة المركزية وبين السكان السنة في الوسط ومنطقة الأنبار. ليبيا تعيش في حالة مشابهة من حيث ضعف السلطة المركزية في مقابل سيطرة القبائل والعشائر والمليشيات في مناطق مختلفة من البلاد. وكذلك هو الأمر في اليمن: صراع على السلطة، وصراع بين السلطة وبين الحوثيين في الشمال، ومع "القاعدة" في الجنوب، والحراك الشعبي في مناطق اليمن الجنوبي.

إن تعزيز البعد الطائفي في الصراع في الأقطار العربية المختلفة في مقابل تراجع الخيار الديمقراطي سيعزز من مقولة إسرائيل أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، إضافة إلى أنه يعطي إسرائيل المبرر لتطرح ذاتها بوصفها دولةً يهودية، طالما أنها محاصرة من دول أو كيانات طائفية.

### وبعد، أين الصراع العربي الإسرائيلي من كل ما يحدث؟

من الواضح أن بند الصراع العربي - الإسرائيلي، وتحديدًا الفلسطيني - الإسرائيلي، قد تراجع إلى الخلف في الأجندة الدولية الشرق أوسطية، ولكنه لم يختف. فالإدارة الأمريكية بدأت، في الفترة الثانية من رئاسة باراك أوباما، بممارسة جهد مكثف بقيادة وزير الخارجية جون كيري هدفه الدفع بحل القضية الفلسطينية إلى الأمام؛ جرى هذا إدراكاً منها أنه لن يكون هناك استقرار في المنطقة ككل دون حل هذا الصراع التاريخي. فالانسحاب التدريجي لواشنطن من المنطقة لن يتم دون الانتهاء من الملف الإسرائيلي الفلسطيني. والخيارات أصبحت محدودة؛ فإما أن يتوصل الطرفان من خلال المفاوضات المباشرة التي تجري برعاية أمريكية إلى اتفاق إطار يحدد حدود الدولة الفلسطينية المستقلة ويضع ترتيبات أمنية برضى الطرفين ومحددات لحل قضية اللاجئين، وذلك حين يتم التفاوض التفصيلي حول ترجمة هذا الإطار إلى اتفاق نهائي في فترة لا تتجاوز العام؛ وإما أن يتم تفاهم دولي أمريكي - أوروبي - روسي حول حلّ يجري فرضه على الطرفين. السيناريو الآخر هو فشل الجهود الحالية، ولجوء القيادة الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، وما قد يستتبعه ذلك من ردود فعل إسرائيلية وأميركية قد تؤدي إلى تقويض نهائي للسلطة الوطنية الفلسطينية، ودخول الصراع إلى مرحلة جديدة يصعب الآن التكهّن حول تداعياتها العملية والإقليمية.

وبالرغم من أن الطرف الفلسطيني هو الرقم الأضعف في المعادلة، إلا أن هذا الطرف ما زال يمسك بكثير من الأوراق التي يمكن توظيفها في حال فشل الخيار التفاوضي الحالي، والتي يمكن تلخيصها بالتالي:

١. التوجه الممنهج والمدرّوس على مسار الأمم المتحدة، والبدء بشكل تدريجي وتصاعدي في

الانضمام إلى المنظمات الدولية المختلفة والتوقيع على المعاهدات والمواثيق الدولية، وصولاً إلى المصادقة على ميثاق روما والانضمام إلى محكمة الجنايات الدولية.

٢. تعزيز حملة المقاطعة للمستوطنات الإسرائيلية ومنتجاتها، وتحديدًا في أوروبا؛ والاستناد إلى التوجهات الجديدة للاتحاد الأوروبي بهذا الخصوص، ودفع الاتحاد إلى خطوات عملية أخرى في هذا الاتجاه، وكذلك دعم منظمات المجتمع المدني وحملات مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها.

٣. الإسراع في إنهاء الإنقسام الفلسطيني الداخلي؛ وتفعيل وإصلاح منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها باعتبار أن المنظمة هي حاضنة المشروع الوطني وحامية الهوية الوطنية الفلسطينية.

٤. تعزيز المقاومة الشعبية ورفدها بالمقومات اللازمة لديمومتها فعلاً وليس قولاً، بحيث يتحقق مستوى مرموق من الانخراط الجماهيري الشامل في هذه المقاومة.

٥. تعزيز صمود المواطن الفلسطيني على أرضه من خلال توفير عناصر الصمود، وهي العمل، والحياة الكريمة، والرعاية الصحية، والتعليم، والأمن.

إن عناصر الانتصار في معركة الحرية متوفرة. وإذا ما أحسن توظيف هذه العناصر فإنها ستعيد الاعتبار للعامل الذاتي الفلسطيني. إن عامل الوقت يعمل لصالح الشعب الفلسطيني. فعزلة إسرائيل الدولية في تزايد، وكفه الرأي العام العالمي تميل إلى جانب حقوق الشعب الفلسطيني، وعلينا أن نستند إلى هذا ونراكم عملنا على الصعيد الدولي والشعبي بحيث يتحول الرأي العام العالمي إلى قوة مادية ضاغطة على الحكومات، كما حدث في الحملة الدولية لمقاطعة نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. إن إسرائيل لن تنسحب من المناطق المحتلة إلا إذا شعرت بأن ثمن احتلالها أصبح لا يطاق سياسياً واقتصادياً، والخطوة الأولى هي أن نُقنع، نحن الفلسطينيين، أنفسنا بقدرتنا على تحقيق الانتصار.

# الارض في الصراع مع الصهيونية الارض هي الموضوع والميدان والاطار

عبد الفتاح القليلي\*

شكّلت الحرب العالمية الثانية، رغم مآسيها، وقف الاستعمار المباشر، وإشارةً لبداية نهاية القائم منه، فصارت الشعوب المستعمرة تستقل شعبا إثر آخر. وكانت فلسطين هي الاستثناء الوحيد، حيث استلمها الاستعمارُ البريطاني من الاستعمار التركي وسلمها للاستعمار الصهيوني متعدد الجنسيات. ونظرا لتوقف الاستعمار المباشر لم تعد الارض من أهداف الحروب الا إذا كانت الحرب حربَ حدود (توسع هنا او هناك)، أي صارت الارض هي مجال الحرب والصراع وليست هدفها؛ وكانت فلسطين ايضا هي الاستثناء. فالارض هنا هي أساس الصراع، وهي هدفه ومجاله منذ انطلقت الحركة الصهيونية، بل منذ إرهاباتها الاولى (في ذروة الاستعمار العالمي في بداية القرن التاسع عشر) وحتى يوم امس. فالقضية الفلسطينية هي قضية الارض، فالعدوان لاغتصاب الارض، والدفاع للاحتفاظ بها؛ وعندما وقع الاحتلال كانت المقاومة لاستردادها.

## الارض في اللغة العربية وفي ثقافة الفلسطينيين:

الأرض في اللغة العربية هي الكوكب الذي نعيش عليه، وهي عكس السماء. ولم تُستعمل في الأدب العربي القديم ولا في القرآن الكريم إلا بهذا المعنى. "والأرض بعد ذلك دحاها" النازعات ٣٠، "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة..." البقرة ٣٠، أو بمعنى اسم جنس "قال أنه يقول بقرة

---

كاتب وباحث فلسطيني

لا ذلول تثير الأرض... "البقرة ٧١"، "كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها..." الروم ٩، "...ولا تعثوا في الأرض مفسدين" البقرة ٦٠، "وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها. ..." البقرة ٢٠٥، "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراعماً كثيراً وسعة. .." النساء ١٠٠.

ومن الجدير بالإشارة إليه هنا أن الآلهة في الديانات الوثنية ترتبط بأرض محددة لا تبارحها حيث لا تُعبد إلا هناك. أما رب العالمين في الاسلام فهو رب الكون ومنه الأرض بعامتها، وهو في كل مكان ويُعبد في كل مكان .

والأرض بمعنى الوطن، في الأدب العربي، يحل محلها مفهومان وهما "الديار" أو "الحياض". والديار هي جمع دار وهي محل السكن، أما الحياض فهي جمع حوض وهو مجتمع الماء سواء كان سطحياً أو عميقاً. وهذا أمر طبيعي، فرغم أن الإسلام منذ فجر الدعوة انتصر للقوى الحضرية التي كانت تقاوم النمط الرعوي في المعيشة والإنتاج، وسعى (توجيها وتشريعاً) لتحضير القوى البدوية (الأعرابية) التي لم يرها مؤهلة (إن بقيت على حالتها تلك) لتمثل قيم الرسالة الإسلامية، إلا أن الأعرابي بقي لا يهتمه من الأرض (باعتباره غير مزارع) إلا الدار التي يسكنها، وحوض الماء الذي يردده فيشرب منه ويسقي أغنامه. وقد وردت الحياض بمعنى الوطن وافتخر الشعراء القدامى بـ"الذود عن الحياض". وتأثير هذه السيكولوجيا الرعوية ما زال ماثلاً حتى اليوم في شعرائنا بإشهارهم سيوفهم للذود عن الحياض!!

ومصطلح وطن لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة وبصيغة الجمع لتعني مواقع أو مجالات في قوله تعالى "لقد نصركم الله في مواطن كثيرة. ..." التوبة ٢٥. ولم نعثر بمصطلح وطن بالمعنى الدارج حالياً عند أحد قبل الجاحظ (٧٧٥-٨٦٨م) في كتابه البيان والتبيين حيث أشار إلى أهمية الأوطان، وفضيلة محبتها والتمسك بها مهما كان وضعها، وقدسية الدفاع عنها.

وفي اللهجة الفلسطينية يأتي مصطلح الأرض أو "الوطاة" ليعني المعنى العام والخاص، أي الأرض كاسم جنس وكملكية، سواء أكانت خاصة أو مشاعاً للأسرة أو القبيلة أو القرية.

وكان العديد من الفلسطينيين، كأخوتهم في سوريا الكبرى، يتهربون من تسجيل الأرض باسمهم في الطابو العثماني ليتفادوا دفع الضرائب الباهظة التي لا قبل لهم بها. ولذلك بقيت مساحات شاسعة في فلسطين مشاعاً أو مسجلة باسم "مقطعية" أو "ملتزمين" يقيمون في المدن الفلسطينية أو في بيروت أو دمشق، واكتفى أصحابها بحق الاستعمال.

ورغم ضعف السيكولوجيا الفردية بتملك الأرض آنذاك، فإن الذاكرة الشعبية الفلسطينية تحمل قداسة خاصة للأرض، فهم يعتقدون أن أرض فلسطين مقدسة لسببين: الأول لأن الله باركها دون



غيرها فجعلها مهبط الرسل جميعاً ومسرى آخرهم (محمد صلى الله عليه وسلم) ومعجازه، فهي بوابة الأرض إلى السماء. والثاني لأنها مجبولة التربة بدم الشهداء المدافعين عنها (تاريخياً) ضد الغزاة منذ العبرانيين قبل الميلاد وحتى الإسرائيليين قبل أيام، ويعتقد الريفيون منهم أن ذلك هو سبب احمرار تربتها المسماة "سَمَكَة"، ومنذ بداية الهجرة الاستيطانية اليهودية في فلسطين تطور لدى الفلسطينيين مفهوم الأرض فصارت ثلاثية الأبعاد: جغرافي واقتصادي واجتماعي.

## الأرض في ثقافة اليهود

أما الديانة اليهودية، فتؤمن بالثالث الحلوي، إذ تقوم وحدة مقدسة بين الأرض والشعب لحلول الإله فيهما وتوحدتهما، فلربهم أرض محددة هي "أرض إسرائيل" (وبالعبرية ايرتس يسرائيل). "ومن يعيش داخل أرض إسرائيل يمكن اعتباره مؤمناً، أما المقيم خارجها فهو إنسان لا إله له"، هكذا يقول التلمود، وهكذا يقول بن غوريون الاشتراكي العلماني. ولهذا يقول الشاعر الصهيوني (يهودا عامي)

"اليهود ليسوا شعباً تاريخياً، انهم شعب جغرافي".

وقد جاء في التلمود "الواحد القدوس، تبارك اسمه، قاس جميع البلدان بمقياسه، ولم يستطع العثور على أية بلاد جديرة بأن تُمنح لجماعة إسرائيل سوى أرض إسرائيل، وهي كذلك الأرض البهية". ونشأ في الديانة اليهودية ما يسمى "لاهوت الأرض المقدسة"، وكانت مشكلة الحدود من أهم ما ناقشه لاهوت الأرض المقدسة. فسفر التكوين حددها من النيل إلى الفرات، ولكن سفر العدد حددها بـ"أرض كنعان بتخومها"، أي حوالي "فلسطين الانتداب" بتوسع هنا وتراجع هناك. وقد أوّل الحاخامات هذا التناقض بتحديد الحدود بأن "أرض إسرائيل تنكمش إذا هجرها ساكنوها من اليهود، وتتسع وتمتد إذا جاءها اليهود من بقاع الأرض.

أما الصهيونية، بشقيها الديني والعلماني، فتعتبر أرض فلسطين هي أرض الميعاد وأرض المَعاد، أي الأرض التي ستشهد نهاية التاريخ. ولكن الصيغة العلمانية من الصهيونية تؤمن بحلولية الشعب بالأرض دون اله، حيث تصبح الأرض هي الاله، وقد صرّح دايان "أن أرض إسرائيل هي ربه الوحيد". كان الكاتب اليهودي ناتا بيرنوم، الذي كان يكتب في المجلة اليهودية الألمانية "التحرر الذاتي"، أول من طرح مصطلح "الصهيونية" سنة ١٨٩١ ليصف بها الاتجاه السياسي الجديد في صفوف اليهود، وهي محاولة لتحويل المسألة اليهودية إلى برنامج سياسي. وعزّف الصهيونية كفكرة قومية، بأنها تعني طريقاً جديداً في اليهودية .

أما في الثقافة الإسرائيلية، فإن "أرض إسرائيل" هي مركز الدنيا، تماماً كما أن اليهود مركز الأعيان، كما أن تاريخهم مركز التاريخ وأساسه، أي أنهم مركز المكان والإنسان والزمان. ويقول دافيد بن غوريون: "إن أرض إسرائيل سوف تفك رهن اليهود، واليهود سوف يفكّون رهن الأرض، ومن ثم سيذهب اليهود ليفكوا رهن الأمم".

والنظرية العنصرية عموماً تعتبر أن الشعب لا يمكن أن ينهض إلا في أرضه التي يرتبط بها، لا برباط معنوي فقط بل برباط عضوي أيضاً. وقد قال ايخمان في محاكمته أن "النازية كانت تهدف إلى وضع قليل من الأرض الثابتة تحت أقدام اليهود الجائنين"

أما منحيم بيغن فيقول: "انتيس، البطل الذي لا يُقهر، ويستمد قوته من اتصاله بأمه الأرض، أسطورة يونانية، ولكن القوة التي يمتلكها الشباب اليهودي من اتصالهم بأرض إسرائيل هي حقيقة واقعة" ويلاحظ حسين جمعة في نشرة "حق العودة" أن آباء الصهيونية يرون أن الانتماء العربي إلى الأرض لا معنى له في المفهوم الصهيوني، إذ يقول إسرائيل الداو: "إسرائيل أرض اليهود، وليست أرضاً لليهود؛ لقد كانت يوماً أرضاً للعرب، ولكنها لم تكن أبداً أرضاً عربية".

### النشاط الصهيوني للاستيلاء على الأرض قبل الحرب

الحركة الصهيونية، إضافة إلى أنها حركة استعمارية أحلالية عنصرية، هي أيضاً حركة شاذة. ووصفها بالشاذة ليس إلا توصيفاً دقيقاً لواقعها. فالحركة الطبيعية (مهما كانت أيديولوجيتها وسياستها) هي حركة تنمو بين شعب يعيش على أرضه. أما الحركة الصهيونية فأنشئت لتحصل على أرض بوسائل مختلفة، لتهجّر إليها شعباً من بلاد مختلفة بطرق مختلفة. أي أن المسار الطبيعي هو أرض فشحعب فحركة، أما المسار الصهيوني الشاذ فكان حركة فأرضاً فشحعبا. والانقسام الطبقي كان شاذاً أيضاً فالطبقة العاملة اليهودية الإسرائيلية (الصهيونية) كانت وليدة الفكرة، ففكرة الخلق سبقت الوجود بعكس نشوء الطبقات في أي بلد آخر حيث تظهر الطبقة العاملة قبل الفكرة أو الإيدولوجيا.

تعلقت الطبقة العاملة في إسرائيل بفكرة الصهيونية والاستيطان، ولذلك كان حزب العمل الإسرائيلي هو قائد العدوان والاستيطان والتوسع، وكان الكيبوتس لا يقل عن الموشاف أو الموشافا تشدداً ضد العرب وتمسكاً بالصهيونية والعنصرية. فقد قامت الطبقة البرجوازية اليهودية بسلب الأرض، وقامت الطبقة العاملة اليهودية بسلب العمل، وتشعر الطبقتان معاً أن مصلحتهما مع الاحتلال.

وقد شدد دافيد بن غوريون على حصر العمل في المستوطنات اليهودية بالأيدي اليهودية، ويقول "أن عملية امتلاك الأرض بالأموال لا تعتبر إنقاذاً بالمعنى القومي طالما الأرض لا تُستغل بأيدي

اليهود، كما وأن انبعاث الشعب لا يمكن تصوره بدون عمل في الأرض...؛ وقد ابتدع بن غوريون هذا ما أسماه "دين العمل" لتحويل اليهود الى امة كغيرها من الامم، وكما يقول "ارسكين شليدر" في كتابه "تهويد فلسطين" فإن "الاستيلاء على الأرض وطرد السكان ليس ناجماً عن طبع شرير عند اليهود، بل هو من مقتضيات إقامة الكيان الصهيوني الذي ما كان ليقوم إلا بأرض أكثر وعرب أقل!!" وبعد الاطلاع على العديد من الدراسات التي كُتبت حول الصهيونية، من انصارها و اعدائها نخلص الى المثلث الصهيوني: قاعدته الارض، وضلعه الانسان السالب والانسان الموجب. الاول (العربي) خارجا من فلسطين، والثاني (اليهودي) داخلا اليها. هذا المثلث واضح على مستوى المستوطنة الواحدة، وعلى مستوى فلسطين ككل ايضا.(انظر الشكل)

فالحركة الصهيونية باعتبارها احلالية تختلف عن الحركات الاستيطانية العنصرية الاخرى بأنها تحتل الأرض والعمل ولا تقبل ابقاء السكان الاصليين ليعملوا في مزارعها ومعاملها، فهي حركة استيطان وتهجير، تهجير السكان الفلسطينيين عن ارضهم وتهجير اليهود الى تلك الأرض. ولذلك فمنطلقاتها وانظمتها، ودساتير وانظمة المؤسسات المنبثقة عنها او المستندة اليها تتمحور حول الارض وامتلاكها.

### الأرض قاعدة المثلث الصهيوني:

لقد كتب الزعيم الصهيوني اوسيشكين في عام ١٩٠٤ "بدون حق ملكية الأرض لا تكون فلسطين يهودية أبداً، مهما كان عدد اليهود في المدن والقرى". . ودستور الوكالة اليهودية ينص على أن "تمتلك الأراضي كملك للشعب اليهودي، وتسجل الأراضي المشتراة على اسم الصندوق القومي اليهودي، وتبقى مسجلة باسمه إلى الأبد كي تظل الأملاك ملكاً لـ"الامة اليهودية" غير قابلة للانتقال، ويؤجر الصندوق هذه الأرض إلى أمد طويل للأفراد اليهود. وإذا توفي المستأجر اليهودي ولم يكن وريثه يهوديا، فعلى الوارث أن ينقل حقوقه ليهودي، وإلا فيسترد الصندوق الأرض دون أن يكون للوارث حق الاعتراض. والحركة الصهيونية كما عرّفها بن غوريون "هي الاستيطان". ويقول فيصل الحسيني الأرض والسكان هما الهدفان التوأمين للحركة الصهيونية لخلق "حقائق" يهودية على الأرض الفلسطينية، ويرتكزان مباشرة على التهجير والاستيطان. والسياسة الصهيونية ما زالت تتصاعد حدها حتى اليوم.

ولم تتغير طبيعة الصهيونية لا بعد قيام دولة إسرائيل (١٩٤٨) ولا بعد توسعها (١٩٦٧)، فهذا شمعون بيريز (حينما كان وزيرا للدفاع) يقول "أن الحكومة الإسرائيلية ليست حكومة قانون فقط، بل هي

حكومة استيطان أيضاً" (جريدة دافار الإسرائيلية ١٢/١٢/١٩٧٥). أما الحاخام يوحنا فريد فيقول أن "الاستيطان يعلو فوق القانون لأنه روح إسرائيل" (جريدة هآرتس الإسرائيلية ١٥/١٠/١٩٧٤). ورغم أن وعد بلفور وصك الانتداب كلفا بريطانيا بتوفير الظروف الملائمة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وقانونياً لإقامة الوطن القومي اليهودي، ورغم تعهد بريطانيا ببذل قصارى جهدها والتزامها بالتعاون مع الوكالة اليهودية في هذا المجال، إلا أن رئيس الأخيرة يقول عام ١٩١٩ " إنني أومن أن الدولة اليهودية ستقوم في فلسطين، ولكن ليس عبر التصاريح والمواقف السياسية بل عبر عرق ودماء الشعب اليهودي، وما القوانين والمواقف والتصاريح إلا مفاتيح ذهبية تسمح بتدفق ذلك العرق والدم إلى هذه الأرض". وأجمعت المنظمات الصهيونية المسلحة الثلاث (هاجاناه وإتسل وليحي) على "أن دولة إسرائيل ستقوم على ثلاثة أعمدة مترابطة، وهي: الهجرة والاستيطان وغمو القدرة العسكرية، وإذا ما حاولت سلطات الانتداب البريطاني التعرض لأي من هذه الأعمدة، حينذاك فقط، يجب التصدي لهذه المحاولة". ويرى بعض المفكرين أن هتلر أكبر عدو لليهود في التاريخ، كان أعظم (دون وعي أو قصد) نصير لإسرائيل، حيث ساعد اضطهاده لليهود على تحوّل اليهود الغربيين المترددين إلى تأييد الحركة الصهيونية؛ أما يهود ألمانيا والبلدان الأوروبية التي كانت عرضة للاحتلال الألماني فقد تدافعوا للهجرة إلى فلسطين، وساعدت كل الدول الأوروبية على ذلك، وخاصة بريطانيا.

واعتبر العديد من الدارسين أن الفضل في قيام إسرائيل بحدود هدنة عام ١٩٤٩ يرجع إلى ثلاثة عوامل: سياسة الانتداب البريطاني المحايية للصهيونية والملتزمة بوعد بلفور، والدعم الأمريكي المالي والاعلامي والسياسي بعد الحرب العالمية الثانية، والمجازر الدموية التي ارتكبتها القوات العسكرية اليهودية في بعض القرى الفلسطينية؛ فهذه الفواعل الثلاث عملت على تهجير الفلسطينيين خارج فلسطين، واحلال اليهود محلهم، والسيطرة على الارض. وكان وليام بيل (المندوب الأمريكي الخاص في مصر)، في تقريره عام ١٨٥٠، كان يستقرئ المستقبل حين قال "إن إقامة كومونولث يهودي في فلسطين تنسجم مع المصالح الحيوية الأمريكية، لأن كومونولثا يهودياً في فلسطين سوف يتطور ليصبح مركزاً أمامياً للأمركة في الشرق".

## الارض والقانون:

كانت فلسطين جزءاً من بلاد الشام، ومتصلة جنوباً مع صحراء سيناء المصرية، ولم يكن لها حدود سياسية حتى عام ١٩٠٦. عندما تم ترسيم حدودها الجنوبية مع مصر بضغط من بريطانيا باعتبارها الدولة المحتلة لمصر. وفي عام ١٩٢٢ تم ترسيم حدودها الشمالية بين بريطانيا وفرنسا باعتبار الثانية

تحتل كلا من لبنان وسوريا. وبذلك صارت مساحة فلسطين ما بين البحر الأبيض المتوسط ومصر وإمارة شرقي الأردن وسوريا ولبنان ٢٧٢٧٠ كيلومترات مربعة بما فيها المسطحات المائية التي تساوي ٧٠٤ كيلومترات مربعة. وقدرت اللجنة الانجلو أمريكية عام ١٩٤٦ مساحة الأراضي القابلة للزراعة فيها بـ ٣٨٪ من مجموع مساحة الأرض اليابسة، أي حوالي عشرة ملايين دونم، كان في أيدي المواطنين العرب ٧،٨٤٪ منها.

حين استولى الأتراك على فلسطين عام ١٥١٦ (بعد انتزاعها من سلطة ممالك مصر)، أبقوا الوضع القانوني للأرض على ما هو عليه والذي كان كما يلي:

أ- أراضي المدن والضواحي والقرى، كانت ملكية خاصة وكاملة لأصحابها.

ب- الأراضي الأميرية : وهي الأراضي الزراعية، وللدولة حق الرقبة عليها (وهو حق صوري)، ولأصحابها حق التصرف والانتفاع.

ت- أراضي بيت المال : وهي الأراضي التي للدولة فيها حق الرقبة والتصرف معاً، تُقْطَعُ لمن تشاء.

ث- الأراضي المحمية: وهي الأراضي "المشاع" ذات الملكية الجماعية (للقبيلة أو القرية)، والتي تُوزَعُ دورياً على أفراد الجماعة للانتفاع بها، والأراضي المتروكة للرعي والأحراج. وللدولة في هذه الأرض حق الرقبة، وللناس (دون تمييز) حق الانتفاع دون حق التصرف.

ج- الأراضي الموات: وهي الأراضي الخالية البعيدة عن المناطق المأهولة بالسكان. ورقبة هذه الأرض للدولة، ولمن يحييها بإذن من السلطات حق الانتفاع والتصرف.

ح- أراضي الأوقاف: وهي الأراضي التي أوقفها الحكام أو أصحابها (سواء كان الوقف خيرياً أو ذرياً)، وهذه الأرض لا يجوز الانتفاع أو التصرف بها إلا حسب ما أوقفت له.

لم يكن هنالك قيود أو سجلات يستند لها أصحاب الأرض وإمّا العرف والواقع هما الحَكَمُ في هذا المجال. وبهدف حصر الضرائب وتوفير المجندين للجيش اهتمت الدولة العثمانية بتسجيل الأراضي باسم المنتفعين بها على أن يكونوا من حملة التابعية العثمانية. ولأن الناس أدركوا أهداف الدولة، وليتجنبوا التجنيد والضرائب الباهظة، لجأ العديد منهم إلى تسجيل أراضيهم باسم أصحاب النفوذ. وتورطت تركيا بحرب القرم ضد روسيا، وانتهت تلك الحرب بمعاهدة باريس عام ١٨٥٦ والتي أعطت امتيازات للأجانب في الأراضي العثمانية- ومنها فلسطين.

وباختصار، نستطيع القول أن ملكية معظم أراضي فلسطين الزراعية في فترة الحكم العثماني كانت للدولة نظرياً، وأن الملكية الفعلية كانت للناس تحت بند "الانتفاع والتصرف". وتؤكد الأبحاث أن

الفلاحين الفلسطينيين في العهد العثماني تمتعوا بحقوقهم فوق أراضيهم جيلاً بعد جيل سواء أكانوا يملكون مستندات رسمية بذلك أو لا. وكان إثبات بقاء الفلاح فوق قطعة الأرض وزراعتها عشر سنوات متتاليات كافٍ لحفظ كافة حقوقه وحقوق ورثته على تلك الأرض. أما الأراضي التي تقوم عليها البيوت فقد كان حق الرقبة والانتفاع والتصرف لأصحابها سواء كان لديهم مستندات مملكتها أم لا.

### الارض وقوانين الانتداب:

كأن الحركة الصهيونية والحكومة البريطانية كانتا تخططان معاً لخلافة الرجل المريض (تركيا) في فلسطين، فمارستا الضغط لاستصدار قوانين ستستخدمانها فيما بعد. فقد أصدرت الحكومة التركية قانون "تصرّف الأشخاص الحكّمية" لعام ١٩١٠ الذي أعطى الشركات لأول مرة حق التملك والتصرف بالممتلكات غير المنقولة كتملكها وتصرفها بالممتلكات المنقولة، وفي عام ١٩١١ مُنح الأجانب حق التملك في غير مناطق الحجاز وباستثناء اليهود غير العثمانيين في فلسطين. وفي نفس العام أصدر وزير المالية التركي (اليهودي اجاويد بك) قانوناً يقضي بحق الحكومة في مصادرة ما تراه ضرورياً من الأراضي الأميرية للمنافع العامة، وتحرم أصحابها حق الانتفاع والتصرف.

كما أرسلت بريطانيا بعثة فنية لمسح أراضي فلسطين، وقضت تلك البعثة ست سنوات كاملة، قام خلالها فنيوها بمسح أراضي فلسطين وكل ما يتعلق بتربتها وخصوبتها ومصادر المياه فيها. وفي حين رفضت تلك البعثة إطلاع السلطات العثمانية على تلك الدراسات والمسوح، أحالتها للمؤسسات الصهيونية الأمر الذي سهل على الحركة الصهيونية التركيز على أهم وأفضل الأراضي في فلسطين خصوبة واستراتيجية وقرباً من مصادر المياه فيها. وبعد انهزام الدولة العثمانية، اتفقت فرنسا وبريطانيا مع الحلفاء، على إعطاء جوازات سفر للعرب الذين كانوا يحملون التابعية العثمانية والذين كانوا خارج المناطق عند الاحتلال، كل حيث يريد. واستثنى الفلسطينيون من ذلك حيث إن الحكومة البريطانية رفضت إعطاء جوازات سفر فلسطينية للفلسطينيين الذين كانوا خارج فلسطين يوم احتلالها، وبذلك حُرّم العديد من الفلسطينيين العودة إلى فلسطين مما اضطرهم لقبول جوازات سفر أخرى مصرية وسورية ولبنانية وأردنية. أما بالنسبة لليهود فقد أدخلت بريطانيا مع قواتها إلى فلسطين ٢٥ ألف يهودي، كانوا على مستويات مختلفة من التدريب العسكري.

ويعترف بنيامين نتيناهو في كتابه "مكان تحت الشمس" أن التأييد للفكرة الصهيونية منذ البداية كان بين من هم غير يهود أكبر بكثير منه في الأوساط اليهودية.

وكانت باكورة القوانين البريطانية في فلسطين منشور الجنرال موني (١٩١٩/٤/٣٠) الذي نص البند

السادس منه على إلغاء القانون العثماني الذي كان يثبت الحق في الأرض بزراعتها عشر سنوات متتاليات، وحوّل المنشور الإدارة العسكرية البريطانية "حقوق التصرف في الأموال غير المنقولة في بلاد العدو المحتلة".

وكان السير هربرت صموئيل (اول مندوب سام على فلسطين) يهودياً ومتحمساً للصهيونية، وتقدم في آذار ١٩١٥ للحكومة البريطانية بمذكرة وضح فيها خمسة احتمالات لمستقبل فلسطين بعد انهيار الدولة العثمانية. وكان الاحتمال الرابع هو "الإقامة المبكرة لدولة يهودية"، واستبعده خوفاً من أن يقضي عليها السكان المحليون فيتلاشى حلم اليهود بدولة حيث أن اليهود كانوا يشكلون أقل من ١٣٪ من السكان حسب تقديراته.

صومئيل نفسه هو الذي عينته بريطانيا رئيساً للإدارة المدنية في فلسطين (في يوليو/ تموز ١٩٢٠م) ثم عينته مندوباً سامياً بمجرد اعتماد صك الانتداب، فكان من الطبيعي أن يسعى لتسهيل هجرة اليهود وتملكهم للأراضي الفلسطينية، ففي أول تصريح له بعد هذا التعيين أكد فيه أن "في فلسطين بقاع واسعة تتسع لعدد كبير من السكان. فالذين يهاجرون إليها من اليهود سيهاجرون تدريجياً بقدر ما تسمح حالة البلاد، وسيكون المهاجرون من الأغنياء وأصحاب المهن كالمستعمرين الذين جاءوا قبل ثلاثين أو أربعين سنة. وسيأتون برؤوس أموالهم لإنماء الثروة وتحسين الحالة الاقتصادية..."

وقام صومئيل بمنح الوكالة اليهودية ١٧٥ ألف دونم من أخصب أراضي فلسطين على ساحل البحر الأبيض المتوسط (من الأراضي التي كانت تحت تصرف الحكومة التركية والتي آلت لحكومة الانتداب)، واتبعتها بعد ذلك بدفعة ثانية مقدارها ٧٥ ألف دونم على البحر الميت، وتكررت هباته وهبات من بعده حتى بلغ مجموع ما مُنح أو نُقل للحركة الصهيونية من أراضي فلسطين عن طريق الحكومة البريطانية نحو مليون وربع المليون من الدونمات حتى عام ١٩٤٨ حيث كان في حوزتهم يساوي ٢٧٠٠٠٠٠ مليونان وسبعمئة ألف دونم.

وكل ما استطاعت المؤسسات الصهيونية شراءه بالمال مباشرة كان ٦٢٥ ألف دونم من عائلات غير فلسطينية، و٣٠٠ ألف من أسر فلسطينية في ظروف غامضة، أي أن ما اشتراه اليهود مباشرة كان يشكل ٢,٣٥٪ من ما صار بحوزتهم عام ١٩٤٨. و٣,٤٦٪ تَقْدِمَات مختلفة من سلطات الانتداب، و٥,١٨٪ حصلوا عليه من خلال إجراءات قانونية مختلفة كمصادرة أراض لصالح ما كانت تسميه سلطات الانتداب "الصالح العام"، أو أراضي العاجزين عن تسديد ديونهم للبنوك أو للحكومة والتي كانت تباع بالميزاد.

كما أن صك الانتداب، الذي أقرته عصبة الأمم المتحدة (يوم ١٩٢٢/٧/٢٤)، نص على إمكانية إعطاء

الأراضي المشاع وأراضي الدولة والأراضي غير المملوكة للمهاجرين اليهود. وجاء في صك الانتداب أنه على السلطة المنتدبة التعاون مع الوكالة اليهودية في إدارة البلاد وخاصة فيما يخص توفير الظروف الاقتصادية والاجتماعية المناسبة لإنشاء الوطن القومي لليهود. وكانت إدارة الانتداب عندما ترفض منح الأراضي كهبات للمؤسسات الصهيونية تسهل لهم شراءها بأسعار منخفضة .

وفي عام ١٩٢٦ سنّت حكومة فلسطين الانتدابية قانون استملاك الأراضي، وقانون الغابات ليعطي المندوب السامي حق انتزاع الأراضي الزراعية والحرجية، ومن حقه أن يضعها تحت إشراف الحكومة لإدارتها والتصرف بها . وكانت أرض المشاع عقبة في طريق سيطرة الحكومة على الأرض، ويصعب على الأجهزة الصهيونية امتلاكها. لذلك أسس المندوب السامي عام ١٩٢٧ "دائرة التسوية"، وترأسها اليهودي "فريدريك سالمون"، وصدر عام ١٩٢٨ قانون التسوية لتفتت الملكيات الجماعية إلى ملكيات فردية صغيرة، وأحياناً مبالغاً في صغرها ليسهل بعد ذلك نقل هذه الملكيات عبر وسائل عدة إلى مؤسسات صهيونية. وتعديل هذا القانون سبع مرات ليجعل الملكية الفردية موزعة على عدة مناطق مساحات صغيرة جداً لتقنع صاحبها بعدم جدواها حتى يهجرها أو يبيعها أو يقبل بمصادرتها مقابل تعويض مجز.

وكان أغرب قانون في مجال مصادرة أراضي الفلسطينيين هو قانون الطوارئ لعام ١٩٤٥ الذي بموجبه يستطيع المندوب السامي أن يصادر أي أرض من أجل الصالح العام، أو يمنع الدخول إليها لأسباب أمنية، فتصبح الأرض محرماً على أصحابها دخولها مما يجعلها تبور، وبذلك تصادر حسب نظام دائرة الزراعة الذي يقضي بمصادرة أي أرض تبور ثلاث سنوات متتاليات . وهذا النظام يستند إلى القانون العثماني عام ١٨٥٨، باستثناء أن القانون العثماني أضاف "دون أسباب مقنعة"، أما هذا النظام فأضاف "بغض النظر عن سبب بوارها".

وصاغت السلطات البريطانية قوانين ضريبة الأملاك تشجع الفلاح الفلسطيني، بل تجبره على التخلي عن أرضه. وواصلت هذه القوانين تطورها السيئ منذ الإدارة المدنية (عام ١٩٢٠) لتصل الذروة عام ١٩٤٥ عندما صدر قانون استبدال الأعشار (يدفع الفلاح عُشر المحصول كضريبة) بالضريبة المالية المتناسبة لا مع إنتاجية الأرض بل مع سعرها (لو بيعت) وفقاً لتثمين اللجان الرسمية التي تشكلها الأجهزة الانجلوصهيونية. وحدد القانون عقوبة على المتأخرين في سداد الضريبة بإضافة ٢٠٪ من قيمة الضريبة المستحقة بنظام تراكمي - وكلما ارتفع سعر الأرض (حسب أي قرار جديد للجنة التخمين) ارتفعت قيمة الضريبة وفوائد التأخير.

وكانت السلطات تخير الفلاحين، الذين تراكت عليهم ضريبة الأملاك، بين الدفع أو مصادرة



الأرض، وبالطبع كان الدفع أمراً مستحيلاً . وعندما تتم المصادرة تعرض الأرض للبيع في المزاد العلني الحر (حيث قد يكون الثمن أقل أو أكثر من سعر الأرض التقديري)، وغالباً أقل بكثير. ومعروف أن معظم هذه الأراضي كانت تؤول إلى المؤسسات الصهيونية .

## النشاط الفلسطيني للحفاظ على الارض

يؤكد العديد من الباحثين، ومنهم بعض المؤرخين الاسرائيليين الجدد ان الحقيقة ليست كما تزعم الادبيات الصهيونية. فقد قاوم الفلسطينيون الاستيطان واستملاك الاراضي والتهجير منذ بدأت ملامحه. ففي عام ١٩١٠ و عام ١٩٢٠ قاوموا بيع الاراضي للمؤسسات اليهودية رغم ان البيع كان بدون علمهم من قبل عائلة سرسق التي لم ير الفلاحون افرادها. لقد قاوم الفلاحون انذاك طردهم من الارض اكثر من مقاومتهم بيعها لانهم اصلاً لا يملكونها. ومقاومة الشعب الفلسطيني للهجرة اليهودية والاستيطان سبقت تاسيس الحركة الصهيونية، ولكنها تصاعدت و تجذرت بعدها. ففي عام ١٨٩١ ارسل عدد من وجهاء البلاد برقية بتوقيعهم من القدس الى اسطنبول تطالب السلطات العثمانية بمنع اليهود الروس من دخول فلسطين وحصولهم على الاراضي. وفي عام ١٩٠٨ هاجم الفلاحون المستوطنين في منطقة طبرية، وارسل وجهاء المدن الفلسطينية المختلفة برقيات احتجاج الى الصدر الاعظم (رئيس الوزراء)، وكتبت الصحف (وخاصة نجيب نصار في جريدة الكرمل) مقالات تندد بالحركة الصهيونية و تدين تساهل السلطات الرسمية معها، و تحذّر من عواقب استيطانها . وفي ١٩١٠ تصاعد النشاط الفلسطيني ضد الاستيطان والهجرة وخاصة اثر بيع الثري البيروتي اميل سرسق اراض واسعة قرب طبرية. وازداد القلق الفلسطيني من الاستيطان اليهودي بعد الاحتلال الانجليزي نظرا لما لاحظه من ممالأة بريطانيا للصهيونية من وعد بلفور الى صك الانتداب مروراً بتعيين هيرت صومويل مندوبا ساميا. فتطورت نشاطات الفلسطينيين لمنع الاستيطان وبيع الاراضي و الهجرة.

وقد استخدم الفلاحون و فقراء المدن العنف ضد المستوطنين اليهود، اما النخبة فتنادت عام ١٩٢٠ لتشكيل اللجنة التنفيذية لتوحيد الجهود السياسية السلمية للتاثير في السياسة البريطانية لوقف دعمها للحركة الصهيونية. و اكدت اللجنة التنفيذية على رفضها المطلق لفكرة الوطن القومي اليهودي، و ادانت تبني بريطانيا له وما ترتب على ذلك من سياسات واجراءات. وفي عام ١٩٢٣ عرضت حكومة بريطانيا على اللجنة التنفيذية تشكيل "وكالة عربية" تعترف بها بريطانيا على غرار الوكالة اليهودية. ولكن، وما ان الحكومة البريطانية ستستشير الوكالة العربية فيما يخص المشاريع الاقتصادية و الاجتماعية الخاصة بالوسط العربي فقط، اما فيما يخص الهجرة اليهودية و الاستيطان

فالوكالة اليهودية هي المعاون والمستشار، فقد رفضتها اللجنة التنفيذية عندما عُرضت عليها لان الاولوية لديها هي لوقف الهجرة اليهودية و ليس للمشاريع الاقتصادية و الاجتماعية. و قال رئيس اللجنة موسى كاظم الحسيني "نحن غير معينين(الآن) بنوع ومستوى المجتمع الذي سنبنيه، انما نحن معينون بحماية الارض التي سنبنى عليها مجتمعنا".

وفي تلك الفترة، انقسم الفلسطينيون الى ثلاث تيارات ذات هدف واحد وهو منع الهجرة اليهودية والاستيطان: التيار الاول يرى ان السبيل الى ذلك هو المقاومة العنيفة ضد الانتداب البريطاني و المؤسسات الصهيونية وخاصة ذات العلاقة بالهجرة والاستيطان. وكان الفلاحون و فقراء المدن هم انصار هذا التيار. اما التيار الثاني فكان يرى ان السبيل السياسي هو الانجع، و يتمثل هذا الاسلوب بالضغط السياسي و الشعبي السلمي على بريطانيا لتغيير سياستها المحابية لليهود. و انصار هذا التيار و قاده هم "الافنديه" الوطنيون، اي ابناء الطبقة الارستقراطية و الملاك الكبار، و يمثلهم المجلسيون(انصار المجلس الاسلامي الاعلى)، و كانت قيادة هذا التيار لموسى كاظم الحسيني، ثم من بعده للحاج امين الحسيني.

اما التيار الثالث، فيرى انه لا سبيل لتغيير سياسة بريطانيا بالمعارضة و الضغط، و السبيل الانجع لذلك التغيير هو التعاون مع السلطات البريطانية و التفاهم معها و اقناعها ان مصلحة بريطانيا مع العرب و ليس مع اليهود. و اصحاب هذا التيار هم البرجوازيون و التجار و وكلاء الشركات(الكومبرادور) بزعامه راغب النشاشيبي. و ما زالت هذه التيارات الثلاث في فلسطين، ولكن بخصوص العلاقة مع امريكا باعتبار انها حلت محل بريطانيا.

و في عام ١٩٢٩، انفلتت زمام الامور من النخبة، و اندلعت انتفاضة آب في كل من القدس و حيفا و يافا و صفد و الخليل، و أُطلق عليها في حينها "هبة البراق"، و اعتبرت الادبيات الماركسية "هبة الفلاحين". و كانت حصيلة تلك الانتفاضة ١٣٣ قتيلا من اليهود و ١١٦ شهيدا من الفلسطينيين، و سقط عدد كثير من الجرحى من الطرفين و من قوات الامن البريطانية .

و كانت حركة عز الدين لقسام (١٩٣٤) اول حركة فلسطينية آمنت بالعنف لا ضد اليهود فقط بل و ضد الانجليز باعتبارهم محتلين و متواطئين مع اليهود. و تطور هذا الوضع ليُتوج بالثورة الفلسطينية الكبرى(١٩٣٦-١٩٣٩) التي خاضت كفاحا مسلحا ضد المستوطنين و المهاجرين و ضد السلطات البريطانية و كل من يسهل انتقال الاراضي لليهود بشكل رسمي او شخصي - اجنبيا كان ام عربيا.

ولتهدة الاوضاع، اصدرت بريطانيا (١٩٣٩) مذكرة سُميت بالكتاب الابيض، كان اهم ما في تلك المذكرة تقييد هجرة اليهود و انتقال الاراضي لهم.

ورغم انهيار الثورة وتشتت قادتها واعدام بعضهم الا ان النشاط الفلسطيني تواصل ضد الاستيطان والهجرة، وضد القوات الصهيونية المسلحة شبه الرسمية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث تشكل منعطف جديد للنشاط الصهيوني وللنشاط الفلسطيني في مسالة استقدام المهاجرين والاستيلاء على الارض للطرف الاول، و التمسك بالارض للطرف الثاني.

حتى نيسان ١٩٤٧، كان ميزان القوى متعادلاً أو مائلاً نحو العرب حول مسألة الهجرة والأرض. رغم احتضان الانتداب البريطاني للحركة الصهيونية، ورغم الدعم الأمريكي المطلق للنشاطات الصهيونية المختلفة، فلم تستطع الحركة الصهيونية أن تمتلك إلا ٦٪ من الأرض، ولم تستطع أن تُدخل من اليهود إلى فلسطين أكثر من ٣٣٪ من سكانها.

كان الواقع هكذا لأن وسائل الصهيونية لامتلاك الأرض واستقدام المهاجرين كانت التحايل والإغراء بالمال، وقد استطاع الفلسطينيون الصمود النسبي أمام تلك الوسائل. أما بعد ان قررت بريطانيا إنهاء انتدابها، وبدأت بعرض القضية على الأمم المتحدة (نيسان ١٩٤٧) لجأت الحركة الصهيونية للعنف، للقوة العسكرية التي لم يستطع الفلسطينيون الصمود أمامها لعدة عوامل، وأهمها انعدام السلاح والذخيرة، والافتقار للخبرة، وقلة الدعم. يضاف إلى ذلك تأمر الدول العربية وخاصة المجاورة منها.

## المراجع العربية

- ١- القلقيلي، عبد الفتاح (٢٠٠٤) الأرض في ذاكرة الفلسطينيين إصدار شمل-مركزاللاجئين والشتات الفلسطيني - رام الله
- ٢- يحيى، عادل (١٩٩٨) اللاجئون الفلسطينيون ١٩٤٨-١٩٩٨ (تاريخ شفوي) . البيرة: المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي.
- ٣- الأنصاري، محمد جابر(١٩٩٩) التآزم السياسي عند العرب وسوسيولوجيا الإسلام. القاهرة: دار الشروق. الطبعة الثانية.
- ٤- المسيري، عبد الوهاب (١٩٩٩) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية . القاهرة: دار الشروق. الطبعة الأولى. المجلد ٧.
- ٥- بحيري، مروان (١٩٨٣) الحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى نشوب الحرب العالمية الأولى. دراسات عن القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني. بغداد: اتحاد الجامعات العربية. المجلد الخامس.
- ٦- محارب، عبد الحفيظ (١٩٧٣) "سياسة العمل العربي بين الأمس واليوم" شؤون فلسطينية. آب/ أغسطس، العدد ٢٤.
- ٧- قهوجي، حبيب (١٩٧٨) استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة. دمشق: إصدار منشورات الطلائع (دائرة الإعلام) بالتعاون مع مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية. الطبعة الأولى.
- ٨- المسيري، عبد الوهاب (٢٠٠١) الصهيونية والعنف. القاهرة: دار الشروق. الطبعة الأولى.
- ٩- جمعية الدراسات العربية (١٩٩٧) القدس: مركز أبحاث الأراضي. تشرين أول/ اكتوبر.
- ١٠- صالح، محمد حسن (١٩٧١) "أوراق بيل الأمريكية والصراع حول فلسطين". شؤون فلسطينية. تموز/ يوليو، العدد ٣١.
- ١١- الكيالي، عبد الوهاب (١٩٩٩) تاريخ فلسطين الحديث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الحادية عشرة.
- ١٢- مازروي، علي الأمين (٢٠٠٦) قوة الثقافة في السياسة الدولية، تعريب زيد أبو العلا، الطبعة الأولى، مطبعة الامل- غزة.
- ١٣- محارب، عبد الحفيظ (١٩٨١) التنظيمات الصهيونية المسلحة (١٩٣٧- ١٩٤٨)، مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية- بيروت، الطبعة الاولى.
- ١٤- البديري، هند (١٩٩٨)أراضي فلسطين : بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ. القاهرة: منشورات جامعة الدول العربية.
- ١٥- رشيد، فايز (١٩٩٧) تزوير التاريخ . في الرد على كتاب نتنهاو "مكان تحت الشمس". عمان. أيار/ مايو، الطبعة الأولى.
- ١٦- السفري، عيسى (١٩٣٧) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية. يافا: مكتبة فلسطين الجديدة.
- ١٧- صالح، حسن عبد القادر(١٩٩٠) " الأوضاع الديموغرافية للشعب الفلسطيني". الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني. المجلد الأول.
- ١٨- ضاهر، مسعود(١٩٨٠) "ملكية الأرض الفلسطينية أبان الانتداب البريطاني". قضايا عربية. تشرين الثاني/ نوفمبر.
- ١٩- حنفي،ساري (٢٠٠١)هنا وهناك.نحو تحليل للعلاقات بين الشتات الفلسطيني والمركز. رام الله : المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية "مواطن" ومؤسسة الدراسات المقدسية.

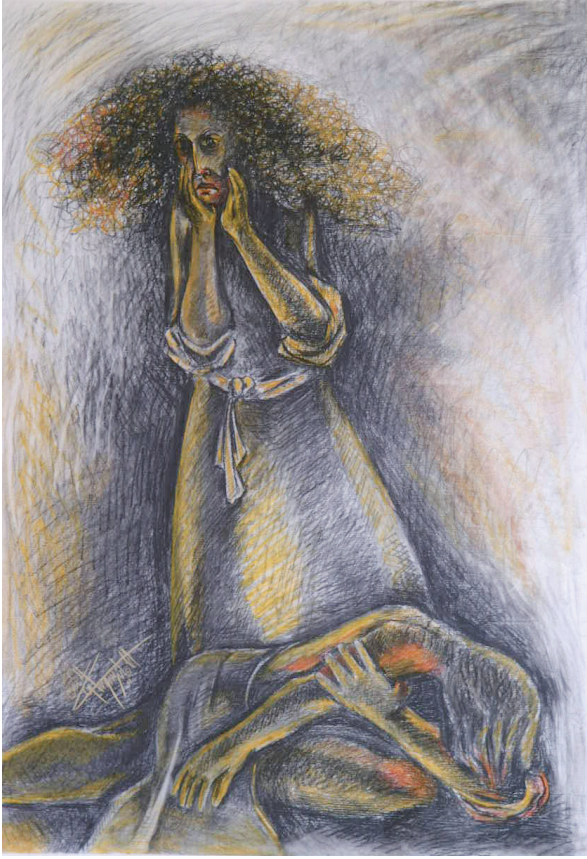
٢٠- فرسون، سميح؛ ترجمة عطا عبد الوهاب (٢٠٠٣) فلسطين والفلسطينيون. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. نيسان/ أبريل.

٢١- القلقيلي، نائلة (٢٠٠٣) "صيرورة المؤسسة السياسية الوطنية الفلسطينية" من اللجنة إلى الدولة. أطروحة دكتوراه في الأكاديمية الدبلوماسية الروسية. موسكو. نيسان/ ابريل.

## المراجع الإنجليزية

Hirst, David (1977) the Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East. London:Faber and Faber.





أوراق ثقافية





## ارْتَبَاكَاتٌ... لا حَوَافَّ لَهَا

وسيم الكردي

رياح  
جموح  
المساء  
ضعينة  
ظل  
قلب  
غد  
عابرون  
وسادة  
إعارة  
فارس  
أمانة  
سكينة  
تمرغ

أحلامي أفراسٌ جامحةٌ تَسْحَبُ الضوءَ من بين براثنِ الفجرِ، وتسكُبها في طريقِ الريحِ عند  
أيتها الريح؛ فَتَّتِي ضَعِينَتِي وانثريها، إِنَّهَا تُعَطِّلُ قَلْبِي  
حِينَما يُؤَاخِذُنِي الأصدقاءُ أَعْرِفُ بأنَّهم يُريدونَ للريحِ أَنْ تُسَابِقَ ظِلَّهَا  
أخرُ محطةٍ عَبَرَتها الريحُ هي تلك التي كانتُ على حافةِ القلبِ حيثُ لا مُسافرونَ هناك  
السؤالُ الذي لم أستطعُ الإجابةَ عليه هذا المساء هو: "إلى أين سأذهبُ بالريحِ يومَ غَدٍ"  
العابرونَ لم يتركوا لي بعضَ ريحهم لأعبر بها إليَّ  
الذين لا يستطيعونَ النومَ، تستطيعُ الريحُ أَنْ تَضَعَ رأسها على وسائِدِهِم كأنَّها شَخِيرَهُم  
أَعَرْتُ الرياحَ مَنْ رافقَها عَلَها تَنفُضُ غُبارَ الغيابِ عن روحها، لم تُعَدُ رياحي إليَّ إلى الآنَ  
هناكَ على فرسِ الريحِ فارسٌ منْ غُبارِ  
الغُرباءِ يسافرونَ وفي طريقهم يتركونَ الأمانةَ مَعَ مَنْ لا يُشبهونَهُم  
الرياحُ التي تعبرُ القلبَ لا تَعصِفُ بذكرياتِهِ بل بِجدرانِ سكينتهِ  
حينما عادَ القلبُ إلى البيتِ مساءً، تركَ الريحُ مُمرِغٌ وجهها على قارعةِ الطريقِ

ركض      الرياحُ لا تُسابقُ ظلَّها كما يفعلُ القلبُ حينَ يركضُ وراءَهُ  
خُطى      استيقظتِ الرِّيحُ مساءً أمسِ على وقعِ خُطاكِ، التفتتُ قليلاً ثم عاودتُ نومها رغمَ أنْ  
خُطاكِ لم تتوقَّفْ

عروس      حينما تهبطُ الرِّيحُ من عليائها كعروس يكون معظم البشر قد بذروا آخرَ ضحكاتهم في  
بيتِ عزاءٍ لا ميَّت فيه

إسراف      لأنني لا أحبُّ الإسرافَ في الصمتِ، أيقظتني الرِّيحُ للمرةِ الآلفِ على وَقَعِ صمتِها  
شهوة      نُسرفُ في الحديثِ، حينَ ننتظرُ الرِّيحَ، ولا نصمتُ حينَ تأخذنا إلى ما قد نشتهي  
شيطان      الساكُتُ عن الحقِّ قد يكونُ ملاكاً إذا كانَ المتحدثُ شيطاناً يُسرفُ في توجيهِ رياحه نحوَ  
الحقيقةِ

ريح      أيتها الرِّيحُ، ليسَ لي إلَّاك، في حُضورِك، وفي غيابِك  
تحرر      أيتها الرِّيحُ، ليسَ لي إلا أنْ أحبَّك أكثرَ، كي أتحرَّرَ مِنْكِ  
علة      الرِّيحُ والروحُ عاصفتانِ يتوسطُ كلاَّ منهما حرفِ علة  
انتفاضة      في رام الله، لا يحلو للريحِ أنْ تُجددَ روحها إلا في جذعِ شجرةِ صنوبر تُخبئ ما لا يحصى  
من قصصِ الغرامِ في أوجِ انتفاضةٍ

مئذنة      على مئذنةِ الوقتِ تغفو الرِّيحُ غيرَ عابئةٍ بمؤذنينِ يلهو بالمدى  
أقدام      النائمونَ في أحضانِ السكينةِ تلعبُ الرِّيحُ أحياناً برؤوسِ أصابعِ أقدامهم حينَ يكونونَ في  
فراشهم ووحيدين

حواف      أنا الذي لم تعدِ الرِّيحُ تأخذني إلى ما أشتهي، ومع ذلك، فهي تُربُّتُ على كتفي كُلِّما رأْتُ  
حُزناً يسيلُ على حوافِ كلماتي... فيغدو حبرَ اشتهاي

ثقة      الذاهبونَ إلى غدهم بثقةٍ أكبرَ يستطيعونَ توجيهَ ريحهم بثقةٍ أقلِّ، والذاهباتُ إلى غدهنَّ  
بثقةٍ أقلِّ يستطعنَ توجيهَ ريحهنَّ بثقةٍ أكبر

كوابيس      الغائرونَ في ريحِ أحلامهم بأملٍ أقلِّ، لا يلتفتونَ إلى ريحِ كوابيسهم بتوجسٍ أكبر  
جهات      لم أنم تلكَ الليلةَ، ومَعَ ذلك لم تألُ الرِّيحُ جُهداً في إخباري عن جهاتِ النومِ التي يحلو  
للفراشاتِ أنْ تروحَ إليها

سفر      نسافرُ كريحٍ تسافرُ فينا

ولادة لا تَلِدُ الرِّيحُ إلا الرِّيح  
عندَ حافةِ الموجةِ تتراقصُ الرِّيحُ كأنها تلتقي باليابسةِ لآخرِ مرة  
أمس تلكَ هي الرِّيحُ التي تأخذنا إلى غدنا دُونَ أَنْ ندري بأنَّ أمسنا لا زال يتشبهُ بأذيالِ  
خيبتنا

لحظات كي تسيّر الرِّيحُ ينبغي لها أَنْ تُعانقَ السكونَ في كُلِّ لحظاتِ رحلتها  
ابتلاع أخبرتني الرِّيحُ بأنَّ صَوْتَهَا يبتلعُ صمتها، أمّا صَمْتُهَا فلا يبتلعُ سِوَاهَا  
كأنها "كأنها .... الرِّيحُ وحدها هي التي ..."

قلِّقْ - قلِّقْ على قلق، كأنَّ الرِّيحَ تحتي أوجهها يميناَ أو شمالا  
على قلق، كأنَّ الرِّيحَ تحتي توجَّهني يميناَ أو شمالا

(المتنبي)

شظايا عدل وَكَمَا أَنَّ هُنَاكَ عَدْلٌ حَيٌّ... هُنَاكَ عَدْلٌ مَيِّتٌ  
عدالة في هَذِهِ الحَالَةِ هناك مَا يَكْفِي مِنَ العَدَالَةِ؛ فَهِيَ لَنْ تَحْسَرَ غِيَابَ (قَصَائِدِي)، وَأَنَا لَنْ  
أَكْسَبَ حُضُورَ (شَتَائِمِهَا)"  
كبرياء لِمَنْ يَصِمُ الكبرياءُ!؟

- يَصِمْتُ فَقَطْ لِتِلْكَ الآتِيَةِ مِنْ وَرَاءِ الحَاجِزِ العَسْكَرِيِّ حَامِلَةً أيقونَةَ الرِفْعَةِ بَيْنَ جَوَانِحِهَا، هُنَاكَ  
فَقَطْ سَيَكُونُ السُّكُونُ ضَرُورِيًّا لِيَجِسَ نُبُضَ جَلَالِهَا  
القبعة في الحَالَتَيْنِ؛ لا رَأْسَ تَحْتَ القُبْعَةِ

نزف الغَارِقُونَ في الدَّمِ، لِيَسُوا فَقَطْ النَّازِفِينَ بل هم أَيْضًا السَّفَاحُونَ  
انتعال لِيَتَعَوَّدَ مِنْ رِحْلَةِ شَقَائِكَ مَا عَلَيْكَ سِوَى أَنْ تَنْتَعِلَ قَلْبَكَ  
أ، ل، م (الأمَلُ) هُوَ مُجَرَّدُ حَطِّ فِي تَرْتِيبِ أَحْرَفِ (الأمَلِ)

رام الله رَامَ اللّهِ هِيَ مَدِينَةٌ، كَمْدُنٍ أُخْرَى كَثِيرَةٌ خَارِجَ بِلَادِنَا، لا تَلْهَتْ وَرَاءَ غَوَايَةِ زُورِهَا، إِنَّهُمْ  
جَاهِزُونَ لِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَطَّأُوا بِخَيَالَتِهِمْ  
طفيليات الحَقِيقَةُ هِيَ الحَدِيقَةُ دُونَ أَزْهَارِ، رُجْمًا بَعْضُ طَفِيلِيَّاتِ

عودة	أَنْ تَعُودَ سَالِمًا يَعْنِي أَنَّكَ لَمْ تَذْهَبْ إِلَى الْحَرْبِ
تكرار	فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَقُولُ فِيهَا: لَنْ أُكْرِرَ مَا فَعَلْتُ، أَجِدُنِي أَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى: لَنْ أُكْرِرَ مَا فَعَلْتُ، لِأَنَّ
لا شيءَ يَتَكَرَّرُ أَصْلًا	
ضوء	حِينَمَا أَمْنَحُ صَدِيقًا فِكْرَةً يَكُونُ قَدْ مَنَحَنِي ضَوْءَهَا
مقابلة	كُلَّمَا عَانَقْتُهَا... تَذَكَّرْتُهَا
فرار	تَهْرُبُ الْمَرَأَةُ مِنَ الْبَابِ الْأَمَامِيِّ أَمَّا الرَّجُلُ فَيَفِرُّ مِنَ الْبَابِ الْخَلْفِيِّ
صداقة	الصَّدَاقَةُ لَا وَصْفَ لَهَا
مشنقة	الْمَلَلُ مَشْنَقَةُ الْحُبِّ
حاجة	كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَقُولَ لِنَفْسِهِ مَا قَالَهُ لَهَا
يقين	عِنْدَمَا أَكْتُبُ أُحَاوِلُ تَأْوِيلَ مَا كُنْتُ أَشُكُّ فِي مَعْرِفَتِهِ، فَتَأْتِي الْكِتَابَةُ لِثُبُودِ الْيَقِينِ تَمَامًا
خاتمة	أَخْرُ صَفْحَةً فِي الرِّوَايَةِ لَيْسَتْ هِيَ خَاتَمَةُ الْقِصَّةِ
نهاية	كُلُّ نِهَائِيَّةٍ هِيَ بَدَايَةُ لِقِصَّةٍ جَدِيدَةٍ
ماء	النَّهْرُ لَا يَكْشِفُ مَاوَهُ لِكُلِّ عَابِرِيهِ خَاصَّةً أَوْلَاكَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَاءَ شَفَافٌ
زمن	السُّفُنُ الَّتِي تُبْجَرُ فِي الْوَقْتِ لَا تَعْرِفُ بِأَنَّ الزَّمَانَ يَتَرَبَّصُ بِهَا
بكرة	الْفِيلِمُ الَّذِي سَأَشَاهِدُهُ هَذَا الْمَسَاءَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ دَارَتْ بَكَرْتَهُ قَبْلَ ذَلِكَ فِي رَأْسِي
سجناء	حِينَمَا يَلُودُ السُّجْنَاءُ بِمَهَاجِعِهِمْ لَا يَحْلُمُونَ بِنِسَائِهِمْ
نزلاء	السِّجْنُ أَقْلُ تَحْرِيْبًا مِنْ نُزْلَائِهِ أَحْيَانًا
زجاج	هِيَ رَغْبَةٌ عَارِمَةٌ فِي السِّجْنِ أَنْ تَرَشَفَ الْمَاءَ بِكَأْسٍ مِنْ زُجَاجٍ
بشاعة	أَنْ يَجُودَ عَلَيْكَ سَجَانُكَ بِابْتِسَامَةٍ؛ فَهَذَا أَبْشَعُ الْقَمْعِ
جريمة	الْقَاتِلُ بِنَصِّ مُجْرِمٍ بِالتَّأْوِيلِ
قتيل	الْجَرِيْمَةُ يَكْفِيهَا لِتَكْتَمَلَ أَرْكَانُهَا قَتِيلٌ وَاحِدٌ لَا أَكْثَرَ
حوم	الْمَوْتُ يَحُومُ فِي بِلَادِنَا، وَنَحْنُ نَحُومُ فِي أَكْفَانِنَا
اكتفاء	"وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ" ... وَهَذَا يَكْفِي

عدوان	الْحَرْبُ لَهَا مَعْسَكَرَانِ؛ أَمَا مَا يَجْرِي فِي بِلَادِنَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ مِثَّةِ عَامٍ هُوَ مَحْضُ اعْتِدَاءِ
جحور	الْعَصَافِيرُ بَاتَتْ تَسْتَمْلِحُ الْجُحُورَ أَمَا الْفِرَّانُ، فَقَدْ بَاتَتْ تَحْلُمُ بِالطَّيْرَانِ
فأر	مَا يَدْعِيهِ الْفَأْرُ دَائِمًا بَأَنَّ عَرِيْمَهُ هُوَ مَرٌّ لَهُ هَيْئُهُ قِطٌّ
ادعاء	أَخِرُ الْكَلِمَاتِ تَتَّصِمُنُ دَائِمًا ادِّعَاءً بَأَنَّ مَا لَمْ يُقَلِّ بَعْدُ هُوَ الْأَكْثَرُ أَهْمِيَّةً، لَكِنْ لَمْ يُسَعِفْهُ
الْوَقْتُ	
رحلة	سَأَخْرُجُ مِنِّي إِلَيَّ فِي رِحْلَةٍ لَنْ تَقْصُرَ أَوْ تَطُولَ
حب	الْكِرَاهِيَةُ هِيَ حُبٌّ بِالْمَقْلُوبِ
معركة	الْحُبُّ هُوَ حَرْبٌ بِلا مَعْرَكَةٍ
وحدة	الْوَحْدَةُ لَا تَعْنِي أَنَّكَ وَحْدَكَ
تَرَانِي	حِينَمَا أَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ صَبَاحًا تَتْرَأَى أَمَامَ نَظَائِرِي شَيْاطِينُ أُمِّسِ رَعْمٌ أَنَّنِي حِينَ أَدِلُّفُ
مَسَاءً إِلَى الْبَيْتِ تَتْرَأَى لِي مَلَائِكَةُ الْغَدِ	
لعنة	أَفْسَى اللَّعْنَاتِ هِيَ تِلْكَ الَّتِي لَمْ يُطَاوِعِ الْأُمَّ قَلْبُهَا كَيْ تَقْذِفَهَا فِي وَجْهِ ابْنِهَا
إدانة	الْقَتْلُ يُدَانُ الْيَوْمَ بِأَدْوَانِهِ لَا بِالْقَتْلِ!
رام الله	رَامَ اللَّهُ هِيَ مَدِينَةٌ، كَغَيْرِهَا مِنْ مُدُنٍ لَيْسَتْ كَثِيرَةً؛ لَا تَلْهَثُ وَرَاءَ غَوَايَةِ زُورِهَا، إِنَّهُمْ
جَاهِزُونَ لِدَلِكْ؛ فَهَمَّ يَطَّأُونَهَا بِخِيَالَاتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَطَّأَوْهَا بِأَقْدَامِهِمْ	
خطوات	تَتَبَدَّدُ الْخِيَالَاتُ بِأَقْدَامِ أَصْحَابِهَا كَمَا تَتَبَدَّدُ الْخُطُوبَاتُ بِخِيَالَاتِ أَصْحَابِهَا؛ اِحْتِمَالَانِ
مُنْكَافِئَانِ	
حشائش	الْحَقِيقَةُ هِيَ الْحَدِيقَةُ دُونَ أَزْهَارِ، رُبَّمَا بِنَعْصِ حَشَائِشٍ وَحَشِيَّةٍ
أوان	لَا شَيْءَ أَشَدُّ وَطْأَةً مِنْ لِمَسَةٍ لَمْ يَبْنِ أَوَانُهَا أَوْ لَا أَوَانَ لَهَا
إذاعة	لِكُلِّ رَجُلٍ (تَقْرِيْبًا) سِرٌّ مُدَاعٍ، وَلِكُلِّ امْرَأَةٍ (تَقْرِيْبًا) إِذَاعَةٌ سَرِيَّةٌ
إفشاء	كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُسِرَّ لِأَذْنِهِ مَا أَفْشَى لَهَا
نهاية	كُلُّ نِهَائِيَّةٍ هِيَ بَدَائِيَّةٌ
حرية	الْحُرِّيَّةُ فِي السِّجْنِ أَنْ تَسْتَقِظَ قَبْلَ السُّجْنَاءِ صَبَاحًا قَدَرُ بُرْهَةٍ تَأْمَلُ تَقْطُفُ فِيهَا لِحْظَةً
مَعَكَ	

التهام حَيْمًا تَقْرَأُ عَلَى السَّجْنَاءِ قَصِيدَتَكَ فَإِنَّهُمْ يَلْتَهُمُونَكَ بِأَعْيُنِهِمْ لِأَنَّ لُعبَةَ الدُّومِينِو لَمْ تَتَحَرَّرْ  
بَعْدُ لِتَعْدُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

صباح الصَّبَاحُ لَا يَأْتِي وَحِيدًا، بَلْ يَنْوِي بِجُعبَةٍ مَلِيئَةٍ بِأَحْلَامِنَا الَّتِي نَنْفُضُهَا فِي حَجْرِنَا  
رياضة خلال رياضة المشي هذا المساء، أدركت مرةً أخرى بأن: "الرياضة" لعينته؛ حيث لا يُمكن  
التوقُّفُ عَنِ التَّفْكِيرِ "فيها"  
عَضَبُ

اعتراف الغضبُ "حِلْمٌ غَيْرٌ مَعْتَرَفٍ بِهِ عِنْدَ "مُتَزَنِينَ"  
عادي لَوْ كُنْتَ عَادِيَةً لَكَانَ عَضَبِي عَادِيًا  
صراحة الغضبُ هُوَ الْحَالَةُ الْوَحِيدَةُ الْمَطْلُوقَةُ مَا يُسَمَّى: "صِرَاحَةً"  
موسى تَخَيَّلُوا مَجْرَى التَّارِيخِ لَوْ لَمْ يَغْضَبْ مُوسَى عَلَى قَوْمِهِ  
ردع مِيْزَانُ الْعَدَالَةِ غَضِبُهَا، اسْأَلُوا الْحِلْمَ كَمْ مِنَ الظُّلْمِ رَدَعَ  
عطر الغضبُ هُوَ ذَلِكَ الصَّمْتُ الَّذِي يَفْصِلُ رَشَّةَ عَطْرِ عَنِ تَهْشِيمِ زُجَاجَتِهِ  
شنائم "أَنْ يَغْضَبَ الْمَرْءُ يَعْنِي أَنْ يُعَلِّقَ شَتَائِمَهُ عَلَى مَشْنَقَةِ الصَّمْتِ"  
كوابيس الغضبُ يَعْنِي أَنْ تَسْكَبَ كَوَابِيسَ حِلْمِكَ فِي أَنْهَارِ حِلْمِكَ، وَتَنَامَ  
ملاذ الْعَضَبُ يَعْنِي أَنْ لَا تَجِدَ الضَّغِينَةَ مَلَاذًا لَهَا فِيهِ

فَرَاشَات

شأن للفراشة شأنٌ آخر غير ما تُخبئه أَجْنِحَتُهَا مِنْ أَحْلَامٍ  
شكل للروح شكلُ الفِراشةِ حِينَ تَفِيءُ إِلَى بَارئِهَا  
ضوء تَلَوُّدُ الْفِرَاشَةِ بِالضَّوْءِ... فَيَحْرِقُهَا؛ هَذِهِ رِوَايَةٌ لَهَا أَصْلٌ مَشْكُوكٌ بِأَمْرِهِ  
ليل الفِراشةُ سِوْدَاءٌ وَاللَّيْلُ أَبْيَضُ  
حيوات لَمْ يَعُدْ لِي مَا لِلْفِرَاشَاتِ مِنْ حَيَوَاتٍ عَابِرَةٍ  
حريبر فِي شَرَنْقَتِهَا... لَا تَرَى غَيْرَ حَرِيرِهَا  
إدانة لَمْ تُحَذِّرْنِي الْفِرَاشَةُ مِنْ أَنَّ وَاحِدَةً مِنْ بِيوضِهَا عَلِقَتْ عَلَى خَيْطِ الشَّمْسِ الَّذِي اخْتَرَقْتَهُ  
قبل مَغْيِبِهَا غَيْرَ أَبِهَ مَا عَلِقَ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَعْتَرَفْتُ، بِأَنْ لَا إِدَانَةَ إِلَّا لِي

جناحان على جناحي فراشةٍ يمكنُ أنْ نحملَ كلَّ أحلامِ حياتنا وكوابيسها، ونعبرها في أقلِّ من أسبوع

دودة في يومٍ من الأيامِ كانتِ الفراشةُ دودة، وكانتِ الدودةُ فراشةً ذاتها هناك من يقول: "البرقعةُ للعملِ والفراشةُ تلتقطُ الأضواء" ولكن أليست هي ذاتها؟! تدوَّق كما الفراشة أحتاجُ لقدمي، لا لأسيرَ بهما فقط، بل لأتدوَّقَ طعمَ الطريقِ تحليق كم احتاجُ إلى حرارتكِ كي أحلِّقَ كفراشةٍ لا يمكنها أن تطيرَ ببردها نظر أن ترى الألوانَ وتميزها كفراشةٍ قصيرة النظر أفضلُ من أن ترى في البعيدِ لوناً واحداً نهايات

انتهاء حينما ينتهي "الأمر"!!! لن يكونَ أمامك سوى "حاضر" و"ماضٍ" مونتاج الكوابيسُ يمكنُ مونتاجها كأحلامٍ أيضاً... عفواً كأفلام!

ذاكرة ذاكرتي استذابتُ، إنها تنهشُ أحلامي واحداً واحداً تقليم الأَحلامُ تُقلِّمُ أظافرَها بينَ وقتٍ وآخرِ الجنة الطريقُ إلى الجنةِ حافلةٌ بما لم يردُ في كتابِ حجيم إذا حصلتَ على شهادةِ حُسنِ سيرة وسلوكٍ من ثلاثِ عمَّامات، فلا تشكُّ بأنك ستضمنُ لك مقعداً في الجحيم

تخزين لتبدو أكثرَ تعقُّلاً ينبغي أنْ تُخزِّنَ جنونك كما تخزِّن ملبسك الصيفيَّةَ مطلع كلِّ شتاءِ اعوجاج اليقينُ هو خطُّ أعوجٍ من نقاطِ شكِّ مُتصلة كبرياء لأنَّ كبرياءها لا يبطأ الأرضَ علقتُ بخيطٍ مدلىٍّ مِنَ السماء، فهل هناك من يقطعُه؟! نظافة يمكنُ للحبِّ أن يكونَ نظيفاً في سلةِ نفاياتٍ حلم ما ظننتُه حُلماً كانَ كابوساً قسوة ينبغي للألمِ أنْ يُونسنا، أما في الحقيقةِ فإنه يُحوِّلُ أكثرنا إلى قُساة رنين لعلِّي أزنُ الضوءَ ورنينهُ يوماً ما ضوء هل ينبغي لي أن أزنَ الضوء؟!!

ثقل	الْخِفَةُ أَثْقَلُ مِنْ أَنْ أَتَحَمَّلَهَا
خفة	العَتْمَةُ أَشَدُّ خِفَةً مِنْ قَلْقِي الَّذِي يَحْمِلُهَا
نافذة	لَمْ يَعُدَّ الْقَوْلُ نَافِذَةً أَصِيلَةً تُطَلُّ عَلَى الْوَجْدِ
ولادة	الْيَوْمُ هُوَ رَحْمٌ عَدِيهِ، وَسَيَأْتِي أَيْضاً بِقَابِلَةٍ وَدَمٍ وَأَلْمٍ وَصُرَاخٍ وَ... .
لسان	كَانَ يُمْكِنُ لِلصَّنَّارَةِ أَنْ تَصِيدَنِي فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ تُهَيِّؤُكَ لِتَكُونَ أَنْتَ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، صَيْدَهَا أَيْضاً". حِينَهَا لَنْ يَكُونَ مُمَكِنًا لِكَلِينَا أَنْ يَتَذَرَعَ بِالْغَبَاءِ، حَتَّى السَّمَكَةُ سَتَمُدُّ لَنَا لِسَانَهَا وَقَتَهَا
ضجر	الصَّجْرُ وَوَلَادَةُ الْإِنْشِغَالِ
ادعاء	الْيَقِينُ هُوَ الشُّكُّ لِحِظَةٍ غُرُورِهِ أَوْ ادْعَائِهِ
آثار	يَمْرٌ عَابِرًا فَيَبْرُكُ آثَارُهُ الدَّائِمَةُ
دعاء	لَا وَقْتٌ فِي الدُّنْيَا لِهَذَا الشُّكِّ، إِذَنْ، ارْتَكِبِ الْيَقِينَ كَأَيِّ فِدَيْسٍ يَطُنُّ دُعَاءَهُ سَلَمَهُ لِلسَّمَاءِ!
كذب	يَفْتَرِشُونَ كِذْبَتَهُمْ مِمَّا حَصَرَ نَهْشِهِمْ عَلَى عَتَبَاتِ رُوحِي
إرادتان	أَنْ تَكُونِي كَأَيِّ امْرَأَةٍ، وَأَنْ أَكُونَ كَأَيِّ رَجُلٍ؛ أَهَذَا مَا كُنْتُ تَرِيدِينَهُ؟! هَذَا مَا لَمْ أَكُنْ أَطِيقُهُ أَبَدًا
رحلة	فِي نَهَارٍ كَهَذَا تَسْرَبُ الْإِلَهَةُ مِنْ أَنْوَارِهَا، وَتَرُوحُ فِي رِحْلَةٍ دَاكِنَةٍ تَمُوجُ بِشَكَّهَا
أحجية	عَدِيمَةُ الْجَدْوَى تَلِكُ الْأَحْجِيَةُ الْوَاقِفَةُ عِنْدَ بَوَابَةِ الرُّوحِ، فَهِيَ لَا تَعْرِفُ بِأَنَّ النَّاسَ لَا يَذْهَبُونَ إِلَى مَرَاثِمِهِمْ دُونَ الْغَازِ
إيقاع	العُرَاةُ يَفْضَحُونَ الْحَقِيقَةَ بِإِيقَاعِ فَضِيلَتِهَا، وَالْمَتَدَنُّونَ يَسْتَرُونَ وَهَمَهَا بِإِيقَاعِ رَذِيلَتِهَا
قلق	سَلَامٌ لَكَ أَيَّتُهَا الرُّوحُ الْقَلِقَةُ
كف	قَارِنَاتُ الْكُفِّ هُنَّ الْوَحِيدَاتُ اللَّوَاتِي يَعْرِفْنَ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ لَيْسَتْ مَرْسُومَةً فِي أَكْفِ زَبَائِنِهِنَّ
رمل	فِي السَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لِقَصِيدَتِي بَنَيْتُ فِي الرَّمْلِ قَصِيدَةً جَدِيدَةً لِأَلْقِيهَا
يعقوب	اللَّيْلَةُ الْأَخِيرَةُ تَنْقَلِبُ مَعَ الصَّفْحَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ رِوَايَةٍ أَجْبَرْتُ نَفْسِي عَلَى قِرَائَتِهَا لِسَبَبٍ
ليس في نفس يعقوب	
جليلية	الْأَغْنِيَةُ الَّتِي غَادَرْتُ مَعَ شِمَالِيَّةٍ عَادَتْ بَلَكْنَةَ جَلِيلِيَّةٍ رَقَّصَتْ حُطُوتِي الَّتِي كَادَتْ تَفِيءُ إِلَى
بارئها	



طيبة لَطِيبَتِهَا دَمِي  
تجميع أُجْمَعُ، في هذا الصباحِ، ما أَفَلَتِ النَّايُ مِنْ حِكَايَاتِ فِي طَرِيقِ عَوَدَتِهِ إِلَى غَرِبَتِهِ  
بكاء لَأَنَّه رَجُلٌ بَكَى  
عودة سَأَعُودُ لِي  
طرق لا غَرِبَةً غَيْرَ ما فِي الدَّرَبِ مِنْ طَرِيقِ  
صلاة تُلَمِّمُ نَثَارَ أَحَادِيثِ أَعْوَامِنَا الْغَارِقَةِ فِي الْمَاضِي، نُجَدِّلُهَا، وَنَسْجُجُ بِهَا، الْآنَ، سِجَادَةَ صَلَاةٍ تَتَسَّعُ لِاثْنَيْنِ غَدًا  
نقصان زَادَ بِهَا، فَانْقَصَتْ بِهِ  
موت إذا اكتملتِ الشجرةُ... قَصَّتْ، إذا اكتملتِ الحياةُ... ذَوَتْ  
اكتمال تَكْتَمِلِينَ بِذَاتِكِ، وَأَكْتَمِلُ بِكَ  
حب إذا اكتملَ الحبُّ... أُرِيقُ ماؤُهُ فِي نَهْرِ نَقْصَانِهِ  
موعظة لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَهْيَلَ عَلَيْنَا بَرِيقَ مَوْعِظَةٍ ... كُنَّا كُنَّا هُنَاكَ فِي مَجَالِ صُورَتِهَا  
خجل خَجِلًا مِمَّا سَيَّأَتِي  
لا خَجِلًا مِمَّا مَضَى  
حياء سَأَسْتَحِي مِمَّا سَيَّأَتِي  
لأنَّ ما مَضَى لا يَرُوقُ لَهُ الْخَجَلُ  
ظل لا تُعَانِقُ الشَّجْرَةَ ظِلِّهَا  
كفن النُّضْجُ كَفَنُ الثَّمَرَةِ  
فراغ الْمَرْأَةُ آخِرُهُ الْعَدَمُ وَأَوَّلُ الْفَرَاغِ  
أعشاش لماذا لا تَخْتَبِئُ الْعَصَافِيرُ فِي أَعْشَاشِهَا؟ لَأَنَّ بِيوتَهَا لَيْسَتْ جُحُورًا؟!  
رائحة لِلرَّيحِ رَائِحَةُ الْغَرَبَةِ  
قناديل لِلبَّرِّ قَنَادِيلُهُ السَّامَةُ أَيْضًا  
هندسة مُوَلِّعٌ بِالْخَرَابِ، هَذَا الَّذِي يُهَنْدِسُ الْعِمَارَ فِي رَامِ اللَّهِ

غواية	صورةٌ واحدةٌ تكفي لتميطِ عَنَّا لِثَامَ الغَوَايَةِ
خيوط	العَارِقُونَ فِي أَحْلَامِهِمْ يُجَدُّلُونَهَا بِخِيوطِ الكَوَابِيسِ
ارتباك	القصيدَةُ الأخرى ارتَبَكَتْ بِنَفْسِهَا، لِأَنَّهَا لَمْ تَكْتَمَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ (—ها)
بيض	الدجاجةُ لا تبيضُ بيضاً فاسداً، اسألوا مَنْ كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ
حَبَّة	مِيزَانُ العَدَالَةِ قَدْ يَسْتَوِي بِحَبَّةِ قَمْحٍ
جناح	الحُرِيُّهُ يُمكنُ مُقَايَصَتِهَا بِجَنَاحِ بَعُوضَةٍ أحياناً
كسل	الحبُّ لا يَحْتَاجُ إلى عِشَاقِ كُسالَى بل إلى يَأْنِسِينَ يُعَامِرُونَ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ، حيث لا شيء لَدَيْهِمْ يَخْسِرُونَهُ سِوَاهُ
أسف	السَّمَاءُ لا مُمَطِرُ أسفاً
رتق	لا يُرْتَقُ القَمِيصُ بِيدِ حَائِكِهِ
غلاف	الكِتَابُ قَدْ يَنْوَأُ بِغِلافِهِ
يقظة	على حَافَةِ الحُلْمِ تَسْتَيْقِظُ أَفَاعٍ
أفق	عِنْدَ المَغِيبِ، تَدْخُلُ الشَّمْسُ مَخْدَعَهَا، وَقَدْ طَوَّتْ خِيوطَها، وَخَبَّأَتْها فِي صِرَةِ الأَفْقِ
غير	على الرصيفِ، هُناكَ غَيْرُ خُطَى العابِرِينَ
معنى	المسافَةُ يَتَوَقُّ لَهَا عِلْماءُ الرِياضِياتِ؛ فَهِيَ تَمْنَحُهُمُ المَعْنَى، أَمَّا العاشِقُونَ فلا تَرَوُقُ لَهُمْ؛ فَبِها يَتَلاشَى المَعْنَى
آخر	الرِحلَةُ هِيَ أَوَّلُ الطَرِيقِ مِنْ آخِرِهِ
كل	لِكُلِّ رَعَشَةٍ تُرابِها، وَلِكُلِّ نَشْوَةٍ عُبارُها
عبور	- مِنْ هُنا سَأَعْبُرُ...
	- مَهَلُّ!
	- سَأَفْقِدُ الرِفيقَ!
	- سَتَكْسِبُ الطَرِيقَ!
	- .....

..... -  
أشياء هُنا استيقظتْ عصفورَةً،  
وعلى هامشٍ منْ بكاء، سرى نهرٌ، واستيقظَ قلمٌ، وطافتْ قُبْعَةٌ  
فضاء مُبهمٌ هذا الفضاء  
تنكُّرُ الغدُ هو الأَمْسُ مُتَنكراً  
ماضي هوَ المُستقبلُ بثيابِ النومِ  
خيبة الأملُ، في بعضِ الأحيانِ، هو أفيونُ الخائبينِ  
مستقبلُ المُستقبلُ هو الماضي مُرتدياً وَهمَهُ  
عري المُستقبلُ هوَ الماضي عارياً من أوهامِهِ  
أَمْسُ الغدُ هو أَمْسُ مُقشَّراً من أحلامِهِ  
غدُ الغدُ لا زالَ متشبَّهًا بتلابيبِ أَمْسِهِ!  
فقد "إِنَّ بَعْضَ الْفَقْدِ إِثْمٌ"  
ظنَّ إِنَّ بَعْضَ التَّيَقُّنِ إِثْمٌ  
ارتواء رَوَتْ... فارتَوَتْ  
بقاء بما تَبَقَّى لا شيءَ يَبْقَى  
خيالُ ما يَلُوحُ في الخيالِ لا يَلُوحُ في الأفقِ  
يقينُ أشكُ فيما سَيأتي... لكنَّهُ يقيني الوَحيِدِ  
لحظتان اليقينُ هو لحظةٌ عابرةٌ بين شكِّين. الشكُّ ليس لحظةً بينَ يقينينِ  
أُنْسُ لمْ أَعُدْ وحيداً؛ فهي لمْ تَعُدْ معي، لمْ أَعُدْ وحيداً؛ فَقدَ رحَلَ الجَمِيعُ  
ينبوعُ تَرحَلُ الوردَةُ إلى ينبوعِ بكائِها... هناكَ تنامُ لتحلَمَ  
قبرُ سَأضيئُ (شَاهدي)، حينَ يَحِينُ الليلُ، بِبَاقِةٍ مِنَ العَتمَةِ  
قصيدةُ لمْ تَعُدِ القصيدةُ وحيدةً، فقدَ رَحَلَتْ إيقاعاتُها  
نحنُ هلْ كُنَّا نحنُ حينَما افترقنا أُمَ كُنَّا غيرَنا؟!!

فراق      حينما لمنا الفراق لم نكن نحن  
غفوة      المسافة الفاصلة بين فراقين؛ هي تلك الوردة التي لم تخف في حديقته تلك الليلة  
قيد      ما بيننا هو قيد أحجية  
فيض      والسما فيض عليل أيضاً... كقلبك  
رحيل      العشق ليس أكثر من (حدوتة) رحيل  
نوارس      لا نوارس عند الشط  
قدر      لن تعودى أيتها الريح؛ دربك موصوفه كقدر  
نقاء      بما تبقى... لا شك أنقى  
ظل      لئنه الظل كان وحده عند الظهيرة  
غيبه      كأنني دوني... مولع بعيني  
نسخ      الناي في النسخ... والريح في الدم  
جرح      كم من الترف... كي يعود جرحي لي  
صورة      لصورتك... صوت النور  
غربة      لا غربة غير ما في الدرب من طرقي  
بقايا       
شيء      بما يروح... لا شيء يلوح  
تبديد      لئنه الأم... يبدد الندم،  
ويسكب ما مضى في مسارب العدم  
تمن      لا تردّي الريح عني  
ترك      " ... ولي... ستتركنيني؟  
سئنهكني "أناي" إذن!  
رجوع      يهيم فلا يضيع

فَكَأَنَّ فِي التَّيهِ الرَّجُوعُ  
زبد لَمْ نَكُنْ غَيْرَ زَبْدُ  
سَائِلٍ عِنْدَ حَاقَّةٍ لِأَمَدُ  
لَمْ نَكُنْ سِوَى (لَا أَحَدُ)  
كَوْهَمِمَا فِي ارْتِشَافِ الْأَبْدُ  
تَشْفِي وَحِيداً... لَيْسَ لِي غَيْرَ أَنْ أَتَلَّهَى...  
بِحُزْنٍ رَاعِفٍ يَتَشَفَّى  
اجْتِيَا حِجَابِ يَجْتَا حُنِي مَا لَيْسَ يُنْسَى  
مُبْجِراً ... دُونَ مَرْسَى  
خَطَوَاتٍ لِأَنِّي لَا أَرَى...  
خَطَوْتُ فِي الْمَدَى  
إِيغَالٍ مُوْغَلٍ فِي الْخَتَامُ  
أَرْشَفُ الْغَمَامُ  
صَوْتِ هُوَ الْآنَ سَالَ،  
تَنْزُهُ الظَّلَالُ  
يَفِيضُ صَوْتُهُ  
بِصُورَةِ الْجَلَالُ  
قَطَّةٍ كَقَطَّةِ السِّلَالُ  
تَمُوءُ فِي الظَّلَالُ  
تَجِيئُهَا بِالْحَلِيبُ  
تَفَرُّ مَنْ يَدِيكَ،  
وَتَتْرَكَ الْمَجَالُ  
أَوَّلُ - آخِرُ  
أَوَّلُ الطَّرِيقِ نِهَائِيَّتُهُ، آخِرُ الطَّرِيقِ بَدَائِيَّتُهُ



## مختارات للشاعر الأرجنتيني روبرتو خواروث\*

ترجمة وليد السويركي

\* (بوينس آيرس، ١٩٢٥-١٩٩٥) أحد أبرز شعراء أمريكا اللاتينية في القرن العشرين وأكثرهم تفرّداً وأصاله. درس الأدب والفلسفة في جامعة بوينس آيرس وأشرف على مجلة شعر = شعر من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٥. غادر الأرجنتين إلى المنفى خلال فترة حكم الديكتاتور بيرون، فعمل خبيراً لدى اليونسكو في عدة بلدان في أمريكا اللاتينية. حملت جميع دواوينه عنواناً واحداً هو: أشعار عمودية": ( أشعار عمودية ١، أشعار عمودية ٢ وهكذا...) كما أنه لم يضع عناوين لقصائده بل رقمها هي الأخرى مشدداً بذلك على وحدة القول الشعري لديه. تركز تجربة خواروث الشعرية إلى تأمل ميتافيزيقي عميق في شرط الإنسان المتأرجح بين الوعي بسقوطه الحتمي وبين نزوعه نحو المتعالي، وإلى لغة تتخفّف من المجاز و العاطفية . إنه، بكلمات أوكتايفو باث، " شاعرُ اللحظات المطلقة الكبيرُ، حيث كل قصيدة تَبْلُورُ مدهش للكلام، تتحوّل فيه اللغة إلى قطرة ضوء".

١

صوت جديدٌ يفضح لغتي،

لا يشبه الكلام؛

بل هو أشبه بأن تتكفّل شجرةٌ بالغناء عوضاً عن العصفور

أو صخرةٌ بالخرير عوضاً عن الماء،

ذلك صوت العزلة في عزلتها.

كان يرسم النوافذ في كل مكان:  
على الجدران العالية،  
على الجدران الخفيضة،  
على الواجهاٲ ،  
في الزوايا،  
في الهواء، وحتى على السقوف؛  
كان يرسم النوافذ كما لو أنه يرسم العصافير:  
على الأرض، على الليالي،  
على حواف الموت،  
على القبور، على الأشجار،  
وعلى النظرات الصماء،  
كان يرسم النوافذ حتى على الأبواب؛  
غير أنه لم يرسم باباً قط؛  
إذ لم يكن يريد الدخول أو الخروج ،  
كان يعرف أن ذلك ليس بالممكن،  
كان يريد أن يرى فقط ؛ أن يرى،  
كان يرسم النوافذ في كل مكان.

مصباحٌ مضاءٌ في وضح النهار؛  
ضوءٌ ضائعٌ في الضوء،  
هكذا تنهار نظرية الضوء:  
ويندحر أشده سطوعاً،  
كما تسقط شجرةٌ من ثمرة.



٤

تدور العجلة وتدور،  
تلتف الطرقات  
حول العجلة  
تجرّ العجلة الطرقات كشرائط من غبار  
تدور العجلة وتدور  
ولكن لم يعد ثمة طريق.

٥

يتدحرج سؤال إلى جانب الإنسان كصخرة  
عوض أن تسقط في الفراغ، تجد تجويفاً يسندها،  
ما عاد الأمر يخص بشراً أو آلهة ،  
ولم نعد في موضع الأجوبة؛  
فالصدي نفسه استحال تجويفاً،  
ربّما كان خلاص الإنسان في أن يتدحرج على سفح ذاته،  
متعلقاً بصخرة سؤاله الأعظم.

٦

محتشدٌ بالريح الجرسُ  
مع أنه لا يدقُّ  
محتشدٌ بالتحليق الطيرُ  
مع أنه لا يتحركُ  
محتشدةٌ بالغيوم السماءُ  
مع أنها وحيدة  
محتشد بالصوت الكلامُ  
مع أن لا أحد يقوله  
كل شيء محتشدٌ بالهرب

مع أنه ما من دروب

كلّ الأشياء تهرب صوب حضورها

٧

ترسم العين على السقف الأبيض

شعاعاً أسودَ نجيداً،

ويضطّلع السقف بخداع العين فيسودُّ،

عندها، يُمحي الشعاع وتغمض العين،

هكذا تولد العزلة.

٨

يجعلني سلطانُ النسيان أرى

كتابةً في السماء،

وميلاً دمعاتك البطيء،

يكنّني سلطان النسيان من الإصغاء إليك.

٩

الوجوه التي تخلّيت عنها شيئاً فشيئاً

ظلت تحت وجهك،

وأحياناً تفيض عنك كما لو أن جلدك ما عاد يتسع لها جميعاً؛

الأيدي التي تخلّيت عنها شيئاً فشيئاً

تتصافح أحياناً في يدك،

تمتصّ الأشياء أو تطلقها مثل اسفنجات تكبر؛

والحيوات التي تخلّيت عنها شيئاً فشيئاً

تحيا من بعدك في طيفك،

و ذات يوم سوف تقتحمك، بغتةً، كحياة واحدة؛

لكي تموت، ربّما، بعد أن صارت وحيدة.

١٠

حين ينطفئ المصباح الأخير،  
ينطفئ ما هو أكبر من الضوء؛  
ليس هذا فحسب  
بل إن العتم ليشتعل.  
مع ذلك،  
لا بد من مصابيح لإيقاد العتم؛  
أوليس هنالك نظرات من أجل الأخرى،  
وحيات من أجل أن تموت، ليس ألا  
و حب لم يخلق إلا للنسيان؟  
ثمّة، على الأقل، ظلمات مُصطفاة تستحق مصابيح عتم خاصة.

١١

كل شيء يشير إلى شيء آخر،  
فإلام تشير حكاية الشجرة العاموديّة؟  
إلام تشير واحة جسدك؟  
إلام يشير الضوء وإلام يشير الليل؟  
إلام يشير تصلب الموتى الممنهج؟  
ربما كان كل شيء يشير إلى مركز ما؛  
لكن كل مركز يشير إلى خارجه.

١٢

تبدأ الحياة حيث نريدها أن تبدأ؛  
حيث يكون أحدهم قادراً على أن يبدع شكلاً،  
أو حيث يكون أحدهم قادراً على أن يترك لشكل أن يبدعه؛  
ولكن قبل تدريب اليدين على خلق شكل أو استقباله،  
علينا أن نعلّمهما خلق الحيّز له

تنتهي الحياة أيضاً حيث نريدها أن تنتهي؛  
حيث يكون أحدهم قادراً على أن يمحو شكلاً،  
أو على إلغاء حيّزه؛  
أو حيث يكون أحدهم قادراً على ترك نفسه تمّحي  
لتعدّر الشّكل.

١٣

قليلة هي الميئات الكاملة  
فالمقابر مليئة بالغش،  
والشوارع مليئة بالأشباح  
قليلة هي الميئات الكاملة  
لكنّ الطائر يعرف على أيّ غصن أخير يحطّ،  
والشجرة تعرف أين ينتهي الطائر  
قليلة هي الميئات الكاملة  
والموت أقلّ يقينا في كلّ مرّة،  
فهو تجربة حياة،

وقد نحتاج حياتين، أحياناً لنكمل، ميتة واحدة،  
قليلة هي الميئات الكاملة  
والأجراس توصل الدقات ذاتها  
لكنّ الواقع لم يعد يقدم ضمانات  
ولا يكفي، لكي يموت المرء، أن يحيا.

١٤

شارد الذهن، أقتطعُ غصناً  
وإذ أمسك به في يدي،  
أشعر أنّه اختارني لأقطعه،  
جوهرٌ شفاف هي الإرادة،

تُنْقَلُها الرِّيحُ كذَرَّةٍ من غبارٍ  
فتحطُّ هنا أو هناك  
كظلٍّ ضائعٍ بين الأوراقِ،  
لكن حين تُفَلتُ يدي الغصنِ،  
أحسُّ ، للحظةٍ، برعشةٍ غريبةٍ  
كتلك التي يحسُّها، شمسا في يده، قائدُ الظلالِ.

١٥

تدعوني العزلة بكلِّ الأسماءِ  
سوى اسمي  
وتدعوني، أحيانا، باسمِك،  
في أحيانٍ أخرى، تناديني العزلة باسمها هي،  
ولعلِّي أستطيع ، ذات يوم ، دعوتها باسمي،  
عندها فقط، سيكون عليها أن تجيبني.

١٦

أنتِ تمامٌ هجراني؛  
حصانتي، ومنطقتي الحرّة،  
ولهذا ربّما، يتحدّ فيك أقصى تذكري وأقصى نسياني،  
لست أدري هل أنتِ رفقتي  
أم أنتِ، قبل الآوان، عزلتي.

١٧

من مقلع حجارةٍ لا وجود له،  
استخرجت حجارةً موجودةً،  
شيّدت بها سوراً صغيراً؛  
لأنصب فوقه كلاماً فقط،  
كلاماً أعرفه،

لكنّي لا أستطيع قوله

والآن ، بات شغلي أن أحفر له بِدِقَّة

الثقب الملائم

في تلك الحجارة المستخرجة من مقلع لا وجود له؛

كي يكون بمقدور الريح العابرة أن تقوله.

١٨

يصوغ القلبُ قِمماً ،

فهو خزّاف أعالي ،

غير أن تلك الأعالي

تمنعه أحيانا من النزول،

عندها ينقبض ، وقد بات أسيرَ صنيعه،

حتّى حدود العودة المستحيلة،

ثمّ يمطر قطرةً قطرةً فوق الزمن الضائع؛

ثمّة حيوات تشبه المطر؛

فهو أيضاً شهادةُ القلوب الأسيرة في الأعالي.

١٩

لا أن ننظر، بل أن نحفر ببساطة الأشياء أو مملأها بالنظرات،

لا أن نفكر، بل أن نصنع ببساطة ما نفكره ، بمجرد التفكير فيه،

لا أن نحبّ، بل أن نهبط ببساطة عبر الحب إلى أعماق ما نحب،

لا أن نحيا، بل أن نحمل ببساطة جوهر الحياة إلى الضفة المقابلة،

لا أن نموت، بل أن نمهد، بثقل الموت، الدرب الذي لا ينتهي.

٢٠

مسوذة نصّ لن يُبيّض أبداً نحنُ

بكلماته المشطوبة،

المكرّرة،

رديئة الكتابة، وبأخطاء إملائية حتى؛  
بكلماتٍ تنتظر ككلّ الكلمات، لكنها مهجورة هنا،  
مهجورة مرّتين  
بين هوامش مستقيمة وفارغة؛  
مع ذلك، قد يكفي أن تُقرأ هذي المسودة الخرقاء  
مرّة واحدة بصوت عالٍ  
كي نكفّ بعدها عن انتظار النص النهائيّ.

٢١

تستند نبتة إلى أخرى  
وتعيرها زهرة لتستّر عريها،  
فلا شيء يستر أكثر من زهرة،  
غير أنه لاشيء يعري مثلها حين تذبل،  
فآخر المطاف، وحده العري قادر على أن يكبر .

٢٢

جمعٌ مهجورٌ  
في كنيسةٍ بلا أجراس،  
بالقرب من ساحةٍ مهجورة،  
في فضاءٍ بلا ظلال،  
بهذا المكان، كلنا يعبر  
أو ينتهي ، أو يبدأ.

٢٣

لست أفهم المسافة،  
كيف أفهم الفضاء الذي يفصلني عن الشجرة  
ما دام لحاؤها يرسم ما ينقص فكري من خطوط؟  
كيف أفهم الفاصل بين الغيمة وعيني،

ما دام شكل الريح يفك أسر الوقت المحتجز في حكايتي الصغيرة؟  
كيف أفهم الصرخة المتحجرة التي تجمد كلام العالم كله،  
التي وإن لم تكن سوى صمت وحيد،  
فهي في الجوهر  
كلمةٌ وحيدة أيضاً؟  
لا أفهم المسافة،  
و الدليل الأخير، ذاك الفضاء العبثي الفاصل بين حياتين :  
وجودي ووجودك.

٢٤

أحياناً، ألعب لعبة أن أبلّغ نفسي؛  
فأجري، بين الذي كنت والذي سأكون، سباق  
الذي أنا كائنه.  
وأحياناً، ألعب لعبة أن أتجاوز نفسي  
عندها ، قد أقوم بسباق ذلك الذي لن أكونه.  
غير أن هنالك سباقاً آخر، ألعب فيه لعبة أن أجعل الآخرين يتجاوزونني،  
ذلك هو السباق الحقيقي.

٢٥

أحياناً يهبط الليل ككتلة صخرية،  
فلا يترك لنا فسحة من فضاء،  
لا تعود يدي قادرة على لمسك  
لأدفع عنّا الموت،  
ولا يعود بوسعي أن ألمس نفسي  
لأدفع عنّا الغياب؛  
ينفجر شريانٌ فوق تلك الصخرة،



فيفصلني عن فكرتي أيضاً،  
هكذا، يصبح الليل أول القبور.

٢٦

فيما تفعل هذا الأمر أو ذاك،  
هنالك من يموت.

فيما تلمّع حذاءك،

فيما تستسلم للكراهية،

فيما تكتب رسالة مستفيضة

لحبك الوحيد أو غير الوحيد؛

وحتى لو استطعت أن لا تفعل شيئاً،

سيكون هنالك من يموت

وهو يجاهد عبثاً كي يجمع كل الزوايا؛

كي لا يثبت نظره في الجدار؛

حتى لو كنت تموت الآن،

فسيكون هنالك شخص آخر يموت،

رغم رغبتك المشروعة بأن تموت حصرياً

في لحظة خاطفة؛

لذا، إذا ما سُئلت عن حال العالم، فلتجيب بكل بساطة:

هنالك من يموت الآن.



## أبواب العودة

نسب أديب حسين

(١)

جدار..

كانت تقول أحياناً:

\*"سنمضي الى الجدار.. ومن هناك اليهم.."

\*"سنلتقيهم في غرفة عند الجدار.. لقد أجازوا لنا ذلك.."

\*"حصلنا على تصريح.. سنزورهم بعد شهر"

\*"لن نراهم هذه المرّة في غرفة بل من بعيد من خلف أسلاك الحواجز.. سنتحدث عن بُعد.."

\*"لم يعد يُسمح لهم الاقتراب من الجدار.. قد مُنعت هذه اللقاءات.."

وشيئا فشيئاً توقفت عن ترديد تلك الأقوال، أكاد أنسى شكل الجدار.. وشكل اللقاء..

لم تبق سوى صور في الذاكرة وأمل بلقاء قريب نتشبت به، وبقي عمر الانتظار يطول، وها قد بلغ أربعة عشر عاماً..

(٢)

وجع الشوق..

(وجع الشوق يتجلى في لحظة العناق الأول والأخير..)

العناق الأول

عندما يقصرُ عمرُ الفراق الذي يطول أحياناً حتى يتجاوزَ العام، دون لُقيا شخص عزيز قريب الى قلبك..

ويُختصر فجأة إلى يوم، فساعات، تصير الدقائق.. حائلا عظيماً تفقدك قدرتك على الصبر.. تحاول عينك تجاوزها بسرعة.. مقتلعة كل البيوت والأزقة القليلة التي بقيت في دربك، رغم شوقك إليها كجزء من بلدٍ أحببته.. لكنّ نبض قلبك المتسارع يصم أذنيك وحواسك الأخرى عن متابعة تفاصيل المكان.. فيدفعك بصمتٍ لأن تحثّ سائقَ سيارة الأجرة على أن يسرع أكثر.. محاولاً رؤية ما بعد أبعاد الزمن والمسافات.. فجأة تجد نفسك في الزقاق الذي انتظرت الوصول إليه منذ بداية رحلتك.. يطلّ الكرم في الجهة اليسرى، والبيوت في اليمين، وقبالتك تظهر شتلة الصبار أمام الأدرج الطويلة التي تُفضي إلى المنزل قرب الكرم. أخيراً تتوقف السيارة، فتسارع بفتح الباب، لتصعد الأدرج قفزاً ناسياً الحقائق خلفك.. وحين يظهر أحد أحبائك قبالتك تصبح الثواني أو أعشارها عمراً عبثياً أسقط سهواً بينكما، تبحث عن أجنحةٍ وتحثّ الخطى بكل ما أوتيت من قوة، لتسقط صورةً من ذاكرة الفراق عند كل درجة.. في العناق الأول تحلق فوق الزمن بسقوط جميع الجدران، وابتعادك عن واقع الغياب.. تلك اللحظة ثمرة انتظار عامٍ كامل بانتظار صدرٍ حنون فرقتك الأقدار عنه.. وفجأة تعود جميع الصور التي أسقطتها عند الأدرج أثناء صعودك، لتتكور دموعاً في عينيك.. وتهمس: "آه يا خال..".

(٣)

### الصغيرات الأربع

صخبنا كان يملأ حقلَ جدي الكبير حول البيت، ونحنُ ننتقل من رقعة إلى أخرى، فنراقب الدجاجات والصيغان حيناً، والققط حيناً، ونتجه أحياناً كثيرة إلى قطف ما نضج من الثمار، أو نحاول تطبيق ما نراه في أفلام الكرتون على أرضنا. فنقرر مرةً حفر نفق، يوصلنا من الكرم إلى البيت، وحين ينهكنا التعب نؤجل العمل لليوم التالي، في المساء تمرض أصغرنا بسبب تعرضها لضربة شمس، ويكتشف الكبار فعلتنا، والحفرة الكبيرة التي أحدثناها في الحقل، لننال عقابنا بالحرمان من اللعب في اليوم التالي. وفي مرةٍ أخرى نقرر بناء بيت خشبي على أكبر شجرة زيتون في الحقل، وحين تتسلق ابنة خالي الشجرة لتفحص المساحة وتأخذ ما جمعنا من أخشاب لتثبتها على الأغصان، تعجز عن النزول وكل محاولتنا لمساعدتها بقوانا الذاتية تبوء بالفشل.. فنضطر لطلب المساعدة من خالي، الذي جاء باسمًا وحين يسأل عن سبب الصعود نبدأ باللّف والدوران، دون أن نعلمه أنّ توم سوير وجميع الأطفال في أفلام الكرتون ليسوا أفضل منا ليكون لهم عززال.. وبقى نحن دون عززال.

من الجميل أن تفرض أربع طفلات سيطرتهن على مساحات واسعة من الأرض، نتقاسمها خلال اليوم، لكل اثنتين قسم نتظاهر أننا نرعاه خلال ساعات اللعب، ونستمتع بقطف بعض ثماره. وحين نملّ من الحقل نتجه لنسيطر على صف أعدّه خالي أمين أسفل المنزل قرب مصف لسيارته،

لمنح طلابه في المدرسة دروسًا خصوصية في ساعات ما بعد الظهر، وكنا نستمتع ونحن نسترق النظر الى الطلاب من نافذة مطلة على كرمنا، وإن حدث وانتبه لنا، سرعان ما يعلو صراخه، ونبدأ بالركض بهلع لنختفي عن أنظاره قرب أول شجرة تظهر أمامنا..

وفي غياب طلابه نتجه أحيانًا لنتخذ أنا وابنة خالي الكبرى دور المعلمات، وأختينا الأصغر سنًا دور الطلاب.. هذا ونطلق العنان لتطوير موهبتنا في الغناء حين يأخذنا خالي الى متنزه الأراجيح، أو الى متنزه نهر الحاصباني الذي يحاذي بهورره مدخل القرية التي سُمي على اسمها حاصبيا..

عند العصر نعتلي أحيانًا سطح المنزل لرقب غياب الشمس خلف غابات الصنوبر.. نتحدث عن أحلام المستقبل.. وكثيرًا ما كانت ابنة خالي التي في مثل عمري ترسم دربين: "هذا اذا بقينا هون، أما إن رجعنا الى فلسطين..". وأنظر بعيدًا نحو الشمس التي تختفي خلف الأشجار، وأنساء هل سيعودون حقًا؟

(٤)

### حلول الليل

في الليلة الأولى والأخيرة من اللقاءات القصيرة في عمر عام من الفراق أجاز لنا الكبار نحن الصغار.. أن ننام في غرفة واحدة..

مهمة تفریقنا في الليل أنا وشقيقتي عن ابنتي خالنا صعبة، يتعاون عليها أمي وخالتي وزوجة خالي.. ينجحون أحيانًا وفي أحيانٍ أخرى يفشلون، عندما نُصرُّ على النوم في غرفة واحدة.. ثم تصعب مهمة السيطرة علينا للتوقف عن الكلام والخلود للنوم.

فتحكي لنا خالتي حكاية عن الغولة أو عن الضبع، حتى ننام خشية من تلك الشخصيات الرهيبة التي قد تظهر عقابًا لنا، خاصة عندما يعلو صوتُ ابن آوى من الجبل فنسارع بتغطية أوجهننا، محاولين النوم بأسرع وقت. وإن تخلت خالتي عن الحكاية، نبدأ بتقديم الوعود لأمهاتنا بالتزام الصمت والنوم السريع دون قفشات ومشاغبات، وحسب انضباطنا يُتخذ القرار هل سننام في غرفة واحدة أم ستمضي ابنتا خالي للنوم في بيتهما المحاذي لبيت جدي..

فإن كان الفراق نصيبنا كُنَّا نعزي أنفسنا أننا سنلتقي في الصباح..

(٥)

### جدي

كان جدي أكثر شخص في البيت يثير الرهبة في نفوسنا ويدفعنا للانضباط، يجلس على كنبته المخصصة

له تحيطه أشياؤه، قبالة بوابةٍ زجاجيةٍ كبيرة تشكل مدخلَ المنزل وواجهة قاعة واسعة، وفوقها صورة لكمال جنبلاط.. لم أدرك في ذلك الوقت من هو المعلم؟ رأيتُ الصورة كجزء من المكان في بيت جدي في لبنان، مثلما تخيلتُ صورة للمفتي أمين الحسيني في بيت جدي في فلسطين، كما حدثتني مرارًا عمتي، تلك الصورة التي أخفوها عندما احتُلت القرية عام ١٩٤٨..

جدي كان ينظر طيلة الوقت في اتجاه واحد طيلة ساعات النهار يستمع الى الراديو، أو يتأمل ويفتل شاربيه الأبيضين الطويلين، لا يغير جلسته الا وقت الطعام أو الصلاة..

لم نسأله يومًا إن كان يملُّ من جلسته تلك.. ولم نجرؤ أن نسأل عن قدومه من فلسطين الى لبنان، عن عمله وزواجه وانجابه أهلنا.. لم نسأله يومًا عن الحرب وعن الفشل بالعودة.. لم نسأل عن الحلم والأمل.. أكتفينا بما أخبرنا أهلنا عن قدر فراقنا، وبقربه نسير على رؤوس أصابعنا ملقيات السلام بهدوء عند المرور به، ونحاول قدر الإمكان فتح البوابة بحذر، وبعد اغلاقها نطلق ساقينا للريح، لكي نستمتع بضجيجنا بعيدًا عنه، فعقابه أصعب بكثير من عقاب أهلنا أو خالتي.. إذ ملك جدي عكازًا غليظة تعينه على السير بسبب عجزٍ في ساقه اليمنى، ولا يتورع عن استخدامها لأغراضٍ أخرى إن أغضبناه.

وحين نراه يضع عمامته البيضاء ويرتدي ملابس الخروج عصر يوم الخميس، لتأدية الصلاة في خلوات البياضة، تسري في دواخلنا فرحة كبرى.. لأنَّ ذلك يعني تمكننا من السيطرة على الساحة التي أمام مدخل المنزل، والتي تقع تحت بصره في العادة.

رغم سعة المساحة إلا أنَّ وضع الحواجز والمنع من السيطرة على موقع ما من بيت جدي، كان يحزننا، ونحاول في خمسة عشرة يومًا تحقيق كل ما حُرمننا منه خلال بقية أيام عام كامل.

(٦)

## الصيوان والقطط

غرفة الخبز.. هذا ما كانت تطلقه خالتي هنا على غرفة خارجية للمنزل، غرفة معتمه ممتلئة بالحطب ويقع في زاويتها موقد للخبز، وكانت تلك الغرفة ملجأ للصيوان حديشي التفرخ فتحفظهم في قفص منزو وتغلق باب الغرفة لتحميهم من عيون القطط. وكثيرًا ما كنا نتسلل بعد أن نترك مندوبة منّا عند الباب تراقب قدوم أحد الكبار لترقب الصيوان ونداعبهم.. وذات صيف لم يكن قفص الصيوان قد احتل الموقع بعد.. دخلنا لنجد أن قطة قد وضعت صغارها في المكان ذاته.. استغربت حضورها الى هذا الموقع بالذات رغم المساحة الشاسعة للحقل.. وتساءلت لو أدركت وعقلت أن صغارها وصغار الدجاجة كبروا في ذات المخدع هل ستستمر في ملاحقتهم والتربص بهم؟..

تحملنا في تلك الفترة نحن الصغار مسؤوليتنا تجاه الصيوان، وأدركنا أنهم لا يملكون مخالبا كالقطط ولن ينجحوا في الوقوف أمامهم، لذا اهتمنا بإغلاق الباب حالا بعد كل دخول وخروج.. وطردها كل قطة مرّت قرب الباب. وتفاجأنا عندما كبرنا أن كثيراً من الكبار الكبار لم يدركوا تلك الحقيقة مثلنا نحن الصغار، في الماضي.

(٧)

### لقاء مختلف

في مرورهن عند المساء قرب حديقة البيت أرهفن السمع لصوت الأطفال.. خليط من اللغات واللهجات يُسمع من خلف سور الحديقة.. تساءلت احداهن: "هل تسمعن هذه اللغات يتحدثون بالعربية والانجليزية والاسبانية..؟"

ترد أخرى: "لقد اجتمع أحفاد أم محمد.. قد جاءت ابنتاها من فلسطين وابنها من فنزويلا.."

لترد ثالثة: "سمعت أن البنيتين لم تلتقيا بأخيها منذ سبعة عشر عاماً.."

فتتهد الأولى: "الله يعين الفلسطينيين.."

في زيارة مختلفة اجتمعنا نحن الفتيات الأربع بينت وابن خالي محمد القادمين من فنزويلا.. كان اللقاء الأول فيما بيننا.. حضورهما أحدث ارتباكاً في برامج لعبنا.. فمعظمنا لا نفقه اللغة الانجليزية باستثناء ابنتي أخوالي اللتين كانتا تتفاهمان وتتولى كل منهما مهمة الترجمة.. واحدة للإسبانية وأخرى للعربية.. في تلك الزيارة كانت كرة القدم لعبتنا المفضلة لتجاوز حواجز اللغات.. ولزني الفتى الوحيد الذي كان معنا حين صرنا في ذلك الصيف خمس فتيات.

(٨)

### العم منصور

في كل مرة نزوره أتجول بين لوحاته أبحث عن الجديدة منها، وأعاود التمعن في القديمة كما لو أنني أراها للمرة الأولى.. وخاصة لوحة تقوم على جدار يحيط بساحة المنزل، لنمر يقف مواجهاً لأفعى.. أتمعن فيها كل مرة وأتساءل من سينتصر على الآخر؟ وأعود في زيارتي السنوية لأدقق النظر هل غير أحدهما موضعه وتقدم خطوة نحو الآخر..؟ فأجدهما على حالهما.. لست أدري ما سبب انجذابي الى تلك اللوحة، هل كنت أحبها أم أحشاها؟

وأتركها لأتمعن في البيت، فاللوحات والزهور المنتشرة في الأحواض، تتحلق بساحة بيتها هو وخالتي وتزين مداخل العُرف المؤدية للساحة.. يبعث لون الزهور واللوحات بتجانس الألوان مع

خلفية جدران المنزل الفستقية الراحة والسعادة في نفسي.. تلك السعادة التي يخالطها شيء من المرارة على حصار اللوحات في إطار القرية..

أشعر بشيء من فرحة النصر لاحتفاظي بوحدة منها لي في الرامة، بعد أن تجرأت في طفولتي المبكرة، وطالبت بهدية أحملها الى فلسطين، ليقول: "حاضر يا ست نسب.. شو بتحبي أرسم باللوحة؟" سؤاله أفرحني ودفعتني لأن أطلق العنان لخيالي، بالتحليق نحو بيت في بلاد جبلية قرب مرعى وجدول. عندما غادرنا أنبنتي أمي، فيما رأيتُ ابتسامة على وجه أبي، فلم أشعر بالذنب.

ظهر عمي منصور بكوفيته وقميصه الأبيض وسرواله الأسود قبل سفرنا بيوم، عند مدخل منزل خالي، انجلت خلف شاريه الكثين ابتسامته التي قلما تفارق وجهه، حاملا تحت إبطه شيئاً ما، شعرتُ أنه اللوحة.. تشبثت عيناى به عند دخوله.. وحين جلس ليزيل واقي كرتوني، ليكشف عن اللوحة، تركتُ حزن أبي وركضتُ إليه لأقبله.. سعيدة أن تلك الصورة الخيالية صارت حقيقة.. بقي العم منصور كما هو في ذاكرتي.. يخلط الألوان ويرسم الطبيعة في مرسومه المعتم.. على أمل أن يعثر النور يوماً على نافذة..

(٩)

## الدمية

حضور خالي كمال من بيروت هو بمثابة عيد بالنسبة لنا.. نكاد نظير ونحن نقفز على الأدراج الكثيرة، حين نسمع صوت زامور سيارته.. فقد كان خالي العزيز يتفرغ لساعات كثيرة للعب معنا.. ويعاملنا كما لو كنا شابات فيصحبنا الى مقهى لتناول البوظة، ويناقشنا أحياناً بمواضيع قلما يناقشنا غيره فيها.. هذا عدا عن إحضاره في كل مرة لعبة مميزة.. هذا ما درج عليه خالي.. لكنني لم أنس يوماً، واحدة من أولى هداياه حين كنتُ في الخامسة من عمري..

هي دمية ترتدي فستاناً زهري اللون، أقصر مني بقليل تسير وترقص وتغني.. يصعب وصف فرحي بتلك الدمية، وكان ردُّ فعل أمي عند رؤيتها الدمية، عتابٌ انجلي في سؤالها: "كيف سنأخذ الدمية معنا؟" في تلك الزيارة لدار جدي قضيتُ بقية الأيام متعلقة بالدمية، مقررة أنها ستعود معي ولن أتركها في لبنان مثلما فعلت بدمى أخرى بسبب خشيتنا من التفتيش..

في اليوم السابق للسفر.. أخبرتُ أمي بقراري الذي لم يعجبها، وراحت تحذرنى بأنَّ الدمية قد لا تبقى على قيد الحياة.. سيشقون بطنها، أو يخلعون يدها أو قدمها لفحص ما ينطوي في داخلها.. كنتُ أعلم أنَّ الأمر ليس سهلاً.. فلا تترك صغيرة أو كبيرة حتى تُفتش.. حتى ساندويشة الخبز



خاصتي يتم تفتيشها.. لكنني مع ذلك قررت أنّ الدمية ستذهب معي الى الرامة..  
في اليوم التالي عند توجهنا الى الجدار.. سارت تلك الفتاة التي كنتها بفستانها الأبيض المطرز، وقبعة قش واسعة  
الأطراف، تتأبط دميها بيد وتمسك باليد الأخرى كفّ أمها.. وتفكر كيف ستنقذ الدمية من أيدي الجنود..؟  
في غرفة التفتيش وبعد أن فحصت الموظفة كل قطعة من أغراضنا، اتجه نظرها الى الدمية.. فوضحت  
لها أمي أنّ الطفلة، متعلقة جداً بالدمية وتأمل أن يسمحوا لي بتمريرها الى بلدنا.. أخذت الموظفة  
الدمية مني بعد أن أظهرت لي مودة بالغة، راحت تُقلبها ثم وضعتها على الأرض حسب طلب أمي،  
لأضغط على الزر وأريها كيف ترقص وتغني، لعلي أحمي الدمية من المصادرة أو حكم آخر أقسى.. بعد  
لحظة طلبت ايقاف الموسيقى وإذ بها تنادي جندياً. جاء الجندي لأرى الدمية تنتقل من ذراعي الموظفة  
الى ذراعيه ويستدير ويسير بها.. وهنا جنّ جنوني رحّت أركض خلف الجندي، لا تهمني البندقية  
المنسدلة على خصره ولا عيون الجنود الواقفين، ولا تستوقفني صرخات أمي الهلعة: "نسب.. ارجعي..".  
توقف الجندي قرب آلة وأنا واقفة قبالة أبي وأصرخ وأطالبه بدميتي.. وأرفض الابتعاد بعد أن  
لحقت بنا أمي والموظفة، راحت الموظفة تترجم لأمي ما يقوله الجندي أنه سيفحص الدمية على  
آلة دون أذيتها.. لكنّ هذا لم يساهم بتهدئتي.. اذ بقيت واقفة قبالة أبي وصراخي يملأ المكان  
وأعلن خشيتي من أن يكسروا أو يشقوا بطن الدمية.. وهنا تبادل الجندي عدة نظرات مع الجنود  
الواقفين قبالة.. قلب الدمية سريعاً واقترّب مبتسماً ليقدمها إلي.. ولم أهدأ الا حين ضمنت الدمية  
الى صدري بكلتا ذراعي.. وأنا أشهق بقية دموعي.

أسيرُ صامتة قرب أمي من بوابة الى أخرى.. أبصر الأسلاك والحواجز في كل مكان.. أحاول أن أهدأ  
وأترك مساحة في داخلي للنصر الذي حققته.. لأركض نحو حضن أبي الذي انتظرنا خلف الحدود،  
أعلن بفرح انتصاري بإنقاذ دمي التي جاءت برفقتي من بيروت..

ذلك الانتصار الذي كان نقطة للحديث لكل من جاء يهنئنا بعودتنا سالمين متسائلين عن الأقارب في لبنان..

(١٠)

### الأماني الصعبة

في اليوم التالي لعودتنا من لبنان، أجلس على سطح بيتنا أنظر الى المدى الرحب وتراقص العصفير  
من حولي، أحاول أن أستعيد ذاكرة أمس.. أن أؤكد لنفسي أنني كنت حقاً هناك.. أنظر الى جبل حيدر  
وأتمنى لو جاؤوا معي الى هنا.. لو استمرت جلستنا أنا وأختي وابنتي خالي على سطح دار جدي من  
هناك الى هنا، لأريهن كيف تبدو فلسطين التي يسألنني عنها..

وأخذ أحياناً بعض الصور للقرية ولمنزلنا وآخذها معي في زيارتي اللاحقة.. وأبقى على أمل بأن يأتين معي في العام التالي مثلما جاءت الدمية..

(١١)

### السلام.. أكبر كذبة عشتها..

"شالوم.. شالوم.. يعني سلام ما في أحلى من هالكلام.. " تبدأ المعلمة بالنشيد ونطلق أنا وأولاد صفي بالغناء، كنتُ أكثر أطفال الصف حماسة عند ترديد هذه الأغنية في المدرسة.. أغني وصورٌ مختلفة تمرّ في بالي من انتهاء عمر الفراق، عن أخوالي وخالاتي وأطفالهم في لبنان.. تطلب المعلمة رسم الأعلام ورسم حمامة بيضاء تحمل غصن زيتون.. فأشرع بالرسم وطيلة سنوات أكبر ويكبر الحلم.. الذي ظننتُ أنّ الحمامم البيضاء وأغصان الزيتون ستنقذه.. اطمأنتُ دوّمًا على غصن الزيتون، فتوفيره ليس صعبًا في قريتنا التي تشتهر بالزيتون.. لكنني كنتُ أطيل البحث في سماء القرية وأحيائها عن حمامة بيضاء، فجميعها بلون رمادي..

أرى الرؤساء يتصافحون.. ويتخذون صورًا تذكارية.. وتشقي أسئلتي الكثيرة أمني وعمتي، من هذا ومن ذاك..؟ وعلى ماذا اتفقوا؟

يقولون أن السلام سيكون بين فلسطين واسرائيل.. فأتساءل وماذا عن لبنان؟ يحاولون اخباري أنه إن تمّ الاتفاق الأول، فالمسألة ستصبح أسهل مع لبنان.. وعندما أزيد بالسؤال يصعب علي أن أفهم أكثر.. وكلما زارنا أحدٌ لا بدّ وأن يُذكر حلم السلام في كل حديث.. ويكبر الأمل والحلم بلم شمل العائلة.. أتخيل حضور أخوالي والجولة التي سأقوم بها معهم في القرية.. والتعارف الذي سيتم بين شلة أصدقائي اللبنانيين والفلسطينيين..

أتابع التلفاز وأتساءل بفارغ الصبر متى سيتفقون؟؟

انتظرتُ الحمامة البيضاء طويلا.. لم أدرك أنذاك أنني أعيش على حلمٍ كاذب.. تمرّ السنوات وأرى الحمامة البيضاء التي كان الأفق الرحب مداها.. يتحول لونها شيئاً فشيئاً الى الأسود.. لم أعلم أنني لن أرى تلك الحمامة في يوم من الأيام.. بأنني بنيتُ طفولتي على وهم.. حين استيقظت ذات يوم ووجدتها مزرجة بالدماء.. وفقدتُ الأمل بأن تعود للحياة..

(١٢)

### حفلة الوداع

عندما سمعت نساء الجيران الذين زارونا في ذلك المساء أناشيدنا في ساحة الدار تساءلن.. عمّا تفعله

الصغيرات الآن..؟ لتجيب أمي وخالاتي.. "إنها حفلة الوداع.."

اليوم الذي يسبق مغادرة بيت جدي في الجنوب اللبناني في زيارتنا السنوية، لا بد أن يشمل طقسًا خاصًا، خاصة بعد أن اشتد عودنا..

أغيب عن الأبصار لنصف ساعة أو ما يزيد بقليل، لأطوف في أنحاء كرم جدي أودع كل ركن فيه، فأودع الأشجار.. وخاصة شجرة الزيتون الكبرى وشجرة الجوز، وأقرأ الفاتحة على قبر جدي.. ولا أنسى أن أطوف على غرف المنزل أو أن أمرّ بالدجاجات والقطط.

في الزيارة الأخيرة وأنا في الثالثة عشرة من عمري، في نيسان عام ٢٠٠٠، أدركتُ مثلما أدرك الجميع أن شيئًا ما سيحدث، سعدتُ الى سطح المنزل لأنظر الى جميع الجهات في أفق القرية والكرم.. أحاول أن ألتقط صورة تذكارية أحفظها جيدًا في الذاكرة.. أفكر بالساعات التي تمرّ سريعًا، بحفلة الوداع التي قد تكون الأخيرة، وعبارة تنقر رأسي منذ يومين كلما زرتُ مكانًا أو ألتقيتُ أحد الأصدقاء أو الأقارب في لبنان "إنها المرّة الأخيرة".. أستعيد ذكرياتي الكثيرة، أكبتُ دموعي.. وأحاول أن أردد بصوت عادي حين يأتي نداء أمي من "أرض الديار" متسائلة أين أنا؟

في تلك الليلة البعيدة سمح الجيران لابنتهم صديقتنا بزيارتنا مساءً، ومشاركتنا حفلة الوداع.. التي كانت أطول من غيرها فيما مرّ من سنوات.. فتارة نستعيد ذكرياتنا لذاك العام، وتارة نغني وأخرى نرقص، وأخرى نأكل الحلويات..

في تلك الليلة لم يناقشنا أهلنا حين قررنا أننا سننام في غرفة واحدة.. الأمنيات تقلصت في الأجساد الصغيرة.. ليلة مثل هذه بدت أنها الأخيرة.

اليوم حين أستعيد بذاكرتي تلك الأمسيات أدرك أكثر.. أيّ قسوة حملها لنا قدرُ الفراق..

(١٣)

## وجع الشوق

### اللقاء الأخير..

(يبسط الشوق وجعه وأنت تقف أمام أحبّيك لتُعانقهم، مُدركًا أنّ اللقاء سيتأخر كثيرًا هذه المرّة.. سيتجاوز الفراق عمره المعتاد المقدر بالعام.. لا أحد يعلم كم من الزمن سيمر..؟ أيّا منكم لا يجرؤ أن يضع احتمالاً رقميًا.. في تلك اللحظات القصيرة المتبقية من عمر اللقاء.. يصير الصمت والأمنيات المستحيلة، في محاولة أخيرة للتغلب على الفراق المتربص، سيدا الموقف.. فيما تحاول أنت في عناقٍ أخير أن تطفئ لهيب شوقٍ سيجلد قلبك سنيًا طويلة.. لم تحسب أنّها ستتجاوز ضعف عمرك

وستستمرّ لتكبر أكثر فأكثر.. فيما تبقى طفلاً صغيراً بين كفي ذاكرة اللقاء..)

نستقل سيارة الأجرة أنا وأمي وشقيقتي، وسرعان ما أستدير لأنظر الى الخلف لألوح لهم مرة أخرى.. تبدأ السيارة بالتحرك.. أمرّ بسرعة على الوجوه.. تهمس أمي: "الله وحده يعلم متى سزاهم مرّة أخرى" وعيناي مثبتة عليهم..

السيارة بتعد رويداً رويداً.. وأركز نظري جيداً لثُحفظ الصورة عميقاً جداً في الذاكرة.. وترتسم ملامحهم مرّة أخرى بعد انعطاف السيارة الى زقاق آخر وخروجها من الحي.. ويستمر التقاطي لصور الذاكرة في مرورنا بالسوق الذي أحببته كثيراً.. ثم قلعة القرية.. ثم الأراجيح التي حملتنا لسنوات طويلة.. فجسر الحاصباني.. أحاول حفظ الصور.. أدركتُ عميقاً أنني إن لم أفعل في تلك اللحظات القصيرة ذلك فستختلط الملامح والألوان ولن يعينني على استعادة الذاكرة أحد..

عند الجدار يودعنا سائق التاكسي الذي يُقلنا منذ سنوات، ما بين الحدود وبيت جدي في جنوب لبنان، منذ أن مُنح أخوالي من مقاربة الجدار..

نسير نحن الثلاثة أنا وأمي وشقيقتي نحمل حقائبنا وأحزاناً مكتومة من بوابة الى أخرى، ومن تفتيش الى آخر.. ثم نُفصل أنا وشقيقتي عن أمي في غرفٍ صفراء صغيرة.. لتفتيش ملابسنا وأجسادنا.. ولطرح عدد من الاسئلة من شرطية شابة بعربية مكسرة.. أتحمل هذه المرحلة التي تثير الكثير من حنقي على ماض، الأمر الوحيد الذي يعزيني بالفراق هو أنّ وقتاً طويلاً سيمرّ دون تعرضي لهذا التفتيش والتحقيق.. نجلس انا وأختي التي تصغري بأربعة أعوام ونصف ننتظر خروج أمانا من الغرفة الأخرى في الدهليز.. أضم شقيقتي تحت ذراعي وأقف قرب حقائبنا، وصدري منقبض من كثرة الجنود وبنادقهم من حولنا..

تخرج أمي، أتنفس الصعداء.. تضمنا ومضي لاستعادة الهوية وإنهاء بعض الاجراءات.. ننطلق نحو البوابة.. خلفها ينتظرنا عمي.. أبي ليس معه أدرك هذا جيداً في هذه المرّة.. لن أنتظره مرّة أخرى كما فعلتُ سابقاً، لن أحلم بأن يملّ فراقنا ويسأم من موته، ويعود لينتظرنا هو وعمي خلف البوابة. نقطع البوابة التي يعلو صريرها عند مرور كل واحدة منّا.. يسارع عمي نحونا.. يقبلنا، يحمل الحقائب.. نسير خلفه، أنظر الى الخلف، أدرك أنّ تلك البوابة ستصير مغلقة في وجهي.. سيقوم مكانها جدار..

بدأت السيارة بالتحرك.. صريرُ البوابات يغيب، أشعر بالجدار خلفنا يعلو ويرتفع أكثر نحو السماء.. غاب ذاك الجدار تماماً عن يومياتنا وقام جدارٌ آخر في الجنوب.. بدا في ذلك الحين بعيداً عني، ولم أعلم أنّه سيصير جاري.. وسألناه صباح مساء وسأحاول في كل مرّة تجاهله.

بعد أيام من لقائنا الأخير بعائلة أمي في لبنان، أعلنت القوات الاسرائيلية انسحابها من أراضي

جنوب لبنان.. لم أقل شيئاً.. هل أفرح بأرض عربية تخلصت من الاحتلال؟ أم أحزن على وجع فراق جديد، وإعدام حلم كبير حلمتُ به حتى تلك اللحظة؟

قررتُ الصمت.. لم أرث الحمامة البيضاء التي غرقت بدماؤها في تلك الأيام.. ولم أعد لرسمها.. أو لرسم غصن الزيتون.. كما أنني لم أعد لأرهق أياً من عمومتي بأسئلتني عن السلام.. وتوقفْتُ عن ترديد الأغنية.. يكفيني الحلم السرابي الذي عشته حتى تلك اللحظات، خدعتني تلك الكلمة لما يكفي من الوقت.. غابت.. ولم تعد للحياة مثل كثير من الأشخاص والكلمات الذين غابوا خلف الجدران..

(١٤)

### مراوغة الجدران في سفر أوراق المطر

في كل زيارة لبيت جدي كان خالي أمين يوصي أمني بجديد كتب عمومتي، ودوماً قبل انطلاقنا يُسلمنا عمي نبيه الكتب.. أدركتُ أن خالي يجدد علاقته بعمومتي من خلال كتبهم.. لكنني لم أعلم في سنوات طفولتي تلك أنني سأستحيل أنا أيضاً كتاباً ذات يوم يضمه الى صدره بدلا مني..

في مكالمات هاتفية قصيرة يطالبني أخوالي بكتبي.. وأتساءل كيف ستقطع الكتب الجدران؟

أثناء تجوالي في معرض فلسطين الدولي للكتاب في رام الله في نيسان، رأيتُ شاباً بزي عُماني يمرّ فجأة من أمامي.. عُمان ظهرت منذ سنوات قليلة على أفق يومياتي، فقد تمت خطبة ابنة خالي على شاب لبناني يعمل هناك.. ونُشرت أكثر من مرّة لقاءات صحافية معي، أو مقالة عن كتاب لي في صحيفة الوطن العُمانية.. غبطتي بذلك النشر في الصحيفة، جعلت هذا البلد الذي كان غريباً عني.. أقرب إلي.. مضيتُ الى قسم عُمان في معرض الكتاب.. في محاولة بدت للوهلة الأولى عبثية، لأسأل الشاب العُماني هناك، عن امكانية مساعدتي بتسليم كُتبي لخطيب قريبتني اللبناني في عُمان.. مختصرة سيرة فراق موجع ببضع كلمات.. رحب الشاب بذلك.. وعدتُ بعد يومين لأسلمه الكتب..

ليكون لكلماتي وكُتبي سفرٌ جديد بعيد المسافات نحو شاطئ بحر العرب، ثم رحلة أخرى لتمضي من بوابات لا أستطيع وصولها أو عبورها الى هناك.. الى أحضانٍ اشتقتها كثيراً.. الى البيت والكرم.. تمضي الكتبُ لتحياي ذكرى تلك الصغيرة التي كنتُها هناك..

في زمنٍ تغيب فيه ملامح الأمل بغدٍ أجمل، تنتصر لي الكلمات.. أنجح مرّة أخرى في مراوغة الجدران.. ذات يومٍ رافقتني دمية ولوحة وأشياء أخرى من لبنان.. لأستعيد شيئاً منه هنا..

اليوم تمضي قصي فوق الجدران والأبواب الموصدة.. لعلهم يستعيدون شيئاً من فلسطين هناك..



# محمود درويش

## شعرية الخلق الجمالي

### مقدمة لقراءة تحولات قصيدته الجديدة رؤيويًا وجماليًا

د. عبدالله عيسى

## أولاً - الإبداع في الثورة والثورة في الإبداع:

١-١

الممارسة النصية للشاعر الفلسطيني محمود درويش ، بمراحلها وتحولاتها ، تندفع بمشروعها المنجز بتصاعدية مدهشة مؤصلة على مقدرة خصوصية على إنشاء علاقة مصالحة خلاقة مع الذاتية الجمعية .  
ثمة ما يركب - بضم الياء وتشديد الكاف - هذه المصالحة ، ويبرر تفسيها في الوعي والوجدان الجمعيين اللذين تواملا مع النص الدرويشي باحتضان و احتفالية طاغيين ، ( وإن تعاطى جل ممارسي نقد شعره برؤية احتفائية وصوغ ارتجالي ) .

فالنص الدرويشي ، ومنذ اندلاع ظاهرة الشعر المقاوم في الأراضي المحتلة بعد نكسة عام ١٩٦٧، برموزها توفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش الذي بزهما فنياً ، مسيحاً بحاسة التعاطف مع ما يقول المبدع ( تفاصيل القضية الفلسطينية وتجلياتها التي نقلها عبر تجربته النصية من مسالة سياسية - جغرافية إلى سؤال جمالي -إنساني ) ، وكذلك عناق حساسية القول الإبداعي ( صوغ ملامح الروح الخاص - الجمعي ، وإنهاضه بأداء تعبيرية يكتف في ذاته إيقاعات شاعرية الذاكرة - البحث الحدائي ) .  
إن نشوء وتطور هذه المصالحة مكوكب في حدي تصاعد النص الدرويشي المنجز ، وتطور ذاتية قارئه ،

حتى يكادا يشكلان لحمة تغري الممارسة النقدية الأكاديمية .

فلم يعلن النص الدرويشي القطيعة مع شاعرية الذوق الجمعي مفضلاً التوحد بحراراتها والنضوج معها وبها في آن معاً ، ثم إطلاقها في مدارات هجرة حدائية . وهكذا ينشغل نصه بأسئلة إبداعية تقارب بينها وبين الذوق الجمعي ، لتختلف عنه إذ تلبس به ، وتتوحد معه وتقعن به لتنضج وتتمايز عنه وبه في آن ، وتعترف به ، في المحصلة ، لترفضه وتتجاوزته .

هذه الرؤية حكمت رؤيا النص الدرويشي منذ انطلاقه على منجزات القصيدة الكلاسيكية ، ثم تجليات الشعر الحر الذي أصبح أهم رموزه ، حتى خلقه لنص استثنائي جديد بماء الكتابة الجديدة .

لكن ممارسة درويش النصية ، لم ترافق بممارسة تنظيرية ، كما هي حال أدونيس مثلاً لا حصراً في المشهد الشعري العربي ، تشير إلى جهات رؤاه ، وتكشف عن أبعادها غير المكتشفة ، فيما اكتفى بتوضيح انشغالات نصه الفنية والوجودية في فضاءات على شكل حوارات أو كتابات نثرية ، جلها يوحد بين مصيره الإنساني والشعري .

## ٢-١

منذ مقالته " أتقذونا من هذا الحب القاسي " (١) في عام ١٩٦٩ ، يواجه محمود درويش الممارسة التنظيرية ، والنقدية منها خاصة ، خارج الأراضي المحتلة برؤية تدعو إلى تقييم نتاجات حركة " الشعر المقاوم " على أسس فنية ، لا إيديولوجية .

فالروح الشعري الذي تفجّر في فلسطين المحتلة مستلهماً قاموسه من مفردات الحياة وتفصيل الأرض ، شكّل حالة اختراق قصوى للروح والكلمة الشعريين العربيين ، تصدت لها الممارسة التنظيرية - النقدية العربية بوصفها ظاهرة شعرية قائمة بذاتها . ففي مقابل " القصيدة " العربية الموطوءة بروح الإنكسار بفعل هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، مجسداً بخطاب هجائي للذات والعالم ، نهضت " القصيدة المقاومة " بروح الصمود في وجه الاحتلال الإسرائيلي ، مدعمة بإرادة التشبث بالوطن .

لم تكن إشكالية تعاطي الممارسة التنظيرية - النقدية العربية بالممارسة الشعرية لحركة " الشعر المقاوم " ، كما تحسّسها محمود درويش مبكراً ، قابعة في نظرة التعاطف المؤولة بمهاد إيديولوجي غيب القبض على الملامح الفنية المبسّرة فيها ، بل مكوكبة في التعرض إليها كفعل شعري ناجزٍ مكتمل بذاته ، مما شجّع مخاوف عزله عن حركة الشعر العربي .

يتصدى محمود درويش لهذه التصورات سعياً لتبديدها بالقول :

" وشعرنا ليس نداءً للشعر العربي المعاصر ..إنه جزء غير متجزئ منه ، ورافد من روافد النهر الكبير . لقد تربّينا على أسلوب الشعراء العرب القدامى والمعاصرين ، وحاولنا اللحاق بأسلوب الشعر الحديث بعد



أن تعرفنا على رواد هذا الشعر في العراق ومصر ولبنان وسوريا . ونحن لا يمكن إلا أن نعتبر أنفسنا تلامذة لأولئك الشعراء " (٢) .

بهذه الرؤية، يصبّ محمود درويش تيار " الشعر المقاوم " في مجرى حركة الشعر العربي، ما يعني عدم الإكتفاء بالتعاطي مع روحه الايديولوجي، بل حتمية العناية بانجازاته الفنية -الجمالية . أمر يقضي بأن مسألة الإلتزام التي تبناها رموز هذا التيار ثمرة لشرط موضوعي للذات الفلسطينية، ولا ينبغي له أن يلغي عدم عناية هؤلاء بالشرط الفني الذي يشكل ضمانة تطور شاعريتهم وملاحقتها لتجليات الحدأة الشعرية دائمة التحول .

لكن درويش في تساؤل: " كيف أوفّق بين الجماهير بصفحتها كلمة ثورية من ناحية، وبين متطلبات الشروط الفنية لهذه الكلمة " (٣) يطرح ضمناً أن شرط الإيصال أو التواصل لا يعني التضحية بالشرط الفني . وبهذا ظل التفاعل بين الفعل الفني للقصيدة ومفعولها هاجساً حاكماً لأدوات درويش ورؤاه الشعرية، متميّزاً في مراحل ممارسته الشعرية، والتي يمكن رصدها في ثلاث مراحل رئيسية:

أ-قبل هزيمة حزيران بعام، وتحديدًا بعد تجربة سجن مضية، يسمّي محمود درويش التزامه " نبضاً في الدم"، وليس " مبدأً أو وجهة نظر أو طريقة " (٤)، وهذا ما تبدّى في ديوانه " عاشق من فلسطين " (١٩٦٦) مؤيداً بقفزة فنية " نحو المزج بين الأشياء " (٥) هزّت بناء قصيدته الكلاسيكي، حيث اتخذت حركيّة الرموز شكلاً وإطاراً جديداً ستتضح معالمها في ديوانه " آخر الليل " المنجز إثر الهزيمة، طالما أدرك الشاعر في تصديه لكتابته أنه " لم يتبقّ شيء إلا القصيدة والكلمة " (٦) .

لكنه، قبل هذا، وتحديدًا في محاولته الأولى " عصافير بلا أجنحة " ( عام ١٩٦٠) اقترح روح التزام بما أسماه الحب، العذاب، الكفاح، الثورة، والألم (٧)، أو بما وصفه آلام الناس، التغني بالأرض والوطن والكفاح والإصرار على رفض الواقع، وحنين المشردين إلى بلادهم، ومحاولة العثور على مبرر لصمود الإنسان أمام مثل هذا العذاب (٨) في محاولته الثانية " أوراق الزيتون " ( عام ١٩٦٤).

ثمّة ما يستجيب للتكهن أن حاسة الإلتزام في هاتين المحاولتين خارجية، غير مشبعة برؤيا عمودية، فقد كان تبسيط الكلام الشعري خطاباً، منشغلاً بجعل وظيفة الإيصال أولوية .

غير أن انحراف شاعرية درويش عن متطلبات الذوق العام، منذ مجموعته " آخر الليل " (١٩٦٧) بالاتكاء على " التعبير المباشر " كونه " شاعراً ثورياً يخاطب الجماهير، ويلتزم بقضية الجماهير، ويكتب من أجل الجماهير " (٩)، ثم إلحاح السؤال الفني على أدواته إثر مجموعته " العصافير تموت في الجليل " (١٠) قيض له تحديد الشعر باعتباره " رؤية ثورية للحاضر ورؤيا للمستقبل " (١١).

ب- تنبعث شاعرية درويش منذ خروجه الأول من فلسطين المحتلة مطلع سبعينات القرن الماضي،

واندماجه في حركة الشعر المعاصر ، نصاً وتأملاً نظرياً يستند أساساً إلى المراجعة والبحث في الممارسة الشعرية والتنظيرية .

وعلى هذا النحو ، يندفع مشروع رؤيا شعرية تنتصر لأسئلة الفعل الحدائي ، في محاولة لتقصي إيقاعات ممارسته التجريبية . يقول محمود درويش :

" كنت شديد الحماس إلى عدم التنازل عن التفعيلة ، ولكن إيماننا بالحدائثة ، وقبولنا التنازل عن القافية ووحدة السطر قد يجرنا إلى التنازل عن التفعيلة أيضاً ، لأن كل مبررات الشعر الحديث إذا سرنا بها حتى النهاية قد توصلنا إلى اكتشاف عدم وجود قواعد ثابتة في الشعر ، على الرغم من كون التفعيلة قاعدة مهما قلنا فيها ، وقد نستغني عنها في يوم من الأيام . هذا إذا كنا نؤمن أن الشعر ليس بناء لغوياً فقط وليس قاعدة مقررة ، وإنما هو حالة شعرية . والحالة الشعرية قد يكون أحسن وسائل التعبير عنها كلمات لا تفعيلة لها ، وقد يكون الزواج بين الجملة الشعرية ، كما هو شائع ، والجملة النثرية ، نحو إلغاء التفعيلة نهائياً في يوم ما . أنا شخصياً أحزن كثيراً عندما أتصور مستقبلاً للشعر لا تفعيلة فيه ، ولكن حزني هذا قد يضحك الأجيال القادمة عندما يقودها التطور الشعري إلى الإستغناء عن أشكال نعتبرها اليوم ثورية وستكون ذات يوم متخلفة . وبودي أن ألاحظ هنا بعض بوادر أزمة الشعر الحديث الذي بنى كل مبرراته على التحرر من أطر جاهزة ، ووجد نفسه في السبعينات أسير أطر جاهزة خلقها هو . إن الحرية لا تكون في التحرر من قيود الآخرين فقط ، ولن أكون حراً ما دمت أسير قيود خلقتها " (١٢) .

تتقدم هذه الرؤية ، كما يمكن أن نستخلص منها . نحو المقترحات التالية :

- أ- الشعر في حالة طلاق مع الثبات ،
  - ب- وبهذا ، فإنه يعني التجاوز الدائم لأشكال ووسائل التعبير المفترضة ،
  - ج- ولهذا ، فهو حالة تتجلى ملكاتها الإبداعية عن ، وتكتشف في ، الممارسة النصية ، كلمة وروحاً ،
  - د- مما يستدعي افتراض أزمة آن تصديه للممارسة هذه برؤى مسبقة .
- غير أن منحى هذه الرؤية يتبنى البعد الشكلي ، المنحاز لانزياحات تطراً عليه بفعل التطور والحدائثة ، ما يبرر حيازة هذه الرؤية على تناقضات داخلية تتأرجح بين قبول ورفض الشكل الشعري : لزوم التفعيلة وتعيديها ، والوسيلة التعبيرية : المزج بين الكلام الشعري والنثري .
- إن افتراق الممارسة الدرويشية عن لغة اليقين يشكل إعلاناً عن تفكيك علاقته السالفة بقضية الإلتزام بالثورة في الإبداع والواقع ، وإيداناً بالإفضاء بهذه الممارسة إلى مختبر فني يفتح انشغالاته على مغامرة تخلق بذاتها حدودها .

غير أن الرؤية الدرويشية تتكشف في مقالته " أنقذونا من هذا الشعر " ( عام ١٩٨٢ ) عن أن التقنع بالتجريب عبر التحلل نهائياً من المرجعية الفنية والأصول المعرفية الثقافية يقود إلى ممارسة " اللعب الطائش بالشعر " (١٣) .

يجعل درويش سؤال " ماذا جرى للشعر؟" مفتتح ولازمة وخاتمة المقالة ، معتبراً أن " ما نقرؤه منذ سنين بتدفقه الكمي المتهور ليس شعراً " (١٤) ، حتى أصبحت " الأشياء ، كما هي على أرضها ، في تجلياتها الخام ، أكثر شاعرية " (١٥) .

وفق هذه الرؤية ، فإن التجريبية التراكمية السائدة كظاهرة مشوشة سيدت " ما ليس شعراً على الشعر " ، وخلطت الحدود بين اللاشعر والشعر ، الأمر الذي جعل هذا " اللعب العدمي " بالفن الشعري يقود إلى " إعادة النظر والتشكيك بكامل حركة الشعر العربي الحديث ، ويغربها عن وجدان الناس إلى درجة تحولت فيها إلى سخرية " (١٦) ، خاصة وأن هذا الشعر لم يحقق ، بعد ، رسوخه في الوجدان العام ، وثباته في تاريخ الذوق ، مما يجعل هيمنة نماذجه الرديئة مدخلاً لإعادة النظر في التجربة كلها " (١٧) . إن ضحالة الأصول القيمية ، وفق الفهم الدرويشي ، في أدوات ممارسي لعبة التجريب يسر لكل " كلام غامض ، ركيك ، مشوش ، نثري ، عدمي " التمسك " بالإدعاء أنه شعر حديث مكتوب للمستقبل " ، مدعوماً باحتضان " ثقافة موظفي الأقسام الثقافية في مؤسسات النشر " (١٨) ، في ظل تورط الممارسة النقدية الأكاديمية بالصمت عن تسلط سيادة هذه النماذج ، والتلكؤ عن اشتقاق مزايا التطور الشعري واكتشاف قوانينه الخاصة .

وتأسيساً على هذه النظرة يرى درويش أنه في ظل طغمة " الفوضى العامة " في المشهد الشعري يصبح لزاماً الدفاع " ليس فقط عن قيمنا الشعرية " ، بل عن " سمعة الشعر الحديث الذي انبثق من تلك القيم ليطورها لا ليكسرها ، حتى شمل التكسير ، بدافع الإدراك أو الجهل ، اللغة ذاتها . فكيف تطور الحدائث الشعر بلا لغة ، وهي حقل عمل الشاعر وأدواته ؟ . هل شرح لنا الذين لا يعرفون لغتهم ماذا يعنون بالمصطلح الدارج " تفجير اللغة " ؟ . هل أوضحوا لنا مفهوم " الموسيقى الداخلية " في إصرارهم على احتقار الإيقاع ؟ . ولماذا لا تأتي الموسيقى الداخلية إلا من النثر ؟ . لماذا تعجز ثورة الشعر العربي الإيقاعية عن إنتاج موسيقى داخلية ؟ ، وقبل هذا ما هي بالضبط الموسيقى الداخلية وما هي الموسيقى الخارجية ؟ (١٩) .

وبهذا ، يجعل درويش من تفاعل عنصري اللغة والإيقاع ، بما لا ينبغي فصلهما تعسفاً في مجرى الممارسة ، أداة تعبير لخلق النص ، لا إشكالية مسبقة لتصور النموذج الشعري .

إن مزاعم ممارسي ودعاة هذا الشكل من التجريب بأن " الإيقاع يخلق نمطاً مشابهاً ورتيباً " (٢٠) لم يسعفهم من الوقوع في ممارسة " نموذج النمط " ، أي إعادة كتابة " القصيدة الواحدة التي نقرؤها كل صباح منذ عشر سنين بمئات الأسماء " مما أغرق " الشعر الحديث " في نمطية أشد انحطاطاً من نمطية القصيدة الكلاسيكية التي

كانت تحميها عناصر تقيها صعوبتها ، على الأقل ، من سهولة اللعب الشائعة في هذه الأيام " (٢١).  
وبهذا المعنى ، لم تعد تشكل قصيدة هذا المظهر التجديدي " إضافة " إلى العملية الشعرية الإبداعية ،  
بل " صارت تراكمًا " (٢٢).

وطالما أن الانتصار لقضايا التجديد والحدثة الشعريين الغربيين مرتبط بمنظومة المفاهيم والتصورات  
والرؤى التي يقدمانها كفعل إبداعي جمالي يمتلك قوانينه الخصوصية التي تشكل مهاد حركيته وتطوره  
، فإن هذا الشكل المقدم من التجريب ، مدعيًا التجديد والحدثة وملتبسًا عليهما ، يحولهما إلى " مرادفين  
للعدمية ، ولثورة المضادة أحياناً ، حيث لا يصبح هنالك معنى للأشياء ، واللغة ، والتضحية ، والعمل ،  
و لا معنى للمعنى في الشعر . معنى الشعر هو اللامعنى ، لأن المعاني ، كما تقول هذا الحدثة ، مفاهيم  
قديمة بالية ، كالفصاحة ذاتها التي استبدلت بالركاكة " (٢٣).

وفق هذه النظرة ، لا يمكن العناية بهذا المظهر المقدم من ممارسة تجريبية لا طائل منها خارج اعتباره  
نوعاً من " المناظرة المنهجية على تدمير الشعر العربي ، والتي تتغذى من اجتهادات التنظير لما ليس شعراً  
كنموذج للحدثة الشعرية " (٢٤).

ونقيضاً لذلك يتبنى مقترح ضرورة دفاع الشاعر عن الشعر باعتباره " أحد تجليات روح الأمة وانتصاراً  
لكيانه ومصيره " ، طالما أن " الدفاع عن قيم الشعر العربي ، وفاعليته ، ووضوح رسالته ، هو شكل من  
أشكال الدفاع عن روح الأمة ووجودها الثقافي " (٢٥).

لكن هذه الرؤية بما تجسده من " محاولة لتبرئة الشعر الحديث من تهمة الإنحلال العام " (٢٦) لا  
تنهض ، ولا يمكن فهمها ، على حامل الدعوة للنكوص إلى النموذج الشعري القديم ، القبلي ، القائم على  
نظرية عمود الشعر التي تجاوزتها تيارات التجديد والحدثة ، أو تفكيك المنظومة الفنية التي أصلت لها  
، ولا تزال تؤسس لتطورها ، بقدر ما تشكل رفضاً لنماذج مقدمة تحت طائلة التجديد والحدثة تهدم  
منجزات حركة الشعر الحديث .

وبهذا ، يتجلى اعتبار " سؤال الشعر " جزءاً من سؤال المسألة الثقافية العربية الراهنة ، والتي هي جزء  
من سؤال الوضع العربي برمته (٢٧) توكيداً لهذه الرؤية ، كما تبري دعوة " أن لنا أن نعبر لأن نكتب  
" (٢٨) إصراراً على الانتصار للشاعرية في ظل حالة هيمنة نماذج تفسدها في الذائقة الجمعية .

ج- تتفجر الممارسة النصية الدرويشية ، بعد تجربة بيروت عام ١٩٨٢ ، في مغامرة شعرية كونية ، وتستمد  
تأملاته وتصوراته حول الشعر وعلاقته بالعالم ، في منظومية خصوصية ، من إيقاعات تجربته الشعرية  
أساساً ، ومن المراجعة النقدية للعملية الشعرية برمتها .

ولا شك أن هذه المنظومية تحتفظ لذاتها بأهمية متفردة كونها تتجلى عن كلام وروح شعريين شكلاً بأثرهما في الوعي والوجدان العربيين عالماً شعرياً يظل جديداً بمقدرته على التجدد الدائم .

في هذه المرحلة تتعمق الرؤيا ، وينجلي مفهوم الإلتزام في امتداداته القصية ، ويتكشف معنى الثورة في الإبداع والإبداع في الثورة لدى درويش .

وهنا أيضاً ، يغدو ربطه لمصيره الوجودي-الإنساني بالشعري-الجمالي أكثر قابلية ودلالة حين يعني الشعر ، بالنسبة إليه ، معادلاً للوجود الذاتي-الموضوعي ، وشكلاً من أشكال استعادة الحق والتوازن في الحياة ، وحماية وطن مفقود بالكلمات من الضياع أو الاندثار أو الغياب .

يتأمل محمود درويش في مغزى تجربته الشعرية :

" ربما يكون تاريخي الشعري هو بناء وطن بالكلمات لأن هذا هو عجزى ، وهذه هي قوتي . أنا لم أسع إلى ذلك ، ولكنني أقبل ذلك ، أقبل أن أستخرج من ركام الغياب وجوداً معنوياً يتحقق ، يتحول إلى قديم . إن أحد التعريفات الأساسية للشعر هو تلك الرغبة التي لن تتحقق ، وعندما تتحقق في القصيدة ، تتجدد الرغبة في قصيدة غير محققة ، لهذا فإنه جنون أن يكون الإنسان شاعراً ، لأنه يبحث عن انتحار دائم ويومي لانهاية له " (٢٩) .

وفق هذا السياق ، يقوم درويش بإحلال رؤاه حول مسألة الشعر والالتزام خلافاً للتصورات التي تعاطت معها كفكرة إيديولوجية ثابتة في تحولاتها ، وكذلك حول قضية الثورة في الإبداع والإبداع في الثورة بديلاً عن النظرة الميكانيكية التي قدمتها باعتبارها نموذجاً شعرياً مقدماً ، معزولاً عن حركية الواقع .

وبهذا المعنى ، ليس للشاعر الملتزم ، ولا ينبغي له ، أن يجسد بوقاً لعقيدة إيديولوجية ، وتبعاً ، وخلافاً لنماذج قدمها شعراء التزام ، " لا يقدم حلولاً ، ولا يعد بمحطة نهائية " (٣٠) ، ذلك أن " أي حل هو وأد للقصيدة " (٣١) . كما أن درويش يواصل طرح أسئلته وقلقه وتقديم شعر جديد " بكل ما تعنيه عبارة الشعر الجديد من مسؤوليات " (٣٢) .

وفي مقابل الرؤية التي قدمت تحديدها للشعر الثوري باعتباره " البعد اللغوي " (٣٣) ، يربط درويش في فهمه للشعر الثوري بين " الجمالية والفعالية " سعياً للإجابة عن سؤال جدوى هذا الشعر . يكتب درويش :

" هناك من ينحاز إلى جمالية الشعر ، وهناك أيضاً فهم بطيء يبحث عن جدوى الشعر . وهو تعارض قديم ، وسوء تفاهم قديم ، لم يستقر على جواب ناجز : الجمالية والفعالية . الشعر لا يكون مجدياً ما لم يكن جميلاً . فهنا بحث عن توازن بين جمالية الشعر وفعاليتها . الناس في الأزمات يحتاجون إلى خدمات فورية من القصيدة ، وقد لا يستطيع الشاعر أن يقدمها ، مع أن الشاعر لديه الرغبة في تقديم هذه

الخدمات . ولكنه معني ، حتى يظل شاعراً ، بتحقيق هذا التوازن بين الجمالية والفعالية ، ولكن الجمالية قد لا تستجيب للفورية المطلوبة " (٣٤).

هذا التطابق بين الجمالية والفعالية يؤكد إلحاحية الوظيفة الشعرية والاجتماعية معاً . أي أن يكون في وسع القصيدة أن تحقق فعلاً ثورياً في اللغة معادلاً لفاعليتها الثورية في المجتمع ، وبهذا تتحقق معادلة الإبداع في الكلمة والإبداع في الفعل ، وعندها تتجسد فاعلية الكلمة كفعل مبدع .

وطالما أن الكلمة المبدعة تمتلك قابلية أشد على إحداث الفاعلية ، فإنها تقيض لنفسها أن تكون فعلاً ثورياً ، إضافة إلى إحداث فعل الثورة الفنية .

وتأسيساً على هذا ، لا يمكن الاقتراب من مفهوم الشعر الثوري بمعزل عن مفهوم الثورة ، ذلك أن تحقيق فعل ثوري في اللغة كصوغ تعبير لا يتأتى من تثوير اللغة في الشعر وحده بمعزل عن الصياغات التي تنجزها الثورة في ذات الإنسان وواقعه . ووفق هذه الصيغة ، يصير درويش على العلاقة الجدلية بين حركية الثورة في الشعر والواقع ، وحركيتهما في الثورة .

وبهذه الرؤية يقيم علاقة تحاور " مع بعض أنماط التفكير في فهم الأدب داخل الثورة " في مقالته " الثورة في الإبداع والإبداع في الثورة " (٣٥) عام ١٩٩٨ ، تشكل استخلاصاً لرؤياه :

" هناك أدب تبشيري يأمل أن يكون في خدمة الثورة دون أن يحقق ثورة فنية ، وهناك أيضاً مفهوم يحاول أن يحاصر صلة الأدب بالثورة بدعوى حرية الأدب . أرى أن النظرتين بعيدتان عن الصواب ، فالأدب منحاز إلى الثورة ، ولكن حتى يكون جديراً بها لا بد له من تحقيق التعبير الثوري داخل البنية الفنية . ولهذا لا بد من الثورة داخل الإبداع والإبداع داخل الثورة ، لا وضع الإبداع والثورة في حالة تضاد " (٣٦).

:-الهوامش :

- ١-أنظر . مجلة الجديد الصادرة في فلسطين المحتلة . عدد حزيران عام ١٩٦٩ . أعادت مجلة الآداب نشر هذه المقالة في عدد آب/أغسطس ١٩٦٩ .
- ٢-أنظر مجلة الآداب . م . س . ص ٥
- ٣-أنظر . مجلة الأسبوع الأدبي . بيروت . ت . ١٣-٣-١٩٧٢ . ص ٤٦
- ٤-أنظر . مجلة الطريق . عدد نيسان ص ٥٦ .
- ٥-أنظر . نفس المصدر . نفس الصفحة . والتوسع أنظر ما تلاها .
- ٦-أنظر . نفس المصدر . ص ٦٠
- ٧-أنظر . مقدمة " عصافير بلا أجنحة " . بيروت . دار العودة . دون تاريخ .
- ٨-لم نعتز على المقدمة في أعماله الكاملة الصادرة عن دار بيروت في طبعتها الثالثة عشرة ١٩٨٩ .
- ٨-أنظر . مجلة الطريق . م . س . ص ٧٥ .

- أعمال الشاعر الكاملة تضم هذا الديوان ، مبدئة به . م . س . ٥ ص
- ٩- أنظر . نفس المصدر . ص ٥٧
- ١٠- كتبت معظم قصائد هذه المجموعة عام ١٩٦٩ ، وصدر خلال إقامته في موسكو .  
أنظر . الأعمال الكاملة . م . س . ص ٢٤٩ .
- ١١- أنظر . مجلة الآداب . عدد أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٠ . ص ٤ .
- ١٢- أنظر . صدى لبنان . حوار منشور مع الشاعر . بيروت . ٢٩-٢-١٩٧٢ . ص ٦ .
- ١٣- أنظر . نظرية الشعر . ٥-مرحلة مجلة شعر.القسم الثاني .منشورات وزارة الثقافة .دمشق ١٩٩٦ .مقالة "أنقذونا من هذا الشعر" . ص ٦٠٩ .
- كان درويش قد نشر هذه المقالة في مجلة الكرمل . العدد السادس . ١٩٨٢ .
- ١٤- أنظر . نظرية الشعر . م . س . ص ٦٠٩ .
- ١٥- أنظر . نفس المصدر . ص ٦٠٧ .
- ١٦- أنظر. نفس المصدر. ص ٦٠٩
- ١٧- أنظر. نفس المصدر. نفس الصفحة .
- ١٨- أنظر . نفس المصدر . ص ٦١٠ .
- ١٩- أنظر . نفس المصدر . ص ٦١٠-٦١١ .
- ٢٠- أنظر. نفس المصدر. ص ٦١١ .
- ٢١- أنظر. نفس المصدر. نفس الصفحة .
- ٢٢- أنظر. نفس المصدر. ص ٦١٥ .
- ٢٣- أنظر. نفس المصدر. ص ٦١٤ .
- ٢٤- أنظر. نفس المصدر. ص ٦١٢ .
- ٢٥- أنظر. نفس المصدر. نفس الصفحة .
- ٢٦- أنظر. نفس المصدر. نفس الصفحة .
- ٢٧- أنظر. نفس المصدر. ص ٦١٦ .
- ٢٨- أنظر. نفس المصدر. نفس الصفحة .
- ٢٩- أنظر. مجلة لوتس . عدد ٦٥-٦٦ . عام ١٩٨٨ . حوار مع محمود درويش . ص ٢٥٤ .
- ٣٠- أنظر . نفس المصدر . ص ٢٥٦ .
- ٣١- أنظر . نفس المصدر . نفس الصفحة .
- ٣٢- أنظر . نفس المصدر . ص ٢٥٧ .
- ٣٣- أنظر. أدونيس . مقالة "الشعر والثورة" . الهدف . عدد ٢٠ . تاريخ ٦-١٢-١٩٦٩ . ص ١٨ .  
أعاد أدونيس نشر المقالة في كتابه " زمن الشعر " . دار العودة . بيروت . ط ٣ . ١٩٨٣ .  
وقد ولدت هذه المقالة إثر طغيان الإحتفائية النقدية العربية بقصيدة الشعر المقاوم . وفيها يدعو إلى أن على الشاعر التوري أن يحقق حالة خلق لغوي معادلاً لما يخلقه الثوري في الواقع .  
ولمزيد من التوسع أنظر رد محمد دكروب على مقالة أدونيس هذه ، دفاعاً عن الشعر المقاوم ، في كتابه " الأدب الجديد والثورة " . دار الفارابي . بيروت . ١٩٨٠ .
- ٣٤ - أنظر . لوتس . م . س . ص ٢٢٧ .
- ٣٥- أنظر . إفتاحية مجلة الكرمل . عدد ١٠ . عام ١٩٨١ .
- ٣٦- أنظر . لوتس . م . س . ص ٢٥٩ .

## ثانياً - في الممارسة الشعرية :

### ١- من شاعرية " البيت " إلى شعرية القصيدة :

طويلاً، بقي البيت الشعري القديم، المألوف، بصدوره وعجزه، القائم على نظرية عمود الشعر، والذي أصطلح عليه لاحقاً النموذج الشعري القديم، شرطاً زمانياً ومكانياً للشاعرية، ومعياراً لها .

صحيح أن " تغيراً ما " قد أصاب معماريته القديمة، بإحداث ما اصطلاح عليه تجديدات بما فيها تلك التي أنجزها شعراء المرحلة الرومانسية: خليل مطران، نموذجاً، بطرحه مفهوم: العصرية ضد النموذج الشعري القديم، أو جماعة الديوان بمقترحها: التعبير عن الذات ضد النموذج الشعري القديم، أو الرابطة القلمية التي جسدت: النبوءة والرؤيا ضد النموذج الشعري القديم، وكذلك جماعة أبوللو التي قدمت: التجريب ضد النموذج الشعري القديم، لكن هذا التغير ظل، في شكله، سطحياً لم يلامس كيان القصيدة العربية، فبقيت، جوهرياً، كما كانت (١)، حتى أطاحت الثورة الشعرية في النصف الثاني من خمسينات القرن الماضي، نهائياً، بنظرية عمود الشعر .

لكن هذه الثورة الشعرية لم تؤسس، جوهرياً، على كفاية إحلال " التفعيلة " محل البيت الشعري، كما يمكن فهم نازك الملائكة في " قضايا الشعر المعاصر " (٢)، أما، بدءاً، طمحت " إلى إدخال مفهوم شعري حديث - في مستوى العصر الذي نحن فيه - إلى الأدب العربي " (٣).

وبما أن هذا المفهوم نابع، أصلاً، من صميم حياتنا وبيئتنا الإجتماعية وتطور حياتنا، ومكتف، أساساً، في أن الشعر تجربة شخصية ينقلها بشكل فني يناسبها " (٤)، فإن هذا الشكل لا يستجيب، ولا يمكن ذلك، إلا لفعل " الحرية " باعتباره " ضرورة اقتضاها هذا المفهوم " (٥)، ومختبراً تتجسد فيه، وتتجلى عنه، العملية الشعرية، كلمة وروحاً .

أمر يتيح إبراز دلالة بحث الشاعر الجديد عن شكل جديد كضمانة حيوية تعبيرية باعتباره تمثلاً لروح الشاعر المتوحدة بروح عصره، ممثلاً لحساسية عكس التحولات النفسية - الروحية للذات في مرايا عصرها، وهو بهذا يشكل جزءاً من فعل حدائي معكوس " بانهايار واهتزاز بنية الحياة وتجلياتها الفكرية " (٦).

وبهذا الرؤية، يغدو التعاطي مع فرضية " أن يتحرر الشكل من كل قالب مفروض، وألا يخضع لغير الفن " (٧) أحد مبررات وجود القصيدة، بما هي تجسيد لإيقاعات شعرية دائمة التجدد والخلق في بناء جديد ينمو بتشابك وتفاعل العناصر جميعاً وصوغها علاقات جديدة فيما بينها .

ولأن كل " قصيدة جديدة " تنهض، مقابل القديمة التي ظلت " صناعة ومعان "، باعتبارها " تجربة متميزة " (٨)، فإن لها " شكلها الخاص " (٩)، في حين بقي للقصيدة القديمة عموماً " شكل واحد " يتكرر .



إن مصطلح القصيدة ، كثيراً ، ما كان يتماهى مع مفهوم " البناء " في الأدبيات المعاصرة ، لكنها كانت تعطي لمصطلح " القصيدة " مرتبة المهيمن بدل مصطلح " البيت " الذي كان في النقد القديم مهيمناً (١٠). كما يمكن التدليل على مفاهيم أخرى أصبحت مرادفاً دالاً على مصطلح " القصيدة " مثل : " الهيكل " لدى نازك الملائكة (١١)، أو " التشكيل " (١٢) في تعبيرات صلاح عبد الصبور ، ، أو " الوحدة العضوية (١٣) " في نظريات د. خالدة سعيد ، أو " التكوين " (١٤) في تحديدات سامي مهدي ، وكذلك توصيفات القصيدة ضمن " معمارية الشعر المعاصر " (١٥) في كتابات عز الدين اسماعيل ، أو توصيفاتها وفق بنائيتها كما في أدبيات كمال خير بك (١٦) ، باعتبارها مبحثاً عن بيت جديد يقطنه الشاعر الجديد مقابل البيت القديم ، سيقود إلى تصور القصيدة ، ومركزيتها في الوعي الشعري ، ويلح على ممارستها ونقدها كونها " وحدة متماسكة ، حية ، متنوعة " (١٧) ، في مواجهة القديمة القائمة على وحدة البيت المستقل ، وعلى القافية التي تنظم هذه الوحدة المتكررة " ، وكذلك " تلتمس جمالياتها ، بالتالي ، في جمالية البيت المفرد " (١٨) . كما أن هيمنة مصطلح القصيدة " ككل لا يتجزأ ، شكلاً ومضموناً " ، سبيل هدم الوعي النظري القديم و التقليدي ، كمارسة نصية أقامت تصوراتها على مسألة الفصل بينهما . لكن أدوات الشعر المعاصر لم تتحرر تماماً من سلطته على بناء القصيدة معاصرة في كثير من نماذجها ، فأحدث " تشققاً في هيكلها ووحدتها " (١٩) .

وبهذا تسقط كفاية تعاطي شاعر ما مع " الإمكانيات التي تقدمها أبحر الشعر العربي الستة عشر للشاعر المعاصر الذي يهيمه التعبير عن حياته في حرية وانعتاق " (٢٠) كدلالة على حداثة شعره ، وأن عاش في العصر الحديث أو في عصر حداثة ، طالما " لم يدرك روح هذا العصر ويستوعبه إبداعياً وجمالياً ، ما لم يرافق الحدائة ويخترقه ، كاشفاً لنا عن أعماقه وأسراره وتجلياته " (٢١).

وفق هذه الرؤية ، فإن الشكل الشعري لا يوجد مستقلاً بذاته ، بل هو مرتبط " بمستوى وعي العالم وطريقة الاقتراب الجمالي منه " ، وبهذا لا يجب التصدي للشكل الشعري إلا بوصفه تجسيد " موقف رؤيوي من العالم وطريقة في النظر إليه والاقتراب منه " (٢٢).

إن ربط الشكل الشعري ، في الممارسات الشعرية والتنظيرية على القصيدة ، بالتجربة الشعرية ، شكل مقدمة " لإسقاط التجريد وسلطة النموذج " (٢٣) ، وقدمه كفعل وجودي ، دال على القصيدة وعلى تجربة الذات الشعرية ومؤرخ لهما معاً ، لكنه لم يتبلور إلا بإعادة التأمل في منجزات الممارسة الشعرية ، ونكران صيغ البناء الساكن ، الثابت ، القبلي - بكسر القاف وتسكين الباء- ، غير المستجيب لتوترات التجربة الشعرية وحركيتها وأسئلة قلقها الوجودي .

وبهذا المعنى يكون " الشكل الشعري " في حالة " حركة وتغير " ، أي أنه " ولادة مستمرة " . فالشكل

الشعري " الحي هو الذي يظل في تغير دائم " (٢٤) ، وبهذا يقيض لذاته أن يشكل عنصراً مصدرياً للشعرية وتأويلاتها.

لكن ، وبما أن الشكل الشعري بهذا يصبح " كيفية وجود " ، أي بناءً فنياً ، و"كيفية تعبير ، أي طريقة" (٢٥) ، فإنه لا يكتسب قابلية ومشروعية ، وبالتالي تمايزاً عن القديم ، بالضرورة ، في هيكله كنموذج موحد ، مستقل بذاته ، بل " في الروح ، في الحضور الشخصي الجديد الأصيل تعبيراً ورؤياً" (٢٦) .

وتأصيلاً على ذلك ، فإن الشكل الشعري يخلق بذاته معنى ومبررات وجوده باحتفاظه لذاته طاقة الإضافة ، فضلاً عن طاقة الإفتراق . وعندئذ يتجلى بوصفه أصلاً و عنصراً فاعلاً في العملية الإبداعية ، لا شرطاً أولياً لها ، ومعياراً .

وهكذا يقترح الشكل الشعري ، بما هو تجاوز وتعبير ، ويتشكل ، بما هو فعل إبداعي ، متمثلاً في " حركة القصيدة وطريقة تكونها وعلاقة أجزائها ببعضها ، والأصوات الداخلية فيها ، ثم صورها وطبيعة الصور وأبعادها ، وتراكب هذه الصور ..."(٢٧) لا ممثلاً بالوزن والقافية فحسب .

إن نفي " إمكانية وجود النماذج " يعني تبني " مبدأ الإبداع المتكامل ، أي إبداع الشكل والمضمون ، وهذا يفترض توحد الشكل والمضمون توحداً تاماً أو ما يسمى الكتابة الشعرية " (٢٨) .

وبهذا يصبح لزماً إعلان إحلال نظرية " عمود القصيدة " بدلاً من نظرية " عمود الشعر " (٢٩) . مع هذه الرؤية ، تتخلى الشعرية عن مواجهة الشكل باعتباره قالباً ، وتتوحد معه بما هو فضاء شعري خصوصي ، مفتوح ..

روح متعدد في واحد ، وواحد في متعدد .

١-أ:

شكلت القصيدة - الفضاء ، كوحدة نصية ، بيتاً حراً ، حيويًا ، للذات الشاعرة ، ودلالة لشعريته . كما جسدت تحصنها برفض الامتثال للنموذج ، أي نموذج قديمه أو حديثه ، وبكيفية وحدتها شكلاً ومضموناً ، ضرورة للتصدي لها بوصفها " عالماً شخصياً ، خاصاً " (٣٠) مبدعاً بما هو تجاوز وتعبير مستمران . هذه المفهومية اعتبرت مهاداً حراً ، حيويًا للممارسة النقدية ، على اختلاف أدواتها ورؤاها ، في إعادة بناء النص الشعري ، واشتقاق قوانينه الخاصة .

نحيل ، مثلاً ، إلى دراسات ثلاث أنجزت ، بآليات وفترات مختلفة نسبياً ، عالجت ، وتأسيساً على هذه الرؤية ، نصوصاً شعرية ثلاثة وصفت بالمركبة أو الشاملة (٣١) ، كقصيدة " أنشودة المطر " (٣٢) لبدر شاكر

السياب ، والتي اعتبرت أولى القصائد الجديدة ، في الشعر العربي الحديث ، المتمثلة في هذا النمط ، لتمتعها بحساسية قائمة على مزج مفاهيم من التراث الشعري العربي القديم بمفهوم القصيدة الطويلة الغريبة ( ٣٣ ) ، أو القصيدة الكلية ( ٣٤ ) والتي تقاربها قصيدة أدونيس " هذا هو اسمي " ( ٣٥ ) حيث " تبطل أن تكون لحظة انفعالية لكي تصبح لحظة كونية تتداخل فيها مختلف الأنواع التعبيرية نثراً ووزناً ، بنأً وحواراً ، غناء وملحمة وقصة ، والتي تتعامل فيها بالتالي حدوس الفلسفة والعلم والدين (٣٦) ، أو القصيدة الدرامية الملحمية ، متجلية في قصيدة محمود درويش " سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا " (٣٧) ، وهذه القصائد ، مثلاً ، تتقاطع في انتمائها لمفهوم القصيدة الطويلة التي أطلقها السياب ، واعتبرها " أنسب شكل للتعبير عن طبيعة الحياة العصرية المعقدة ، الحاملة للصراع " ( ٣٨ ) .

١-١-١:

يلاحظ أحمد يوسف داوود في قراءته لقصيدة " سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا " لمحمود درويش أنها تحتفظ لذاتها بما وصفه " البناء الدرامي المتكامل " ( ٣٩ ) . فالشاعر يبرز بعد - بضم الباء- القضية الفلسطينية - الموضوعي عبر الحدث - الفردي ( سرحان بشارة سرحان ، الفلسطيني الذي اغتال روبرت كندي أثناء حملته الداعية لدعم إسرائيل ) ، كي يستمد منها العناصر الملحمية لهذا البناء الشعري ( ٤٠ ) ، كما أنه يستخدم " لغة شفافة وبسيطة إلى حد محاكاتها للحديث العادي " إمعاناً في زيادة التوتر ، ولكنها عميقة لأنها " تخلق علاقات جديدة بين الألفاظ دون تحذلق أو ابتذال ، وذلك عائد إلى حيوية التصوير وطبيعته ، إضافة إلى تعميق هذا العالم اللغوي بإدخال " أساليب : السرد التاريخي ، المونولوج الداخلي ، الوصف الخارجي لردود فعل البطل ، الحوار .. " ( ٤١ )

كما أن " التصوير في القصيدة مركب ، وتنامي دلالات الصور مطرد ، لا يمكن إسقاط أية صورة جزئية منه دون الإخلال بالتوتر الشعوري الذي تفرضه القصيدة على قارئها ، وبالغاية التي ترمي إليها . فالصور ذات علاقات متوترة تستدعيها العبارات والمعاني وبنية النص " ( ٤٢ ) .

وتتحقق في القصيدة وضعية رفض اعتبار الإيقاع ( أو التفعيلة ) شرطاً قليلاً -بفتح القاف وتسكين الباء- ، ذلك أن " العبارات هي التي فرضت نوعية الموسيقى " ( ٤٣ ) ، فهي " تتكاثف مع العبارة والصور لخلق الوحدة البنوية في القصيدة ، بحيث يمكننا أن نقول : إن ثمة تلاحماً عضوياً حقيقياً بين الشكل والمضمون " ( ٤٤ ) .

واستخلاصاً ، ثمة وشائج موحدة في تعاطي الممارسة النقدية مع القصيدة - الفضاء ، يمكنني استنتاجها بالتالي :

أ: التخلي عن مساءلة الشكل بمعزل عن المضمون ، وهذا مقيض على نفي أولوية العنصر الشكلي ، كنموذج قبلي ، مسبق ، أولي ، شرطي .

ب- أسبقية القصيدة - الفضاء على البيت الشعري - القالب ، ووحدة وتكامل بنائها : إدغام الشكل والمضمون ، الذات والعالم ، التجربة والرؤيا والتعبير بشمولية .

ج-الإصرار على اللغة أو الجملة الشعرية مقابل اللفظة ، وعلى الصورة الشعرية بديلاً عن التشبيه أو الوصف ، وحركيتهما في البناء الشعري ، وتخليهما عن المألوف ، وتحويلهما إلى رمز-عالم .

د-التداخل النصي .

١-ب:

بناء بيت شعري جديد الذي تمثل بالقصيدة الجديدة ، كمطلب للشاعر ، يتشابك مع نزعة تحقيق شخصية تجسد حضوره .

إن توصيف هذا الشكل التعبيري الجديد باللامودج ، وتحصنه بحساسية التجدد الدائم يشكل استجابة لتوترات الفعل التعبيري الحر الذي طمح إليه الشاعر من جهة ، ولاضطرابات فعل التوتر الداخلي الذي مورس عليه نتيجة لانكسار الصورة المطلقة للإنسان والعالم في وعيه -المتمثلة بالنموذج القديم من جهة أخرى .

وبهذا المعنى ، فإن تحولات الشكل الشعري الجديد مبررة بتفجرات معاناة الذات الشاعرة إزاء خلق صورة خصوصية ، جديدة للإنسان والعالم ، وعلاقة مماثلة معهما . كما أن طبيعة هذا البناء ، كفضاء ، تشكل دلالة على هذه الإشكالية .

إن احتضان الشاعر المعاصر للقصيدة الطويلة ، فضاء تعبيرياً جديداً ، ليس مرهوناً ، على طريقة الشاعر التقليدي ، بممارسة مظهر إعجازي ، بل بكونها بناء معقد التراكيب تتواشج فيه التجربة بعناصر الأسطورة والرمز والموروث .. تشكيلاً لرؤيا تكثف روح العصر ، بتفاعلاته وتجلياته .

وتأصيلاً على هذه الرؤية ، ينبغي التفريق ، مثلاً لا حصراً ، بين قصيدة من نمط " الذي يأتي ولا يأتي " (٤٥) لعبد الوهاب البياتي (١٩٢٩-١٩٩٩) الطويلة في حجمها بمقاطع متكررة المعاني يغني أحدهما عن الآخر (٤٦) ، وبين قصيدة أدونيس " أغاني مهيار الدمشقي " (٤٧) المكونة من قصائد قصيرة بعناوين متفردة ، لكنها تشكل معمارية عضوية يؤسس كل منها بعداً خصوصياً في كينونة القصيدة بناء ورؤيا ، أو قصيدة " تلك صورتها وهذا انتحار العاشق " (٤٨) لمحمود درويش حيث تتفجر العناصر الشعرية في تعددية توحدتها الحركة الداخلية للإيقاع المتنامي للبناء - الفضاء الذي يبدو تماسكه خارجياً مكوكباً حول الوحدة الإيقاعية التي تقنع - بضم التاء وتشديد وكسر الياء - الذات والرؤيا والعالم الشعري المصاغ (٤٩).

إذن، وخلافاً للقصيدة العمودية القديمة المؤيدة بتصورات قَبْلِيَّة (وقوف على أطلال ، وصف راحلة، حنين إلى حبيب غائب .. الخ ، أو تنويعات تحاكي ذلك كله في القصيدة التقليدية) ، وأدوات مسبقة (وزن ، قافية .. الخ) تحدد جهة وطبيعة النية التعبيرية ، فإن القصيدة الجديدة تتحلل مما يخضعها لما هو منجز - بفتح الجيم - ، أو مرئي ، حتى وإن كان حديثاً فهو يحيلها إلى قديمة ، مرئية طالما أتم فعل إنجازها ، وتظل في حالة اكتشاف لماهيتها في عملية خلقها .

وبهذا يتجلى البناء النصي في حساسية خصوصية تواترات العلاقة بين الشكل والمضمون المندمجين في مختبر هذه العملية ، وهذا ما يحسم دلالة معمارية القصيدة (٥٠) طويلة كانت أم قصيرة (٥١) ويبرر اعتناق رؤية أن " القصيدة تخلق شكلها الذي تريده كالنهر يخلق مجراه " (٥٢).

إن " وحدة العاطفة . أو تطور العاطفة في اتجاه واحد " ، أو " الخيط الشعوري الواحد " .. لا تكفي لتحديد تمايز معمارية القصيدة القصيرة المعاصرة عن التقليدية (٥٣) ، لاحتفاظ الأخيرة بذات الروح وبأشكال متلونة ، فهو خاضع لذات الشرطية بين حدي الشكل والمضمون ، ولأدوات التكنيك الشعري . لكن القصيدة القصيرة ، في بعض نماذج كثير من الشعراء المعاصرين ، بقيت تقارب بنية البيت الشعري القديم (٥٤) ، وتتشكل بذات الروح التي أنتجته .

فيما هذه الاستثناءات دالة على نص استثنائي ، مخالف للمألوف ، متجدد وجديد أبداً :

- ١- يعاني قاتله كي يفوز برحمته : هل ستغضب مني إذا ما نجوت ؟
- ٢- أخي .. يا أخي ! ما صنعت لتغتالني ؟ . فوقنا طائرات صوّب إلى
- ٣- فوق ! . أطلق جحيمك أبعد مني .. تعال إلى كوخ أُمي لتطبخ من أجلك
- ٤- الفول .. ماذا تقول ؟ وماذا تقول ؟ مللت عناقي ورائحتي . هل تعبت من
- ٥- الخوف في ؟ إذن ، إرم هذا المسدّس في النهر ! ماذا تقول ؟ .. عدوّ على
- ٦- ضفة النهر صوّب رشّاشه في اتجاه العناق ؟ إذن ، أطلق النار في اتجاه العدو لننجو
- ٧- معاً من رصاص العدو ، وتنجو من الإثم . ماذا تقول ؟ ستقتلني كي يعود
- ٨- العدو إلى بيته / بيتنا وتعود إلى لعبة الكهف ، ماذا صنعت لقهوة أُمي
- ٩- وأمك ؟ ماذا جنيت لتغتالني يا أخي . لن أحلّ وثاق العناق
- ١٠- ولن أتركك (٥٥) .

يتحرر جسد هذا النص الشعري ، نهائياً ، من شكل وصورة البيت الشعري الإعتيادي ، القديم المألوف

والحديث المعاصر ، ليني مكانه فضاء دلاليًا ، يتفرد بإيقاعات الكتابة الجديدة ،  
هكذا تنصهر عناصر الكتابة في نسيج ممتلئ يجسدها بيتاً واحداً ، ويؤهلها للاحتفاظ لذاتها بما اصطلح  
عليه " الشكل القوي " ( ٥٦ ) ، حيث يتضافر العنصران البنائيان ، الصوتي والمعنوي ، ويعملان في اتجاه  
واحد تحقيقاً لبنية تعبيرية .

هنا يضحى العنصر الصوتي ( تفعيلة فعولن ) بمزايا الإنشاد ليصبح مغامرة لها وظيفة صيغة تجانسية  
في النص الشعري .

لكن ثمة عناصر مكوّنة توحى بقراءة جديدة : اعتصام الكلام الشعري بحركات التشكيل ، كما نشر  
النص في الديوان ، إضفاء لقيمة نحوية وجمالية ، والمحافظة على علامات التقييم لما لها من مكانة في  
البناء النصي على المستوى الدلالي والعروضي ( ٥٧ ) .

بدءاً ، هل يمثل عنوان القصيدة " يعانق قاتله " صيغة تدوينية ، خاصة أن درويش يحمل عناوين قصائد  
ديوانه " ورد أقل " كلها المفردات الأولى من البيت الأول ؟

بهذا ، يقترح الشاعر عنوان نصه فضاء أولياً للقراءة ، رافضاً أن يكون اسم القصيدة ، كما هو المعتاد ،  
مؤول بعد فهرسي ، أو تدويني .

ألم يكن بمقدوره أن يصوغ جسد قصيدته وفق صورة المألوف :

يعانق قاتله كي يفوز برحمته

هل ستغضب مني كثيراً إذا ما نجوت ؟

أخي ، يا أخي !

ما صنعت لتغتالني ؟

.. إلخ .. ويحافظ على تقاليد القراءة المعهودة للبيت الشعري المعاصر ؟

لا بد أن احتضان الشاعر لما اصطلح على تسميته " سيكولوجيا الشكل " ( ٥٨ ) تكفّلت بصوغ جسد النص  
على هذه الهيئة توحداً لعناصره .

إن الفاعل في جملة " يعانق قاتله كي يفوز برحمته " ، المقدر بالضمير " هو " يظل مقنّعاً في النص ، وينهي  
حضوره ، نحوياً و معنوياً ، مع خاتمة الجملة التي تحمل في طياتها ضميراً متصلاً في محل جر بالإضافة  
بعد كلمتي " قاتل " و " رحمة " يحيل إليه .

يقودك النص لوصف جملمته الشعرية بالسردية ، يتقنع خطابها بصوت الراوي ، كما يحوز تقسيمها وفق

حساسية " الإبداء والإخبار " حيث يشغل حرف التعليل " كي " دور الوسيط بين جزأيهما.

لكن النية هذه تتلاشى في النص بانتهاء الجملة ، ويتخذ القول الشعري شكلاً آخر بعد النقطتين :  
 . وكأن الراوي ينشئ خبراً . هنا يرث الفاعل المقدر بالضمير " هو " الفعل " يعانق " دلالات " أنا  
 " الشاعر في الخطاب الشعري ، مكتئفاً وكاشفاً فعله في الجملة الشعرية الأخيرة : " لن أحلّ العناق  
 ولن أتركك ! " .

ينبني النص الشعري بعد النقطتين المفيدتين القول على أساس حوارى ، لكنه حوار غير متكافئ ، حيث  
 يغيب القول الشعري صوت القاتل / الأخ مكتئفاً للتدليل عليه بجملة " ماذا تقول ؟ " ، مردداً إجاباته .  
 من الطبيعي أن يكون حوار القاتل والضحية غير متكافئ ، إنما لمصلحة القاتل ، لكن صوت المقتول  
 المؤجل في النص ، أي أنا الشاعر ، تتفجع به ، وتغيبه إلى حين .

إن البنية السردية مجسدة بخطاب الراوي ، والبناء الحوارى المتصاعد درامياً ، وتعدّد الأفعال ، تحيل  
 النص إلى بنية درامية مسرحية ، وهذا بالضبط ما حرص الشاعر على بناء النص بشكل تعبيرى ، مضمياً  
 بحساسية الإنشاد واستقلالية البيت على أساس صوتي .

وبهذا ، يفيض جسد النص على الورقة موحداً ومتعدداً في آن ، معلناً تخليه عن تحكم التفعيلة في رسم  
 حدود الكلمات ، ورفضه لوضعية القراءة المعهودة .

لقد أصبح من عادات القراءة تشييع البيت الشعري ببياض يلي آخر كلمة فيه ، ويعلن استقلاله بانتقال  
 الخطاب الشعري إلى بيت لاحق آخر . فهل وقفة البياض في السطر / البيت التاسع بعد كلمة " العناق "  
 تستدرج هذه العادة ؟ أم أنها وقفة مبتغاها إثارة تأمل العين القارئة للفعل التعبيري ، خاصة أن كلمة  
 العناق المشبعة صوتياً تحيل إلى فعل يعانق في مفتتح القصيدة ؟

وما معنى إهمال الشاعر علامة الترقيم ( الفاصلة ) بعدها ؟ هل يحتلّ البياض كوقفة هذه المكانة  
 الدلالية ؟ .

إنها وقفة ممتلئة بقيمة صوتية ودلالية إذن ، لكن هل يمثل ما بعدها لحساسية إخبارية على اعتبار أن  
 ما قبلها يمثل لحساسية إبداعية ؟

إن بنية النص الدرامية تتحلل ، نهائياً ، من حساسية الإبداء والإخبار في البيت القديم ، ومثل هذا التحلل  
 مهّد لبناء فضاء شعري جديد ، ما تزال اختراقاته تتواصل ، وتشكل أهم ملامح القصيدة الجديدة .

## الهوامش :

- ١- أنظر . أدونيس . زمن الشعر . م س . ص ١٣ وكذلك . نظرية الشعر . م س . ص ٢٥٣ .
- ٢- أنظر . نازك الملائكة . قضايا الشعر المعاصر . ط ١ . دار العلم للملايين . بيروت . ١٩٦٢ . ص ٦٣ وما تلاها .
- ٣- أنظر . يوسف الخال . نظرية الشعر . م س . ص ٤٣٣ أو أنظر المقالة منشورة في مجلة شعر . سنة ٦ . عدد ٢٤ . خريف ١٩٦٢ .
- ٤- أنظر . نفس المصدر . ص ٤٣٤ .
- ٥- أنظر . نفس المصدر . ص ٤٣٣ .
- ٦- أنظر . فاضل العزاوي . نظرية الشعر . م س . ص ٦٥٤ .
- المقالة ذاتها منشورة في مجلة الناقد . عدد ٦٨ . شباط /فبراير ١٩٩٤ .
- ٧- أنظر . أدونيس . زمن الشعر . م س . ص ١٥ .
- المقالة ذاتها منشورة في مجلة شعر كما قدمنا
- ٨- أنظر . المصدر نفسه . ص ٣٩ . كذلك . نظرية الشعر . م س . ص ٢٥٧
- ٩- أنظر نفس المصدر . نفس الصفحة .
- ١٠- محمد بنيس . الشعر المعاصر . ج ٣ . دار توبقال . المغرب . ط ٢ . ١٩٩٦ . ص ٦٩ .
- ١١- أنظر . نازك الملائكة . قضايا الشعر المعاصر . م س . ص ٢٣٦ .
- ١٢- أنظر . صلاح عبد الصبور . حياتي في الشعر . دار العودة . بيروت . ١٩٦٩ . ص ١٩ .
- ١٣- أنظر . للتوسع . د خالدة سعيد . حركية الإبداع . دار الفكر . بيروت . ط ٣ . ١٩٨٦ .
- ١٤- أنظر . سامي مهدي . نظرية الشعر . م س . ص ٨٦٨ .
- ١٥- أنظر . عز الدين اسماعيل . الشعر العربي المعاصر . قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية . دار العودة . بيروت . ط ٢ . ١٩٧٢ . ص ٢٣٨ وما يليها .
- ١٦- أنظر . كمال خير بك . حركة الحدائث في الشعر العربي المعاصر . المشرق للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . ١٩٨٢ . ص ٣٤٩ وما تلاها .
- ١٧- أنظر . أدونيس . زمن الشعر . م س . ص ٣٩ أو مجلة شعر . عدد ٢١ . م س . ص ٩٥ .
- ١٨- نفس المصدر . نفس الصفحة .
- ١٩- نفس المصدر . نفس الصفحة .
- ٢٠- نازك الملائكة . قضايا الشعر المعاصر . م س . ص ١٩ .
- ٢١- أنظر . فاضل العزاوي . نظرية الشعر . م س . ص ٦٢٥ .
- ٢٢- المصدر نفسه . ص ٦٤٠ .
- ٢٣- أنظر . خالدة سعيد . مجلة قضايا وشهادات . الحدائث (٢) . عدد ٢ . شتاء ١٩٩١ . ص ٦٩ .
- ٢٤- أنظر أدونيس . نظرية الشعر . م س . ص ٧٩٨ .
- ٢٥- أنظر أدونيس . نظرية الشعر . م س . ص ١٤ .
- ٢٦- أنظر أدونيس . نظرية الشعر . م س . ص ٧٩٨ .
- ٢٧- أنظر . خالدة سعيد . نظرية الشعر . م س . ص ٢٧٣ .
- ٢٨- أنظر . خالدة سعيد . حركية الإبداع . م س . ص ٩٢ .



- ٢٩- أنظر . نفس المصدر . نفس الصفحة
- ٣٠- أنظر . أدونيس . مقدمة للشعر العربي . دار العودة . بيروت . ط ٢ . ١٩٨٣ . ص ١٠٠ .
- ٣١- أنظر . إلياس خوري . دراسات في نقد الشعر . دار ابن رشد . ط ٢ . بيروت . ١٩٨١ . ص ٢٨ .
- ٣٢- أنظر . ديوان بدر شاكر السياب . دار العودة . بيروت . ١٩٧١ . ص ٤٧٤ .
- ٣٣- أنظر . إلياس خوري . دراسات في نقد الشعر . م . س . ص ٢٩ .
- ٣٤- أنظر . أدونيس . مقدمة للشعر العربي . م . س . ص ١١٧ .
- ٣٥- أنظر . أدونيس . الأعمال الشعرية الكاملة . دار العودة . بيروت . المجلد الثاني . بيروت . ١٩٧١ . القصيدة
- ٣٦- أنظر . أدونيس . مقدمة للشعر العربي . م . س . ص ١١٧ .
- ٣٧- أنظر . ديوان محمود درويش . دار العودة . بيروت . ط ١٣ . ١٩٨٩ . ص ١٤٥ .
- ٣٨- أنظر . عيسى بلاطة . بدر شاكر السياب . دار النهار للنشر . بيروت ١٩٧٨ . ط ٢ . ص ٤٤٥ .
- ٣٩- أنظر . أحمد يوسف داوود . لغة الشعر . منشورات وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٠ . ص ٢٠٢ .
- ٤٠- أنظر . نفس المصدر . نفس الصفحة .
- ٤١- أنظر . نفس المصدر . نفس الصفحة .
- ٤٢- أنظر . نفس المصدر . ص ٢٠٤ .
- ٤٣- أنظر . نفس المصدر . ص ٢٠٥ .
- ٤٤- أنظر . نفس المصدر . نفس الصفحة .
- ٤٥- أنظر . عبد الوهاب البياتي . الذي يأتي ولا يأتي . دار الآداب . بيروت . ١٩٦٦ .
- ٤٦- أنظر . د. غالي شكري . شعرنا الحديث إلى أين ؟ ط ١ . دار الآفاق . بيروت . ١٩٦٨ . ص ٩٥ .
- ٤٧- أنظر . أدونيس . الأعمال الشعرية الكاملة . م . س . ج ١ . ص ٣١٩
- ٤٨- أنظر . للمزيد
- Al Al-shar' . A analytical study of the adopts ion poet. Alshar all. An analytical study of the adonsisian poet. Pp 182,195
- ٤٩- أنظر . محمود درويش . الأعمال الشعرية الكاملة . م . س . ص ٥٤٧
- ٥٠- أنظر . للمزيد . إلياس خوري . الذاكرة المفقودة . مؤسسة الأبحاث العربية . بيروت . ١٩٨٢ . ص ٣٩ وما تلاها .
- ٥٠- أنظر . Herbert Read, From in modern poetry. London 1984. P.66
- ٥١- أنظر . عز الدين اسماعيل . الشعر العربي المعاصر ، قضاياها الفنية والمعنوية . م . س . ص ٢٣٨ وما تلاها .
- ٥٢- أنظر . أدونيس . مقدمة الشعر العربي . م . س . ص ١١٦ .
- ٥٣- أنظر . عز الدين اسماعيل . الشعر العربي المعاصر . م . س . ص ٢٥ .
- ٥٤- أنظر . للمزيد . د. علي الشرع . بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس . دراسة . منشورات اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ١٩٨٧ . ص ٥٩ وما تلاها .
- ٥٥- أنظر . محمود درويش . ورد أقل . دار العودة . بيروت . ١٩٩٣ . ط ٦ . ص ٣٣ .
- ٥٦- أنظر . جان كوهين . بنية اللغة الشعرية . ترجمة محمد الولي ومحمد العمري . دار توبقال . الدار البيضاء . المغرب . ط ١ . ١٩٨٦ . ص ٥٦ .
- ٥٧- أنظر . محمد بنيس . الشعر العربي المعاصر . م . س . ص ١٢٠ .
- وكذلك للتوسع أنظر . جان كوهين . بنية اللغة الشعرية . م . س . فصل المستوى الصوتي . النظم . ص ٥١ .
- ٥٨- أنظر . المصدر نفسه . ص ٥٦ .

## ٢- من شاعرية التفعيلة إلى شعرية الإيقاع :

إحلال مفهوم " الإيقاع " بدل " التفعيلة " ، في الممارسة النظرية ، قدّم اعتباره عنصراً دالاً في الممارسة الشعرية على كونه تصوّراً قَبلياً .

بهذا تحلّت الممارسة الشعرية من تداعيات مشروع قوينة الشعر المعاصر ، وضبطه على أساس عروضي ، كما تبنته نازك الملائكة تيمناً بالفراهيدي (١) ، بوصفه " يتناول الشكل الموسيقي للقصيدة ، ويتعلق بعدد التفعيلات في الشطر ، ويُعنى بترتيب الأَشطر والقوافي " (٢) ، تجري انتقالاته " وفق قانون عروضي يتحكم فيه " (٣) ، ويقوم على " وحدة التفعيلة " (٤) .

انهدام هذه النظرة مُبتدئٌ بتشريع امتلاك الشاعر " أوزانه الخاصة " (٥) ، واستجابة حركتها إلى مقتضيات بنية القصيدة ونظامها الخصوصي (٦) .

فطالما أن الشعر نفاذ " إلى نواة الحياة البشرية " (٧) ، والتحام بحقيقة العصر ، فإن على إيقاعه " أن يُحيي نبض الوجود كما يحيي نبض الدم إيقاع القلب " (٨) ، ويتمثل " الإحساس بجوهر متموج لا يُدرك إدراكاً كلياً و نهائياً هو جوهر عصرنا الحاضر " (٩) .

وبهذا ، فإن هيمنة " الإيقاع " مبرّرة بضرورات فعل الخلق الإبداعي ذاته ، وتعميق تصوّر القصيدة الجديدة عمليةً لا تستند إلى معايير متواضع عليها في خلق ذاتها .

فطالما أن أسبقية " القصيدة " على " البيت " ألغت إمكانية التماس جماليتها في جماليته كعنصر مفرد مستقل بذاته ، وقدّمت إمكانية جديدة لتلمّس إدراك جمالية الشكل الجديد باعتباره وحدة حية متماسكة (١٠) تتعامل دوائها بخصوصية تواترات عملية الخلق الإبداعي ، فإنها أطاحت نهائياً بتصوّر التفعيلة الدالّ الأكبر في القصيدة الجديدة ، والمعيار الحاسم المحدّد لهويّتها وتاريخها .

فكما أن أسبقية القصيدة لا تكفي البيت بوصفه جزءاً من خطاب مكتمل ، لكنها لا تبنيّه بوصفه عنصراً قَبلياً ، و لا تقدمه باعتباره كتلة مستقلة بذاتها لها جماليتها المفردة ، فإن أسبقية الإيقاع لا تلغي التفعيلة كعنصر دالّ يبيّن في تفاعله مع العناصر الأخرى الخطاب ، لكنها لا تتعاطى معها كوحدة قَبلية لها وضعيتها وتصوراتها المسبقة .

إن الإيقاع ، كدالّ ، يبيّن الخطاب ولا ينفصل عنه ، مادام " تنظيمياً لكل من المعنى والذات عبر حركيتهما في الخطاب " (١١) ، وتجاوز التفعيلة لبناء الإيقاع في الخطاب يجسده كبناء يخترق العلاقة الأولية لعناصره الدالّة ، بما يمكّن الذات من كتابة تاريخها دون تصورات محددة ، ما دام " مجهولاً " من قبلها ، و " ليست هي المتحكمة فيه " (١٢) ، ويجعل مقابلة الإيقاع للبحر الشعري

” بوصفه أوسع وأكثر حركية وتمثلاً لتواترات الذات الشاعرة عبوراً إلى اعتبار القصيدة شكلاً خاصاً من أشكال الخطاب له سماته اللغوية الخاصة (١٣) .

ووفق هذه الرؤية، فالإيقاع فعل حركي في تكوّنات الفضاء الشعري وتحقّقه، فهو ” ابتكار ” أيضاً ككل عناصر العملية الإبداعية، لأنه ” نابع من الداخل ” (١٤) النصي في مختبرها، ويشكّل شاعريته باحتضانه لعناصر النسيج الكلي، بحيويته غير المنضبطة إلا بتواترات الذات الكاتبة الصاعدة إلى مستقر حرّ، ولهذا تكاد تصعب قوننته، وإن كان يمكن ملاحظة ودراسة أهم نماذجه المهيمنة .

١- صباح الخير يا ماجد

٢- صباح الخير والابيض

٣- قم اشرب قهوتي، وانهض

٤- فإن جنازتي وصلت، وروما كالمسدّس

٥- كل أرض الله روما، يا غريب الدار، يا لحمًا يغطّي الواجهاً، وسادة

٦- الكلمات، يا لحم الفلسطيني، يا خبز المسيح الصلب، يا قربان حوض الأبيض

٧- المتوسّط .. اختصر الطريق عليك يا لحم الفلسطيني، يا سجادة الوثني،

٨- يا كهف الحضارات القديمة، يا خيام الحاكم البدوي، يا درع الفقير ويا زكاة

٩- المليونير، ويا مزاداً زاد من طلبات هذي السوق، يا حلم الفلسطيني في

١٠- الطرقات، يا نهراً من الأجساد في واحد

١١- تجمّع، وأجمع الساعد (١٥)

ثمّة علاقة مع الإيقاع، بطرائق خصوصية تتحكم بها خصوصية الممارسة الشعرية للذات الشاعرة، باعتباره دالاً في بناء الفضاء الشعري وغير معزول عن صورة الخطاب الشعري ومعناه، وهذا ما مكّن، إضافة إلى تضافر العناصر الشعرية الأخرى، من جدية الانتقال إلى وحدة القصيدة بكونها بيتاً حرّاً يتوخّد فيه الصوت والمعنى .

إن تباين أشكال البناء الإيقاعي في القصيدة الجديدة يستجيب لرؤيا أسبقية القصيدة على العناصر المكوّنة لها، بما فيها الإيقاع، في الممارسة الشعرية . هكذا يصبح الإيقاع أيضاً عنصراً يتقدم، مع الدوال الأخرى في المختبر الشعري، ابتغاء تأسيس فعل إبداعي حرّ يؤسّس مع ولادة القصيدة ويتكشف بصورتها اللانهائية، طالما أنه لا يخضع، ويرفض هذا، لقياس قبلي .

لكن أسبقية القصيدة لا تلغي ، بالضرورة ، وحدة الإيقاع ، بل تلغي التعامل معه كوحدة مستقلة ، قَبْلِيَّةً تتحكم في صوغ الذات الشاعرة ، وتحديد هويتها وحرية ممارستها .

وفق هذه الصيغة ، لا تقبل الذات الشاعرة على الإيقاع بوصفه معياراً يمارس عليها وعياً نظرياً سلطوياً مسبقاً ، ولا تتقبله في ممارستها الشعرية كونه مقياساً أولياً لانسجامها .

هكذا يتم إعلان القطيعة نهائياً مع البيت القديم الذي ظل حريصاً على توافقه ما استطاع مع الأداة الوزنية مما أخضعه إلى حد كبير لصورة يستقلُّ بها صوتياً ودلالياً ، وأوقفه على قافية تتضافر فيها هاتان الدالتان.

إن القافية في القصيدة الجديدة ليست منشغلة في تحديد نهاية البيت ، وإن كانت لا تنفي ذلك ، بل توظف ذاتها باعتبارها جزءاً من طبيعة اللغة الشعرية ، بما هي تجاوز لمهمة استدعاء صوتيٍّ محض : بهذه الذاتيّة تتمتع القافية في المقطع الدرويشي ، المستقى من قصيدة " الحوار الأخير في روما " المهداة إلى الشهيد " ماجد أبي شرار " ، وإن بدت ظاهرياً تنهي وحدات إيقاعية متساوية ( تفعيلتي مفاعلتن ) في الأبيات ( ١ ، ٢ ، ٣ ، ١١ ) ، بينما لا تلتزم بهذا في البيت ( ١٠ ) ، وتتجلى في بداية وخاتمة المقطع الذي يبني مكانه/جسده بأبيات شعرية مخالفة للمألوف .

لكن جسد النصّ الشعريّ يبني بحساسية إيقاعية داخلية خصوصية قائمة على توقيع يمارسه كلام شعري بنهايات متشابهة ، ويحيل إلى إيقاعات ، أو توقيعات أو قافية ، داخلية ( الواجهات ، الكلمات ، الحضارات ، طلبات ، الطرقات ، والفلسطيني - مكررة ثلاث مرات - ، الوثني ، البدوي ، ووسادة ، سجادة ) ، إضافة إلى كلام بقياسات متساوية ( لحم ، خبز ، كهف ، درع ) ، مما يعلن عن تشكيل إيقاعيٍّ مؤسس على وحدات صوتية ، أو صوتيّة و نحوية ، يشكل حركيته الداخلية وفق تواترات خاصة ، متفردة .

لكن هذه الوحدات ( الكلمات ، الفلسطينيّ ، الوثنيّ ، البدوي ، الطرقات ) تُشبع إيقاعياً ب " يا " النداء التي تشكل عنصراً صوتياً ودلالياً جوهرياً في البناء . إلا أن ياء النداء ( المكررة ١٢ مرة ) تحيل إلى المنادى أبداً " ماجد " -الاسم الأوّل الذي يمنح الخطاب تحولات تعدد النصّ الشعريّ واتساعه ، وتبيح له اختراق ذاته دلالياً ، وهي إحدى مزايا القصيدة الجديدة لدى درويش ، بشكل عام .

كما أن تكرار جملة " صباح الخير " وكلمة " روما " الصوتي والدلالي يصرّ على إحياء اتّهما في الفضاء النصّيّ . فالتصبيح على المنادى المفرد : ماجد / المتعدد الفلسطينيّ إصرار على رفض الإنصياع للموت ، وليكن أن مشهد الجنازة التي وصلت يخصّ الشاعر ( وفي هذا إحالة إلى التوحد مع ماجد / رمز وصورة الفلسطينيّ المتحوّلة والدائرة ، ذلك أن جسد الأرض جميعاً مختزل في روما

- المسدّس المصوّب إلى الرأس / الفلسطينيّ لاغتيا له ) .

بهذا فإنّ التداخل النصّيّ ، وهجرة النصّ يتعدّدان باتساع تحولات الإيقاع الشعريّ نفسه ، يتجاوز الزمان بصيرورة الرؤيا التي تحاور أبدية المخاطب أو المخاطب الأبدّيّ ، وتتجاوز المكان / الحدث المكثّف في جسد المخاطب / ماجد إلى الآخر / نهر الإجماد في واحد ، الجاري أبدأً في الخطاب الشعريّ . إن حركيّة الإيقاع ، كخاصيّة بناييّة تفضي إلى التعامل مع مبدأ البناء الشعريّ باعتبارّه " ليس سكونياً . وبهذا يتجاوز الإيقاع نشاطيته المعهودة القائمة على استثارة نظام أصوات اجتذابي ، أو إطرابيّ ينشغل بتطهير حدود الوحدة الصوتية ( أو البيت ) إلى خلق قابلية خصوصية تتيح له الإنتشار في الذات الكاتبة والقارئة معاً .

الهوامش :

- ١- أنظر . نازك الملائكة . قضايا الشعر المعاصر . م س . ص ٩٥ .
- ٢- أنظر . نفس المصدر . ص ٦٧ .
- ٣- أنظر . نفس المصدر . ص ٧٤ .
- ٤- أنظر . نفس المصدر . ص ٧٨ .
- ٥- . أنظر . نظرية الشعر . م س . ص ١٣٥
- رد رثيف الخوري على استفتاء الشعر العربي بين التقييد والتحرير . استفتاء مجلة الآداب . سنة أولى . عدد ٨ . آب / أغسطس ١٩٥٣
- ٦- أنظر . نفس المصدر . ص ١٣٨ .
- رد د . عبد القادر القط على الإستفتاء نفسه
- ٧- أنظر . نفس المصدر . ص ٣١٤ . أو مجلة الآداب . سنة ٩ . عدد ٥ . آذار/مارس . ١٩٦١ . مقالة ماجد الحكواتي " مفاهيم الشعر والأصالة لدى الشاعر الحديث " .
- ٨- أنظر . نفس المصدر . ص ٢٣٨ .
- مقالة رينيه حبشي " الشعر في معركة الوجود " . أو في مجلة شعر . السنة الأولى . العدد الأول . عام ١٩٥٧ .
- ٩- أنظر . د . غالي شكري . شعرنا إلى أين ؟ . م س . ص ١١٠ .
- ١٠- أنظر . أدونيس . م س . ص ٣٥٧ .
- ١١- أنظر . محمد بنيس . الشعر العربي الحديث . الشعر المعاصر . م س . ص ١٠٥ .
- ١٢- أنظر . Henri Mesconnic . Critique du rythms . op.cit.p. ٢٢٥
- يورده محمد بنيس . نفس المصدر . نفس الصفحة .
- ١٣- أنظر . جان إيف تاديه . النقد الأدبي في القرن العشرين . ت . د . قاسم مقداد . منشورات وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٩٣ . ص ٢٦ .
- ١٤- أنظر محمد بنيس . الشعر العربي الحديث . الشعر المعاصر . م س . فصل النص وبناء الإيقاع . ص ١٠٥ . وللتوسع ، كذلك أنظر . كمال أبو ديب . في البنية الإيقاعية للشعر العربي . دار العلم للملايين . بيروت . ١٩٧٤ .
- وكمال أبو ديب . بنية التجلي والخفاء . نحو قوانين بنيوية لتطوير الإيقاع الشعري . طواهر في الشعر الحديث . دار العلم للملايين . بيروت . ١٩٧٩ .
- ١٥- أنظر . محمود درويش . حصار لمذبح البحر . دار العودة . بيروت ١٩٨٥ . ص ٧٣ .

### ٣- من شاعرية الكلمة إلى شعرية اللغة :

مبدأ الحرية الذي قاد الممارسة الشعرية إلى تعطيل اعتبار الإيقاع خاصيةً تلتصق بالعنصر العروضي ، أو بالتوقيع الصوتي للحروف ، أو بقياس الكلمة ، أو تناسبها وانتظامها في النسق الشعري بشكل منفصل ، مكن من رفض التعامل مع الكلمة كوحدة مستقلة باعتبارها أساس العملية الشعرية ، كما تبدى في التقاليد الكلاسيكية ، وحرّض على إطلاق دعوات تقضي بخلق لغة جديدة بإبطال الأشكال السائدة للعلاقات بين كلماتها ، بما فيها القواعد المركبة لها .

ما يعني أن تقدّم الممارسة الشعرية الجديدة ، كما اقترحنا في الفصل السابق ، الإيقاعَ عنصراً نابغاً من طبيعة لغة الزمن الشعري ، يتجلى فيها ويشكّل أحد صورها ومعانيها .

وهما أن لغة الخطاب الشعريّ منتظمة بعلاقات خصوصية غايتها أداء رسالة خصوصية ، فإن الإيقاع يؤكّد فاعليته من كونه ، أولاً ، عنصراً دالاً يجسّد في ذاته أداة انسجام عناصر هذا الخطاب ، ذلك أن الإيقاع الجماليّ للكلمات في لغة الشعر كامن ، بدئياً ، في حساسيتها المستمدّة ، أصلاً ، من تلويناتها ، وأشكال توحدها ، ودرجات تمغنت كلّ منها في مدار جارتها .. الخ .

إن صور الإنفعالات البشرية ، والصور الطبيعية ، والأفكار ، إذا جرّدت ، ذات طبيعة محددة ، لكنها تتحوّل إلى نوعية في اللحظة الشعرية ، حيث يُقبض على مدارك التعبير عنها كوقائع ، أو ظواهر ، أو هواجس . كما أن إعادة هذه الإنفعالات ، أو الصور، أو الأفكار ، في لغة شعرية ما يتحدّد بمقدار قوّة وحيويّة الكلمات التي تحدّد بدورها شكل ووتيرة التعبير . وهذا ما سيخلق نوع هذه اللغة ، وبالتالي معاناة الكلمة في النص ، حيث أنها لا تشفع له إذا لم تجسّد مزايا ورموز هذه المعاناة في فعل التلقّي .

لا شك ان إدراك أهمية وخطورة التعاطي مع الكلمة أحد أسرار العبقرية الشعرية ، لكنها - أي الكلمة - ، وبصورتها المجرّدة ، لا تعني أكثر من ذاتها .. ولهذا فإن عليها أن تنتقل ، في المختبر الشعري ، من اصطلاحيتها المعجميّة إلى دلالاتها الرمزية ذات الظلال المتعددة .





## سميح القاسم..وداعا

بينما كنا نضع اللمسات الأخيرة لدفع العدد للمطبعة فاجأنا الشاعر والمناضل الفلسطيني الكبير سميح القاسم برحيله، سميح الذي شكل خلال العقود الأربعة الأخيرة ركنا أساسيا ورافعة في المشروع الثقافي الفلسطيني، ترك بصمة قوية على أجيال من الشعراء الفلسطينيين والعرب في رحلة إبداعية غنية ومتطورة، جعلت منه أيقونة إبداعية لدى محبيه على اتساع العالم العربي والناطقين باللغة العربية، كان الضلع الثالث في مثلث شعراء المقاومة توفيق زياد ومحمود درويش، والشاعر المجرّب المغامر، والمناضل الوطني، والمعبر عن احلام شعبه.

ولد سميح القاسم في ١١ مايو (أيار) ١٩٣٩ في بلدة الرامة شمال فلسطين، ودرس في مدارس الرامة والناصره، واعتقل عدة مرات، وفرضت السلطات الإسرائيلية عليه الإقامة الجبرية بسبب أشعاره ومواقفه السياسية، وقاوم التجنيد الذي فرضته إسرائيل على الطائفة الدرزية التي ينتمي إليها.

وتنوعت أعماله، وهو الأب لأربعة أولاد هم وطن ووضاح وعمر وياسر، بين الشعر والنثر والمسرحية، ووصلت لأكثر من سبعين عملاً، وقد ترجمت أعماله الى العديد من اللغات.

رحل صاحب "مرفوع القامة أمشي" في هذه الأيام التي يواجه فيها الشعب الفلسطيني في غزة بشجاعة بربرية الآلة الإسرائيلية العسكرية، بينما يتردد صدى كلماته "تقدموا، تقدموا براجمات حقدكم وناقلات جندكم فكل سماء فوقكم جهنم، وكل أرض تحتكم جهنم".

فيما يلي المقالة التي كتبها الروائي يحيى يخلف، رئيس التحرير، في وداع الشاعر الكبير، كذلك مقالة للأديبة سعاد نصر مخول، على أن نعود لقراءة هذه التجربة الملهمة من مختلف جوانبها في اعدادنا القادمة.

المحرر



## في وداع سميح القاسم

يحيى يخلف

رحل سميح القاسم بعد حياة حافلة بالشعر والكفاح وحب الوطن وحب الحياة، وعلى خطى نبضات ودقات قلب الأرض مشى في دروب الحرية، ونثر على الطريق صرخته وناره ورسائل عشقه وصدى غضبه واشتباكه مع المحتل مقرنا الكلمة بالممارسة، رابطا القول بالعمل، والإبداع بالفعل، محملا الكلمة بأكثر مما تحتمل الحروف، وكعبد الرحيم محمود وإبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي وغسان كنفاني ومحمود درويش ومعين بسيسو وعشرات غيرهم ضبط خطواته على خطى الفدائيين والمقاومين ولهيب الكفاح المسلح والشعبي، فكان الشعر الفلسطيني جزءا من أدبيات الثورات الفلسطينية المتعاقبة، من ثورة ١٩٣٦ حتى المقاومة الباسلة في غزة، وخلق مع رفاقه المبدعين في مطلع الستينيات من القرن الماضي ظاهرة فريدة في الأدب العربي هي ظاهرة أدب المقاومة، ظاهرة لم تكن موجودة بشكلها ومضمونها اللذين وصلا إلينا، فمثل ذلك اضافة نوعية أغنت المحتوى الكفاحي والتحرري في الفكر والثقافة العربيين. تحلى سميح بسلوك اتسم بالبساطة، والخلق الكريم عبر فيه عن ثراء ثقافته، وعمق انتمائه، وصدق مشاعره، وحميمية أسرة حببته الى قرائه وأبناء شعبه الفلسطيني والعربي، وأكد بسلوكه كمتقف ان السلوك في ذروة تجلياته هو التعريف الحقيقي للمتقف، كان سميح هو النموذج والأمثلة، توفرت في شعره كل العناصر الفنية التي حولت معظم قصائده الى أغاني وأناشيد، وأيقونات، وصارت مسيرته الشعرية على مدى اكثر من خمسة عقود سجلا لمسيرة كفاح شعبه، ووثيقة سياسية واجتماعية ونضالية لكل المحطات التاريخية التي مر بها الشعب الفلسطيني. من الصعب الإحاطة بسيرة ومسيرة سميح في هذه العجالة، فابداع سميح الشعري يحتاج الى دراسات وكتب وليس مقالة مقتضبة، ولعلي اختتم كلامي بما هو شخصي، فقد رافقت فترة مرضه التي امتدت ثلاث سنوات ونصفاً، وكنت شاهداً على

صراعه الشجاع مع المرض، وقدرته على الصمود، وقوة الحياة في روحه، فقد ظل يتحلى بمعنويات عالية، وكان لديه تصميم على الانتصار في هذا الصراع، فمنذ ان اخبرنا البروفسور جمال زيدان الذي اشرف على علاجه قبل ما يزيد على ثلاث سنوات ان حالته خطيرة، وان أمامه ثلاثة شهور فقط قبل ان يودع الحياة، حاولت أيامها مع عدد من الأصدقاء إقناعه بسرعة إقامة حفل زفاف ابنه عمر الذي تم تأخيره بسبب مرضه، الا انه رفض وأصر على ان يكون الحفل في نهاية الصيف القادم، اي بعد تسعة شهور، كنا نود ادخال الفرحة الى قلبه، لكنه أراد ان يوحي لنا انه سيعيش وينتصر على المرض، وبالفعل جاء الصيف، وأقيم حفل الزفاف، وتزوج ابنه عمر، وأنجب له بعد عام حفيدا وهو ينحاز الى الحياة في مواجهة الموت، وخلال تدهور حالته في الآونة الأخيرة كنت أزوره، وكانت آخر زيارة في مستشفى صفا قبل ثلاثة أيام، وكان يومها في وضع مقبول، وعندما دخلت المستشفى وضعت على أنفي الكمامة التي يتعين وضعها لدى زيارة مريض يفتقر الى المناعة، دخلت عليه وانحنيت لكي اقبل جبينه، فمد يده وانزل الكمامة عن وجهي، وأصر على ان يقبلني. كنت اشعر في داخلي ان هذا اللقاء ربما يكون الأخير، وان حلاوة روحه هذه ناجمة عن مقاومته للموت، وفي جو مفعم بالحميمية سألني عن عائلتي وعن روايتي الجديدة التي سبق ان أخبرته انها قيد الإعداد، وعن العدوان في غزة، وتحدثنا عن أولادنا وأحفادنا، وفوجئت به يطلب من ابنه وطن الذي كان موجودا، فوجئت بانه يطلب من وطن ان يريني على هاتفه الذي مقطع فيديو يظهر فيه وهو يداعب حفيده. (سميح الصغير) ابن ولده عمر، في مشهد رائع يعيد سميح الجد الى فرح طفولي ما مر بذاكرة شاعر. رحل سميح ولكنه ظل ( باق في الرامة) كما ظل إميل حبيبي، الذي أوصى أن يكتب على شاهد قبره ( باق في حيفا )، الرامة التي عاش بها مع عائلته، كما عاش بها آباؤه وأجداده، سميح اختار منذ اكثر من عشرة أعوام مكان دفنه وضريره، اختار أرضا على تلة قريبة من بيته، وأعد لها لتكون قبره وحديقته، يطل منها على سهول وتلال فلسطين وطبيعتها الساحرة التي خلقها الله منذ الأزل، سميح يذهب هناك ليموت كما تموت الغزلان، لينام هناك مثل حبة قمح تغفو في باطن الأرض الطيبة والحنونة المجدولة بمسك الشهداء.

## سميح القاسم الشاعر والرسام... الى ان تكتمل الدائرة...

سعاد نصر - مخول

"حتى نكون متساوين حول مائدة المفاوضات ينبغي علي اولاً ان افصح العالم"  
بهذه العبارة يفتتح سميح القاسم ديوان شعره "الهي ، الهي ، لماذا قتلتني ؟" سرية. الذي صدر في حيفا  
عن مكتبة الاتحاد التعاونية.

وبنفس العبارة يزين شاعرنا لوحة الغلاف التي كان قد رسمها بنفسه لديوان شعره.  
علاقة نشاطي الفني بالحركة الثقافية الوطنية والمؤسسات الوطنية ابتدأت عندما قام الزميل نبيل  
عويضة الذي كان محرراً في مجلة الغد للشباب بنشر أعمالى الفنية كرسامة ، انا واختي التوأم تريز  
حين كنا لا نزال في الصف التاسع . ومنذ ذلك النشر ارتبطت اعمالنا الفنية بمؤسسات الحزب الشيوعي  
والمؤسسات الوطنية مثل لجنة الدفاع عن الاراضي، لجنة المبادرة الاسلامية والحركة الطلابية وغيرها،  
وكنا ننشر لوحاتنا ورسومات تعبيرية في مجلة الغد وجريدة الاتحاد ومجلة الجديد التي كان يرأسه  
تحريرها سميح القاسم.. وإضافة الى ذلك كنا نقوم باعداد البوسترات للمهرجانات والنشاطات العديدة  
التي كانت تنظم من قبل الحزب الشيوعي ونقوم برسم اللوحات التعبيرية لدواوين شعر وقصائد ،  
واعداد الديكورات لمسرحيات مختلفة.

ومن خلال النشاطات الحزبية والثقافية، التي أخذت مجراها في سياق النهوض الثقافي الالاف الذي شهدته  
حيفا في هذه الفترة ، في أطر مميزة مثل "حلقة الشباب" "والمسرح الناهض" ومجلة "الجديد" وغيرها  
ربطتني علاقة وثيقة مع الشاعر سميح القاسم، انعكست في التعاون الفني والثقافي بيننا. وكان هذا

الاطار الشبابي " حلقة الشباب " والذي استمر في مراكمة الوعي الثقافي التقدمي في حيفا لسنين طويلة جدا، ينظم النشاطات السياسية والاجتماعية والأدبية، وينشر فهما جديدا لثقافة ثورية بديلة من خلال الندوات والمحاضرات والاحتفالات . كان سميح القاسم يتردد على هذه النشاطات واللقاءات ويضفي عليها رونقا خاصا، ويضيف إليها جمالا نوعيا ، من خلال ما يتحفنا به من ثقافته الواسعة ، وخفة ظله وروحه الشعرية. وكان سميح لاذع العبارة والنقد ولكن بأسلوبه الخاص المرح والصريح ، احبه كل من عرفه..

لقد كان سميح القاسم انسانا واسع الافق مثقفا جدا وكان دائما يبدي رأيه بالاعمال الفنية التي كانت تنشر لي ولغيري من الفنانين.. وكان في كثير من الاحيان يقوم برسم سكتيشات ولوحات بأسلوب تجريدي والتي كان ينشر بعضها ضمن اصداراته ودواوين شعره.

فقد قام بتصميم لوحة الغلاف لديوانه " الهي الهي لماذا قتلتي " والتي تميزت بأسلوب غرافيكي تجريدي بعناصرها الرمزية الفلسطينية، وجمالية خطوطها والوانها، اضافة الى الشكل العام للوحة الذي يرمز الى الشخصية الفلسطينية التي تنتصب بوضوح مطلق وترسم من حولها دائرة عريضة لم تكتمل ... وترمز الى الانفتاح والصمود والتحدي .. وقد وجدت بين لوحاتي القديمة والتي احتفظ بها بالكامل، صورا لهذه اللوحة التي رسمها سميح القاسم وهي ما زالت في مرحلة البناء، وقبل ان يقوم بادخال الوان عليها.. حيث كنت قد قمت بمساعدته بتصميم الغلاف واعداده للطباعة. ولسنوات عديدة كانت هذه اللوحة معلقة في مكتبه. وكان الشاعر قد اهداني النسخة الاولى من هذا الديوان .

من بين الاعمال الفنية الاخرى للشاعر كان تصميمه للوحات الداخلية لديوانه

" احبك كما يشتهي الموت " الذي صدر في شباط ١٩٨٠، وتصميمه لوحة الغلاف واللوحات الداخلية لديوان شعره "كولاج" والذي صدر عام ١٩٨٣ عن مطبعة ابو رحمون في عكا. وقد تراوحت رسوماته في هذين الديوانين بين الرمزية المطلقة وبين الواقعية التجريدية حيث قام باستعمال رموز من التراث الشعبي الفلسطيني في لوحاته الرمزية، ووصف الواقع الفلسطيني المرير والمحاصر بأسلوب تجريدي. وهو ما ميز بشكل خاص لوحات ديوانه " احبك كما يشتهي الموت".

وتظهر جميع اللوحات في هذا الديوان محاطة باطار من الاسلاك والتي تسلط الضوء ايضا على الجانب الذاتي للشاعر . في حين يظهر في لوحة الغلاف لديوانه "كولاج" سلاح الدولة اليهودية موجها الى الانسان الفلسطيني. ومن يتأمل لوحات سميح القاسم يلاحظ جمالية الخطوط والاشكال وترابط الاشكال بالحروف والمعاني بايقاع يتدفق لتنساب الفكرة الى القارئ بسهولة ورقة.

ومن بين أعماله الفنية التي اعتز بها هي الرسومات التعبيرية التي رسمتها لديوانه "الصحراء" الذي صدر عن دار الاسوار في عكا عام ١٩٨٤. في تلك الفترة كان سميح القاسم يرأس جمعية الفنون، وكان

يشغل منصب رئيس اتحاد الكتاب العرب. وقد طلب مني ان اعد له مجموعة من اللوحات المستوحاة من ديوان شعره، وكان له الاثر الكبير في بلورة شكل ومضمون هذا العمل المشترك من خلال طرحه لفكرة وأسلوب اللوحات المرافقة للقائد.

وفي الفترة نفسها اعدت بطلب منه، لوحات تعبيرية لديوان الشاعر الفلسطيني معين بسيسو: "أبدأت تحصي أضلعك؟" وساهم سميح باختيار اللوحات التي رافقت قصائد الديوان والذي صدر عن دار النشر عربسك عام ١٩٨٣. ومن المفارقات المؤلمة، أنه في الوقت الذي كان فيه الديوان قيد الطباعة، صدمنا نبأ وفاة الشاعر معين بسيسو الذي لم يحظ برؤية ديوانه.

وفي عام ١٩٨٨ قمت بطلب من سميح القاسم - بتصميم غلاف "مجلة ٤٨"- مجلة اتحاد الكتاب العرب، مع اصدار العدد الاول منها. وهو تصميم أعتز به، وقد لاقى اعجابا كبيرا من اعضاء اتحاد الكتاب ومن القراء وما زلت احتفظ بأعداد من المجلة حتى يومنا هذا.

لقد تعددت اشكال الاعمال الفنية التي كنت اقوم بها بالتعاون مع الشاعر الكبير سميح القاسم وخصوصا حين شغل منصب رئيس تحرير مجلة "الجديد" ومحررا في جريدة الاتحاد. فإضافة الى الرسومات التعبيرية للعديد من القصاصد التي كانت تنشر له ولشعراء وأدباء آخرين في المجلات والجرائد، فقد كان يهتم بأن يفرّد مكانا بارزا للوحات فنية في صفحات مجلة الجديد وجريدة الاتحاد، وكان للوحاتي نصيب وافر منها. تلك المرحلة التي كانت الحركة الفنية في مدينة حيفا في تصاعد وكانت مدينة حيفا تحتضن العديد من الادباء والفنانين والممثلين والمسرحيين والسياسيين الذين تركوا بصماتهم على المجتمع العربي الفلسطيني. كان الشاعر سميح القاسم احد اعمدتها.

في عام ١٩٩٦ كان سميح القاسم قد انتقل للعمل في مدينة الناصرة ليشغل منصب الرئيس الفخري لجريدة كل العرب وبطلب منه قمت برسم بطاقة ليوم الطفل العالمي تناسب قصيدة أعدها خصيصا لهذه المناسبة، وهي قصيدة قصيرة وجميلة.. وكنت حينذاك أما لطفلي حنا وجنى، فاستوحيت صورة الطفولة بألوانها الدافئة منهما ومن قصيدة شاعرنا الكبير المفعممة بالحب والطموح، والتي تقول:

سَلْمِي لِلشَّمْسِ

عَيْنَانِ وَكِفَانِ وَقَلْبِ

وَدَمِي يَصْعَدُ لِلدَّفءِ وَاللَّنورِ

وَبَرْدِ اللَّيْلِ لَا يَرِحِمِ

والسلم صعب

غير أني قاطف تفاحة الشمس

ففيها ما أحب

وكان اخر لقاء لي مع الشاعر سميح القاسم قبل سنتين - ايار ٢٠١٢، حين قمت بتنظيم معرض "حيفا من هنا انطلقت .." بمناسبة مرور ٢٥٠ سنة على بناء "حيفا الجديدة" على يد ضاهر العمر.. ولم نعلم في حينه انه كان لقاء الوداع...

جاء الشاعر سميح القاسم والكاتب عصام خوري لزيارة المعرض . ودعوت الى استقباله في المعرض في كنيسة الملاك جبرائيل في منطقة حيفا العتيقة..حي محطة الكرمل، مجموعة من اصدقائه القدامى : الاستاذ فتحي فوراني الذي قرأ عليه كلمة جميلة جدا بعنوان "سميح القاسم في عيد ميلاده الخامسة والثلاثين" وقدم له بعضا من اصداراته، والمحامي علي رافع، والمحامي رضا عزام الذي شغل بالماضي مدير المسرح الناهض الذي كان يتردد عليه سميح القاسم، وعصام مخول .

كان اللقاء لقاء تاريخيا أو أصبح كذلك ، واستمر لساعات طويلة، تجاذبنا فيها مع الشاعر الكبير كثيرا من الذكريات والنقاشات، سعة مجالات اهتمامه وحضوره المكثف اللافت .. وقد ابدى شاعرنا سميح القاسم اهتماما كبيرا بالمعرض وأشار الى اهميته في ترسيخ تاريخنا وصمودنا كأقلية فلسطينية واهميتها في توعية الاجيال الجديدة.. و اشار الى الاهمية القصوى في نقل المعرض الى المناطق الفلسطينية المختلفة والى المجتمع الفلسطيني في الشتات.

وفي نهاية اللقاء قدمت للشاعر العزيز لوحة عن مدينة حيفا من أعمالي ، اختارها بنفسه من بين مجموعة اللوحات المعروضة .. على أن نلتقي في معارض قادمة في إطار مشروع "معرض المدن" .. وما لبث سميح القاسم أن وقف في نهاية اللقاء ليطلق مع أصدقائه القدامى ترنيمة جميلة في قلب كنيسة الملاك جبرائيل المرمة في محطة الكرمل ثم يغادر الكنيسة والمعرض ويترك لنا صدى ترنيمة الوداع ، مسرعا الى المجهول .. ومر قطار حيفا مسرعا وعلى وقع صفيره العالي، كان سميح يلوح بيديه ويقول الى اللقاء الى اللقاء يا أعزائي . (اللقاء موثق بشريط DVD).

لقد تركنا سميح القاسم دون ان تكتمل الدائرة التي رسمها على غلاف ديوانه "الهي الهي لماذا قتلتني"، تركنا وما زال شعبنا الفلسطيني يناضل ويقتل بشراسة .. تركنا وما زالت الدائرة مفتوحة تنزف دما .. لكنه رحل فبقي ، وكان فظل ... الى أن تكتمل الدائرة ...

حيفا ٢٥/٨/٢٠١٤









أوراق من الذاكرة



## أوراق من دفثري

هاني فحص

بسبب عشقي للغة العربية واهتمامي بتفاصيل عاشوراء وشهادة الحسين ، وحفظي لرواية الواقعة ، وتكرار تلاوتها ، عشت سنوات تلمذتي في المرحلة المتوسطة ، شيخاً على أهبة الذهاب الى الحوزة العلمية الدينية في النجف (العراق) التي لم أكن أعلم عنها شيئاً ، سوى أنها يتخرج منها ألوان من رجال الدين ، لون يهتم بالآخرة ، آخرته وآخرة الناس ، يريد أن يدخل الجنة ويدخل الآخرين بالقوة ، من دون سؤال ، ومن دون أن يرشدهم الى الطريق ، ولون كسول لم يحصل علماً يمكّنه من التوازن والموازنة بين الدين والدنيا ، فيتحول بابتذال الى الدنيا ، ويتحملة الناس لما يرمز اليه .. ولون مسكون بالماضي وقلق على المستقبل ، ميال الى التعلم من الناس عن قضايا العدالة والعلم والوطن والآخر والوحدة والتقدم الخ .. وضعت هذا اللون الأخير نصب عيني .. وذهبت الى النجف في تشرين الأول عام ١٩٦٣ م. حاملاً الشهادة المتوسطة ، التي تأخرت سنة عن موعد الحصول عليها ، لأن أولاد خالي أغروني بترك الدراسة والعمل في بيروت لمدة سنة ، تنقلت خلالها من شغل الى شغل مع فشل متكرر ، حتى استقرت لأشهر في تعلم مهنة الخياطة ، ولكن محيط أهلي اعترض عليّ ، لأني وحيد بالإضافة الى أن استعدادي للعلم لا بأس به ، وأعادي خالي الى المدرسة المتوسطة في النبطية ، قبل أن يهاجر الى افريقيا للعمل .

ولا أدري ، بل أدري ، أن خالي الذي ذهب الى ليبيريا خالي الذهن من أي صورة لها جغرافياً وعمرانياً وديموغرافياً وثقافياً وعلائقياً ، خصوصاً في ما يعود الى العمل وعلائقه وشروطه ووضع الجالية اللبنانية وطريقة حياتها وعملها ومشاعرها وصراعاتها ، لم يكن مندهشاً وحائراً أكثر مني عندما شرعت في التعرف على النجف . كنت قد بلغت الحلم قبل سنوات ، فانفتحت على الأحلام

، وهي بقدر ما هي جميلة تصبح قاسية عندما تتعد عن الواقع فتفتك بقدرتك على التعامل مع هذا الواقع ، تغيير الواقع بالحلم مستحيل . أما أن يتحول الحلم الى مناخ لحركة تغيير للواقع بشروطه وأدواته وأولوياته الداخلية ، فأمر محمود النتائج . لقد استمرت فترة الأحلام لدي زمناً طويلاً جداً ، جزء منه فترة اقامتي في النجف حتى عام ١٩٧٢ م. ما جعلني ، على عفويتي وحسن نيتي ، وهو ما يقرّ به

\*كاتب ومفكر من لبنان

حتى الذين اختلف معهم وأصرخ في وجوههم ، تحولت مع عدد من زملائي وأترابي الى جماعة شغب، شغب فكري . كنت كثير الاعتراض والاحتجاج والسؤال والجدل ، لا أعادي أحداً ، ولكن من يضمن أن لا يعاديك الذي تختلف معه وتصارحه ؟ إذا لم تكن دقيقاً في إدارة معركتك لتستطيع فصل العام عن الشخصي لديك ولدى الآخر .

وهكذا تحولت حواراتي وسجالاتي وجدالاتي مع أساتذتي وزملائي ، حول الشأن الديني والفقهني والحوزوي والأدي والسياسي الى مصدر للتقول عليّ في حياتي الدينية ، وإن كان كثيرون يسرون إليّ بأن لا أحد مقتنع بأني متهاون في شيء ، بل كنت متمزناً في الشأن المالي ، ومعتزلاً في الوقت نفسه على بعض المسلكيات في هذا المجال ، لأن ما عرفته عن الحوزة أنها في تاريخها كانت متشبثة باستقلاليتها ، والمدخل الى ذلك هو العفة في الأموال وعدم تلقيها كيفما اتفق . ومن هنا أصبح واقعها قائماً على أن أهلها وأهل الإبداع الحقيقي فيها هم الأشد فقراً ، أي عفة ، لأنهم يعوضون بالمعرفة عن ضيق ذات اليد .. ولم ألتفت إلا متأخراً الى أن أدائي لم يكن منسجماً مع مقاصدي ، وكان لي بانفعال أقل أن أ طرح أسئلتي المنهجية حول الحوزة باعتبارها حاضرة دينية علمية لا بد أن تديم حضورها بتجديد ذاتها على مقتضى التحديات العلمية والعملية ، وبذلك أتجنب التوتر والتوتر والوضع الإشكالي الذي قد لا يعطلك ، ولكنه يحرمك من أرباح مشروعة كثيرة في الفضاء المعرفي العام ، ويحرم محيطك من الإفادة من حساسيتك وطموحاتك واستشرافاتك .

هكذا قدر لي ، بعد فتور في حرارة القلب والعقل ، وميل الى التأني والروية والواقعية ، أن أشعر بأني حُرمت وحرمت نفسي من كثير من فوائد إقامتي في الحوزة ، ما عدت قبل عقدين من الزمان الى تعويضه ، فأخذت نفسي بالمتابعة اليومية ، وكأني ما زلت طالباً في النجف ، من دون أن أعطل حركتي المعرفية في الحقول المختلفة، حقول الحدائث والعلوم الإنسانية والفكر السياسي والآداب . كأني ذاتياً أعدت الوصلة بين الأصالة والتقليد وبين المعاصرة والتجديد ، ما كانت النجف بحاجة اليه .. وجعلني بعد ثلاث سنوات أنتمي الى كلية الفقه التي أسستها جمعية منتدى النشر ، التي

حملت لواء التجديد في النجف من دون قطيعة مع الذاكرة ، ودرست على مدى أربع سنوات برعاية أبي الروحي عميد الكلية السيد محمد تقي الحكيم . درست الفقه المقارن والقانون المقارن وعلم الاجتماع والتربية والنفس والفلسفة الاسلامية الحديثة والأدب العربي القديم والحديث الى جانب علم المنطق والأصول والفقه والبلاغة والتفسير والتاريخ ، وعلى أيدي أساتذة من مناشيء وسياقات مختلفة ولكنها مؤتلفة على تحصيل ونشر معرفة جامعة للتعهد والمتعدد على مقتضى التوحيد والوحدة .

كان أساتذتنا من علماء الحوزة وأدبائها ومن جامعة بغداد وجامعة القاهرة . استفدنا منهم كثيراً ، وكثر منهم من الآتين من خارج الحوزة شهدوا لنا بأنهم استفادوا منا .. إذن فقد انحلت مشكلتي جزئياً ، فهذه مساحة في الحوزة ، كلية الفقه ، مكان للاختلاف والحوار ، مكان للوصلة بين الذاكرة والرؤية ، بين الماضي والحاضر ، بين المنجز وإشكالياته وبين الذي ينتظر إنجازه على إشكاليته . وما لبثت أن تخرجت من كلية الفقه ، حتى عدت كلياً الى الحوزة ، التي لم أنقطع عنها . أي أي تابعت دروسي الحوزوية مع دروسي في الكلية، فكان عليّ أن أغرق ثانية في السجال الحوزوي ، على توتر اشد ، ذلك أي عدت من الكلية أكثر حماسة الى التغيير . ما يعني ان فترة الأحلام قد استمرت .. وأدركني الخوف ، لولا أن النظام العراقي أخذ يشدد قبضته على الحوزة لإلغائها أو استتباعها . ولأنه مغرق في تقليديته حتى الجمود أو التخلف التام ، قرر أن يتسلح بمظهريات حديثة في معركته مع الحوزة ، فوضع عينه من خلال أجهزته الأمنية على نماذج من طلبة العلوم الدينية ، مهجوسين بالتغيير وكثير من الاعتراض والسؤال . وكنت منهم . لم يراودني عن شيء ، وإنما قرروا أن يستثمروني من دون تواطؤ معي . مانعت فهددوني بالتسفير ولكن بعد التشهير والحبس ، والتهمة الجاهزة . فاستجبت مرة وشاركت في نشاط رسمي ديني أرادوه ضد الحوزة ، ولكنني احتطت بأن أجريت استشاراتي واتفاقاتي مع الأساسيين من أهل الحوزة وعلمائها وأساتذتي ، وانقيت شر الاستحواذ والاستخدام في حدود . وبعدها قررت أن أرحل ، أن أترك حياة العلم طمعاً بالنجاة . وهكذا كتب علينا أن تكون أنظمتنا التي تدعي التقدمية سداً للمعرفة والعلم لأنها وضعت الحرية في أسفل اهتماماتها ، وتخيّلت وربما تخيلنا معها أحياناً ، أن التقدم والوحدة والتحرر تتم من دون شرطها الانساني في الحرية .. من هنا كان يجب أن نرى الى مسألة الوحدة والنهضة وفلسطين والعدالة الخ .. ومن هنا كان يجب ألا تنطلي علينا الحيلة باستخدام الشأن القومي لمصالح أقل من قطرية ، لأن إنجاز دولنا الوطنية هو المدخل الطبيعي للنهوض القومي بالمعنى الاجتماعي لا بمعنى المشروع السياسي الاختزالي المدمر ، من هنا انعقدت علاقتي المبكرة ، وفي النجف تحديداً ، مع القضية الفلسطينية ، خصوصاً على مفصل النكسة ١٩٦٧ وشرعت مع مجموعة

من زملائي في البحث الدائب عن مدخل للإسهام بخطوة على طريق فلسطين .

وتهيأت لي مع بعض الأصدقاء والزملاء (عبد الهادي الحكيم ، فاضل الميلاني ، مسلم الجابري وهاشم الطالقاني) فرصة ذهبية ، والذين أعدوها لنا كانوا يعتبرونها كذلك . فالنكسة عام ١٩٦٧ تحد كبير جداً ، ويتركز هذا التحدي في أماكن كثيرة ، في الجغرافيا والتاريخ ، والسياسة والفكر والأدب الخ .. فهو تحد للفكر السياسي القومي واليساري الذي كشفته النكسة بعد عقود من الاستقلالات الوطنية والدولة والمعارضة والدعاوى ، وهو تحد للفكر الاسلامي الذي اقتصر في الفترة السابقة على الممانعة والمعادنة ضد أمراض الحداثة وعينه على إيجابياتها من دون أن يراكم أو يؤصل الإجابة عن أسئلة عصر النهضة ، ما أفسح في المجال لقوى اسلامية حركية سياسية من منطلقات ميدانية عامة ، على تواضع في محصولها المعرفي ، أن تتصدى لإعلان الاعتراض على الواقع السياسي والثقافي ، بدءاً من تأسيس الأخوان المسلمين أواخر العشرينات وصولاً الى تأسيس الحركة الحزبية في النجف ، عندما بلغ السيل الزبي مع الدولة اللادولة بعد الثورة ، حيث تحولت التقدمية في العراق الى اختزال الشعب والوطن والسياسة ، والى نهج تقويضي للموروث الفكري والديني من دون اختبار لصلاحية الأطروحة البديلة .

وقررت جمعية منتدى النشر وكلية الفقه أن تولينا كطلاب مهمة إصدار مجلة الكلية (النجف) بثوب جديد ومضمون جديد .. وتصدينا لمهمتنا بجد وحماسة معقولة . وكانت فلسطين هي المحور ، منها أطللنا نقدياً على الذات وعلى الآخر ، واستعدنا إيقاع أسئلة عصر النهضة وطموحاته ، مع إضافات مستجدة . وكانت المقاومة كرافعة كرامة حصرية بعد النكسة ، أهم ما اعتنينا به ، من ضمن جو حوزوي نجفي ملائم ومشجع من دون أن يمتد هذا التشجيع الى كل الأفكار التي ركزنا عليها ، وذلك يعود في ما يعود الى أن النجف ، على جاري عاداتها ، منذ الثورة الدستورية (١٩٠٦ م) بعد ثورة التنبك (١٨٩١م) الى ثورة العشرين ومقاومة الاحتلال الانكليزي ، وجدت نفسها معنية أكثر بالشأن العربي والاسلامي ومنسجمة مع تاريخها في ذلك . فاهتمت بالنكسة والمقاومة اهتماماً ملحوظاً . وفي لحظة كان النظام العراقي الجديد (١٩٦٨م) طري العود ، فعندما استحكم منعنا ومنع النجف من الاستمرار في ترسيخ ونشر أفكار المقاومة وسلوكياتها .. ولكن النجف ونحن منها ، كنا قد أنجزنا ما يحدد موقعنا وموقفنا .. استقبلت النجف المقاومين في ١٩٦٨/١/١ استقبلاً رائعاً .. وأفتت مرجعيتها بدعم المقاومة بكل شيء . بعدما كانت قد سيرت وفودها العلمية والفكرية الى أقطار اسلامية عديدة لاستنهاض الهمم في وجه الخطر الداهم فضلاً عن الجاثم ، وكنا عبر مجلة النجف نساهم في الجو العام ومن خلال نشاطنا الخاص ، ما أثار الكثيرين من دعاة الهدوء والبعد عن المغامرة ، وكان أكثرهم اعتراضاً علينا هم الذين فسروا هدوءهم سلوكياً بالإنحياز الى الاستبداد

، فذهب بعضهم الى شاه ايران واجداً فيه المثال . أما نحن فكنا قد شعبنا غضباً من تصرف الشاه أثناء حرب حزيران (الإمداد بالنفط) واستذكرنا موقف المعارضة الإيرانية ، والإمام الخميني رمزها أمام عيوننا منفيماً في النجف .. واستحضرنا موقف الشجب لشاه ايران ونظامه الذي تجرأ على اقامة علاقات علنية مع الكيان الصهيوني ، فكان ذلك مفصلاً في حركة الشعب الإيراني ضده ، ما جعله يرتكب جريمته المعروفة في /خرداد حزيران/ ١٩٦٣م.

الى ذلك فإن عملنا لم يرض القوى الحركية في النجف ، فتعرضنا لعملية تشهير ومضايقة شديدة .. وإنصافنا ، وإنصاف أساتذتنا وروادنا في هذا المجال يقتضي التوكيد بأننا لم نأثراً أبداً ومضينا .. والذي وضع حداً لنا هو الذي وضع حداً للنجف كلها ، أعني النظام، الذي منعنا عام ١٩٦٩ من تنظيم احتفال بذكرى معركة الكرامة واستشهاد (الأخضر العربي) المناضل في جنوب لبنان ، تحت طائلة العقوبة ، سجنًا وطردهً وتعذيباً .. فامتنعنا . وأصبحت المقاومة والقضية ملعباً للنظام ومزاجه المتقلب . وتوقفت مجلة النجف عن الصدور نهائياً حتى الآن ، بعد تسعة أعداد من سنتها التي توليناها فيها وحاولنا الانسجام والتميز فحققنا قليلاً من ذلك وانقطع طموحنا عن تحقيق الكثير . وعدت الى لبنان من النجف حاملاً معي حزمة من الهموم ، تمتد من تجديد الفكر الاسلامي الى نقد الحداثة ، على رغبة فيها مشروطة بالتوازن ، مع تسجيل نقد على التجربة العربية في أنها انشغلت بالتحديث من دون فكر أو سلوك حدائي ، فراكمت ماديات محددة بلا روح ، لم تلبث أن تحولت الى أعباء حضارية ، واحتاطت لأمرها بأن رفعت شعار (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) ليكون ذريعته الى تعطيل كل شيء ، الى تعطيل الحداثة ومسحها واستغلال الموروث لصالح تخلفها ، في حين بقي دعاة الحداثة مجرد حاملي أفكار معرضين لتشنجات المعارضة مرة وإغراءات السلطة مرة اخرى .

تواصلت ببطء مع حركة المقاومة. وبسبب من ذاكرتي الفكرية أو الفكرية القريبة المحمولة من النجف ، وبسبب تكويني الأدبي ، احتملت أن يكون المجال الأدبي مدخلاً الى الوفاء لاستشعاراتي بضرورات العمل المجدي . فتعاونت مع عدد من الأدباء والشعراء الذين حققوا اعترافاً بأنهم وعود حقيقية ، وأسست معهم "منتدى أدباء جبل عامل" وأذكر منهم وأعتذر ممن أنساه ، محمد علي شمس الدين ، الياس لحود ، شوقي بزيع ، حسن داود ، حمزة عبود ، حسن العبد الله ، محمد العبد الله ، عبد الكريم شمس الدين ، موسى شعيب ، عباس بيضون ، محمد علي وأحمد فرحات .. وكان يطل علينا شربل داغر من تنورين وعصام العبد الله وجهاد الزين وغيرهم. وفي مسوغات أو دواعي التأسيس ما كان مشتركاً بيننا من دون أن يكون مدخلاً لتواطئنا على العمل ، ألا وهو سعي "المجلس الثقافي للبنان الجنوبي" الى اختزال الحركة الأدبية والفكرية في جنوب لبنان ، الذي يضج بحيويات تاريخية وراهنة مهمة ، ما يعني ان الحزب الشيوعي من خلال النشاط المميز واليومي المتفرغ

للأستاذ حبيب صادق رئيس المجلس سوف يستحوذ ليوظف استحواذه في طريق سياسي بدا كأنه حصري واختزالي ، أي غير حقيقي.. ونشطنا بأسلوب مختلف .. ندوة لمدة يومين في النبطية قسمناها الى قسمين ، مداخل نظرية ونقدية ، وقراءات شعرية مميزة . وبقينا أشهراً نعقد ندواتنا على طريقة المشائين أو مسرح الشمس الأسباني الجديد .. في القرى وفي الهواء الطلق ، جلوساً على التراب أو الحصر حول أكواب الشاي الخاصة "الاستكانة" ( مصطلح تسرب من اللغة الروسية الى الفارسية ومن ايران الى النجف ومن النجف عبر العلماء وأسرههم الى جبل عامل) .. والمجلس مفتوح لأي مشاركة .. وكثيراً ما كان أناس عاديون يدخلون مجالسنا ويتفرون علينا .. كأننا كنا نحقق بعض ما طمح في تحقيقه لاحقاً مسرح الحكواتي وروجه عساف ، بحيث أتي وجدت نفسي في لحظة شريكاً في حدود جزئية (لاحقاً) في نشاط عساف والحكواتي . في هذه الأثناء كان السياب في ذاكرتنا جميعاً .. في حين توليت تعميم صلاح عبد الصبور الذي لم يكن مهملاً لدى الشركاء . أما بعض الروائيين وكتّاب القصة المتميزين الان في مصر خصوصاً ، مع بعض العراقيين ، فقد توليت التعريف بهم والاستشراف المشترك لمستقبلهم مع الشباب من خلال قراءتي لبعض انتاجهم المنشور في مجلة الهلال التي كنت أدوم على قراءتها منذ أواسط الستينات في النجف مع الآداب والفكر المعاصر والكاتب والطبعة والطريق والأديب والمعرفة .. وهكذا لم يفاجئنا لاحقاً جمال الغيطاني ، وابراهيم اصلان وعبد الحكيم دياب وصنع الله ابراهيم ومحمد خضير والطاهر وطار وموسى كريدي وأبو المعاطي أبو النجا الى الشعراء أمل دنقل ويوسف الصايغ وحسب الشيخ جعفر ومظفر النواب خاصة في شعره الشعبي الأثير لدي .

لقد اجتمعنا أو تجمعننا بعدما كان الشباب قد خاضوا غمار الجدل حول الفكر والفن والإبداع في كلية التربية في الجامعة اللبنانية ، متحلقين حول شيخهم أدونيس ، منفتحين على المطران جورج خضر .. منطلقين مع انطلاقة مجلة مواقف برئاسة سمير الصايغ .. وكنت حاملاً مثلهم للمؤتمرات الأدونيسية من النجف ، حيث شكل لبعضنا كل من أدونيس والسياب وعبد الصبور وخليل حاوي وسعيد عقل واحات تنفياً ظلالتها في صحرائنا الشاسعة ، ونقضي ليالي التقفية مع المتنبي وأبي تمام وشوقي والشريف الرضي ، ونعود صباحاً الى معاركنا حول القديم والحديث بقيادة أستاذنا ورفيقنا وخصمنا الدائم الشاعر العالم مصطفى جمال الدين ، حيث كانت لياطينا في منازلنا وصباحاتنا في كلية الفقه وأصالتنا في الرابطة الأدبية مصدر حيوية لنا ولمن حولنا ، حتى أن النجف الحوزة التي كانت تتوجس من حركتنا لم تبخل علينا بنظرة يشتهب فيها الشك بالإعجاب ، من هناك جئت مستظهِراً ديوان التحولات لأدونيس ، ما أهلني للدخول في الأسرة ، التي انفض بعضها عن قطبها بنسبة أو بأخرى من دون أن انفض معها . ولأكتسب الجنسية كان لا بد لي أن أكتب في "مواقف" ، مجلة أدونيس أوائل السبعينات ، وكتبت قصة قصيرة (احذروا التعامل مع الغجر) وتحمس الشباب



لمناقشتها ، وعقدنا الجلسة في منزل موسى شعيب في النبطية .. ودار النقاش وكان أكثرنا حماسة في النقاش (أحمد فرحات) الطويل الدمث والشفاف والعصبي أحياناً .. وناقش بطريقة لم ترقني فأحببت أن أمضي معه الى النهاية وبعد جدل طويل اعترف أحمد بأنه لم يقرأ القصة ونقدها بناء على فهمه لي كرجل دين إشكالي لا أكثر .

فجأة سافرت الى النجف مشاركاً في تشييع أحد العلماء ، قضيت اياماً اتفقت خلالها مع استاذي السيد محمد تقي الحكيم وصديقي السيد عدنان البكاء ، وكان قد اصبح عميداً لكلية الفقه ، وزميلي الصديق السيد عبد الهادي الحكيم ، على تشكيل فريق يعيد قراءة التراث (الموسوعات) للفرز بين المنتقضي من الماضي وما ليس بالضرورة أن يمضي وينقضي من هذا الماضي ، ونعيد طباعة ونشر ما ننتهي اليه مقروءاً على معايير نقدية منهجية أصلية متجددة . وبعد أيام من عودتي الى لبنان وضبت حقايب للسفر ، والتقينا في منزل الاستاذ محمد علي شمس الدين لنعالج استمرارية المنتدى .. واتفقنا على صيغة ، ولكن الشباب ظلوا على تحفظهم من كون دوري في المسألة مهما ، وقد لا يستطيعون الاستمرار.. تقديري أن السبب في هذا الفهم للمسألة ليس عائداً الى قدرات غير عادية لدي ، بل لأن هناك كما يبدو فرقاً شاسعاً بين الثقافة والقدرة الإبداعية وبين مستلزمات الإدارة ، وهذا ليس عيباً ، ذلك ان الإبداع له شروطه في المبدع وأهم شروطه الفريدة والفردية .. والناس يقدرون ذلك ويتحملون ما يبدو كأنه مزاج لدى المبدع ، في حين أنه راجع الى دخول الشك في تكوينه ، وعندما يصبح المبدع يقينياً ينتهي الإبداع .

وسافرت الى النجف وبعد اسبوع عدت بعدما اكتشفنا ان إمكانيات تنفيذ تصورنا العلمي قليلة بسبب حساسية متوقعة لدى الحوزة ، نستطيع أن نتفادها بشيء من المرونة والتروي ، ولكن عيون الأجهزة كانت قد أصبحت مفتوحة علينا ، وهي ، لأنها تطمح أن نكون في لفيها ، ليست على استعداد للتسامح معنا أو قبولها منا ما قد تقبله من خصومها الآخرين ، اي من سائر العلماء والمفكرين والأدباء المتمسكين بجذوع الحرية والاستقلال والكرامة وفروعها . وكان من المفترض أن أعود لممارسة دوري في تنمية منتدى أدباء جبل عامل .. ولكن هناك سببين ، احدهما مباشر والآخر غير مباشر ، جعلاني أنصرف عن هذا الشأن ، الأول أنني كنت منذ أسابيع ، قد لاحظت أنني فقدت التواصل مع أهل القرية ، وأنا إمامهم ، لأن الجلسة الأسبوعية مع الأدباء تمتد آثارها على مدى أسبوع لتطبع لغتي مفردات واهتمامات ومضامين . وحتى أتحقق من ذلك سألت والدي عما يقوله هو ويقوله الآخرون ممن اجتمع اليهم في المسجد أو الحسينية أو المنزل .. فعبر لي بطريقته عن وجود الأزمة التي توقعتها . اذن فما عليّ لأكمل مسيرتي الأدبية الإشكالية لأنها حداثية ، إلا أن أبدل في شروطتي ، وأول ذلك أن لا أتجشم وأجشم الناس عناء إمامتي لهم ، والثاني أن أبتعد عنهم في القرية

وهذا أمر صعب جداً، فبقي أن أنتقل من القرية الى المدينة . وهنا لعبت ظروف العيش ومستلزماته لعبتها ، فبقيت في القرية على مسافة من الحراك الأدبي ما كان لدى الشباب بداية لمكان ثقافي يكونون فيه ، وكانوا قد تخرجوا وأصبحوا موظفين ، أي ارتاحوا وأخذوا يبحثون عن المتاعب ، فعادوا وقيموا الحركة الوطنية واليسار عموماً ، ومالوا إلى إنصاف الحزب الشيوعي ، ودخلوا فيه ، ومنه دخلوا الى المجلس الثقافي للبنان الجنوبي -ذاته- ودخلوا في جدليات الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ وإن كانوا لم يتأخروا كثيراً في اكتشاف التناقضات ليعودوا أكثر حرية وتحرراً من الأوهام، واقرب الى الليبرالية، وأحياناً مع جنوح يميني (أعني أكثرهم هنا). والثاني ، اي السبب الثاني لعدم عودتي الى المنتدى لدى عودتي من النجف أواخر عام ١٩٧٢ ، هو أنني وجدت (الريجبي) ( شركة حصر التبغ والتنباك) تحت مظلة الطبقة السياسية الحاكمة في البلد قد شددت الحصار على تعب مزارعي التبغ ولقمة عيشهم ، وأنا حاشد بندوب في الروح والجسد من التبغ المر ، في حين أنني كنت أشعر بالمقت والتناقض لكوني رجل دين لا يمارس عملاً بدنياً ، بينما أُمي وشقيقتي ما زالتا تحلمان بيوم عطلة لتسهرًا قليلاً وتتأخرا في الصباح في نومهما قليلاً .. وينتهي الموسم ولا يبقى شيء .. ليبدأ المزارع الصغير من الصفر . وقرر المزارعون أن يحتجوا ويتظاهروا ، فتظاهروا في الايام الاخيرة من عام ١٩٧٢ واشتد غضبهم فتوجهوا نحو مركز الشركة في النبطية ودخلوه وحطموا بعض زجاج نوافذه، فحوصروا، وسارت تظاهرة ضخمة في المدينة لتفك الحصار، فأطلقت عليها النار، وسقط شهداء أمام عيني وأنا على نافذة مبنى شركة التبغ مع المحاصرين .. مع هذا اليوم بدأ تاريخ آخر في حياتي . ودخلت السجن .

وخرجت منه الى فلسطين والمقاومة وفتح لا كيند أهم أو أكثر أهمية في سلم أولوياتي ، بل كيند رئيسي منه واليه تتفرع وتصب كل البنود .. وإن كان هناك من كان ينهني الى أنه ليس من الضروري أن تكون القضية بديلاً عامودياً للمسألة الوطنية والمطلبية اللبنانية ، بل يمكن ويجب أن تتعرف الى حركة الجدل بينهما حتى لا تؤثر القطيعة مع المسألة اللبنانية الى الإفراط في الفلسطينية التي لا يناسبها التفریط بشيء من أجلها . وقد انتهت الى هذا الأمر متأخراً قليلاً . ومطمئناً الى تغلغل فلسطين في ذاكرتي وأشواقِي ودمي .

## أحلام

" وقال لها إنه كان لا يستطيع العيش إلا بالتنقل من حلم الى آخر "

ميلان كونديرا

إذن وصلت الى النجف الأشرف خريف عام ١٩٦٣م. ، وأنا في الأشهر الأولى من العام الثامن عشر

من عمري . وكنت قبل سفري اليها طلباً للعلوم الدينية ، قد أحببت ، في أول البلوغ أو قبيله بقليل ، أحببت كثيرات ، وأحبتهن كثيراً ، أحبتهن حتى الحذر الشديد من أن تلامس يدي يد إحداهن ، خوفاً عليها من الأذى ! وكنا قد تربينا على أن القيم والنوايا لها معادل مادي لا يفارقها . عندما سافرت حزمت أمر القلب ، وكأنه بيدي ! وقررت أن أقطع بينه وبين منازعه وعاداته ، توهماً مني بأن الدين ، الذي التقطت بعض مظاهره الملتبسة بالنقائص والنواقص ، والذي لم أكن أعرفه ، اكتشفت فيما بعد انه بحاجة الى معرفة دائمة والى تجديد المعرفة به والتجدد بها ، والى انجازه دوماً على موجبات العقل والقلب .. ، إذن فقد قطعت القلب وقطعت معه . توهماً مني بأن الدين يقع خارجه ، ولا يحفل بنبضه ، وأن المعرفة الدينية لها مكان حصري هو العقل ، الذي يعقل ، ويمنع ، (ويمنع القلب أول ما يمنع) ، لأن القلب يشطح ، ولا يتقن الحساب ، وله حساباته التي لا يعرف قواعدها حتى صاحبه ، لأفاجأ بأن الحب في المفهوم النجفي ، ومقتضى الدين ، هو شرط الدين وشرط العلم وزيت العقل ، ومن دونه يصبح العقل عقلاً ويصبح الانسان خراباً ، وتصبح الأرض يباباً .

في النجف ، رأيت الحجب ، والقطع والفصل (الا في حدود الضرورة) ، بين نصف المجتمع ونصفه ، متحدرًا من العادة التي كثيراً ما تتخطى الدين الى ما قبله ، والى ضده أو نقيضه أحياناً ، رأيت يشعل الرغبة ، ويعيد للمرأة ، من طريق آخر ، من طريق القلب عندما يصغي الى الجسد ويصغي اليه الجسد ، وتشبه الحاسة بالخاطرة ، أو الجانحة بالجارحة ، يعيد للمرأة بعضاً من حساسية موقعها الطبيعي في نظام الكون والحياة والمعرفة. فلا تبقى وظيفتها الحصرية والمثلى هي خدمة علم الرجل ، بل تصبح ضرورة توازن واتزان عصبي ونفسي وعلمي وأدبي واجتماعي وسياسي واقتصادي .. إذن لها المجد الذي لا يعترفون به الا مداورة ، ولا يلبثون أن يقصوها عن صعيد العلم ، لتعود مدججة بمركزيتها ومخزونها التكويني الفطري ، الذي يعادل العلم كثافة ويتجاوزه أثراً ، حتى إذا ما عاقرت العلم أثبتت أن خصب الرحم يفضي الى خصوبة المعرفة .

ويأتي المناخ الحار جداً والبارد جداً ، وشؤون الحياة اليومية ، واقتصار نظام العلائق اليومية على نمط فنوي مشوب أحياناً بألوان خفيفة من طيوف فئات أخرى (مدنية).. لتضيف الى الرغبة المشتعلة حسابات عيش واستقرار وتفرغ أو فراغ ، يبالغ فيها البعض للحصول السريع على الشريكة .

كتب أحدهم الى والده في لبنان يقول له : إن القمح في العراق يزرع موسمين ، فلم يفهم الوالد مراد ولده وحمد الله على النعمة .. فعاد الولد وكتب اليه قائلاً : إن النعجة في العراق تلد مرتين في السنة .. فردّ الوالد قائلاً : تبارك الله أحسن الخالقين .. فضاقت صبر الولد وكتب الى أبيه قائلاً : زوجونا بسرعة ، ولو ب... فزوجوه .

وكان صحي من الشيوخ الشبان أو الشبان الشيوخ قد ضحكوا ذات ليلة وتهامسوا في وتغامزوا علي .. سألت : ما الخبر ؟ فقالوا : اصدقنا القول ، وإلا كان مصيرك الى سفر: أنت لست من أسرة مشايخ ، لم يرسلك أهلك الى النجف تأميناً لاستمرار الأسرة وإكمالاً لمسيرتها وحفظاً لموقعها ، إذن ما الذي أتى بك ؟ لا بد أنك أحببت صبية من صبايا ضيعتك ولم ير فيك أهلها كفؤاً لها ، وعدمت الطريق اليها ، فأتيت الى النجف ، لتذهب منها باغراءات اللباس والملبوس من دين وعلم وموقع اجتماعي ويسر في حدود ما يتيسر ، فتصل عن طريق النجف الى مرادك ومرمى فؤادك .. سألت : وهل حدث مثل هذا مع غيري ؟ قالوا كثيراً .. فأكبرت الحب وما يصنع ، ثم قرأت قول الامام الصادق (ع) "وهل الدين إلا الحب" ، وشعرت بأن ما في داخلي حق ومشروع وحقيقي عندما قرأت قول الرسول الأعظم المصطفى الحبيب (ص) "استفت قلبك ، وإن أفتوك ، وإن أفتوك".

وهكذا عشت سنتين أحلم بالزواج ، بالثوب النظيف والطعام الشهي ، والذي سوف يكون بالقطع شهياً بالمقارنة مع اللبن الحامض والبندورة والخيار .. خياراتنا الغذائية شبه الحصرية ؛ الا اذا كانت هناك مناسبة و(قيمة) ودعينا اليها وقضينا لبنات الروح والجسد معاً . وعدت في الصيف الأول الى لبنان سعياً وراء الزواج فلم أوفق لأسباب عدة . وفي آخر الصيف الثاني حصل التوفيق .. وبعد الزواج أخذت أحلم بالولد ، لم ينغص على حلمي الا مترتبات الزواج من أجرة المنزل الى المصاريف اليومية الراتبية . ولم أكن محظياً لأنال عطف أصحاب القرار في الشأن المالي في الوسط اللبناني ، لأنني كنت قادماً من غير سياق المشيخة التقليدية ، كما كنت على قدر من النزوع الى الاستقلال والحرية والأسئلة التي تظهر لأهل المجتمعات القارة ، وكأنها انحراف يستدعي قمعاً ومنعاً لا حواراً .

وبعدما جاءني الولد صار الحلم يروح ويجيء بين سريره ومضجعي ، بين صحته ومرضه ، بين نومه وأرقى ، بين ضحكه وبكائه وخوفي وفرحي ، ويتجول مرتاحاً بين كلمة ملثوغة وكلمة مقلوبة تكسر نظام اللغة وعمودها وتعلن الشعر والورد .

في هذا الجو المفتوح على حوارات الحياة وجدالاتها وسجلاتها .. حدثت الحرب في حزيران ١٩٦٧ في يوم امتحاننا في مادة البلاغة (المعاني والبيان والبديع) .. وكانت النكسة التي كانت قبلها النكبة .. فاستولى علي حلم التحرير .

كانت زوجتي صابرة مقدره لظروفي وأحلامي ، من دون أن تشتت علي تقدير ظروفها وأحلامها حتى إذا ما قررت أن أفدر ظروفها ، اي بعد خراب البصرة ، وبعد أن لم يعد بإمكانني مراعاة ظروفها وتحقيق اليسير من توقعاتها فضلاً عن أحلامها ، كانت الفرصة قد فاتتني كما فاتتنا فرصة التحرير .. وكانت ، أي زوجتي ، تمسك بي خشية علي من السقوط عن السرير ، وأنا منتصب القامة مرفوع

الهامة وسطه ، وسط الليل ، ليلة بعد ليلة ، وسبابتي تلعب بهواء الغرفة الضيقة كما يلعب الشاعر بهواء الأحران ، وأعلن الجهاد حتى تحرير آخر شبر من أرض فلسطين . ولا أنسى لواء الأسكندرون ، كما أخبرتني زوجتي ، ولا ارتيريا ، وقد أمرّ في بعض الليالي على الأندلس "أندلس الأعماق، أندلس الطالع من دمشق يحمل للغرب حصاد الشرق" - أدونيس - .

مع بدء العمليات الفدائية ، وسماعنا الدائم الدؤوب للشيفرات في الاذاعة ، ذهب من الكلام في الهواء الى التكنولوجيا الناجعة والعمليات المدبرة ، صار حلمي أن أخوض عمليات عسكرية فدائية أخطط لها بسرية تامة وإتقان وإبداع لتدمير العدو في لحظة واحدة ، لم أكن أعرف مصادر علمي العسكري ، ولم أكن ، بعد قد قرأت كلاوز فتنز وكارلوس مارغويلا ، وعندما قرأتهما كان أثرهما علي أقرب الى أثر الشعر منه الى أثر علم الحرب ، أو "حرب الغوار".

وكانت الأهداف تتغير بين ليلة وأخرى ، بحسب تصوري الساذج لمركزية الهدف "ما زالت كذلك" أو بحسب مزاجي ، من الكنيست اليهودي الى مجلس الوزراء العبري ، الى الهستدورت الاسرائيلي ، الى قيادة الأركان الصهيونية ، الى مستودعات الذخيرة ، الى المفاعل النووي في ديمونة وعلي أعدائي يا رب .

ولأن هذه العمليات تحتاج الى قوة بشرية ماهرة ومعبأة ومدربة لا قبل لي بها ، قررت ذات منام أن أختزل المسألة وأختصر الطريق بأن أتحوّل بقدرة قادر ، الى انسان "بالستي" الى صاروخ هائل وخرافي (ربما كان ذلك مترسخاً من الحالة الكوسموبوليتية التي أتتني عدواها ممن عاشت من القوى القومية واليسارية والأممية والاسلامية العالمية) .. إذن صاروخ عملاق موجه ، مطيع وطني وفعال ، ينزل بدفع ذاتي ، أول الفجر في ليلة قمراء ، على قيادة الأركان الصهيونية فيدمرها حجراً حجراً ، وخريطة خريطة ، وإحداثية إحداثية ، وفرداً فرداً ، دفعة واحدة في ثانية أو أقل ، قبل أن يرتد اليك طرفك .

ويعم الإرباك الشديد صفوف العدو ، وعقله وجيشه واداراته وأمنه ، وجميع مؤسساته الرسمية والمدنية والأهلية ، وأخذ أنا ، على مهل ، باصطياد المواقع الحساسة في الكيان الغاصب ، وهي تتهاوى أمام ضرباتي وكأنها علب "كارتون" وأعصابي متماسكة وهادئة وباردة ، تخمري الثقة ، ويجليني التواضع ، والحرص الشديد على أن أبقى حياً لأرى أثر صنيعي في الناس والتاريخ ، أو أن أستشهد ، إنما بشرط أن يكون بإمكانني أن أرى الاحتفاء بجسدي الطاهر ، والاحتفال بفعلي الرائد ، وأسمع الكلمات والقصائد التي تقال فيّ .. وأستمع بذهول العالم ، وجهله اسمي ، وكل ليلة ، بعد العملية ، كنت أعود الى قريتي ، لا الى النجف ، لأرى أمائر الإعجاب المرتمسة على وجه أُمي

وأبي وأترابي والمختار وأعضاء المجلس البلدي .. الله .. الله .. إنهم لا يعرفون أي وراء كل هذا المجد القومي !! فما حالهم إن عرفوا !؟

بعد مشروع "روجرز" والحرب بين المقاومة والجيش الأردني ، أخذ الحلم يختلط بالمنغصات ولم يلبث أن أصبح ملتبساً بالكابوس ، فقد حلمت ذات ليلة بأني جالس في الصف الأمامي في استاد عربي ، والمناسبة هي احتفال عربي -إسرائيلي مشترك بالذكرى الأولى للوحدة الاندماجية ، والعياذ بالله ، وفجأة أخذت الطائرات الاسرائيلية من نوع "فانتوم" و"سكاي هوك" تغير على المكان وتدكه ، وتسقط منشورات تعلن ان حركة انفصالية قد حصلت بقيادة موشي دايان !

أويت الى عب زيتونة قرب منزلنا في جبشيت ، كنت أختبئ فيها عن عيون أترابي لعباً ، وعن أعين أمي خوفاً من عقوبة على إهمالي في نظافة البيت .

عندما تحولت أحلامي الى كوابيس متصلة ومتواصلة ، هربت الى القرآن والشعر والتاريخ والحوار اليومي والجدل المتوتر ، والمتابعة اليومية ، ورفع منسوب الوعي السياسي الذي كنت أفنقر اليه كثيراً ، وعندما تعاطيته لم أغتن منه أو به كثيراً ، على عكس ما سجله علي بعض الإطلاقيين من خطباء الاسلام السياسي ، من أي ذهبت الى النجف على خلفيات سياسية قومية واشتراكية ، في حين كنت عربياً بما هي العروبة انتماء ومكون ، ومسلماً بما هو الاسلام إيمان يذهب عميقاً في الداخل ، ويزهر في الخارج ، ويزدهر بالمعرفة والمحبة ، ولم أكن أميز بين حزب أممي وآخر ، أو حزب قومي وآخر ، أو حزب يميني وآخر ، أو بين حزب اسلامي وآخر ، كما لم أكن معنياً بالتمايزات من دون أن ينعكس ذلك موقفاً تفصيلياً من أهل الأحزاب وأفرادها .

إن السعي الى تحصيل الوعي أفضى بي الى أحلام اليقظة ربما لأن لها علاقة أقل تعقيداً وإشكالية باللاوعي والمكبوت والمسكوت عنه من الإحباطات ، وبالطبقات الغائرة في التكوين والوجدان ومنابع الوجد واللم والتباريح التي لا ترح وهكذا أخذت أختم صحواتي المكدره بحالة بين اليقظة والمنام ، وأخوض عملية التحرير يومياً بأشكال وسيناريوهات مختلفة وأحياناً متناقضة . وقد يتطور الأمر الى وضع شروط على عملية التحرير ، قد تطال السياسة اليمينية واليسارية والأنظمة التي أراها معيقة تهدف -الشروط- الى القضاء عليها وتصفيتها سياسياً او مادياً ، إن اقتضى الأمر ، لكن كراهيتي لمراى الدم الداخلي كانت تجعلني أراجع وأخفف شروطي .

بعد عودتي الى لبنان عام ١٩٧٢ ، بدت لي الإقامة الطويلة في الأحلام أمراً مضمناً ، فدخلت في مشروع أدبي ثقافي "منتدى أدباء جبل عامل" لكن صاحبي أيقظني من نومي على أزيز الطائرات المغيرة على مخيم النبطية الفلسطينية ، قبيل موعد على ندوة نقدية للشباب في نادي الشقيف ، وأدركت

أن الحائط مسدود فذهبت الى مزارعي التبغ ، الى أمي ، أعرض عليهم وعليها زيادة على الشراكة في الهم والتعب والسهر والمرارة وقلة المردود والشحوب والوهن ، المطالبة بحقهم ، فقتل بعضنا وسجنا ، وأحبطنا ، وتاجر بنا بعضهم وصادرنا آخرون ، فقلت في نفسي : لنعد الى التحرير مدخلاً الى التحرر ، وسيلاً الى الكرامة لأن اسرائيل هي العقدة ، وفلسطين هي القضية ، وانخرطت في المقاومة وفي الجدل اليومي بين الفعل المحرر والوجع المبرح وأصبحت قناعاتي مثلاً للتندر ، حتى سألني زميل وصديق : وماذا تريد ؟ قلت : يا أخي حرروا فلسطين بمساعدتي أو من دونها ، وأنا أذهب لأشتغل مبيضاً للنحاس .. وبقيت موعلاً في أحلامي ، وغير مواظب ، أو قليل الاكتراث بشؤوني الخاصة ، وبحاجات الأهل والجسد ، أريد فلسطين وأنتظرها وأضرب لها المواعيد ، ولا تصل ولا أصل . ربما كان هذا الآن كلاماً يندرج في قائمة الأدلة على (الفساد) لكن الوقائع والفتن والحروب الداخلية وداخل الداخل ، وداخل داخل الداخل ، والتكشفات وظهور العورات البنيوية في عمارتنا الفكرية والسياسية ، عادت فوضعتني على مسار الإحباط .. فماذا أفعل ؟

أنا مدمن أحلام .. حولت حلمي الى اتجاه آخر ، اتجاه تنموي نهضوي تربوي شامل ، وتدبرت لي مشروعاً ..

تستمر ، كما هو معروف ، الأزمات والحروب والتراجعات والانكشافات السياسية والفكرية والاقتصادية والفنية والأدبية والسلوكية والقومية والطائفية والوطنية .. فماذا أفعل ؟ قالوا لي: يا رجل روح دبر حالك ، كفاك وهمماً وإهمالاً لشأن أهلك وغراماً بالفقر .. طوعتهم .. فماذا أفعل: غيرت سياق الحلم مرة ثانية .. لأنني مريض بالحلم .. شخصته هذه المرة ، خصصته مع بداية الحديث عن الخصخصة ، غير أنني أبقيت على شيء من الرومانسية وعمومية المنفعة في البستان الواسع ، الذي اخترت له أرضاً في "الوطى" بين قريتي وقرى حاروف والدوير وأنصار وعبا والزرارية ، وهو مكان كنت منجذباً إليه ، وعلى حب مشوب بالكره أحياناً ، بسبب متاعب زراعة التبغ الليلية النهارية والتي تستغرق ١٤ شهراً من السنة الواحدة ، لأنه وعلى مدى سنتين من فتوتي ، استأجرنا رخصة تبغ من قرية عبا المجاورة وزرعنا، كما يقتضي قانون الريجي ، زرعنا تبغنا في وطي عبا وكنت أراه ليلياً ، وأنا أغالب النعاس فيغلبني وأنام على ظهر الدابة ، أو في طرف الحقل ، تحت شمس الصباح الحادة ، ومرة أفقت متورماً ، ظناً أنها لدغة أفعى والله سلمني ، وكنت أرى "الوطى" غابة من اللوكسات والأنوار المتصلة تتخللها أو تقطعها "العتابا والدلعونا والميجنا" تطلع من قلوب الصبايا القاطفات قبل حناجرهن ، وتحمل تعبهن ورائحة أحلامهن بالخلص والراحة والنوم الهائئ وبالفارسات الآتي ولو على ظهر حمار أسود .

وأخذت أقضي ساعة أو ساعتين من ليلي قبل النوم غارقاً في شؤون بستاني المرتهج .

بيت جميل ومتواضع في الوسط أمامه مساحة مخصصة لسيارات الزوار ، ومساحة أخرى بمثابة مصطبة للسمر وجلسات الصباح والأصيل ، متصلة بمساحة خضراء (كازون) ومسيجة بأنواع من الورد ، ثم صف من أشجار الظلال تليه مساحة مخصصة لزراعة الخضار الصيفية والشتوية والبنين بين ، من دون بيوت بلاستيكية ، ونقاش طويل ذاتي حول المساحة المخصصة لكل صنف منها وللأصناف الفرعية .

ويلي هذه المساحة مساحات من الأشجار المثمرة، خيمة من الكرمة ، والسياح الداخلي من أشجار الرمان واللوز ، تعرض أشجار الكرمة عليها وفيما بينها على الطريقة الريفية القديمة ، أي الفوضى الجميلة ، مع تخيل أو استحضار لخصل العنب الصغيرة المختبئة خلف الأغصان والمنسية حتى الخريف ، حيث يصبح الأبيض أحمر من شدة النضج وموشوماً بالسلاف بحيث يحسن العناية في البحث عنه والظفر به .

وبعد السياج نصل الى مشكلة ترتيب الأنواع الأخرى ، صفوفاً أو مربعات ، وفي أولوية تقديم أو تأخير صنف على آخر ، زيتون بلدي وطياني وزغلولي ، وتين عسلاني وبقراطي وبيضاوي وعصفوري وحمراي وسوداوي .. وافرنجي مبكر وشتوي متأخر ، وصيداني حرصاً على النكهة الحامضة ، مع تنويع من الخوخ والمشمش والزعرور والعناب والدراق والإجاص والتفاح والليمون والبرتقال وكم نخلة .. وهلم جرا .. وفي طرف من أطراف البستان بيوت صغيرة وشرعية للفلاحين مع تصور كامل لنمط العلاقة معهم ، حياة مشتركة ، كالعيش المشترك وحوار كالحوار الوطني ، أو حوار الحضارات ، وضمآن صحي واجتماعي وكفالة بتعليم أولادهم حتى المرحلة الجامعية ، من دون توقف عند مشكلة عدم إمكان اشتغال المتعلم الجامعي بالأرض ، والسعي لتزويج البنات والأولاد وتجهيزهم ، ومشاركة تامة في المأكل البلدي ، والملبس والمشرب والشاي والعمل واللعب والنزهة .. وعلى مقربة من بيوتهم مع مراعاة الأمور الصحية والبيئية ، مزارب للحيوانات اللبون (بقرة أو اثنتان) وقطيع أغنام وماعز .. وحملان وجداء كل سنة مع إمكان ترطيب الجو بعدد من الأرناب وسعدان إذا أمكن الأمر وغزال وغزالة .. وعلى مقربة من عالم الحيوانات اللبون قفص للطيور الداجنة ، دجاج بلدي بالدرجة الأولى وأوز وحمام ، ودجاج فرعوني ، وحجل وترغل وحساسين وبلابل وفري وسلوى ويهام وقطا وكناري وزوج من الببغاوات الرمادية الذكية ، ورف من طيور الحب من كل الألوان .

وفي الختام لا بد من اختيار وسائل النقل ، دراجة هوائية أو أكثر ، سيارة "بيك آب" وعربة خشبية "طنبر" يجرها حماران قويان مدلان ومذلان ، وسيارة "فولسفاغن" بيضاء وعدد من القطط والكلاب البلدية .. أما الأيام فلي منها مع الفلاحين في البستان أربعة أيام صافية ، ويوم



الجمعة للخواص من الأصدقاء وأهل الفكر والسياسة ، ويوم السبت للأهل مع ليلة الأحد ، للأولاد ولالأحفاد ومن يتصل بهم ، ويوم الأحد مفتوح .. ويرتاح الجميع في الطابق السفلي المدفأ شتاء ، وفي الخيمة التي تلي المنزل صيفاً متكئين على الأرائك مستلقين على الزرابي ، يروح عليهم ولدان مؤدبون بالماء والشاي والقهوة والزوفة والكاكو والزنجبيل والزعفران وعصير البرتقال والعنب والرمان .. وأمامهم الصواني حاشدة بالفواكه السائغة .

ويأتي طعام الفطور متأخراً قليلاً ، طمعاً بالمزيد من الاستهلاك بيضاً بلدياً وعسلاً غير معلوف ولبناً ولبنة وجبنة وكشكاً وزبدة وزعتراً أو سماقاً وزيتاً بلدياً مصفى ، ومرى وكبيساً ومكدوساً الخ .. وبعد الآذان والصلاة وتفقّد البستان ، من أوله الى آخره ومداعبة الحملان والجداء والبيغاء والغزال والسعدان والأرنب والركوب في الطنبر ، يأتي دور الغداء ويشتعّل الحطب اليابس ويعلو الدخان مفعماً برائحة الشواء .. ثلاث أيام هكذا .. وأنا أروح وأجيء بين الصبح مستبشراً ضاحكاً مهازحاً سائلاً عن الطلبات وعن الراحة ، صحتين ويا هلا .. وقليل من الوحل الأحمر اليابس يزين قميصي وبنطالي الكاكي والجزمة الجلدية السوداء المعدة للخوض في الوحل إبان السقي أو القطاف أو التعشيب .

وخلال تركيب الحلم أو تدبيجه أو نظمه أو تأليفه .. يمر ببالي الأدب والشعر والشعراء والنقد فأعين يوماً من كل شهر يأتي فيه الشعراء والأدباء والفنانون والمفكرون من كل المشارب والمذاهب ، تؤكداً لحسن التعدد والحوار والعيش المشترك ويأكلون لبناً وبيضاً ولحمياً بلدياً ويقولون قولاً وطنياً وذاتياً وزراعياً .

منذ سنتين وبعدها تبين للمرة السادسة ان السياسة في لبنان ليست استمراراً ، بل هي قطائع يتخللها تصحيح بالخطأ الأكبر ، دب اليأس فينا ، ولكنني قررت المكابرة ، فأخذت أحلم حلماً أكثر تواضعاً وخصوصية ، ببيت في مساحة "دونم" واحد على مرتفع من مرتفعات ضيعتنا ، مكون من غرفة نوم فيها مكتبة صغيرة ، وصالون متوسط وغرفة لنوم الضيوف إن تأخروا وكانوا قلة ، ومصطبة شرقية صغيرة للعصاري ، وغربية للصباحات ، وأمام البيت خيمة كرمة من نوع واحد وشجرة تين عسلاني ، وعدد قليل من أشجار اللوز والرمان ، للأحفاد ، ومساحة للنعناع والبقدونس والهندباء والبقلة الحمقاء (الفرحين أو البويردة) وكفى .. ويوماً ، خلال هذه السنة الفارغة والمعلقة على السنة التي تليها ، على المستوى الوطني والقومي ، كنت غارقاً في حلمي المستقبلي الأخير ، أو شبه الأخير ، والله يستر ! فافتحمت زوجتي عليّ المكان والزمان والحال وطالبتني بمبلغ من المال وفاء لاستحقاق مستعجل . فوعدها أن أراجع في جريدة السفير ثم في النهار ثم في الحياة لعلي أجد شيئاً وإلا صبرت أسبوعاً ، ريثما تكون الاستكتابات قد نزلت وحيماً الى الحاسبة في الجريدة .. وكانت

الرطوبة قد بلغت مبلغها في بيروت ، والغبار المتصاعد في ورش الحفريات قد سد الأفق والرثة .. فقالت زوجتي : لو نذهب الى الضيعة .. وتذاكرنا معاً أن موقع بيت أبي في الضيعة ، في وسطها قرب الساحة وضجيج الميكروفونات اليومي لمناسبة ودون مناسبة ، يضيق علينا فرصة الراحة والهدوء ، فقضينا في النهاية شهراً من الصيف في الضيعة . ولكننا انتبهنا الى أننا لو كنا انتبهنا لبنينا بيتاً صغيراً لنا مستقلاً في الضيعة لراحتنا .. وكان ربك يديرها .

وعندما أخبرتها أنني ما زلت أحلم بذلك البيت الصغير والبعيد والجميل ، قالت لي : أما أنا فإني أندم ، وأجد مبرراً للاستمرار في ندمي ، ولا أجد مبرراً لإقامتك على الأحلام ، أنا ماضوية أستذكر وأنت مستقبلي تتوهم ناسياً أنك "الصيف ضعيت اللبن" وترجمتها بالعامية "قال علمناك مسحر.. فقال : خلص رمضان" .

توقف الحلم الموصل بالتكوين الريفي الذي يشكل بيئة ملائمة للنوستالجيا المخضبة بالإحباط والإصرار على اختراع الفرص التعويضية بواسطة المخيال الذي لم يمرض ، هو المرض ، وقد عاد مخيالي منذ أشهر الى عمله المعتاد ، ولكن على طريقة السبع الذي رأى ظله العظيم صباحاً فقرر أن يأكل جملاً وأخذ يبحث عن الجمال ، وكان حجم ظله يتضاءل مع مرور الزمن وارتفاع قرص الشمس في السماء ، حتى كان وقت الزوال واستواء الشمس على عمودها ، فاختفى ظل الأسد فأخذ يبحث عن فأر .. آخر أحلام يقظتي الذي وقعت فيه هو أن أصبح فجأة ، ومن دون لياقة بدنية أو تمرين أو منشطات كيميائية أو إيدولوجية عداء اسطورياً فأحصد كل ذهبيات الدورات الرياضية العربية والعالمية . ولكن ولدي الخير بشؤون الرياضة ، أكد لي أن ذلك مستحيل ، لأنه لا يجوز أن أشارك الا في عدد محدود من سباقات العدو ، حسب المسافات وتصنيفات دولية معروفة وملزمة .. إذن سيكون بإمكانني الحصول على عدد محدود .. وإلا فقد كان في نيتي أن أفتح الحلم على كل ألعاب القوى من السباحة بكل أشكالها ، الى رمي الكرة والقرص والرمح والقفز العريض والعالى فضلاً عن الأكروباتيك أو الجمباز الذي أتقنه من زمان .. الجمباز مصطلح يأتي من الفارسية واصله : كان باز .. اي اللاعب بروحه .. ومثله سر باز ، أي جندي ، أي لاعب برأسه .. ربما أضيفت رياضة العض على الأصابع الى المباريات وحينئذ بواقعية ، يصبح فوزي أكيداً .







## مراجعات



## Enzo Traverso: La fin de la modernite

Juvi Juive. Paris, La decouverte, 2013 , 190 pages

### نهاية الحداثة اليهودية

د. فيصل دراج

أصدر أنزو ترايفرسو عام ١٩٩٠ كتابه الهام : "الماركسيون والمسألة اليهودية"، الذي أظهر فيه معرفة واسعة بتاريخ الثقافة الأوروبية، والوجه الماركسي منها بشكل خاص، الذي احتل فيه اليهود موقعاً متميزاً، بدءاً بماركس ومروراً بجورج لوكاتش، وانتهاء بهربرت ماركوزه، الألماني الذي انتهى إلى الولايات المتحدة، والفرنسي مكسيم رودونسون، الذي نشر كتاباً شهيراً عن شخصية النبي العربي. ومهما يكن المنظور الذي عالج به الماركسيون المسألة اليهودية، فقد كان دور اليهود واضحاً في "الدوائر الماركسية"، كما لو كان "حس المثقفين اليهود النقدي" هو الذي دفعهم إلى الماركسية، أو كان خطابها النقدي الشامل هو الذي جذبهم إليها، كما يوحي المؤلف. بدا المثقف اليهودي، في الحالين، متمرداً - إن صح القول - يرفض الواقع الرأسمالي المسيطر ويدعو إلى بديل. وزاد الأمر وضوحاً "الثقل النظري" للمثقفين اليهود: ارنست بلوخ ولوكاتش في الفلسفة، روزا لوكسمبورغ في الاقتصاد والسياسة، وتروتسكي المنظر والقائد السياسي، فالتر بنيامين ومدرسة فرانكفورت الشهيرة، وصولاً إلى لوسيان جولدمان، عالم اجتماع الأدب، وإيريك فروم في علم النفس، ....

يدور كتاب ترايفرسو "نهاية الحداثة اليهودية" حول فكرتين أساسيتين، تقول الأولى منهما: إن المثقفين اليهود لعبوا دوراً نقدياً من القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، بقدر ما انجذب "اليهود" جميعاً إلى مظاهر الحداثة الاجتماعية: الاستقرار في المدن، الحراك الاجتماعي، التعددية اللغوية والتنقل بين بلدان مختلفة، والنزوع إلى الثقافة والاندراج في مجتمعاتهم وتمثل

حضارتها. أما الفكرة الثانية فتقول: أثر المثقفون اليهود، بعد منتصف القرن العشرين، الابتعاد عن التمرد والاندرج في المؤسسات الرأسمالية المسيطرة. فبعد أن أسهموا في تحويل الفكر التنويري إلى أممية اشتراكية، حال دورهم في الأحزاب الشيوعية، عادوا فانخرطوا في الفكر المسيطر، حال المحافظين الجدد في الولايات المتحدة، الذين احترقوا معاداة الشيوعية والحركات اليسارية.

ترافق هذا التحول بتبدلات في أمكنة الإقامة ومواقع "اللجوء"، فلم تعد أوروبا هي مركز الفعل الثقافي اليهودي، الذي اختار الولايات المتحدة وإسرائيل. أكثر من ذلك أن المثقف اليهودي، الذي بدا ثائراً وكوزموبوليتياً في طور معين، ونموذجه الأوضح ليون تروتسكي، أخذ دوره، لاحقاً، مثقفاً محافظاً وشديد المحافظة، حال هنري كيسنجر، على سبيل المثال.

وزّع المؤلف، وبشكل قلق، أسباب تحولات المثقف اليهودي، على مواضيع ثلاثة: ذبوع صورة "الهولوكوست"، التي حشرت "اليهود جميعاً" في زاوية معينة، في الحقبة النازية، وأرادت أن تشعل بهم النار، كما لو كان اليهودي يعرّف بيهوديته قبل فكره النظري وخياره السياسي. أما السبب الثاني فصدر عن نشوء "دولة إسرائيل"، حيث بدا لليهودي أن له دولة تفصل بينه وبين غيره من المثقفين. يقول ترايفرسو: "وضعت إسرائيل نهاية للحداثة اليهودية. ص: ١٤٧"، ذلك أنها نقلت اضطهاد اليهودي إلى الشعب الفلسطيني بأكمله، وجعلت المثقفين اليهود أو غالبيتهم، يبتعدون عن حلم المجتمع الإنساني العادل، ويقبلون، ولو نسبياً، بالدولة الإسرائيلية، ويقبلون أكثر بالسياسات الغربية التي اقتلعت الفلسطينيين من وطنهم. ويرجع السبب الثالث إلى نزوع اللاسامية إلى الانطفاء (ص: ١٠٧) فبعد أن كانت اللاسامية، وفي أوروبا الغربية بشكل خاص، ظاهرة اجتماعية، فإن صورة الهولوكوست، كما "ولادة إسرائيل"، همش انتشارها تهميشاً ملحوظاً.

لا ينسى المؤلف أيضاً أن يشرح تراجع اللاسامية بظاهرة "الرهاب من الإسلام"، التي صعدت في الغرب الرأسمالي في العقود الأخيرة. ومهما تكن أسبابه، فإن في موقف المثقفين اليهود منه، بشكل عام، ما يضيء قول المؤلف عن انتقالهم من محاربة الرأسمالية إلى محاربة ما يعارضها، وآية ذلك "الفلاسفة الجدد في فرنسا"، وغالبيتهم من اليهود، الذين اختصروا، في الربع الأخير من القرن الماضي، كتاب "رأس المال" لماركس في صيغة المعتقلات الستالينية (الجولاج)، حتى بدت الماركسية في ذاتها نظيراً للاستبداد. ولعل هذا الدور هو ما حوّل أندريه غلوكسمان، كما هنري ليفي، إلى نجمين ثقافيين "متعولمين"، يذيعان الأفكار المعادية للشيوعية في جملة من عواصم العالم.

يأتي النقد الأول لعمل ترايفرسو، وهو كتاب مجتهد منير معادٍ للعنصرية، من عمومية المصطلح، التي تساوي بين اليهود بعامة والمنظور الحداثي للعالم. ذلك أن هذه العمومية تنسى دور اليهود،



مثقفين كانوا أو سياسيين، في المؤسسات السياسية والاقتصادية الغربية. فقد كان البريطاني ديزرائيلي رجل دولة متنفذاً في نهاية القرن التاسع عشر، وهناك رجل الاقتصاد "روتشيلد"، الذي لعب دوراً متميزاً في استعمار فلسطين. ولعل موقف ترافيرسو المضطرب هو الذي أجبره على الإشارة إلى اندراج اليهود في الطبقات المسيطرة، منذ نهاية القرن التاسع عشر، في فرنسا وبريطانيا وغيرهما. فقد كان في الجمهورية الفرنسية الثالثة مكان لخبراء يهود وأعضاء في البرلمان ووزراء ورجال أموال واقتصاد. كما أن النخبة اليهودية دعمت اليمين الإيطالي عام ١٩٢٢ واقتربت من الفاشية. ولم يكن الحال مختلفاً في ألمانيا قبل صعود النازية، ناهيك أن دور اليهود المحافظ في الولايات المتحدة، الذي ساوق القرن العشرين من بداياته إلى اليوم. وعلى هذا فإن ما يدعى بالحادثة اليهودية المفترضة، لم تقتصر على مثقفين يهود "متمردين"، بل كان فيها مثقفون احترفوا المحافظة ومجابهة الحركات النقدية والثورة. أكثر من ذلك أن اليهود لا يختصرون في مقولة "المثقفين"، فقد انتشروا، منذ قرون، في المؤسسات الاقتصادية والمالية. ولهذا فإن تفسير "نهاية الحادثة اليهودية" بصعود كراهية الإسلام في الغرب لا معنى له، ذلك أن هذه الحادثة مجرد افتراض نظري يجذب إلى ماركس والماركسية، وينسى البنى الاقتصادية والسياسية الرأسمالية، التي لعب اليهود فيها دوراً نشطاً.

ولا يستقيم القول تماماً حين ربط "نهاية الحادثة المفترضة" بتراجع اللسامية، التي أخذ مكانها "رهاب الإسلام"، فهذه اللسامية لا تزال مزدهرة في بلدان أوروبية كثيرة، مثل ألمانيا والنمسا واليونان. ولعل إدراك مؤلف الكتاب لتناقضاته المتعددة، هو الذي يدفعه إلى الحديث عن "كراهية اليهودية"، كبديل عن اللسامية، على اعتبار أن في الأخيرة أصداء من "الماضي"، وأنه من الأفضل الاستعاضة عنها بمصطلح جديد!؟.

قاد تصور "الخصوصية اليهودية" المؤلف، إلى فصل المثقفين اليهود عن غيرهم، معتبراً أن نهاية الحادثة اليهودية صادرة عن أسباب خاصة بالمثقفين اليهود، ناسياً أن النزوع الثقافي الكوني، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، كما صعود العولمة، ينطبق على المثقفين اليهود وغيرهم. فالابتعاد عن الماركسية ليس شأنًا خاصاً بالمثقفين اليهود، إنما يشمل المثقفين، بشكل عام، حيث ذهب البعض إلى الليبرالية، واكتفى بعض آخر بأشكال مختلفة من الزهد والإحباط، إضافة إلى فئة تالته رأت في الثقافة عملاً تقنياً مرجعه العرض والطلب. ولذلك كان عادياً أن ينصرف المثقفون اليهود عن الماركسية و "فلسفات التمرد"، وأن يتبقى منهم، حال غيرهم من المثقفين، عدد محدود، اعتنق الماركسية منذ زمن طويل، حال المؤرخ البريطاني الشهير إريك هبسباوم، الذي رحل وقد جاوز التسعين، أو عالم اللغة الأمريكي ناحوم تشومسكي، وهو عجوز آخر، احترف معاداة السياسة الأمريكية. أو بعض الفلاسفة الفرنسيين، الذي انضموا إلى الحزب الشيوعي في الستينات الراحلة،

وانفصلوا عنه لاحقاً، مثل جاك بيديه وإيتين باليبار، وذلك الاقتصادي الأمريكي العجوز: إيمانويل فالتر شتاين،....

وواقع الأمر أن في خطاب ترايفرسو ما يوحى بأن كل يهودي، قبل منتصف القرن العشرين، كان حداثياً، وأن كل يهودي ماركسي كان ماركسياً متسقاً، كما لو كانت حداثة اليهودي، كما ماركسيته، من جوهره اليهودي. وهو كلام أقرب إلى الميتافيزيقا. ربما يكون في الماركسيين الذين انشقوا عن أحزابهم الشيوعية في أوروبا الشرقية، بعد حرب ١٩٦٧، ما يعطي صورة عن "ماركسية براجماتية"، تنتسب إلى الماركسية وإلى مصالح "الدولة اليهودية" معاً. والأمثلة في هذا المجال كثيرة، ليست أكثرها شهرة "مدرسة بودابست"، التي كان أعضاؤها ماركسيين "متشددين" فترة، وانتهت إلى "مدرسة منفلة"، تعطف الرأسمالية على الصهيونية وتوحد بين الديمقراطية والتعصب اليهودي، وتحتاج إلى ماركس في "تقميمشات نظرية" بين حين وآخر.

ربما يكون في جملة "وضع قيام دولة إسرائيل نهاية للحداثة اليهودية" ما يثير أكثر من السؤال: ففي هذه الأطروحة بعد نقدي صحيح، "فلا حداثة مع استعمار"، وفيها أيضاً التباس أكيد، ذلك أن اليهود المستوطنين بدأوا بمصادرة الأراضي الفلسطينية قبل قيام إسرائيل بعدة عقود. مع ذلك، فإن موقف ترايفرسو يقوِّض أطروحات صهيونية، أو متقاطعة معها، عاشت زمناً طويلاً، اعتبر أنصارها أن الدعوة إلى دولة يهودية موقفاً حداثياً، يتفق مع صعود الوعي القومي في أوروبا، الذي جسّد ذاته في دول قومية. إذ كان في خطاب ترايفرسو ما يضعف المزاعم الصهيونية، فإن في ممارسات الدولة الصهيونية ما يقوِّض كلياً دعاوى التحرر والاستقلال الوطني وبناء "الوطن القومي".

## المرأة والحصار... كتاب "الحصار" لمي الصايغ أمودجًا

محمود شقير

كيف تتصرّف المرأة أثناء الحرب؟ وما هي المهمّات التي يمكنها الاضطلاع بها أثناء الحصار الذي يفرضه الغزاة على المدنيين؟ وكيف تتصرّف المرأة حينما تكون امرأة مبدعة أثناء الحصار؟ تطرح هذه الأسئلة نفسها ونحن نناقش كتاب "الحصار" لمي الصايغ، الذي تفرد فيه مؤلفته مساحة كافية للنساء الفلسطينيات واللبنانيات أثناء تجربة العيش في أتون معركة غير متكافئة ومن أشد المعارك ضراوة.

ذلك أنّ حصار بيروت، الذي وقع صيف العام ١٩٨٢ جزاء العدوان الإسرائيلي على لبنان، لتصفية منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، كان أبشع حصار تعرّض لها الشعبان اللبناني والفلسطيني قبل الحصار المفروض على قطاع غزة الآن، فقد دام هذا الحصار كما هو معلوم ما يقارب ثلاثة أشهر، كانت بيروت أثناءها تتعرّض لقصف وحشي من الجو والبحر والبر، وكانت أبسط مستلزمات الحياة من ماء وخبز وكهرباء غير متوافرة إلا بصعوبة، وطال الدمار بيوتًا كثيرة، ما جعل الكثيرين من أهل المدينة مضطرين للنوم في العراء، وما جعل أزمة السكن تتفاقم على نحو غير مسبوق، بسبب نزوح أعداد كبيرة من أهالي الجنوب اللبناني إلى العاصمة، التي اعتقدوا أنها أكثر أمنًا، بعد اجتياح دبابات العدو الإسرائيلي لمدينتهم وقراهم، ولمخيمات الفلسطينيين في الجنوب سواء بسواء.

وقد بادر عدد من الكاتبات والكتاب اللبنانيين والفلسطينيين، الذين عاشوا الحصار يومًا بيوم وساعة بساعة، إلى التطرّق لأيام الحصار القاسية، في أعمال أدبية شعرية وقصصية وروائية، وفي

مذكرات ويوميّات وسير ذاتية، نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر: "ذاكرة للنسيان" لمحمود درويش، "ثمانية وثمانون يوماً خلف متاريس بيروت" لمعين بسيسو، "آه يا بيروت" لرشاد أبو شاور، و"الحصار" لمي الصايغ .

وحيث أنّ كتاب مي الصايغ هو المستهدف في هذه المداخلة التي تسعى إلى تبيان دور المرأة بشكل عام والمرأة المبدعة بشكل خاص أثناء الحصار، فإنّ مجرد الحديث عن حصار بيروت وعن الكتب التي تناولت هذا الحصار، لا يمكن إلا أن يغري باستحضار كتاب محمود درويش إلى واجهة الكلام، وذلك لأنّ كلا الكتّابين، كتاب درويش وكتاب الصايغ، ينهل من معين تجربة عامّة واحدة، رغم أنّ كلّاً منهما يستوحي تجربته الخاصة في تلقّي الحصار، وفي تأمل ما يتركه في النفس من انفعالات وتصوّرات، وما يستتبع ذلك من تداعيات ومقارنات واستذكار لتجارب سابقة على الصعيد الشخصي وعلى الصعيد العام.

ولعلّ ما يغري بالتوقف عند كتاب درويش وأنا أتحدّث عن كتاب مي الصايغ، ليس الرغبة في المقارنة، وإنما تفسير بعض الجوانب في كتاب الصايغ في ضوء كتاب درويش، خصوصاً وأنّ كتاب "ذاكرة للنسيان" أسبق في الظهور إلى حيّز النشر من كتاب "الحصار" بسنتين تقريباً. فقد سبق لدرويش أن أصدر كتابه على شكل نص طويل في العدد المزدوج ٢١، ٢٢ من مجلة الكرمل العام ١٩٨٦ ثم ما لبث أن أصدر هذا النص في كتاب العام ١٩٨٧ بعد أن أجرى تعديلاً على العنوان الفرعي للنص، ففي حين كان عنوان النص: ذاكرة للنسيان/ المكان أب، الزمان بيروت، فقد أصبح عنوان الكتاب على النحو التالي: ذاكرة للنسيان/ المكان بيروت، الزمان أب.

وقد يصحّ التساؤل في هذه الحالة: هل تأثرت مي الصايغ بكتاب محمود درويش الذي كان أسبق من كتابها في تناول حصار بيروت؟ ومنذ البداية أشير إلى أنّ تأثر كاتب بكتاب آخر أمر مشروع ما دام غير واقع في باب التقليد. وما دام لمي الصايغ أسلوبها الخاص الذي يفتقر عن أسلوب محمود درويش، فلا غضاضة عليها إنّ تأثرت بالكتاب لجهة تحفيزها على رصد تجربتها الخاصة أثناء الحصار.

ففي حين يستعين محمود درويش بتقنيات الكتابة الروائية على نحو متقن، لكي يقدّم كتابه في قالب سردي رصين، وفي حين يستخدم أجزاء من سيرته الذاتية وبالذات قصة حبّه التي لم تكتمل ولا يمكنها أن تكتمل لفتاة يهودية تعرّف عليها في حيفا قبل ثلاث عشرة سنة من الحصار، لإضفاء حيوية على السرد ولتجنّب نصّه الجفاف المتوقّع من مجرد الاكتفاء بسرديات الوقائع الخارجية التي يمكن العثور عليها في الوثائق وفي المصادر الإعلامية المختلفة، فإنّ مي الصايغ أيضاً لا تكتفي بسردي

الوقائع الخارجية في كتابها، وهي لا تلبث بين الحين والآخر أن تتذكّر حياتها الخاصّة مع أمها وأهلها في غزة، إبّان الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزة العام ١٩٥٦، وهي تتذكّر بين الحين والآخر أبناءها الذين يعيشون في الخارج بسبب الدراسة في الجامعات، وتتحدّث عنهم بشكل حميم.

في كتاب "ذاكرة للنسيان"، نقرأ سيرة يوم في شهر آب من العام ١٩٨٢، ونرى رأي العين فداحة الآثار النفسية الناتجة عن القصف الإسرائيلي لبيروت طوال ذلك اليوم، وانعكاس هذا القصف على أمزجة الناس وتصرفاتهم وרגباتهم وأهوائهم. ولا يقف محمود درويش في كتابه عند حدود هذا اليوم بل إنه يخلّق في اتجاهات شتى، مضمّياً على نصه أبعاداً جمالية وفكرية تجعله كتاباً أدبياً متعدّد المستويات، ومن أجل ذلك فقد لجأ إلى الحلم، التذكّر، تداخل الأزمنة، استحضار الذكريات، والتناصّ باستخدام مقاطع من التوراة والإنجيل ومن كتابات ابن الأثير، ابن كثير، أسامة بن منقذ، وسيرفانتس.

وأثناء ذلك، اتخذ السرد لدى محمود درويش مستويات متعدّدة تبعاً للحالة الموصوفة ولما يلزمها من صياغات لغوية. مرّة تكون اللغة بسيطة مباشرة تعبّر عن وقائع عادية، ومرّة أخرى تكون اللغة شعرية متدفّقة حاملة مكتنزة بجماليات الصياغة الأدبية التي تقترب من تخوم الشعر. وحينما يحتاج درويش إلى تقديم وجهة نظر سياسية فيما يحدث، أو حينما يرغب في تقديم مادة سياسية، فإنّ لغة الشعر تختفي أو تكاد، لكي نظفر بمادة سياسية واضحة المرامي والغايات.

إنّ كتاب "ذاكرة للنسيان" بما اشتمل عليه من تقنيات ومن تعدّد في مستويات السرد، ومن تكثيف حيناً وإسهاب حيناً آخر، ومن طرح لقضايا سياسية وأدبية ووجودية وإنسانية، ومن مقاطع شعرية من قصائد تعتمل في نفس صاحبها، وستظهر في وقت لاحق على شكل قصائد مكتملة، يصدق عليه وصف: النصّ المفتوح الذي يستوعب عدداً من الأجناس الأدبية، ومن بينها جنس السيرة الذاتية المتماهي في صياغته الفنية مع السرد الروائي، وهو الأمر الذي أكسب كتاب محمود درويش وما زال يكسبه قيمة أدبية راقية.

في كتاب "الحصار" تستعين مي الصايغ بشكل اليوميّات للتعبير عن مشاهداتها، وعن الدور الذي اضطلعت به أثناء الحصار هي ونساء أخريات. ومع ذلك، فإنّ الكتاب يفيض عن شكل اليوميّات ويتجاوز محدودية هذا الشكل الكتابي، بما اشتمل عليه من وصف وتأمّلات ومن استخدام للتقطيع وتقديم المشاهد المتتالية، والاستعانة بالشعر لتعزيز بعض المواقف والحالات، فلغة الكاتبة تصبح خبرية تقريرية لدى نقل الأحداث اليومية أثناء العدوان، وهي لغة شعريّة جميلة لدى التعبير عن المشاعر أو التأمل في أحوال المدينة وأحوال الناس تحت الحصار

وهي تدخل بعض جوانب من سيرتها الذاتية في تفاصيل الكتاب، ما أكسبه مزيداً من الصدقية والجاذبية والإقناع، إذ تتحدث عن أبنائها وتبدي شوقها إليهم، لكنها تشعر بشيء من الارتياح لأنهم موجودون خارج حصار جحيم الحصار محض الصدفة. وتتحدث عن والدها ووالدها على نحو يخفف من وطأة الرصد التقريري للوقائع الخارجية. كما تتحدث عن زوجها بين الحين والآخر بطريقة ذكية، تسميه مرة: أبو حاتم، ومرة أخرى: محمد، ولا تشير مباشرة إلى أنه زوجها، غير أن السياق السردى يدل على ذلك. وهي بتعاملها مع شخصية أبي حاتم على هذا النحو، بدت كما لو أنها تسند لهذه الشخصية مهمة الضمير اليقظ، الذي يظهر في اللحظة الفاصلة ليقدم نصيحة أو رأياً سياسياً رصيناً أو نبوءة صادقة الخ... علاوة على ما في هذا الموقف من احترام للرجل الذي يصمد في الشدائد، ويظل محتفظاً باتزان وبعدم فقدانه للبوصلية في أصعب الأوقات.

وفي الكتاب، إبرازٌ لدور الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، ولدور المرأة الفلسطينية واللبنانية أثناء الحصار، حيث الاهتمام اليومي بمساعدة الجرحى وتقديم التموين والإعتناء بنظافة الأمكنة، وإلى جانب هذه المهام الإنسانية والنضالية، فثمة حرص من الكاتبة على حضور الاجتماعات السياسية والتنظيمية، وعلى إرسال الرسائل إلى منظمات نسوية وإلى جهات أخرى في العالم لحثها على التضامن مع بيروت المحاصرة ومع شعبها الصامد تحت الحصار.

وفي الكتاب، إبرازٌ لموقف الكاتبة نفسها من الأطفال وحرصها عليهم وتعاطفها معهم، وكذلك إبراز لمواقف نساء أخريات تجاه أطفالهن وتجاه الأطفال الآخرين تحت القصف وفي المستشفيات الخ... وقد يصح القول إن الكاتبة أكثر من رصد الوقائع الخارجية التي أثقلت على القيمة الأدبية لكتابها، ويبدو أن ما دفعها إلى الإكثار من هذه الوقائع، رغبتها في توثيق الجرائم التي ارتكبتها المعتدون الصهاينة ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني جزاء عدوانهم على لبنان وحصارهم لعاصمته بيروت.

وفي كتابها، تبدو مي الصايغ ملتزمة حتى النهاية بأفكارها الوطنية التقدمية وبطريقة صياغة هذه الأفكار ضمن منظور الواقعية الاشتراكية وتجلياتها في الأدب كما وصلت إلينا أو كما فهمناها أوائل ستينات وسبعينات القرن العشرين. فالكتاب ينتهي نهاية فيها تفاؤل ومجدد للمقاومة وللفدائيين ولبيروت، وهي تطرح وجهة نظرها السياسية بصراحة ضد التسوية وضد الخروج من بيروت حينما كان موضوع الخروج منها يناقش في دوائر ضيقة لدى القيادة الفلسطينية.

وهي تنهي كتابها بقصيدة طويلة عنوانها "الرحيل" تظهر فيها نزعة التفاؤل على نحو مؤكد، وتختتمها وتختتم الكتاب على النحو التالي:

والآن

وأنت مالك التراب والهواء

وأنت أيها المستيقظ الوحيد من العراء

تدق أول المدن

وترفع الزمن

على هياكل الأحباب والسفن

بيروت فيك

تهزمُ الزمن

ولعلّ هذه النزعة الانتصارية المتفائلة تغرينا بالنظر إلى نهاية كتاب "ذاكرة للنسيان"، حيث يبدو الفارق بين نظرة كل من درويش والصايغ إلى الواقع وإلى طريقة تجسيده في الأدب، فقد ثابر محمود درويش في مطلع حياته الأدبية على كتابة قصائد يتبدى فيها التزامه بالواقعية الاشتراكية وبما تتطلبه من تفاعل وتبشير بانتصار القوى الصاعدة على قوى التخلف والهيمنة والعدوان والاستغلال، ثم ما لبث أن تخلى عن هذا الالتزام، أو عن هذا الشكل المتزمت من الالتزام، لقناعته بأنه يؤطر الأدب ضمن مقولات فكرية وسياسية تشكّل قيلاً على الأدب نفسه وعلى جمالياته، وبدلاً من ذلك راح يجذب الذهاب بعيداً نحو الولاء لإنسانية نصّه الأدبي الذي لا يتخلى عن الفكرة وإنما يسمو بها، ما يهبها انتشاراً واسعاً ودهومة أكيدة، بحيث لا يظلّ النصّ الأدبي سواء أكان نثراً أم شعراً أسير اللحظة الراهنة، ولا رهينة لمفاهيم نظرية قلّلت من رحابة الواقعية ومن قدرتها على الاستفادة من مدارس أدبية أخرى، وعلى استيعاب الحياة بكلّ ما فيها من تقلبات وأهواء وما فيها من هزائم وانتصارات.

لذلك، لا غرابة في أن ينتهي كتاب "ذاكرة للنسيان" بذلك النوع من التشاؤم الذي يحرض على طرح الأسئلة، حيث التناصّ مع التراث ممثلاً في سفينة نوح التي تقوم برحلة محكوم عليها بأن تنتهي إلى يقين يبشّر ببابسة ترسو عندها السفينة، في حين أنّ نهاية كتاب درويش لا تبشّر بأيّ يقين: "لا أحب البحر، لا أريد البحر، لأنني لا أرى ساحلاً ولا حمامة. لا أرى في البحر غير البحر، لا أرى ساحلاً. لا أرى حمامة".

هنا، يتخذ محمود درويش من الواقعة المتمثلة في خروج قادة منظمة التحرير الفلسطينية ومقاتليها من بيروت على متن السفن عبر البحر، متكاً لتصعيد نصّه الأدبي إلى أفق أشمل، لنصبح أمام مسألة

وجودية ترفض الأجوبة اليقينية، وتأخذنا إلى فضاء الرحلة الإنسانية الباحثة عن المعرفة عبر طرح المزيد من الأسئلة.

لهذا يبدو تشاؤم درويش في نهاية كتابه هذا، نوعاً من التعالي على الراهن المؤقت وما يفضي إليه من أفق محدود، لتحقيق رسالة الأدب في طرح الأسئلة المحرّضة على البحث عن الحقيقة، وليس الركون إلى تقديم الأجوبة. ولهذا كان سؤال درويش الكبير بعد بضع سنوات من كتابه هذا: لماذا تركت الحصان وحيداً؟ مفتتحاً بذلك مرحلة كبرى من مراحل تطوره الشعري التي عززت الحضور الكوني للقضية الفلسطينية.

وبغض النظر عن الكلام على نهاية كلّ من الكتابين، وعن الفرق بينهما المتأسس على نظرتين مختلفتين، وإن كانت كلّ واحدة من النظرتين تسعى بطريقتها الخاصة إلى خدمة القضية الفلسطينية، تظلّ لكتاب مي الصايغ أبعاده المؤثرة. فهي وإن قيّدت كتابها برصد الكثير من الوقائع الخارجية، فإنّ توثيق هذه الوقائع بسبب ما فيها من إدانة للغزو الإسرائيلي البربري للبنان، أمرٌ جدير بأن تطلع عليه الأجيال القادمة، وبأن يظلّ شهادة دامغة على عنصرية الغزاة الإسرائيليين ومعاداتهم للسلام العادل، ولكلّ ما هو طبيعي ومنطقي وإنساني في القضية الفلسطينية.

والكتاب إلى ذلك لم يكن مجرد رصد للوقائع الخارجية، ففيه تأملات في الموت وفي الحياة، وفيه كذلك تجليات للنص المفتوح الذي يعتمد على أكثر من جنس أدبي، وفيه لغة جميلة ومشاهد حميمة، مكتوبة بأسلوب يؤكّد قدرة الشاعرة مي الصايغ على اختزان أدقّ التفاصيل أثناء معاناتها اليومية من الحصار، ثم لا تلبث هذه التفاصيل أن تظهر على شكل نثر أدبي جميل.



## زمن الخيول البيضاء (الملهاة الفلسطينية)

ابراهيم نصر الله، الدار العربية للعلوم "الناشرون" (الطبعة الخامسة) بيروت ٢٠١١.

قراءة عبد الفتاح القلقيلي

اعتدت ان اعرض الكتب السياسية والفكرية اكثر من ان اعرض الروايات خاصة في مجلة دورية او فصلية مثل مجلتنا هذه، ولكن هذه الرواية (الصادرة في طبعتها الاولى في آواخر العام ٢٠٠٧ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، وتقع الرواية التي صمم غلافها ورسوماتها الداخلية الفنان التشكيلي البحريني احمد باقر في ٥١٠ صفحات من الحجم المتوسط)، فرضت نفسها علي وعلى المجلة، فلماذا؟

لأنها تنتمي الى الادب الفلسطيني الواقعي. وسنقدم مقدمة مقتضبة للادب الواقعي:

سئل نجيب محفوظ "اي رواياتك ستعيش اكثر بعدك، ولماذا؟". اجاب نجيب محفوظ: "ثلاثيني (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية)، وذلك لأنها ادب يؤرخ لمرحلة، لأنها ادب واقعي. والادب الواقعي فرض نفسه في الرواية في منتصف القرن التاسع عشر، واول مبادئه "انه على الروائي، قبل كل شيء، أن يدرس مظهر الأشخاص، ويسألهم، ويمحص أجوبتهم، ويدرس مساكنهم، ويستجوب الجيران، ثم يدون حججه واضعا حدا لتدخل الكاتب إلى أقل درجة ممكنة، فيكون المثال اختزال مقاصد الأشخاص، وإن الملاحظة الدقيقة هي عمل الروائيين الأساس (١).

وابراهيم نصر الله، كأنه يعلن التزامه بتلك القوانين حينما يقول في بداية روايته هذه: "في العام ١٩٨٥ بدأت العمل عليها إعدادا وتسجيل شهادات، وتكوين مكتبة خاصة بها. ولكن افضل ما يحدث ان الامور لا تسير حسب رغباتنا، اذ اصبح العمل الطويل عليها هو الباب الذي سُدخل منه خمس روايات ضمن هذا المشروع، وبهذا فإن الرواية التي كان من المتوقع ان تكون الأولى

اصبحت الاخيرة " (٢).

حينما يُذكر "فريدريك انجلز" تقفز للذهن صورته كأكبر مثقفي عصره واقربهم على الاطلاق من المفكر الكبير "كارل ماركس"، ولكننا نجده يقول عن الروائي الفرنسي "بلزاك" (استاذ الواقعية): "قد أعطانا في الكوميديا البشرية تاريخا واقعيا ممتازا للمجتمع الفرنسي، وصف فيه بدقة بالغة الفترة ما بين ١٨٤٨-١٩١٦. عاما بعد عام تقريبا، حيث قدم لنا لوحة تاريخية تعلمت من تفاصيلها الصغيرة مادة اقتصادية أعظم من كل ما قدمه المؤرخون ومحترفو الاحصائيات عن هذه الفترة" (٣).

ومن الجدير ملاحظته ان بلزاك جمع رواياته كموسوعة بعنوان "الكوميديا البشرية". وابراهيم نصر الله اعطى روايته هذه عنوان "الملهاة الفلسطينية"، فكانت الرواية كما قالت عنها سلمى الخضراء الجيوسي "الإلياذة الفلسطينية، لانها "تاريخ دقيق، غاية في الحساسية والتصوير المبدع للوضع الفلسطيني منذ ابتدأت نكبته بالاحتلال العثماني حتى اكتملت نكبته بالاحتلال الصهيوني سنة ١٩٤٨".

النكبة لم تبدأ عام ١٩٤٨، كما يعتقد المؤرخون، فقد بدأت منذ وطأ "الحافر" العثماني ارضها المقدسة، كما يكتشف المبدعون. وتكشف الرواية بوضوح اسباب النكبة وملابساتها وظروفها الطاغية.

تفرغ ابراهيم نصر الله ليسجل مآسي الشعب الفلسطيني: كيف حصلت، وكيف واجهها. وافترض ان بناء مقاومته لاعدائه (كأي بناء آخر) يقوم على اربعة اعمدة: مقاومة الحكم العثماني، ومقاومة الاستعمار البريطاني، ومقاومة الاستيطان الصهيوني، ومقاومة الطبقة القاهرة لشعبها (وخيله الاصيل) بالتعاون مع اعدائه الثلاث، كل في اوج غطرسته. فمثلا كان "حمدي يقاتل الى جانب العثمانيين في غزة، ولما رأى كفة الانجليز ترجح، غير اتجاه "فوهة بندقيته نحو زملائه، وصار مع الانجليز ضد الاتراك، ثم صار عميلا للانجليز ضد اهل قرية "الهادية" (ص٢٦٥). استطاع الكاتب ان يصل الى هذا المستوى من الاطلاع والشمول لانه راح يجمع شظايا الرواية الفلسطينية، ويعيد بناءها. ولكن الذي حدث، ان الامور سارت عكس رغباته، إذ ظهر له أن هذا البناء ليس "المأساة الفلسطينية" بل هو "الملهاة الفلسطينية". لم يحبطه ان الامور سارت على عكس ما توقع، بل قال في بداية روايته (ص٥) وان "افضل ما يحدث أن الامور لا تسير حسب رغباتنا (نحن الكتاب) دائما". كما انه اوضح في نهاية روايته (ص ٥٠٩) ان الملهاة قد تكون بمعنى "الأنس" او بمعنى "الاقتراب من الشيء". وفعل "لها" يعني انشغل، اي: "لها به" انشغل به، و"لها عنه" انشغل عنه. وربما قصد الكاتب من "الملهاة الفلسطينية" كل هذه المعاني المتناقضة. فقد انشغل الفلسطينيون عن قضيتهم

واعمدتها الرئيسة، كما انهم انشغلوا بها عن انفسهم وقضاياهم الشخصية... ولمعاصرة الاحتلالات الثلاث، تدرج الكاتب في شخصيات روايته لاجيال ثلاثة : الحاج محمود، ثم ابنه خالد، ثم محمود ابن الحاج خالد، وكل جيل كان يسلم الراية دون ان يركع للجيل الذي يليه: من الجد الى الابن الى الحفيد. ولكن، على ما يبدو ان ابراهيم نصر الله، اراد ان يقول في روايته " زمن الخيول البيضاء" كما قال ناجي علوش في كتابه "الحركة الوطنية الفلسطينية": "لقد خاض الشعب الفلسطيني نضالات رائعة، باءت جميعها بالفشل".

هناك الكثير من المقدمات و التمهيدات التي تتقافز في الذهن عندما يفكر المرء بتقديم عرض و قراءة لعمل مهم و كبير كرواية " زمن الخيول البيضاء " للشاعر و الكاتب الفلسطيني ابراهيم نصر الله، تلك الرواية التي توج بها سلسلة من الروايات الوطنية الشعبية أسماها "الملهاة الفلسطينية" حيث كانت (زمن الخيول البيضاء) السادسة بعد عدة أعمال هي :

"طيور الحذر" التي ألفها عام ١٩٩٦م

و "طفل الممحة" التي ألفها عام ٢٠٠٠م.

و "زيتون الشوارع" التي ألفها عام ٢٠٠٢ م

و "أعراس آمنة" التي ألفها عام ٢٠٠٤م

و "تحت شمس الضحى" التي ألفها عام ٢٠٠٤ م

ثم جاءت "زمن الخيول البيضاء" لتكون مسك الختام لهذه السلسلة حيث أنها عام ٢٠٠٧ م. لقد تم ترشيحها لا حقا لجائزة بونكر للرواية العربية إلا أن رواية "عزازيل" للكاتب المصري يوسف زيدان كانت هي التي احتلت المركز الأول في الجائزة. وذلك طبعا لا يقلل من قيمة الرواية التي نتحدث عنها.

وهنا لا بد من التذكير بأن "أعمال نصر الله تتوزع بين الشعر والرواية، فقد صدر له اكثر من خمسة عشر ديوانا شعريا حتى الآن، وروايته هذه (زمن الخيول البيضاء) هي روايته الثامنة، وترجمت اعماله الروائية الى الانجليزية، والايطالية، والدماركية، والالمانية، كما ترجمت بعض قصائده للغات اخرى منها البولندية، والتركية، والفرنسية، والالمانية، والاسبانية، والايطالية. وقد حصل على عدة جوائز مرموقة عن اعماله الشعرية والروائية" (٤).

.. يقول الكاتب في ملاحظاته التي سجلها في بداية العمل ما نصه : "أنجزت العمل على جمع الشهادات الشفوية الطويلة التي أفادت منها " زمن الخيول البيضاء " بشكل خاص، بين عامي ١٩٨٥

و ١٩٨٦ حيث قدم فيها عدد من الشهود الذين اقتلعوا من وطنهم و عاشوا في المنافي، شهاداتهم الحية عن تفاصيل حياتهم التي عاشوها في فلسطين، و من المحزن أن هؤلاء الشهود قد رحلوا جميعا عن عالمنا قبل أن تتحقق أمنيتهم الكبرى بالعودة إلى وطنهم، شهود من أربع قرى فلسطينية حلموا الحلم ذاته و ماتوا الميتة ذاتها : غرباء". واهدى الرواية لارواحهم.

كما اعتمدت الرواية على عدد كبير من المذكرات الشخصية لبعض من عاش في تلك الحقبة التي تناولتها الرواية منها على سبيل المثال ما ذكره الكاتب في ذيل الرواية: "مذكرات محمد عزت دروزة، و كتابه القضية الفلسطينية"، و"في خضم النضال العربي الفلسطيني لبهجت أبو غريبة"، و"مذكرات رشيد الحاج إبراهيم"، و"أعمال الباحث الفلسطيني نمر سرحان"، و "مذكرات فوزي القاوقجي"، وغيرها الكثير من المذكرات، والوثائق، والملاحظات التي سجلها عدد من الباحثين والمؤرخين .. قام إبراهيم نصر الله بحشد الكثير من الأوراق و الشهادات التي ساعدته في تكوين هذا العمل الأدبي الذي يمزج بين الواقعية والخيال .. بين اللغة العامية و الفصحى .. بين زمن الهدوء الفلسطيني والاحتلال الأجنبي .. ومن هنا تأتي قيمتها وأهميتها، فهي تؤرخ لمدة هامة جدا من "عمر" فلسطين..

يدخل القارئ الى الرواية من ثلاثة ابواب، وسمّا كل باب كتابا: كتاب الريح (ص٧)، وكتاب التراب (ص ١٨٣)، وكتاب البشر (ص ٣٩١). اما فصول الابواب فقد اعطاها عناوين تشبه عناوين الافلام او القصائد. كانت الابواب متقاربة السعة، اما الفصول فبعضها لم يتجاوز الصفحتين، بل لم يبلغهما. وكقارئ كنت اتمنى لو وضع في نهاية الرواية فهرسا مفصلا للفصول ليسهل على القارئ مراجعته. ان القارئ للباب الاول يخرج من الناحية الاجتماعية بحصيلة كثيفة ودقيقة من العادات والتقاليد في الريف الفلسطيني بما في ذلك "بروتوكولات" التضييف، واصول صب القهوة للضيوف (ص ٢٠)، وتقاليد طلب الزواج (ص ١٥)، ومحاولة التعايش بين الدينين الاسلامي والمسيحي (ص ٢٣). اما من الناحية السياسية، فيخرج بنتيجة مفادها ان الخروج على الأتراك لم يكن مبررا فقط، بل واجبا، فهم المسؤولون بأعمالهم السيئة عن هدم "دولة الخلافة"، وهم المسؤولون عن دفع سكان ولايات "دولة الخلافة" للتحالف مع البريطانيين ضدهم، أو على الأقل عدم الدفاع عن ولاياتهم أمام الغزاة الجدد. ويختار الكاتب لشخصيات الرواية اسماء ذات دلالة. ف"الهَبَاب" هو المرابي وملتمزم الضرائب للعثمانيين، ومتعهد بإذلال الناس (ص ٢٧).

أمّا الباب الثاني في الرواية فقد تحدث عن اوضاع البلاد في بداية عهد الانتداب البريطاني. هذا الانتداب هو الذي سهل الهجرة اليهودية الى فلسطين، تمهيدا لاقامة دولة اسرائيل تنفيذًا لوعده

بلفور المشؤوم، ولم يكتف البريطانيون بذلك، بل إنهم سمحوا للعصابات الصهيونية بالتدرب على السلاح وحمله، في حين كانوا يعدمون الفلسطينيين على رصاصة فارغة أو على سكين، كما ان البريطانيين سلموا كافة معسكراتهم وأسلحتهم للعصابات الصهيونية- بما فيها من اسلحة ثقيلة كالدبابات ومدافع الميدان وحتى الطائرات الحربية (ليلة انسحابهم من فلسطين). ويلاحظ القارئ لهذا الباب ان البريطانيين اعتمدوا في بسط سيطرتهم على بعض المنتفذين وجُلهم من الذين كانوا متعاونين مع الأتراك لتنفيذ الاعتداءات والمظالم التي وقعت على الشعب الفلسطيني، كما ان بعضهم كان من الاقطاعيين و"الكمرادور" (البرجوازية المرتبطة بالاحتلال).

كما ان الكاتب طرح بطريقة ذكية، دون مباشرة ودون خطابية، ان الكفاح الفلسطيني تركز في هذه المرحلة على مقاومة وطرد المستعمرين البريطانيين، مع انه كان هناك الوعي الكافي لمخاطر الهجرة اليهودية، وللأهداف الصهيونية في فلسطين والمنطقة، وقد رأينا في اكثر من مشهد كيف ان المقاومين الفلسطينيين لم يقتلوا أسراهم من اليهود الأصليين في هذه البلاد، والذين كانت علاقاتهم أخوية مع الفلسطينيين العرب المسلمين والمسيحيين، ففلسطين مهد الديانات السماوية، وبلد التعدديات الثقافية. وقد استشعر الفلسطينيون كما اليهود من اصل فلسطيني ان الشرور مصدرها اليهود المهاجرون من اوروا، كما تطرق الكاتب الى ان المستوطنين اليهود قد استولوا على أراض فلسطينية شاسعة بالخداع، وبدعم وحماية من المستعمرين البريطانيين.

ويتداخل الباب الثاني " التراب " مع الباب الثالث " البشر ". ففي هذه المرحلة بنى اليهود المستعمرات الاستيطانية، واقاموا الكيبوتسات الزراعية، وبنوا مؤسسات الدولة حتى قبل قيامها . وعندما ثبتت اقدامهم على الارض، بدأوا اعتداءاتهم على القرى والمدن العربية المجاورة، فقتلوا من قتلوا، ودمروا ما دمروا، واستولوا على مساحات جديدة من الاراضي، ونشروا الرعب في البلدات العربية في محاولة منهم لاجبار الفلسطينيين على ترك ارضهم لكي ينجوا بأرواحهم، وكل ذلك بدعم ومشاركة من قوات الانتداب، وبتحالف مع بعض العملاء ورجال الاقطاع .

ومن اللافت في ابواب الرواية الثلاثة ان أحد القواسم المشتركة فيها ان الفلسطينيين قاوموا الاحتلال الثلاثة، الأتراك والبريطانيين، والمستوطنين الصهاينة، وانهم (اي الفلسطينيين) تعرضوا لشتى انواع الاضطهاد والقمع من هذه الاحتلالات .

وعلى مدار " البابين " الثاني والثالث يُلاحظ كيف ان بعض "الرهبان" الاجانب خصوصا اليونانيين منهم، الذين كانوا يرأسون (ولا يزالون مفروضين على ابناء الطائفة الارثوذكسية)، قد استولوا على بعض الأراضي مستغلين جهل وبساطة الأهالي، وقاموا بتسريبها للمهاجرين اليهود الجدد.

والكاتب في روايته لا ينطلق من منطلقات طائفية، بل على العكس من ذلك، ابرز المواقف النضالية للمسيحيين من ابناء الشعب الفلسطيني الذين شاركوا في العملية الكفاحية المناهضة للمستعمرين البريطانيين وللمستوطنين اليهود، وركز على من سقط منهم في معارك الكفاح، كما ابرز المواقف الايجابية والمكافحة لبعض الرهبان العرب، وهو بهذا يؤكد على وحدة الشعب الفلسطيني بمختلف دياناته وطوائفه، ويطالب بطريقة غير مباشرة بتعريب الكنيسة .

وبما انه لا بد للرواية من مكان تدور فيه احداثها، فقد جعل الكاتب غالبية احداث الرواية تدور في قرية " الهادية " التي تخيلها الكاتب، وان كانت هذه الاحداث تمتد في طول فلسطين وعرضها، مع ان الكاتب ذكر اسماء مدن وقرى عديدة حقيقية، بعضها دمره اليهود بعد اقامة دولة اسرائيل، وبعضها لا يزال قائماً. ويبدو ان " الهادية " هي مركز فلسطين، بل هي قلب فلسطين، وما لجوء الكاتب الى "تخيُّل" الهادية الا محاولة كي لا يحصر النضال الفلسطيني في مكان بعينه، فكل قرية وكل مدينة في فلسطين هي الهادية، والعكس صحيح. وقد صوّر الزعامة الوطنية لعائلة الحاج محمود، والادارة (المخترة) لآل النجار المهادين للانجليز (وكانه يشير للحسيني والنشاشيبي في القدس).

اما من حيث شخصيات الرواية، فيؤكد الكاتب في ملاحظاته في مقدمة الرواية (كما اعتاد بقية الروائيين الواقعيين) ان " اسماء الشخصيات والعائلات غير حقيقية، واذا ورد تشابه بينها وبين شخصيات حقيقية، فذلك بمحض الصدفة " (ص5)، واعتقد انا ان هذه التقنية (الاسماء الوهمية) تسهّل على القارئ ان يسقط شخصيات الرواية على الشخصيات الحقيقية التي يعرفها وتشبه شخصيات الرواية، مع ان الكاتب أورد في الرواية، بعض الشخصيات المناضلة، أو " القيادات " المناضلة أو المتعاونة مع المحتل، كانت اسماؤها حقيقية، وهي مدونة في كتب التاريخ، كما هي مخزونة في الذاكرة الشعبية .

وعل كل لم يكن الكاتب حريصا على تواصل السرد حسب تواصل الاحداث، فأحيانا يأتي بنتائج الحدث (انجاب خالد ويسمين لابنتهم فاطمة)، ثم في فصل لاحق يأتي على احداث عرسهما، ليأتي بعد ذلك بفصل للحديث عن جبهما(ص ١١١-١١٤)، وذلك يذكرنا بتقنية "فلاش باك" في الافلام السينمائية.

كما ان الكاتب ابداع في "أنسنة" الخيول الاصيلة والجمال، فكما "أنسن" " الحمامة " (المهرة) في تعاملها مع خالد وطارق في بداية الرواية، "أنسن" مع ريحانة "الادهم" حسان زوجها (ص٩١)، و"أنسن" الجمل في تعامله مع فاطمة بنت خالد (ص١٩٩)، وان كان بالغ في "أنسنة" هذه الحيوانات الثلاث.

وما يورده الكاتب من حكم على لسان شخصيات روايته يذكرني بشعر ابي الطيب المتنبي الذي ملأ شعره حكما مازالت سائرة على ألسنة الناس. ومن حكم روايتنا هذه:

ما قاله الحاج محمود لابنه خالد (ص ٢٨) "المرء لا يستطيع ان يفقد شيئا هو في الاصل لغيره، والا سيعذب نفسه مرتين: مرة بجهله، ومرة بفقدان ما ليس له". وما قاله الحاج حسني لاهل "الهادية" (ص ٢٣) "ثلاثة انواع من الخدمة لاتعيب الرجل: خدمته لبيته، وخدمته لفرسه، وخدمته لضيفه"، وما اعتاد خالد على تكراره في مراحلہ الثلاث: يوم كان شابا يافعا، ويوم صار ابا، وحتى عندما صار جدا، وفي "ابواب" الرواية الثلاث. وهذه الحكمة هي: "انا لا اقاتل كي انتصر، بل كي لا يضيع حقي".

### الهوامش

١- "فيليب فان تيغيم"، المذاهب الادبية الكبرى في فرنسا"، ترجمة "فريد انطونيوس"، منشورات "عوييدات"، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٤٠.

٢- الرواية، ص ٥.

٣- ذكره صلاح فضل في كتابه "منهج الواقعية في الابداع الادبي"، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٣٣، ٣٤.

٤- جميل سلحوت (الحوار المتمدن)





## ملف

" في الذكرى العاشرة لفتوى محكمة العدل الدولية

حول الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة"

ندوة نظمتها مؤسسة ياسر عرفات

## "في الذكرى العاشرة لفتوى محكمة العدل الدولية حول الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة"

ندوة نظمتها مؤسسة ياسر عرفات

عقدت مؤسسة ياسر عرفات ندوة في الذكرى العاشرة لفتوى محكمة العدل الدولية حول الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة.

وقد جاء تزامن وقت الندوة مع الذكرى السادسة والستين للاقتلاع والنكبة التي هدفت تشريد وتدمير الشعب الفلسطيني ومقومات كيانه الوطني.

وقد تناولت الندوة التي أدارها السيد يحيى يخلف رئيس لجنة الدراسات في مؤسسة عرفات والسيد ايهاب بسيسو الناطق الرسمي باسم الإعلام الحكومي، أربعة محاور هي ما يلي:

الأول: قراءة في الفتوى في ضوء عدم إعمال أحكامها تحدث فيه د. ناصر القدوة رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات، مذكراً بوجود منظومة قانونية دولية متكاملة، وهي مشكلة من ثمانية وعشرين قراراً لمجلس الأمن ومئات القرارات من الجمعية العامة وهيئات الأمم المتحدة وكذلك مؤتمر الدول السامية المتعاقدة.

وهناك توافق دولي قانوني باعتبار الأرض الفلسطينية أرضاً محتلة تنطبق عليها اتفاقيات جنيف. قرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة تتعامل مع الاحتلال وإجراءاته والاستيطان باعتبارها جميعها إجراءات باطلة، وهي قرارات ملزمة بغض النظر تحت أي بند جاءت السادس أو السابع. والفتوى واضحة الالزام بتنفيذ الفتوى بالتوقف عن استكمال الجدار وإزالة ما بني منه، وقد قدم الأمين العام تقريراً في ٢٤ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٠٣ تضمن عدم التزام إسرائيل بتنفيذ قرار الفتوى.

كما طالب الدكتور القدوة بالعمل من أجل منع دخول منتجات المستوطنات إلى البلدان الأخرى وخاصة الأوروبية والعمل على منع الإعفاءات الضريبية على تلك المنتجات.

ورأى أن تعزيز المركز القانوني لدولة فلسطين في الأمم المتحدة وتطوير العضوية في المنظمات الدولية والانضمام للمعاهدات الدولية يمثل فعلاً متكاملًا من أجل تنفيذ قرارات الشرعية الدولية وصولاً لتحقيق الاستقلال الوطني وإزالة الاحتلال.

وقد عقب الدكتور كمال قبعة الأستاذ في القانون الدولي بجامعة الاستقلال مطالباً بتفعيل المنظومة القانونية الدولية الخاصة بالقضية الفلسطينية، وخصوصاً الفتوى بخصوص الجدار، وبالتركيز على مسؤولية الأمم المتحدة في حل القضية في جميع جوانبها، وجعل الفتوى جزءاً ملزماً في مساقات لكليات القانون، وتنشيط الهيئات واللجان التي انشئت بخصوص مقاومة الجدار.

كما عقب السيد جمال جمعة منسق الحملة الوطنية لمقاومة الجدار مشيراً أنه تم تمثيل مختلف قطاعات الشعب الفلسطيني في المؤتمرات واللقاءات من أجل مقاومة الجدار والمقاطعة، وطالب بعدم خضوع السلطة للضغوط من بعض القوى الدولية لمنع تنفيذ فتوى محكمة العدل الدولية.

### الثاني: برنامج عمل شعبي ورسمي لخلق آلية لتنفيذ أحكام الفتوى

تحدث السيد شعوان جبارين مدير عام مؤسسة الحق مطالباً بالتوجه بمضامين هذه الندوة للسياسيين الفلسطينيين وأن تدرس الفتوى لطلبة القانون وحتى درجة الماجستير، وأن يتم التركيز على التوعية بجميع القرارات والمواثيق الدولية، وهي كنز هام. وأشار إلى جدوى المتابعة على المستوى الدولي لخرق إسرائيل لالتزاماتها بموجب القرارات الدولية كما تم بسحب صندوق التقاعد الهولندي لاستثماراته مع العديد من الشركات الإسرائيلية وكذلك التأثير على شركات ومؤسسات استثمارية أخرى بسحب استثماراتها مع الشركات العاملة في المستوطنات والجدار.

كما تحدث الوزير ماهر غنيم مسؤول ملف الجدار مشيراً أن الجهد الرسمي والشعبي متكاملان، وأنه قد تم تأطير المبادرات وتنسيق الجهود. وعلى الصعيد الإعلامي هناك جهد مبرمج أحياناً، ومبادرات عفوية أحياناً وهو يحتاج إلى توحيد المصطلحات والمسميات وإلى النهوض بالأنشطة وبرمجتها في مقاومة الجدار من أجل تحقيق جدوى أكثر.

كما تحدث النائب مهيب عواد عن تجربة تسجيل وحصر أضرار الجدار، وتوحيد ذلك الجهد مع

بعثة الأمم المتحدة، وقال لا زلنا لم نستكمل تسجيل الأضرار العامة مع أنه تم تسجيل أكثر من (٤٦) ألف طلب، والعملية تتم بموجب قرارات الأمم المتحدة ووفق معاييرها. وأشار إلى أن الجدار بغض النظر عن مسمياته يريد إحكام القبضة على حياة الشعب الفلسطيني والسيطرة على أرضه. وقد عقب على الموضوع الأستاذ الكاتب والأديب سليمان ناطور مشيراً أن لدى الشعب الفلسطيني أوراقاً هامة جداً ليس فقط ضد الاحتلال بموجب القرارات الدولية وأشار إلى تزامن الندوة مع يوم النكبة لتشكيل حافزاً للاستثمار بما فيه الكفاية للقرارات الدولية ضد الاحتلال واستنكر كيف لا يثير الجدار الشعور بالاشمئزاز من هذه الجريمة لدى المواطن الإسرائيلي.

ولا شك أن للجدار أضراراً لدى الأفراد تعد بالآلاف وله ضرر عام على الشعب الفلسطيني كله. كما عقب الدكتور أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات بأن من الممكن أن يبني على الجهود وتطويرها على المستويات كافة شعبياً ورسماً، وأننا نرفض بناء الجدار تحت أي حجج أو مسميات حتى على حدود ١٩٦٧ فالمطلوب وكما عبر قداسة البابا مد جسور التواصل وليس إقامة الجدران. وأشار أن مؤسسة ياسر عرفات ستسجل كل المقترحات لتفعيل الفتوى لدراستها والعمل لتفعيلها وفق جهات الاختصاص رسمياً وشعبياً.

### الثالث: مقاطعة إسرائيل على الأصدقاء كافة: الاقتصادية والأكاديمية والثقافية

تحدث فيه البرفيسور ايلان بابيه العملية السلمية تعتبر معجزة طيبة، ماتت مرات عديدة ثم بعثت للحياة، وهي تجنب اسرائيل العزلة الدولية والمقاطعة العالمية وفرض العقوبات. وتمكن اسرائيل من الاستمرار في مشروع توسعها الاستيطاني في الضفة الغربية.

والعمل بسياسة الترانسفير، وهذا يشمل منطقة القدس الكبرى ويؤدي لخلق معطيات تمنع احتمالية اي حل مستقبلي وهذا ناتج عن الإنحياز الأمريكي، والعجز الاوروبي. وفي اسرائيل لا يمكن أن تتغير الطبقات العنصرية المتشددة أو أن تختفي كما في جنوب افريقيا العنصرية.

وتحدث في الموضوع، مركز مساواة في حيفا السيد جعفر فرح موضحاً أن الفلسطينيين جميعاً شركاء في إنهاء الاحتلال وضد المقترحات بيهودية الدولة، وقد قامت بعض الجماعات بتقويض محاولة صياغة تصور جماعي للفلسطينيين في الداخل، كما نعمل مع اليهود التقدميين ومع الآخرين لتحريرهم من فكر الاحتلال وعملنا على التواصل المشترك ضد الاحتلال.

وتساءل لماذا لا يشارك أفراد متضررون من الجدار والنساء في الحديث أمام هذه الندوة، وقد

عملنا ضد مشروع برافر ضد أهالي النقب وكذلك عدم إعادة أهالي قرى المثلث اقرت وكفر برعم، وجميع تلك المشاريع تستهدف إلى السيطرة على الأراضي. ولا بد من امتلاك تصورات مشتركة لدينا جميعاً لمواجهة ذلك وسحب الاستثمارات التي قد تدخل في الاستيطان وصناعة السلاح، والوصول إلى المطالبة بالتعويض عما لحق بالشعب الفلسطيني.

وتحدث في الموضوع السيد عمر البرغوثي من حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات وقد نبه إلى ضرورة أن ترى حقوق الشعب الفلسطيني جميعه حيث الذين يعيشون في الشتات ٥٠% و١٢% في الداخل و٣٨% في الضفة وغزة، وعناوين هذه الحقوق عودة اللاجئين واقامة الدولة المستقلة، وإنهاء السياسة العنصرية ضد الفلسطينيين في الداخل وأشار إلى نشاط المقاطعة وأن ذلك يتسع على المستوى الدولي إلى حد أن الرئيس الأمريكي قال لنتنياهو هو أن الولايات المتحدة تقدم كل الدعم لإسرائيل لكنها لا تستطيع حمايتكم من المقاطعة الدولية. وقد تبنت المقاطعة العديد من القوى كالمؤتمر الوطني الإفريقي والجامعات واتحادات المعلمين في الولايات المتحدة وإيرلندا وكندا وغيرها من الدول. وقد أثر ذلك على الاقتصاد الإسرائيلي وواجه خسارات هامة، ورغم ما تبذله إسرائيل من جهد لتحسين صورتها أصبحت تنافس على صورة ثالث أسوأ دولة في العالم. إن علينا أن نتجاوز الضعف الإعلامي وأفكاراً تمثل ضرراً مثل تبادل الأراضي التي يستخدمها الاحتلال لشرعنة المستوطنات. ويحتاج ذلك إلى تطوير ومتابعة بانتباه ومعرفة على المستوى الدولي.

وقد عقب على ذلك الدكتور ايهاب بسيسو بأن إسرائيل ليست فقط استعماراً بل استعمار استيطاني احتلالي والجدار ليس للفصل بل لضم الأراضي فالمصطلحات تحتاج لتدقيق وتوضيح وكذلك المفاهيم والمقترحات، وأن علينا أن نرى الممكن وغير الممكن. فالتطبيع والخدمات المجانية مرفوضة ولكن علينا أن نعرف ما يلزمنا وما يمكن أن يعود علينا بالضرر.

عقب على ذلك المخرج والكاتب الفلسطيني رياض مصاروه

أن التركيز على الانتماء العرقي يهدف إلى ادعاء التفوق، وعلينا ألا ننجر إلى رد فعل مماثل. لا مجال لدى من يفعلون ذلك للتفوق إلا من خلال ذلك الإدعاء، فقد تم تزوير تاريخ البلاد الحقيقي والقوانين العنصرية تتم على خلفية ايديولوجية، فهناك عقدة تاريخية، فالقوانين هدفها الحط من قيمة تاريخية وثقافية ناجزة للشعب الفلسطيني. وقد أرادوا الهاءنا عن الناجز بالمتطلبات اليومية. لقد لجأوا للتطهير العرقي الذي يتم بالدم، وكل محاولات التطهير لا زالت تتم بالدم.

- وجهت الندوة تحية للمنظمات الأهلية المقاومة للجدار.

- وقف المشاركون ٦٦ ثانية في الذكرى ٦٦ للنكبة، وتحية للنشاطات والفعاليات التي يقوم بها

شعبنا في جميع أماكن تواجده إحياء لذكرى النكبة.

الرابع: تحدث فيه الدكتور كمال قبعة استاذ القانون الدولي بجامعة الاستقلال وتناول الإجراءات العنصرية ضد شعبنا في الداخل حيث أنه منذ ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٦ ابقوا تحت الحكم العسكري.

وقد شرع الكنيست الماضي أكثر من ٢٠٠ قانون عنصري والحالي شرع أكثر من ٢٠ قانوناً عنصرياً أيضاً. فهل ما قيل هنا وهناك وتحذير كيري- رغم سحبه- حول احتمال وصم إسرائيل بالعنصرية من قبل المجتمع الدولي هل هذا ينفي أن العنصرية أساس بنوي في السياسة الإسرائيلية وأنها دولة فصل عنصري.

الفصل العنصري جريمة يعاقب عليها من قبل الأمم المتحدة وقوانينها وهيئاتها وموائيقها وقراراتها. هناك الكثير مما نستطيع ملاحقة إسرائيل على أساسه كتشريعات عنصرية.

توصيات:

- التنسيق بين الفلسطينيين والتقدميين اليهود في مواجهة سياسات الفصل العنصري.

- التصدي لمحاولات تقسيم المسجد الأقصى الذي قد يدفع لمصادمات ومواجهات.

- التصدي للقرارات والتشريعات التي تنص على أن إسرائيل دولة للشعب اليهودي.

ثم تحدث الكاتب والصحافي نظير مجلي مشيراً إلى القوانين العنصرية والإجراءات والممارسات التي تقوم بها المؤسسات الإسرائيلية والموقف ضد الصحافة رغم الحيز الضيق أمامها، فهي تحاول مزيداً من التضيق. ودائماً كنا ضد هذه القوانين العنصرية الهادفة إلى ترحيلنا.

والأجواء العامة التي تميل نحو العنصرية، سهلت للحكومة، ولأهداف خاصة وآنية، العمل من أجل تغيير القوانين، وعلى الجميع أن يتصدى لهذه السياسة التي لم يقم بها عتاة اليمين المؤسسون مثل جابوتنسكي وبن غوريون.

والسؤال ماذا علينا أن نعمل اليوم في مواجهة التشريعات العنصرية والهجوم على المحكمة العليا وهي معركة دولية لأن تلك السياسات والتشريعات تدوس القوانين الدولية؟

إننا نعمل على تطوير الفعاليات والأنشطة للتعبير عن النكبة وعن المواجهة لتلك السياسات والتشريعات.

و"أوراق فلسطينية" تنشر هنا بعض الأوراق التي تيسر جمعها والتي قدمت في الندوة.

## مداخلة د. ناصر القدوة حول قراءة في الفتوى وإنفاذ أحكامها

صباح الخير جميعا وأود أن انضم الى الاخ يحيى يخلف بالترحيب بكم جميعا.

السيدات والسادة: المتحدثون في هذه الندوة لهم باع طويل في العمل الفلسطيني الوطني وتحديدًا في الجانب القانوني، وفي التحرك الشعبي والرسمي في الداخل والخارج في مجالات المقاطعة وغيرها وبالتالي كل الجهد مقدر حقيقة، مرحبا بكم جميعا ولعل لقاءنا هذا يسهم في تسليط الضوء على ما يجب عمله فلسطينيا في مجال استخدام المنظومة القانونية المتاحة، لممارسة ضغوط حقيقية على اسرائيل قوة الاحتلال، خصوصا وكما اعتقد ان الاجواء السياسية مناسبة قليلا على الساحة الفلسطينية للدفع بالامور الى الأمام، كما اشار الاخ يحيى مثلا في اجتماع المجلس المركزي الأخير، وقبل أن اتحدث عن موضوع الفتوى القانونية أريد أن اشير الى توفر منظومة دولية متكاملة، تحكم الوضع في الأرض الفلسطينية وبالتالي تؤثر مباشرة على الصراع الفلسطيني الاسرائيلي، وتوفر درجة عالية من الحماية للشعب الفلسطيني للمدنيين الفلسطينيين، وتمكن بالتالي من مواجهة الاجراءات والسياسات الاسرائيلية، هذه المنظومة مشكلة من عدد كبير من قرارات مجلس الأمن، ٢٨ قرار مجلس أمن، حول الاوضاع في الارض المحتلة بما في ذلك القدس، وفي مئات القرارات من الجمعية العامة وهيئات الامم المتحدة الاخرى، والتجمعات السياسية المختلفة في هذا العالم، وهناك ايضا مؤتمر الاطراف المتعاقدة السامية لاتفاقية جنيف الرابعة.

عقد المؤتمر الاول والمؤتمر الثاني لهذه الأطراف، المؤتمر الاول للأسف بيع على الطريق بالرغم من جهد سنتين وأكثر للتحضير له لكن على الأقل، المؤتمر الثاني، اعتمد اعلاناً هاماً جداً، إنفاذ أحكام الاتفاقية في الأرض المحتلة بما في ذلك القدس، في توافق دولي مهم جداً، حول المركز القانوني لهذه الارض باعتبارها اراضي محتلة تنطبق عليها اتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية المدنيين في الوقت الحاضر، وأود ان اشير مرة ثانية الى قرارات مجلس الامن ونحن بالمناسبة في المجلس المركزي الفائت الذي اشار اليه الأخ يحيى طرحنا هذا الموضوع، أحد الأخوة يقول ان كل هذه القرارات تحت البند السادس أي غير ملزمة، وهذا كلام حقيقة لا علاقة له بالقانون ولا بالفهم العام، كل قرارات مجلس الامن هي قرارات ملزمة سواء كانت تحت الباب السادس او السابع، الفرق بين الباب السادس والسابع ان الاخير يشتمل على اجراءات تنفيذ قسرية، بينما الباب السادس القرارات ملزمة بحكم القانون وقرارات المجلس تحت البند السابع ملزمة بحكم القانون وبحكم امكانية استخدام القوة، قرارات الباب السابع تتيح لجهة معينة او عدد من الجهات ان تستخدم او تنفذ

اجراءات معينة في المجال الاقتصادي او في مجال استخدام القوة ولغرض تنفيذ الاتفاق، طبعاً ايضاً نصوص القرارات تلعب دوراً في هذا المجال عندما يقول قرار مجلس الامن على سبيل المثال ان المجلس يقرر ان على الجهة الفلانية ان تقوم بكذا وكذا، والمسألة على درجة من التعقيد، لكن القاعدة تبقى ان جميع قرارات مجلس الامن ملزمة وهي جزء من القانون الدولي فأن تسمع ان في المجلس المركزي أحاديث من النوع الذي سمعنا، مسألة ضارة لانها تثير شكوكاً وتقوض امكانية العمل بشكل سليم، كل هذه المنظومة كما ذكرت تؤكد المركز القانوني للأرض المحتلة وتؤكد انطباق اتفاقية جنيف الرابعة، تتعامل مع بعض السياسات والاجراءات الاسرائيلية بشكل محدد، اهمها الاستعمار الاستيطاني الاسرائيلي، لبلادنا فلسطين، للأرض الفلسطينية المحتلة، يعني "المستعمرات" بعضها يتعامل فقط مع موضوع المستعمرات وبعضها الآخر يتعامل مع الاجراءات الاسرائيلية في القدس الشرقية، وهناك احكام قاطعة في هذا المجال باعتبارها اجراءات غير قانونية ولاغية وباطلة، وبعضها يتعامل مع اجراءات اخرى مثل القمع الاسرائيلي والترحيل الى آخره، هذه المنظومة باختصار يجب ان توضع موضع التنفيذ، وأن تستخدم من قبل الجانب الفلسطيني وتحديدًا من قبل القيادة الفلسطينية، وقد فاتني ان اشير ايضاً الى قرارات الدورات الاستثنائية الطارئة للجمعية العامة المسماة الاتحاد من اجل السلام، هذه قرارات مختلفة قليلاً عن القرارات العادية للدورات العادية للجمعية العامة لانها بالرغم من انها غير ملزمة تبقى قرارات للجمعية العامة، لكنها توفر غطاءً قانونياً للعمل الجماعي لمجموعة من الدول اذا قررت ذلك، لانها في الاصل تعقد الدورات الاستثنائية الطارئة عندما يفشل مجلس الامن في القيام بواجباته للحفاظ على الامن والسلم الدوليين. وبالتالي الجمعية العامة ضمن هذه الصيغة للاتحاد من اجل السلام، تجتمع للقيام بهذا الواجب وتعطي تفويضاً، أي غطاءً قانونياً لمن يريد من الدول لاتخاذ خطوات واجراءات عملية على الارض قد تصل لاستخدام القوة، وبالمناسبة على سبيل المثال قوة الطوارئ (حفظ السلام) الاولى التي تم تشكيلها في الامم المتحدة، والتي تم ارسالها الى سيناء للفصل بين مصر واسرائيل شكلت من قبل الجمعية العامة، وليس من قبل مجلس الامن، لأن الجمعية العامة اجتمعت في الدورة الاستثنائية الاولى للاتحاد من اجل السلام واتخذت قراراً بتشكيل هذه القوة، ونحن الجانب الفلسطيني عملنا مرتين وليس مرة واحدة الدورة الاستثنائية السابعة عندما كان الاخ زهدي الطرزي رحمه الله المراقب الدائم لفلسطين في الامم المتحدة، وعملنا الدورة الاستثنائية الطارئة العاشرة عندما اصطدمنا مرتين بالفيتو الامريكي خلال اسبوعين سنة ١٩٩٧، فنحن ذهبنا الى مجلس الامن بخصوص اقامة مستعمرة جبل ابو غنيم، حيث قامت قوة الاحتلال بالبدء في انشاء مستعمرة جبل ابو غنيم والولايات المتحدة عملت الفيتو الاول على مشروع قرار، وبعدها



عملت فيتو على مشروع قرار شبيه من اربع دول اوروبية في مجلس الامن، ومن ثم ذهبنا الى دورة استثنائية طارئة وهي دون الدخول في تفاصيلها عبارة عن اجراءات معقدة للغاية، وبالمناسبة هناك توافق لدى الدول الكبرى على الوقوف ضدها، لان الدول الاعضاء الدائميين في مجلس الامن تعتقد وهي محقة في ذلك ان هذا الاجراء يقوض صلاحية مجلس الامن، ولذلك هم ضدها من حيث المبدأ، فأنت تذهب كفلسطين في وقت انتهت فيه الحرب الباردة وهناك توافق دولي الى آخره، بالرغم من معارضة الخمسة الكبار، تقيم الدورة الاستثنائية العاشرة، وتذهب بسلسلة من الاجراءات كان من ضمنها رفع مستوى التمثيل الفلسطيني الى صيغة شبيهة او تقترب من دولة. من ضمنها موضوع الفتوى القانونية الذي سنقوم بالحديث عنها الآن.

الجدار بدأت اسرائيل في انشائه، والجدار بالمناسبة كما نعلم جميعا ليس مجرد اسمت فقط، فهو منظومة متكاملة، جزء منها المنظومة الفيزيائية، وهو الجدار نفسه وفي قطاعات اخرى يتخذ اشكالا مختلفة، ولكن ايضا هناك مجموعة من الاجراءات الادارية والتشريعات التي تحكم الوضع في الاراضي غرب الجدار، وتحكم الدخول اليها وتحكم التصرف..... الخ. وبالتالي أثر على قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني وبالمناسبة بعد التعديلات التي مر بها الجدار، نحن نتحدث عن ما يقارب 13% من مساحة الضفة الغربية، وهذا الجدار يمكن ان يوصف بأي شيء عدا انه جدار فاصل او جدار عنصري كما يحلو للفلسطينيين المسؤولين الاحياء ان يصفوه، حيث يقولون انهم ضد جدار الفصل العنصري، وهو ليس فصل فهو يخدم الرواية الاسرائيلية التي تزعم أنه تم بناؤه من أجل ان نحمي أنفسنا ضد الارهاب الفلسطيني، والمشكلة ليست انه يفصل او عنصري فقط، فمشكلته انه ضمن سياسات اسرائيلية تستهدف الاستيلاء على الارض الفلسطينية بالقوة وضمها. الاستيلاء غير القانوني على الارض بالقوة، وليس فصل وبالتالي لعلنا نعدل قليلا في كيفية تعاملنا، لانه بالطبع التسميات والمصطلحات الى آخره تسهم في تشكيل الوعي، سواء كان الوعي المحلي او الخارجي، فقد عملنا معركة في الامم المتحدة على التسمية فطرح تسمية حاجز او جدار فصل وهو ليس هذا ولا ذلك لذا هي مسألة مهمة جدا.

ذهبنا الى المحكمة على خلفية فيتو امريكي في مجلس الامن، وتحديدنا في الرابع عشر من تشرين أول/اكتوبر 2003، وفي ذلك التاريخ تقدمنا بمشروع قرار لمجلس الامن يعيد تأكيد مبدأ عدم جواز الإستيلاء على اراضي بالقوة، ويقرر ان بناء اسرائيل للجدار وهو يبتعد عن خط الهدنة من عام 1949 داخل الارض الفلسطينية المحتلة غير قانوني، وفقا لأحكام القانون الدولي يجب ان يتوقف وتجدر الإشارة أن مشروع القرار حصل على عشرة اصوات فقط وهو اقل من عدد الاصوات التي نحصل عليها عادة مع وجود الفيتو الامريكي.

وبطبيعة الحال كان هناك تصويت سلبي لواحد ، التصويت الامريكى الذي منع اعتماد القرار . ويعود سبب حصول عشرة أصوات فقط، للسيد طوني بلير الذي كان رئيس الوزراء في ذلك الوقت، والذي اقر سياسة عجيبة للغاية في بريطانيا حولت بريطانيا الى دولة صغيرة فيما يتعلق بالشرق الاوسط،، إننا لا نستطيع ان نبتعد عن الولايات المتحدة الا خطوة واحدة في مجلس الامن، فاذا الولايات المتحدة صوتت ضد فنحن مُمتنع، واذا صوتت بالامتناع نصوت مع، وكان لأول مرة ينقسم الموقف الاوروي دولتين مع، دولتين بالامتناع، بسبب الموقف البريطاني، لكن هذا عقد الامور في مجلس الامن بالنسبة لنا والمهم أن الامريكين لم يَمروا واصبح واضحاً انه بالرغم من المنظومة القانونية التي تحدثت عنها لا يبدو الأفق جيداً لاجراءات حقيقية في مجلس الامن فيما يتصل بالجدار، وبالتالي نحن بدأنا جدياً وبسرعة في موضوعة المحكمة الدولية في لاهاي. وانتم تعلمون صعوبة المسألة وتعقيدها حيث كانت هناك مخاوف حقيقية لاسباب عدة، منها على سبيل المثال تركيبة المحكمة، وكان هناك قضاة عرب عظماء مثل نبيل العربي الأمين العام الحالي لجامعة الدول العربية، وعوني الخصاصنة رئيس الوزراء السابق للأردن، ورئيس المحكمة كان قاضياً صينياً وعدد من القضاة عملوا معنا في الامم المتحدة وبالتالي نعرف مدى أمانتهم ولديهم التزام بحكم القانون، فقد كانت هناك عوامل مساعدة ومنها الغضب على الفيتو الامريكى، فقمنا بدعوة الدورة الاستثنائية العاشرة التي اشرت لها قبل قليل، وانعقدت الدورة بالفعل في الحادي والعشرين من اكتوبر أي بعد ستة ايام من الفيتو الامريكى، تقدمنا بمشروعين، مشروع عام ضد الجدار، ومشروع آخر يطلب فتوى قانونية، وبالطبع دخلنا في مفاوضات مع الاوروبيين وبمقتضى هذه المفاوضات لم نذهب مباشرة الى الفتوى القانونية، فقد كانت نتيجة المفاوضات ان الخمس والعشرين دولة أوروبية قدموا مشروع قرار جديد، وبالتالي وضعنا هؤلاء القانونيين بملف جنب مشروع القرار الاوروي، تم اعتماده باغلبية ١٤٤ صوتاً وأربعة ضد، حيث يطلب من اسرائيل التوقف عن بناء الجدار وإزالة الاجزاء القائمة، والأهم انه يطلب من الامين العام تقريراً عن الالتزام، ويقول انه عند استلام التقرير في حالة عدم الالتزام يجب النظر في اجراءات اضافية في منظومة الامم المتحدة، وليس الجمعية العامة.

وبالتالي الكلام واضح، على المحكمة، وقد صوت كل الاتحاد الاوروي وحصيلة التصويت ١٤٤ صوتاً، وفي ٢٤ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٠٣ تقدم الامين العام بتقرير وكان تقريراً جيداً للغاية، وحيث استنتج بشكل واضح ان اسرائيل لم تلتزم بطلب الجمعية العامة بوقف بناء الجدار وازالة القائم، وبالتالي فتحت الطريق الآن للخطوة القانونية من المحكمة بشكل عاجل، واحتوى على السؤال الاساسي، ما هي الاثار القانونية المترتبة على بناء جدار من قبل اسرائيل قوة الاحتلال في الاراضي الفلسطينية

المحتلة بما في ذلك القدس الشرقية وحولها؟ كما هو مبين في تقرير الامين العام بالنظر الى قواعد القانون الدولي، بما في ذلك اتفاقية جنيف الرابعة لعام ١٩٤٩ وقرارات مجلس الامن والجمعية العامة ذات الصلة بالرغم من انها غير ملزمة، وهذا هو السؤال.

وهنا اود التوقف لطرح فكرة اخرى وذلك ان هذه الفتوى القانونية ملزمة ام لا، وايضا بعض الأخوة الذين لهم علاقة سطحية قريبة بالقانون الدولي يقولون انه استشاري يعني غير ملزم، ولكن هناك آليتان: آلية النزاعات عندما يتعلق الأمر بدولتين فهاتين الدولتين يجب أن توافقا على عدم الذهاب الى محكمة العدل الدولية، والآلية الاخرى هي آلية الفتوى والتي تتطلب ان تقوم هيئة من هيئات الامم المتحدة مثل الجمعية العامة او مجلس الامن او السكرتارية بطلب رأي المحكمة، بطلب الفتوى القانونية للمحكمة، وليس انها ملزمة وغير ملزمة، او انها تشير علينا أن نطلب فتوى من المحكمة عن موضوع قانوني، لانه لو كان غير قانوني لن تقبله المحكمة وستعيد الموضوع لعدم قانونيته، وجزء اساسي من الصراع كان ان هناك دول وقيادة بريطانيا قامت باجراءات تهدف إلى منع المحكمة من النظر في القضية تحت عنوان ان هذا الموضوع غير قانوني، وليس من اختصاصها. والفتوى ملزمة او غير ملزمة حسب ما تقوم به المحكمة عندما تقول المحكمة ان احكام القانون الدولي تلزم الجهة المعنية بالقيام بعدة امور، فإنها تلزمه بشكل قاطع، فهذه ليست احكام القانون الدولي وانما هذا ايضا شأن المحكمة التي تقول نعم، هذه الاحكام التي تنطبق على هذه الحالة وعلى الجهة المعنية ان تلتزم بهذه الاحكام، وهذه القصص التي نسمعها عن الموضوع والزامية القرارات من هنا وهناك هي خارجة عن المنطق. وهذه القصص والمهارات ليست دون معرفة فقط فهي ايضا ضارة سياسيا. ولا يجوز اخذ بعض المقالات على انها الحقيقة، لأن معظمها مكتوبة من انصار اسرائيل، والآخري تعطي مواقف وتوجيهات في هذا المجال. قرار الجمعية العامة الذي أشير اليه الذي طلب الفتوى وحيث تراجعت الدول الاوروبية، واصبح هناك صراع هائل إذ انقسمت الدول الاوروبية الى ثلاث اقسام على سبيل المثال، ولكن القرار نفسه حصل على ٩٠ صوتا و٨ ضد و٧٤ امتناع منهم كل الدول الاوروبية التي امتنعت نتيجة لهذا الموضوع، وبالرغم من ان القرار السابق كان قرارا اوروبيا إلا أننا الآن دخلنا الى مرحلة جديدة تنطوي على مخاطر كبيرة بالنسبة لاسرائيل لو اننا عملنا بالشكل الصحيح، فبالرغم من انهم أي الأوروبيين هم من قدم القرار الاول فقد امتنعوا عن التصويت على القرار الذي طلب الفتوى القانونية وفي وقت لاحق انقسموا الى ثلاثة اقسام، قسم مع الفتوى فقط دولتان ايرلندا والسويد وقسم ضد بقوة وعملوا ورقة عمل وكتبوا الدول الصغيرة بمحتوى البيانات التي تتقدم فيها الى المحكمة وهم بريطانيا والمانيا وهولندا بنسب متفاوتة، والباقي بالنصف وهو ايضا مقسوم لمواقف مختلفة قليلا، وعلى كل حال

صدر القرار وتم طلب الفتوى ووضع السؤال امام المحكمة في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر، وهذا بعد الطلب بأحد عشر يوماً، المحكمة اصدرت امراً تدعو فيه الامم المتحدة والدول الاعضاء لإمدادها بمعلومة عن كافة جوانب السؤال.

وقررت المحكمة الأخذ بعين الاعتبار: ان الجمعية العامة منحت فلسطين صفة مراقب وان فلسطين تبنت مشروع القرار الذي طلب السؤال، وقد كنا قبل ذلك رفعنا مستوى تمثيل فلسطين وصار بإمكانها ان تتبنى القرارات الخاصة بفلسطين والشرق الاوسط. فالمحكمة تقول بما ان فلسطين مراقب وتبنت مشروع القرار، فقررت دعوة فلسطين لتقديم بيان مكتوب حول الموضوع. فالمحكمة لأول مرة تتعامل بهذا الشكل مع جهة ليست دولة بعد بالكامل، ولكنها اعترفتها هكذا وبالتالي طلبت منها التقدم ببيان مكتوب وطبعاً حددت جدولاً زمنياً مختصراً للتقدم بالبيانات لجلسة الاستماع، وفي ٢٣ شباط / فبراير ٢٠٠٤ عقدت المحكمة جلسة استماع شفوية للبيانات الشفوية، وكانت اسرائيل قد قررت عدم المشاركة بهذا الجزء، واعتقد أيضاً انها فقدت توازنها هنا، هي تقدمت ببيان مكتوب ولكنها لم تشارك، وفي ذلك اليوم اعطتنا المحكمة (للفريق الفلسطيني) نصف يوم كامل للتقدم ببيانه، وقد كان لي شرف رئاسة الوفد وتحدثت السيدة استيفني خوري، لتتقدم ببيان معلومات power point ثم جاءت المرافعة القانونية من اربعة بروفيسورات كبار الاول جيمس كورفورد وكان رئيس قسم القانون الدولي في جامعة كامبرج، والبروفيسور جورج ابي صعب من جنيف معهد القانون الدولي، والبروفيسور جان سالمون وهو استاذ في كلية القانون الدولي في بلجيكا جامعة بروكسل، واخيراً البروفيسور جان لو من جامعة اكسفورد قسم القانون الدولي، انا اعتقد ان المحكمة لم تشهد فريقاً كهذا الفريق في تاريخها حتى الآن. حيث يعمل هذا الفريق من الكبار وقد كان معنا ايضاً عدد آخر من المحامين الفلسطينيين الذين شاركوا، منهم من وحدة دعم المفاوضات، وكان عملهم لا بأس به ومجموع ما استمعت اليه المحكمة ١٥ بياناً، وكان بينهم محامون محترمون ومعهم شهادات جيدة للغاية، مجموع البيانات معنا وضدنا ٥٥ مشاركة، وهو رقم قياسي للمحكمة، وبعدها جاء اليوم التاريخي، ٩ تموز / يوليو ٢٠٠٤ اصدرت فيه المحكمة حكمها عن الجدار، وتضمنت الفتوى، وهذه لغة المحكمة ان الجدار الذي تبنيه اسرائيل قوة الاحتلال في الاراضي الفلسطينية بما في ذلك القدس الشرقية وما حولها والنظام المرافق للجدار منافية للقانون الدولي، وبالتالي فإن اسرائيل ملزمة بإنهاء انتهاكاتهما للقانون الدولي والتوقف عن بناء الجدار الذي تبنيه في الاراضي المحتلة والقدس الشرقية وحولها. وان تزيل الاجزاء القائمة، وان تلغي كافة التشريعات والامور الادارية المتعلقة بالجدار. وذلك وفقاً للفقرة ٥١ من الفتوى وأن اسرائيل ملزمة في ان تعيد الامور الى ما كانت عليه مقابل الاعطاب الذي تسبب بها الجدار، وهذا

يعني ليس تقديم التعويضات ولكن ان تعيد الواقع الى ما كان عليه قبل البدء في بناء الجدار، وهذا كلام واضح وقاطع وهو ان اسرائيل ملزمة وفقاً لاحكام القانون الدولي بعمل كذا وكذا، و ليس فقط ان توقف البناء وتزيل القائم ولكن أيضاً أن تعيد الامور الى ما كانت عليه في السابق ولم تتوقف المحكمة هنا. فالمحكمة قالت ان كل الدول في العالم ملزمة بعدم الاعتراف بالحالة غير القانونية الناجمة عن بناء الجدار وان لا تقدم مساعدة للحفاظ على هذه الحالة يعني لا تقدم مالا لذلك، وبالتالي هذا يفتح آفاقاً وان كل الدول الاطراف المتعاقدة الى اتفاقية جنيف الرابعة، وهذا يعني ان كل دول العالم ماعدا ارتيريا (ليست عضواً) ملزمون باحترام ميثاق الامم المتحدة والقانون الدولي والذي يؤكد ضمان التزام اسرائيل بالقانون الدولي الانساني الذي تضمنته الاتفاقية. ليس ان يحترموا فقط لكن ملزمون بضمان التزام اسرائيل باحكام القانون الدولي، وهذا اقصى ما يطلب من المحكمة، وهنا المحكمة وقرارها يعطينا اسلحة بالغة الاهمية القانونية بأن كل الدول ملزمة باحترام احكام الاتفاقية وملزمة بضمان الزام احترام اسرائيل لهذه الاتفاقية، وان الامم المتحدة وخاصة الجمعية العامة ومجلس الأمن، يجب ان تنظر في الاجراءات الاضافية التي قد تلزم لانهاء الحالة القانونية الناشئة بسبب بناء الجدار والنظام المرافق له آخذين بعين الاعتبار هذه الفتوى القانونية لالزام اسرائيل ودول العالم، والامم المتحدة بهيئاتها المختلفة، حددت المحكمة التزاماتها القانونية وما يجب ان يقام به في هذا المجال، بعد عشرة ايام انعقدت دورة الأمم المتحدة وحيث لم تستطع الدورة القراءة تم استئناف الدورة العاشرة مرة اخرى وتم اعتماد قرار، وهذا القرار يقر بالفتوى القانونية للمحكمة ويطلب اسرائيل بتنفيذ التزاماتها القانونية كما حددتها الفتوى القانونية ويطلب من الامين العام انشاء سجل اضرار، وهذا الكلام الذي نعرفه جميعا والقرار حصل على ١٥٠ صوتا وست اصوات ضد، وبعد انتهاء الامر وصدور الفتوى عادت الدول الاوروبية وتوفر للجانب الفلسطيني كنز هائل يمكن استخدامه لمجابهة ليست فقط للجدار، وانما لكل الاستعمار الاستيطاني لفلسطين وقد تغيرت الامور بعد ذلك حيث حدث تغير في السلطة، رحل ياسر عرفات رحمه الله وصارت هناك انتخابات فلسطينية ورئيس جديد ومجلس تشريعي جديد أي نظام سياسي جديد، وانا كان لي شرف ان اكون عضواً في الوزارة الاولى بعد ذلك في وزارة الخارجية، واعترف لكم انني فشلت فشلا ذريعا في اعتماد الوزارة لبرنامج عمل جدي متعلق بمتابعة الفتوى القانونية وتنفيذ احكامها. لم استطع التقدم بمشاريع محددة الى الوزارة ولم يتم اعتماد ذلك، وفي وقت لاحق حدث تحرك خجول في الحكومة. بعدها صار هناك وزارة شؤون جدار وهذا ممتاز ولجنة وطنية وغير ذلك، وهناك سجل لاحصاء الاضرار نتيجة عمل الامم المتحدة، وهذا كله جيد ولكنه بعيد حقيقة عن المطلوب، فالمطلوب برنامج عمل كامل تشارك فيه كل قطاعات الشعب

الفلسطيني وقطاعات السلطة الفلسطينية، بدءاً من إيقاف العمل في المستوطنات والمستعمرات ومقاطعتها بشكل حقيقي مروراً بتثقيف الناس في المدارس والجامعات حيث يوجد قانون دولي والقانون الدولي لصالحنا فهذا هي اهم هيئة قضائية اصدرت قراراً بالاجماع.

والمجلس التشريعي يجب عليه القيام بتشريعات، والرئاسة حيث يجب ان يكون هناك برنامج عمل متكامل. فيجب ان تتحرك خارجا وتطلب من الدول اتخاذ اجراءات ليس فقط وقف الاعفاءات الضريبية مثلالى منتجات المستعمرات ولكن يجب منعها من دخول تلك الاسواق، فعليك ان تعمل في كافة المستويات ويجب ان يفهم الجميع ان هناك فرقاً بين من يلتزم بالقانون الدولي ومن لا يلتزم، فيجب وضع اجراءات عقابية لكل الجهات والهيئات والافراد في اية اعمال غير قانونية في الارض المحتلة، نحن واجهنا تحدياً كبيراً في هذا المجال، كان موضوع القطار المترو، الذي يصل بين القدس الغربية بالشرقية ويدخل الضفة الغربية، والذي كانت قائمة عليه شركة فرنسية وهذا موضوع خطير جدا لانه يمكن ان يغير الواقع السياسي، وقد حاولنا في وزارة الخارجية العمل والتحرك ولكن للأسف وقف هذا التحرك، ولكن هناك مجال هائل للعمل.

ويجب ان اختتم، فأقول واشير الى التحرك الاخير لتعزيز الموقف القانوني لفلسطين هذا كلام مهم وجيد وايجابي وهو يأتي اما من خلال عضوية فلسطين في الامم المتحدة، بالرغم من كل الوقت الذي اضعنائه، وهو غير ممكن، البديل عنه الصيغة التي توصلنا اليها حيث اننا دولة غير عضو دولة مراقب، الشكل الثاني عضوية فلسطين في المنظمات الدولية والشكل الثالث هو الانضمام الى المعاهدات والاتفاقيات الدولية كما حدث مؤخرا وانضمامنا الى ١٥ معاهدة واتفاقية وهذا عمل مهم وضروري ويعتبر في حالة تم استكمالها في سياقها مما يعتبر في طبيعة الصراع ومعادلة الصراع، فلم يعد الحديث عن وجود دولة من عدمه بل يصبح الحديث عن انسحاب من دولة فلسطين كاحتلال، فوجود الدولة وحدودها تصبح امرا واقعيا وهذا مهم جدا، مسألة تعزيز الموقع للدولة وهذا مكمل للمنظومة القانونية ويجب استخدام هذه المنظومة بالطريقة التي حاولت ان انصح بها واستخدامها في مجابهة حقيقية وشاملة ضد الاستعمار الاستيطاني لفلسطين. وهذا الموضوع المركزي تعزيز الموقع للدولة يساعد في هذا ولكن يجب ان يكون هناك عمل شامل ومتكامل في هذا الاتجاه، ونتمنى على القائمين على موضوع مجابهة الجدار والذي فهمت انه اصبح عند وزارة الزراعة نتمنى لهم التوفيق ونشكر الأخوة الذين عملوا في السابق بهذا المجال ولكن بالحقيقة الامر يحتاج الى توافق وطني على برنامج أعلى بكثير مما يجري حاليا بما يجعله برنامجاً وطنياً جاداً تساهم فيه كل القوى المجتمعية والسياسية الفلسطينية.

## آليات تفعيل وتطبيق الرأي الإستشاري لمحكمة العدل الدولية بشأن جدار التوسع والضم

د.كمال قبعة

تتناول هذه الدراسة، والتي هي تعقيب على ما تقدم به الأخ د. ناصر القدوة بشأن الرأي الإستشاري لمحكمة العدل الدولية حول جدار التوسع والضم في الضفة الفلسطينية المحتلة، ما تضمنه هذا الرأي الإفتائي من قبل أعلى هيئة قانونية دولية. فهذا الرأي يحمل في صريح عباراته ومضامينه رزمة شاملة من المبادئ والقواعد والأحكام والمواقف الحاسمة، تمتد لتطال كافة موضوعات وقضايا الصراع مع الإحتلال الإسرائيلي. وتتمحور محاولتي بتبيان تلك الموضوعات وموقف محكمة العدل الدولية تجاهها، وذلك لتتبع آليات تفعيل وتطبيق الرأي الإستشاري لمحكمة العدل الدولية بشأن جدار التوسع والضم، وإستخلاص أبرز التوصيات في هذا الشأن.

وتتمثل أهمية ما تقدم، في كون أن ذكرى مرور عشر سنوات على الرأي الإفتائي لمحكمة العدل الدولية، بشأن جدار التوسع والضم الإحتلالي في الضفة الفلسطينية المحتلة، تأتي في ظل ظروف توقف المفاوضات، وإستشراس الإجراءات الإجرامية الإحتلالية، وإجتياح واسع للأراضي والمدن والقرى الفلسطينية و ممارسة العقاب الجماعي وتنكيل غير مسبوق بالمواطنين وممتلكاتهم وحرمانهم. وإن كان أحد أسباب منع الطرف الفلسطيني من متابعة آليات تطبيق الرأي الإستشاري لمحكمة العدل الدولية حجة الدفع بالمفاوضات، فإن الواقع بات يتطلب متابعة آليات التطبيق وبإلحاح.

فقد نشرت محكمة العدل الدولية ومقرها في لاهاي بتاريخ ٢٠٠٤/٧/٩، رأياً استشارياً حول قضية قانونية جدار التوسع والضم الإسرائيلي في الضفة الفلسطينية المحتلة والتبعات القانونية المترتبة عليه؛ تلبية لطلب الجمعية العامة للأمم المتحدة، الذي كان على الشكل التالي: "ما التبعات القانونية الناشئة عن إقامة الجدار الذي تبنيه إسرائيل، القوة المحتلة، في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بما فيها المناطق داخل وحوالي القدس الشرقية والذي ورد وصفه في تقرير الأمين العام في ضوء قواعد ومبادئ القانون الدولي، بما فيه اتفاقية جنيف الرابعة لعام ١٩٤٩ وقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة ذات الصلة؟".

ويُظهر تفحص ما أقرته محكمة العدل الدولية، بأن الرأي الإستشاري قد تضمن خارطة طريق تتناول كافة قضايا مفاوضات الوضع النهائي، وآليات وواجبات كافة الأطراف المعنية والدولية في هذا المضمار، الأمر الذي يمكن إيجازه بالعناوين الرئيسة التالية.

## مسؤولية الأمم المتحدة الدائمة

رأت المحكمة بأن مسؤولية الأمم المتحدة عن قضية الشعب الفلسطيني مسؤولية دائمة ومحط إهتمام مباشر للأمم المتحدة. وتتبع مسؤولية الأمم المتحدة في هذه المسألة من الإنتداب وقرار التقسيم المتعلق بفلسطين. وقد وصفت هذه المسؤولية من قبل الجمعية العمومية بأنها مسؤولية دائمة نحو المسألة الفلسطينية، إلى حين حلّ هذه المسألة في جميع جوانبها بطريقة مرضية بالانسجام مع الشرعية الدولية، وفقاً لقرار الجمعية العمومية رقم ١٠٧/٥٧ في ٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢. وقد أبرزت المحكمة بهذا:

- مسؤولية الأمم المتحدة عن قضية الشعب الفلسطيني مسؤولية دائمة،

- التذكير بالإنتداب وقرار التقسيم المتعلق بفلسطين،

- يجب أن يكون حلّ هذه المسألة في جميع جوانبها بطريقة مرضية بالانسجام مع الشرعية الدولية،

- واجب المساعدة في تحقيق حقوق الشعب الفلسطيني التي لا يمكن تحويلها لغيره.

وإستناداً على ذلك، فإن إعادة القضية لمرجعيتها القانونية الدولية المتمثلة بالأمم المتحدة، يصبح واجباً على كافة الأطراف المعنية بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي، الأمر الذي يعني أن كافة المساعي والمبادرات والوساطات الأخرى يتوجب أن تنضوي في ذاك الإطار وليس في أطر المفاوضات الثنائية العقيمة، التي أثبتت عدم جدواها وكشفت طبيعتها الإملائية من قبل المحتل المخالفة للقانون الدولي. ولعله في هذا السياق يمكن الدفع بإتجاه مقترح مؤتمر دولي برعاية الأمم المتحدة تكون مهمته فرض تطبيق حل ينسجم مع الشرعية الدولية، كم جاء في منطوق الرأي الإستشاري.

إسرائيل تحمل صفة القوة المحتلة

وتناولت المحكمة في رأيها الإستشاري تصرفات دولة الإحتلال، فإعتبرت جميع الأراضي (بما فيها القدس الشرقية) تظل مناطق محتلة، وما تزال إسرائيل تحمل صفة القوة المحتلة. وأشارت المحكمة إلى أنه في ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٠، تبنت الجمعية العامة القرار رقم ٢٦٢٥ (٢٥) وعنوانه "الإعلان الخاص بمبادئ القانون الدولي في ما يتعلق بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول" (يشار إليه في ما يلي ب القرار ٢٦٢٥(٢٥)) أكدت فيه أن "أي استيلاء على الأراضي نتيجة التهديد بالقوة أو باستخدامها لن يتم الاعتراف به على أنه قانوني".

وفندت المحكمة إدعاء إسرائيل بعدم إنطباق إتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ وخاصة الرابعة منها، بتأكيدا أنه ينبغي التذكير بأنه بموجب المادة "٣" من المعاهدات الأربع بتاريخ ١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٩: "بالإضافة للأحكام التي سيتم تنفيذها في وقت السلم، تسري هذه المعاهدة على جميع



حالات الحرب أو أي نزاع مسلح آخر يمكن أن يقع بين اثنين أو أكثر من الأطراف المتعاقدة الأصلية وحتى وإن لم يعترف أحد الأطراف بحالة الحرب. وتسري هذه المعاهدة أيضا على جميع حالات الاحتلال الجزئي أو الكلي لأراضي طرف متعاقد أصلي وحتى وإن لم يواجه ذلك الاحتلال أي مقاومة مسلحة. وعلى الرغم من أن أحد قوى النزاع ربما لا تكون طرفا في المعاهدة الحالية، إلا أن القوى التي تعتبر أطرافاً فيها يجب أن تبقى ملتزمة بها في علاقاتها المشتركة. ويتعين عليها أيضا الالتزام بالمعاهدة فيما يتعلق بالقوة المذكورة في حال وافقت الأخيرة على أحكام المعاهدة وطبقتها .

وللتدليل على ذلك فإن الدول الأطراف في اتفاقية جنيف الرابعة، اتفقت على ذلك التفسير في مؤتمرها في ١٥ تموز/ يوليو ١٩٩٩. وقد أصدرت بياناً أعادت فيه توكيد قابلية اتفاقية جنيف الرابعة للتطبيق على المناطق الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية. وفي أعقاب ذلك ، وفي كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١، أكدت الأطراف المتعاقدة العليا مرة أخرى ، وهي تشير بوجه خاص للمادة ١ من اتفاقية جنيف الرابعة لسنة ١٩٤٩، قابلية اتفاقية جنيف الرابعة للتطبيق على المناطق الفلسطينية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية. كما ذكرت الأطراف المتعاقدة المشاركة في المؤتمر، وأطراف الصراع، ودولة إسرائيل باعتبارها دولة احتلال، بالتزاماتها المترتبة عليها .

وما تقدم من رأي إفتائي، يمثل موقفاً من مطالب التوسع والضم الإسرائيلية، ومحاولات فرض الحل بالقوة والتهديد وفرض وقائع الأمر الواقع الإستيطاني، الأمر الذي يتوجب إشهاره والتسلح به والتمسك بمضمونه ومنطوقه.

### سلطة الاحتلال تظل ملزمة بسبب استمرار الإحتلال

وقامت المحكمة بالتقرير في مسألة توقف تطبيق إتفاقية جنيف الرابعة لدى اختتام العمليات العسكرية بوجه عام. وفي حالة المناطق المحتلة، بأنه يتوقف تطبيق الاتفاقية الحالية بعد سنة من الاختتام العام للعمليات العسكرية، ولكن سلطة الاحتلال تظل ملزمة بسبب استمرار الاحتلال، وإلى المدى الذي تمارس فيه تلك السلطة مهام الحكومة في مثل تلك المناطق، بموجب بنود المواد التالية من الاتفاقية الحالية: ١ إلى ١٢، ٢٧، ٢٩ إلى ٣٤، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٩، ٦١ إلى ٧٧، ١٤٣. والأشخاص المحميون الذين قد يحدث إطلاق سراحهم، أو إعادتهم إلى وطنهم أو إعادة تأسيس حياتهم بعد ذلك التاريخ، يستمرون في هذه الأثناء في الاستفادة من الاتفاقية الحالية. وحيث أن العمليات العسكرية التي أفضت إلى احتلال الضفة الغربية سنة ١٩٦٧، انتهت منذ وقت طويل، فإن مواد اتفاقية جنيف الرابعة المشار إليها في المادة ٦ فقرة ٣ هي فقط التي تظل قابلة للتطبيق في تلك المناطق المحتلة . وتتضمن هذه البنود المواد ٤٧، ٤٩، ٥٢، ٥٣، ٥٩ من اتفاقية جنيف الرابعة. وطبقا للمادة ٤٧: "الأشخاص

المحميون الذين هم في مناطق محتلة، لا يحرمون، بأي حالة من الأحوال أو بأي وسيلة مهما تكن، من فوائد الاتفاقية الحالية بفعل أي تغيير يدخل، نتيجة لاحتلال المنطقة، على مؤسسات أو حكومة المنطقة المذكورة، أو بفعل أي اتفاق يتم التوصل إليه بين سلطات المناطق المحتلة وسلطة الاحتلال، ولا بفعل أي عملية ضم تجريها سلطة الاحتلال لكل المنطقة المحتلة أو جزء منها".

ويصرح هذا الرأي عن قواعد مقبولة من عموم الدول الأطراف السامية في إتفاقيات جنيف الأربعة، تلك القواعد التي وردت في المواد ٧ و ١١ و ٤٧ من إتفاقية جنيف الرابعة الصادرة في آب / أغسطس عام ١٩٤٩، والتي تعتبر الحقوق المحمية بموجبها حقوقاً غير قابلة للتصرف ولا للتنازل ولا للإنتقاص منها "بأي حال من الأحوال أو بأي وسيلة مهما تكن"، حتى وإن كان ذلك " بفعل أي اتفاق يتم التوصل إليه بين سلطات المناطق المحتلة وسلطة الاحتلال، ولا بفعل أي عملية ضم تجريها سلطة الاحتلال لكل المنطقة المحتلة أو جزء منها". وتعتبر هذه القواعد والأحكام التي تنصوي في القواعد العامة والأمر في القانون الدولي، حماية بل وسلاحاً بيد القيادة الفلسطينية، التي انضمت في الأول من نيسان/ إبريل ٢٠١٤ لتلك الإتفاقيات وباتت بحكم الملزمة لها، وسنداً لأي فلسطيني لرفض أية محاولات إسرائيلية وغيرها لفرض تنازلات عن حقوق وطنية غير قابلة للتصرف. بموجب المعاهدات الدولية الشارعة وخاصة إتفاقية جنيف الرابعة في المواد المذكورة أعلاه.

### تصرفات سلطة الإحتلال باطلة بالكلية

#### ولا يمكن أن تغير الوضع القانوني للقدس والأراضي الفلسطينية.

وتناولت محكمة العدل الدولية سلسلة الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل في المناطق المحتلة، والتي تهدف إلى تغيير وضعها ووضع مدينة القدس. وأشارت إلى شجب مجلس الأمن بعد أن ذُكر في العديد من المناسبات، بأن ضم الأراضي عن طريق الغزو العسكري غير مقبول" هذه الإجراءات وأكد القرار رقم ٢٩٨ (١٩٧١) بتاريخ ٢٥ أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٧١ وبيّن بأبلغ وأوضح عبارة أن : "جميع الإجراءات والأعمال التشريعية والإدارية التي تتخذها أو تقوم بها إسرائيل لتغيير وضع مدينة القدس، بما فيها مصادرة الأراضي والممتلكات والعقارات وترحيل السكان وإصدار تشريعات ترمي إلى نزع الملكية وضم القسم المحتل من الأراضي هي تصرفات باطلة بالكلية ولا يمكن أن تغير هذا الوضع".

وحدث في فترة لاحقة، في أعقاب تبني إسرائيل في ٣٠ تموز/يوليو ١٩٨٠ "القانون الأساسي" الذي يجعل القدس عاصمة إسرائيل. أن بيّن مجلس الأمن في القرار ٤٧٨ (١٩٨٠) بتاريخ ٢٠ آب/ أغسطس من عام ١٩٨٠ أنّ سنّ ذلك القانون يشكل انتهاكاً للقانون الدولي وأن "كل الإجراءات التشريعية والإدارية والأفعال والتصرفات التي قامت بها إسرائيل، وهي القوة المحتلة، التي غيرت أو ترمي

إلى تغيير هوية أو وضع مدينة القدس المقدسة هي باطلة ولاغية". وقرر مجلس الأمن علاوة على ذلك عدم الاعتراف بـ "القانون الأساسي" أو بأي من تلك الإجراءات أو الأعمال التي أقدمت عليها إسرائيل والتي تبتغي بواسطة هذا القانون تغيير هوية وضع القدس".

ويتوجب على الطرف الفلسطيني التمسك بالرأي الإفتائي هذا، بأن لا يجوز بأي حال من الأحوال أية مطالب إسرائيلية لتسوية إجراءات الإستيطان وشرعنة تلك المطالب بقبول فلسطيني، بما في ذلك ما تسمى بالكتل الإستيطانية وكذلك القدس، كونها تخالف بشكل صريح مبادئ وقواعد عدم إكتساب أراضي الغير بالقوة، ولذا فإن كافة التغييرات التي أحدثتها سلطات الإحتلال في الإقليم الفلسطيني، وكل "الإجراءات التشريعية والإدارية والأفعال والتصرفات التي قامت بها إسرائيل، وهي القوة المحتلة، التي غيرت أو ترمي إلى تغيير هوية أو وضع مدينة القدس المقدسة هي باطلة ولاغية".

### إنطباق الحماية التي توفرها اتفاقيات حقوق الإنسان

#### على مواطني الإقليم الفلسطيني المحتل.

وفي سياق تفنيدها للإدعاءات الإسرائيلية بعدم إنطباق الحماية التي توفرها اتفاقيات حقوق الإنسان على مواطني الإقليم الفلسطيني المحتل، فإن المحكمة لا تستطيع قبول الرأي الإسرائيلي. كما ينبغي أن تلاحظ المحكمة هنا بأن الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل ظلت على مدى سنوات الإحتلال تخضع لسلطتها القضائية الإقليمية بصفتها قوة محتلة، وممارستها للسلطات الممنوحة لها على هذا الأساس، فإن إسرائيل ملزمة بتطبيق نصوص الميثاق الدولي حول الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وعلاوة على ذلك فإن "على إسرائيل الالتزام بأن لا تثير أي عقبة في سبيل ممارسة هذه الحقوق في هذه المجالات التي جرى فيها نقل الصلاحيات إلى السلطة الفلسطينية". وبذلك فإن سلطة الإحتلال مجبرة على الإمتثال لقواعد وأحكام معاهدة جنيف الرابعة التي صادقت عليها إسرائيل في ٦ تموز/يوليو ١٩٥١، والمعاهدة الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الموقعة في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦ والمعاهدة الدولية لحقوق المدنيين والسياسية الموقعة في التاريخ ذاته التي صادقت إسرائيل عليها في ٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، ومعاهدة الأمم المتحدة الخاصة بحقوق الطفل الموقعة في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٩، وإسرائيل طرف في هذه الاتفاقية أيضاً.

#### إعادة التأكيد على حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير.

وتناولت محكمة العدل الدولية في رأيها الإفتائي أن "بناء الحاجز يمثل محاولة لضم الأرض بما يتعارض والقانون الدولي"، وأن "الضم الفعلي للأرض يتعارض مع السيادة الإقليمية، وبالتالي مع حق الفلسطينيين في تقرير المصير". وتكرر هذا الرأي في عدد من البيانات الختية المقدمة إلى المحكمة وفي

الآراء التي تم التعبير عنها خلال الجلسات. وقد قيل، من بين أشياء أخرى: "إن الجدار يمزق المجال الإقليمي الذي يحق للشعب الفلسطيني أن يمارس عليه حقه في تقرير المصير، ويمثل انتهاكا للمبدأ القانوني الذي يحظر الاستيلاء على الأرض باستخدام القوة". وفي هذا السياق، تحديداً تأكيد أن مسار الجدار تم تصميمه ليغير التركيبة السكانية للأرض الفلسطينية المحتلة بما في ذلك القدس الشرقية عن طريق تعزيز المستوطنات "الإسرائيلية"، المشيدة بطريقة غير قانونية على الأرض الفلسطينية المحتلة".

ولاحظت المحكمة أن وجود "شعب فلسطيني" لم يعد موضوعاً للنقاش. وقد اعترفت إسرائيل بهذا الوجود. وتشير الاتفاقية الإسرائيلية الفلسطينية المؤقتة الخاصة بالضفة الغربية وقطاع غزة والموقعة في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٥ أيضاً في مرات عدة إلى الشعب الفلسطيني و"حقوقه المشروعة" (التمهيد، الفقرات ٤ و٧ و٨، المادة ٢، الفقرة ٢، المادة ٣، الفقرتان ١ و٣، المادة ٢٢، الفقرة ٢). وترى المحكمة أن تلك الحقوق تشمل حق تقرير المصير حسب اعتراف الجمعية العامة بذلك في مناسبات عدة. (انظر على سبيل المثال القرار ١٦٦٣/٥٨ المؤرخ ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣).

وقررت المحكمة أن "إنشاء الجدار وما يرتبط به من نظام، يعيق إلى حد كبير ممارسة الشعب الفلسطيني لحقه في تقرير مصيره، لذا فهو إنتهاك من قبل إسرائيل لإلتزاماتها بإحترام ذلك الحق"، وبأنه "يخلق" أمراً واقعاً على الأرض، يمكن أن يصبح دائماً، وفي هذه الحالة، وبالرغم من التوصيف الرسمي للجدار الذي قدمته إسرائيل إلا أنه يرقى إلى الضم بمنطق الأمر الواقع."

ولعل التمسك بهذا الحكم القانوني من قبل القيادة الفلسطينية، والدفع به في أية مفاوضات أو محادثات أو محاولات وساطة ومساعي حميدة من قبل أطراف دولية، سيضعهم أمام واجب قانوني دولي إلتزمت بإحترامه وتطبيقه وإزالة العوائق التي تحول دون إنفاذه كافة دول الأمم المتحدة؛ الأمر الذي يخلصنا من محاولات بعض الأطراف النافذة في العلاقات الدولية المعاصرة، فرض المساومة على ذلك المبدأ والحق الناظم بين الشعوب والدول قاطبة، ومحاولة الإلتقاص منه بصيغ عديدة وأطروحات ومشاريع حلول مشبوهة ومتساوقة مع الأطماع الصهيونية.

التبعات القانونية على إسرائيل نتيجة هذه الانتهاكات .

وفي إستخلاصاتها النهائية قررت محكمة العدل الدولية، أن التبعات القانونية على إسرائيل نتيجة هذه الانتهاكات، عديدة ويتوجب ملاحظتها وتمثل بالقضايا والمواقف الرئيسية التالية:

١. إسرائيل ملزمة بالامتثال للالتزامات الدولية التي انتهكتها ببناء الجدار في المناطق الفلسطينية المحتلة (انظر الفقرات ١١٤-١٣٧)، وفي نتيجة ذلك، فإن إسرائيل ملزمة بالامتثال لالتزامها احترام حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، والتزاماتها بموجب القانون الإنساني الدولي، والقانون

الدولي لحقوق الإنسان. وعلاوة على ذلك، يجب عليها تأمين الوصول الحر إلى الأماكن المقدسة التي أصبحت تحت سيطرتها في أعقاب حرب عام ١٩٦٧ .

٢. إسرائيل ملزمة بوضع نهاية لانتهاك التزاماتها الدولية المنبثقة عن بناء الجدار في المناطق الفلسطينية المحتلة .

٣. إسرائيل ملزمة بأن توقف على الفور أعمال بناء الجدار الجاري بناؤه من قبلها في المناطق الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك داخل القدس الشرقية وحولها .

٤. إن وقف تلك الانتهاكات يستتبع في التطبيق العملي التفكيك الفوري لتلك الأجزاء من البناء الواقعة ضمن المناطق الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك داخل القدس الشرقية وحولها، إن جميع الإجراءات التشريعية والتنظيمية التي جرى تبنيها بهدف بنائه، وإنشاء النظام المرتبط به، يجب على الفور إلغاؤه أو اعتبارها باطلة .

٥. توفير التعويضات والأشكال الأخرى لإصلاح الأضرار، والتي أحاقَت بالسكان الفلسطينيين . وأن إسرائيل ملزمة بإعادة الأراضي والبساتين، وحقول الزيتون وغيرها من الممتلكات غير المنقولة التي استولت عليها من أي شخص طبيعي أو قانوني لأغراض بناء الجدار في المناطق الفلسطينية المحتلة. وفي حال تعذر القيام بمثل ذلك التعويض على الصعيد المادي، فإن إسرائيل ملزمة بالتعويض على الأشخاص المعنيين عن الضرر الذي عانوه. كما تعتبر المحكمة إسرائيل ملزمة كذلك بالتعويض، انسجاماً مع قواعد القانون الدولي القابلة للتطبيق، على جميع الأشخاص الطبيعيين، أو القانونيين الذين عانوا أي شكل من أشكال الأذى المادي نتيجة بناء الجدار .

٦. إسرائيل ملزمة بإصلاح الأضرار التي سببتها لجميع الأشخاص الطبيعيين أو القانونيين المعنيين . وتذكر المحكمة بأن الأشكال الجوهرية لإصلاح الأضرار في القانون العرفي قد وضعت من قبل المحكمة الدائمة للعدل الدولي بالصيغة التالية: (المبدأ الجوهرية الذي تتضمنه فكرة الإجراء غير الشرعي في الواقع وهو المبدأ الذي يبدو أنه قد أرسدت دعائمها الممارسة الدولية وبوجه خاص بفعل قرارات محاكم التحكيم هو أن إصلاح الأضرار، يجب أن يزيل إلى أبعد مدى ممكن، جميع عواقب الإجراء غير الشرعي، وأن يعيد بناء الوضع الذي كان على الأغلب، سيكون موجوداً لو أن ذلك الإجراء لم يرتكب، والتعويض العيني، أو إذا تعذر ذلك، دفع مبلغ يطابق قيمة التعويض العيني، ورفع الأضرار الناجمة عن الخسائر الواقعة التي لن يغطيها التعويض العيني، أو المبلغ الذي ينوب عنه. تلك هي المبادئ التي يسترشد بها لتحديد كمية التعويض المستحق عن إجراء مناقض للقانون الدولي (المصنع في تشورزو، استحقاقات، حكم رقم ١٣، ١٩٢٨، المحكمة الدائمة للعدل

الدولي، سلسلة (أ)، عدد ١٧٥، ص ٤٧). وتؤكد المحكمة أن كلاً من إسرائيل وفلسطين ملتزمان تماماً بالعمل بموجب قواعد القانون الإنساني الدولي .

العواقب القانونية للأعمال الجائرة على الصعيد الدولي

الناجمة عن بناء إسرائيل الجدار، فيما يتعلق بالدول الأخرى

وفي سياق تناول الرأي الإفتائي للعواقب القانونية للأعمال الجائرة على الصعيد الدولي، الناجمة عن بناء إسرائيل الجدار، فيما يتعلق بالدول الأخرى، جرى التأكيد على:

• ترى المحكمة أن التعهدات التي انتهكتها إسرائيل تتضمن تعهدات دولية معنية من النوع الذي يلتزم به المجتمع الدولي ككل ينبغي مراعاتها من قبل جميع الدول سواء صادقت على الاتفاقيات التي تحتوي عليها أم لم تصادق ، لأنها تشكل مبادئ في القانون العرفي الدولي لا يجوز انتهاكها"، وفي رأي المحكمة، فإن هذه القواعد تشكل التزامات هي في الأساس ذات سمة دولية، أي أنها ملزمة للمجتمع الدولي ككل .

• ترى المحكمة أن جميع الدول ملزمة بعدم الاعتراف بالوضع غير القانوني الناشئ عن بناء الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة بما في ذلك الأراضي الواقعة في القدس الشرقية وحولها، وتعد هذه الدول ملزمة بعدم تقديم العون أو المساعدة للمحافظة على الوضع الناشئ عن بناء الجدار، ويتعين على جميع الدول أيضاً علاوة على احترامها ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي العمل على إزالة أي عائق يحول دون ممارسة الشعب الفلسطيني حق تقرير المصير. وبالإضافة إلى ذلك، فإن جميع الدول الأطراف في معاهدة جنيف ذات الصلة بحماية الأشخاص المدنيين في زمن الحرب والموقعة في ١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٩، ملزمة علاوة على احترامها ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي بضمان امتثال إسرائيل للقانون الدولي حسبما هو مضمن في تلك المعاهدة .

يظهر من كل ما تقدم، بأن الأساس والإدعاءات الصهيونية بشأن الوضع القانوني للإقليم الفلسطيني وللمدينة المقدسة، باطلة أساساً، كونها تقوم على الغزو والاحتلال الحربي والقوة الغاشمة، الأمر الذي لا يمكن أن يخلق حقوقاً لإسرائيل كونها دولة سلطات الاحتلال. ينطبق على هذه الحالة، المبدأ القانوني الدولي القائل بأن "الخطأ لا يولد الواقع" و "ما قام على باطل فهو باطل" *ex injuria jus non oritur* ، وهو ما تستبدله إسرائيل بمبدأ تقادم عهده وبت غير مشروع وهو مبدأ "القانون وليد الواقع- *ex factis oritur jus* ، والذي يقوم على فرض الأمر الواقع دون مبالاة بحقوق الآخرين وبالالتزامات الدولية النازمة للعلاقات الدولية المعاصرة.

ولعل ما تقدم، يشير بوضوح أن سلطة الاحتلال تنتهك مبدأ الشرعية - *legalite* - بمبدأ الفاعلية - *effectivite* لتسويخ إجراءاتها اللانسانية. وتبرّز من بين الاجراءات تلك التدابير التشريعية في محاولة

لستر انتهاكاتها بغطاء قانوني باطل. ولعل إقدام إسرائيل على الإستيطان ومصادرة الأراضي وإستنزاف الموارد الطبيعية هما فيها موارد المياه الفلسطينية وضم القدس وغيرها من الإنتهاكات بتشريعات وأوامر عسكرية ظالمة وقوانين وتشريعات كنيست موعلة بالعنصرية والفصل العنصري، هو انتهاك لمبدأ عدم اكتساب أراضي الغير بالقوة، وهو أيضاً انتهاك لمبدأ قانوني دولي مؤداه أن القواعد الدولية العامة lex generali ملزمة دوماً وتسمو على أية قواعد وطنية أخرى lex specialis. وعليه، فإن الاجراءات والتدابير الإسرائيلية بشأن الإقليم الفلسطيني بما يشمل القدس، حكماً غير مشروعة illegales وباطلة منعدمة الأثر invalides، وفقاً لقاعدة ما بني على باطل فهو باطل، والخطأ لا يولد الحق ex injuria jus non oritur.

وتستوجب التدابير الإسرائيلية في القدس خاصة وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة عموماً، وبالضرورة إيقاع المسؤولية الدولية على إسرائيل باعتبارها سلطة إحتلال. فمجموعة الأعمال اللامشروعة تشكل ليس فقط انتهاكاً صريحاً وفجاً لمبادئ وقواعد وأحكام القانون الدولية، بل ويمكن تصنيفها بغاية السهولة بأنها جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، بموجب المادة ١٤٧ من اتفاقية جنيف الرابعة، والمواد الواردة في اتفاقية روما لعام ١٩٩٨ بشأن محكمة الجرائم الدولية، وينطبق عليها اتفاقية ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٨ بشأن عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية. وهكذا يمكن ملاحقة إسرائيل على هذه الجرائم، بموجب المادة ١٤٦ من اتفاقية جنيف الرابعة، والتي تفرض على أطرافها المتعاقدة "بأن تتخذ أي إجراء تشريعي يلزم لفرض عقوبات جزائية فعالة على الأشخاص الذين يقتربون أو يأمرؤن باقتراف إحدى المخالفات الجسيمة لهذه الاتفاقية (..) بما في ذلك (..) ملاحقة المتهمين (..) وبتقديمهم إلى محاكمة أيا كانت جنسيتهم (..) (و) أن يسلمهم إلى طرف متعاقد معني آخر لمحاكمتهم، ما دامت تتوافر لدى الطرف المذكور أدلة اتهام كافية ضد هؤلاء الأشخاص".

هذا ما يطلق عليه "الاختصاص العالمي"، والذي تنص عليه عديد الدساتير والقوانين الأوروبية. وهو كما نرى من المادة ١٤٦ من اتفاقية جنيف الرابعة، مُلزم لكافة الأطراف المتعاقدة السامية. وهو ذاته الذي جرت محاولة محاكمة شارون في بلجيكا على أساسه، وتأجلت بفعل تعديل القانون البلجيكي الساري إلى حين تركه لمنصبه الحكومي. وهو ذات الاختصاص العالمي الذي قبل به القاضي البريطاني مؤخراً تجاه أحد جنرالات إسرائيل الذي اقرتف مجازر في قطاع غزة، وهو المبدأ القانوني الدولي الذي بات يسمى من قبل المسؤولين الإسرائيليين بحملة نزع الشرعية عن الكيان الصهيوني. تربك هذه الآلية، إسرائيل وجزالات وضباط جيشها الإحتلالي، وهو ما تخص به الصحافة الإسرائيلية، وهي آلية جديرة بالمتابعة الحثيثة من قبل وزارة الخارجية ومنظمات حقوق الإنسان الفلسطينية، وهي جديرة وتستحق تأسيس قسم خاص بها في وزارة العدل أيضاً، وخاصة بعد الإنضمام لاتفاقيات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ في الأول من نيسان/ ابريل ٢٠١٤ وما يترتب عن

ذلك من إلتزامات وإستحقاقات قانونية دولية. ولعل من الضروري تفعيل كل ما تقدم من آليات قانونية، كالمذكرة التي أصدرتها ووزعتها وزارة الخارجية الفلسطينية على الدول، بشأن طلب إدراج مجموعات "شبان الجبال" و "دفع الثمن" الإرهابية في قوائم المنظمات الإرهابية الدولية.

## التوصيات:

وبالإضافة لما تضمنه كل ما سبق أعلاه من إستنتاجات وتوصيات، يمكن إبراز التوصيات الرئيسية التالية:

• ضرورة الإستخدام الأمثل للمنظومة القانونية الدولية بشأن القضية الفلسطينية، بما في ذلك الرأي الإفتائي لمحكمة العدل الدولية بشأن جدار التوسع والضم، في كافة مناحي علاقاتنا الدولية، وإعتبار أحكامها أساسيد رئيسية في التفاوض وفي المنظمات والمنابر الدولية.

• متابعة الآليات التي وضعتها الفتوى وقرار الجمعية العامة الذي تبعتها، وخاصة:

أ) تفعيل دور الدول المتعاقدة السامية في إتفاقيات جنيف، وفقاً للمادة الأولى المشتركة للإتفاقيات الأربعة، وكذلك وفقاً للمواد ١٤٦-١٤٧ من إتفاقية جنيف الرابعة بشأن "الإختصاص العالمي".

ب) تفعيل الفقرات رقم ١٥٣- ١٥٧ من الفتوى بشأن العواقب القانونية على الصعيد الدولي الناجمة عن بناء جدار التوسع والضم، وخاصة:

- قواعد الفتوى وأحكامها ملزمة للكافة *orga omnes*

- عدم الإعتراف من قبل الدول قاطبة بالإجراءات والتغييرات التي أحدثتها إسرائيل في الإقليم الفلسطيني المحتل.

- عدم تقديم العون أو المساعدة لسلطة الإحتلال.

- واجب إزالة أي عائق يحول دون حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير.

- على الدول المتعاقدة السامية في إتفاقيات جنيف الأربعة ضمان إحترام وإمتثال إسرائيل للقانون الدولي.

ت) التمسك بمسؤولية الأمم المتحدة "مسؤولية دائمة نحو القضية الفلسطينية، إلى حين حل هذه المسألة في جميع جوانبها، وبطريقة مرضية بالإلتزام مع الشرعية الدولية"- وفقاً للفقرة ٤٩ من الرأي الإفتائي.

ث) تفعيل وإعادة تنظيم اللجنة الوطنية لسجل الأضرار ووحدرة الجدار في مجلس الوزراء.

ج) إدراج وإعتداد التقرير الخطي الفلسطيني المقدم لمحكمة العدل الدولية وكذلك نص قرارها بشأن الجدار، في مناهج التدريس وخاصة الجامعية وبالأخص في كليات القانون كمتطلب جامعي إلزامي.



## الفهرس

- ١٨- الجمعية العامة للأمم المتحدة، القرار ES-١٠/١٤، بتاريخ ٢٠٠٣/١٢/٣.
- ١٩- الفقرة ٤٩ من الرأي الإستشاري لمحكمة العدل الدولية.
- ٢٠- الفقرة ٧٨ /
- ٢١- الفقرة ٨٧ /
- ٢٢- ٩٢ -
- ٢٣- الفقرة ٩٦ /
- ٢٤- الفقرة ١٢٥- ١٢٦ .
- ٢٥- ٧٥
- ٢٦- الفقرات ١٠٦- ١١٣ .
- ٢٧- الفقرة ١١٥ /
- ٢٨- الفقرة ١١٨ /
- ٢٩- الفقرة ١٢٢ /
- ٣٠- الفقرة ١٢١ /
- ٣١- الفقرات ١٤٦- ١٥١ .
- ٣٢- الفقرة ١٤٧ .
- ٣٣- الفقرة ١٤٨
- ٣٤- ١٤٩
- ٣٥- الفقرة ١٤٩
- ٣٦- الفقرة ١٤٩
- ٣٧- الفقرة ١٥١
- ٣٨- الفقرة ١٥٠
- ٣٩- الفقرة ١٦٠ /
- ٤٠- الفقرة ١٥٢
- ٤١- [ الفقرة ١٥٣ ]
- ٤٢- الفقرة ١٥٥
- ٤٣- الفقرة ١٥٧ .

## فلسطين واسرائيل ٢٠١٤-٢٠٢٠ - المؤرخ ايلان بابيه

تعتبر العملية السلمية بين فلسطين واسرائيل معجزة طبية، فقد ماتت مرات عديدة ثم بعثت للحياة قبل انهيارها كلياً. واستمرت العملية السلمية برغم كل الظروف، ليس بسبب وجود امل ولو بسيط بأنها ستنتج وانما استمرت بسبب الحصاص التي تتقاسمها الاطراف المشاركة في العملية التفاوضية مع مرور السنوات. وتعلم حكومة اسرائيل بأن عملية السلام تجنب اسرائيل العزلة الدولية والمقاطعة العالمية وفرض العقوبات.

فطالما عملية السلام مستمرة ستستطيع اسرائيل الاستمرار في مشروع توسعها الاستيطاني في الضفة الغربية والعمل بسياسة الترانسفير لترحيل الفلسطينيين من هناك، وهذا يشمل منطقة القدس الكبرى وبالتالي تخلق معطيات على الارض تمنع احتمالية اي حل مستقبلي. والحصانة التي تمتلكها اسرائيل يتحمل مسؤوليتها بالدرجة الأولى الانحياز الامريكي الذي يمتاز بعدم مصداقية، إضافة إلى العجز الأوروبي والدولي.

وتنقسم القيادة الفلسطينية حول مسألة استمرارية العملية التفاوضية، فقد اكد مسؤولون في قيادة السلطة الفلسطينية أن تأسيس السلطة هو انجاز وطني حقيقي ويجب الحفاظ عليه. وبالمقابل هناك آخرون من ضمنهم الرئيس عباس من الذين يشككون بشرعية السلطة الفلسطينية واحتمالية تحقيق السلام. صحيح أن هناك تهديدات قيلت على لسان الرئيس الفلسطيني محمود عباس حول تسليم الاسرائيليين المفاتيح من اجل تشكيل ضغط على اسرائيل. ولكن بعد ربيع ٢٠١٤ أصبحت هكذا تهديدات حقيقية اكثر واليأس أكبر وبالتالي امكانية نجاح حكومة توافقية أكبر.

وتعتبر الجهود من أجل الوحدة مؤشراً بأن القليل ممن أيدوا العملية التفاوضية بالماضي إضافة إلى المراقبين يعملون جاهدين على الا تتكرر المعجزة الطبية نفسها لأن الاموات لا يعودون. معظم من يحاولون ويفهمون ويتكهنون حول ماذا يمكن أن يحدث لو لم تبعث العملية السلمية، ويرون ان أي خيارات بديلة ستكون كارثية. فاليسار الصهيوني والحركات التحررية المؤيدة للصهيونية في الغرب يناقشون كابوس الدولة الواحدة ثنائية القومية، ليس فقط لانها ستعني انتهاء الصهيونية بل ايضاً ستخلق حقيقة أسوأ للشعبين (على أساس أن الأسوأ لم يحصل للفلسطينيين حتى اللحظة!!).

ويفسر اليسار الصهيوني الاسرائيلي مسألة غريبة تحديداً حول تفسيراته لما ورد بالتوراة من مخاطر الدولة الديمقراطية الواحدة ثنائية القومية. وقد حذر كثير من هذا الموضوع.

السيد اوري افيري في عدد من كتاباته. وكثير من الاسرائيليين وصفوا مشاهد الحرب الأهلية

القادمة. أما من الجهة الفلسطينية فيرى الفلسطينيون أن الحل الوحيد هو حل الدولتين لشعبين حيث أنه يحظى بتأييد دولي واسع، لهذا يجب الاصرار على تحقيق ذلك؟ ويتشارك في وجهة النظر تلك عدد قليل من اصدقاء فلسطين الحقيقيين. وبالرغم من الاختلاف الجوهرى في كيفية تحديد معالم الدولتين والرؤية لهذا الحل بين الوسط واليمين الاسرائيلي بمقارنة مع اليسار الصهيوني أو أحزاب مثل حداث والتجمع في اسرائيل وبين اعضاء السلطة الفلسطينية ومؤيدي الفلسطينيين في العالم المتنور، هناك توافق حول هذا الموضوع في أي حوار سياسي للقضية في فلسطين والعالم.

هل ستستمر هذه السياسة في العام ٢٠١٥؟ هناك أصوات تظهر بوضوح أكبر في المجتمع الفلسطيني وبين النشطاء اليهود الصهيونيين لاستبدال تأييدهم المتجذر لحل الدولتين ببحث بدائل جديدة تتلاءم والواقع الجديد. ولقد بات واضحا على ارض الواقع أن الخطاب المتشدد المهيمن حول السلام لا علاقة له بتحقيق السلام واي محاولة لانعاشه ستعتبر عقيمة. فقد اختفى اليسار الصهيوني من الساحة السياسية في اسرائيل لعدة اسباب ومقاصد وبقي خيار سياسي واحد ووحيد، وهو إما ائتلاف حكومي بين اليمين والوسط العلماني أو ائتلاف حكومي بين اليمين واليهود المتشددين. ولا اعتقد بأن هذا الواقع مؤقت ولا يمكن تصور أي تغير باللعبة من حيث نشوء تيار يساري جديد يرجح الكفة في اسرائيل. ومن يتأمل حدوث هذا الاحتمال يبخس من العملية الفكرية للمجتمع اليهودي في اسرائيل منذ تأسيس الدولة عام ١٩٤٨ والذي وضع امام مدحلة بخارية ضغطت مسألة الهلع الاسرائيلي القديم من الأمم المعادية المحيطة بهم مدموجا بالكره الاستعماري النموذجي من قبل السكان الاصليين، فنتج عن كل ذلك خطاب عنصري مرعب، وبالتالي لا يمكن ان تتغير الطبقات العنصرية المتشددة ولا يمكن أن تختفي كما حصل في دولة جنوب افريقيا العنصرية.

وتستطيع المشاريع التعليمية المضادة والمقاومة الفعالة والضغط الخارجي ان تخلق تحولا داخل المجتمع الاسرائيلي ولكن تلك المشاريع هي عمليات طويلة ممكن ان تصد نتيجة للمخاطر الآنية المنبثقة من انهيار الجهد الديبلوماسي وبالتالي لا تؤدي إلى أي نتيجة. وأما بالنسبة لحركة المقاومة فهي ما زالت مجزأة ويجب أن تجتاز واقعا تاريخيا مستحيلا نتيجهته ظهور عدة مجموعات فلسطينية مختلفة لها اجندات الوطنية والتي تطورت بسرية منذ عام ١٩٤٨. ومن جهة اخرى تعتبر الوحدة الفلسطينية عملية طويلة ايضا طالما هناك مناعة عند المجتمع الاسرائيلي ضد فيروس العنصرية الذي لم بها. إضافة إلى ذلك فإن حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات وبالرغم من انجازاتها العظيمة لم تستطع الوصول للنخب السياسية في الغرب حيث انهم من يوفر الحماية والحصانة لاسرائيل فعليا على الأرض.

ويواجه القليل من الشجعان في اسرائيل المجتمع العنصري بكافة تجلياته، السياسة الممنهجة للتطهير

العراقي في النقب ويافا وعكا والناصره والقدس الشرقية والأغوار وجبال جنوب الخليل إضافة إلى المظاهر الدستورية حيث ضربت موجة عنصرية شديدة الكنيسة الاسرائيلي. وبينما تواصل حملة المقاطعة انجازاتها كل يوم، وبينما نشهد جهودا حقيقية للوحدة الوطنية الفلسطينية على الأرض، ولدت دولة جديدة: اسرائيل الكبرى. فقد انهدت اسرائيل ضم مناطق C في الضفة الغربية وحجز مناطق A وB في قفص ، واذا لم تقاوم هذه الدولة الجديدة سيكون مصير الضفة الغربية كمصير غزة العنيدة. وفي هذا القفص لا يوجد حيز للتوسع المكاني ولا مصادر للتنمية والتقدم وهناك حظر فعلي لمقاومة الدولة الجديدة تحت مسميات مثل الحرية والتقدم واهمها الوطنية.

ولا يزال هذا السيناريو الذي تجلى أمام أعيننا ولكن علينا ان نواجهه خلال السنوات القادمة بالرغم من ذلك. ومن يتابع مؤشرات العنصرية والديمقراطية في اسرائيل يرى امتداد هذه الحقيقة المرة والتي تتجه نحو عصر قوانين عنصرية ومشاريع تهديد عنصرية والزيادة الصادمة للاعتداءات على الفلسطينيين تحت شعار (قائمة الاسعار) والتي تشمل تدمير الممتلكات الفلسطينية والاماكن المقدسة في اسرائيل الكبرى الجديدة وفي ظل مجالس محلية عاجزة وقوات امن لا مبالية حيث تنتشر الجريمة المنظمة في المناطق الفلسطينية المهمشة والأحياء والقرى التي انتشرت فيها البطالة والفقر بشكل غير مسبوق بين نهر الأردن والبحر المتوسط. وهذه حقيقة صعبة يجب مواجهتها مع انها تركت سليمة جزئيا بسبب الجهود الضائعة في عملية سلمية على ثلاثة محاور تتعلق بالواقع الذي يجب ان يستهل. المحور الأول يتعلق بالسياسات الاسرائيلية الشاملة التي حجبت الخط الاخضر منذ سنوات عدة والتي تعامل الكل الفلسطيني بنفس الطريقة. فهناك ايجابيات للفلسطينيين حملة الجنسية الاسرائيلية ولكن هذه الايجابيات في طريقها إلى الاضمحلال. فكما ذكرت سابقا، هذا لا يتعلق فقط بان اسرائيل أصبحت أقل اهتماما من حيث توفير تلك الامتيازات وانما لنمو المعرفة بان هناك تمييزا عنصريا ينفذ براءة في اسرائيل نفسها وهذا ليس أقل ظلما من الاحتلال المباشر للضفة الغربية والحصار الطويل والممتد على غزة وقطاعها.

عندما ينبع الاضطهاد من نفس المصدر فيجب أن تكون مقاومته مركزة اكثر. وانا لا أشير هنا أنه في المستقبل القريب سيكون هناك استراتيجية فلسطينية موحدة ولكن يجب على من يؤيد اهمية النضال الفلسطيني الاسرائيلي المشترك أن يقدم تصورا دوليا يواجه التطهير العرقي في فلسطين ككل وليس في جزء منها. ففي هذا الوقت تحديدا من المحتم القيام بجدل حقيقي وواضح حول الخيارات الجديدة بدل المعادلة الميتة. إعادة تأطير العلاقة العربية-اليهودية في فلسطين التاريخية بات مشروعا حاسما يجب أن يبدأ.

ومهما كان المقترح حول الكيان السياسي المستقبلي يجب ان يكون على اساس المساواة الكاملة لكل

سكان الدولة بالإضافة إلى من طرد منها. فيجب أن يطور الكيان النموذجي المستقبلي من خلال الاجسام التمثيلية الحالية بالإضافة إلى تمثيل جديد ممكن أن يظهر. ولكن من اجل التقدم وتفادي الشلل الخيالي الذي يفرض علينا، فيجب على من يؤيد حل الدولتين ويريد تحقيقها أن يقدم لنا نظاما سياسيا وايدولوجيا ودستوريا واقتصاديا واجتماعيا لمن يعيش في فلسطين واسرائيل على حد سواء.

أما المحور الثاني فهو المتعلق باللجئين الفلسطينيين، فطالما تناقش هذه القضية في اطار الخطاب العقائدي القديم للسلام وحل الدولتين سيبقى الخطاب هامشيا وتحقيقه ممكنا فقط في حالة واحدة وهي عودة اللاجئين لدولة فلسطين المستقبلية. وياتي الجدل في قضية اللاجئين مرتبنا بنقطتين: اولاً، تحليل الرفض الاسرائيلي للعودة كمظهر من مظاهر عنصرية تلك الدولة. وثانياً، ضرورة تحديد مصير اللاجئين في ضوء ازمة اللاجئين السوريين والتي تشمل عددا كبيرا من الفلسطينيين.

في اطار الجهد الديبلوماسي المبني على اساس حل الدولتين، فإن رفض اسرائيل المتواصل للعودة بحجة أن عودة الفلسطينيين ستؤثر على الاغلبية الاسرائيلية في الدولة. فالشرعية الدولية وبشكل غير مباشر أعطت الضوء الاخضر لاسرائيل من أجل استخدام اي وسيلة ممكنة للحفاظ على الأغلبية اليهودية. وفي هذا المجال لا يوجد فرق بين الموقف الاسرائيلي الراض لحق عودة اللاجئين ومشاريع التطهير العرقي الاسرائيلي ضد الفلسطينيين من حيث ضم وادي عارة للضفة الغربية أو اقتلاع البدو من النقب أو إخلاء القدس الشرقية وغور الأردن من السكان. والسلام مع دولة تمارس سياسات عنصرية ضد مواطنيها لا يمكن تحقيقه ولم يسبق له ان تحقق ايضا من قبل الدول الاشد تطرفا فيما يتعلق بالمجتمعات المهاجرة لدولهم.

الموضوع الآخر المتعلق بقضية اللاجئين هو مصير اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، ولبنان، وتركيا، والاردن في ضوء الحرب الاهلية في سوريا. تفتخر اسرائيل بجانبها الانساني عندما تقول للعالم بأنها استقبلت مقاتلين سوريين في مستشفياتها مع ان جيرانها الأربعة بالرغم من العلاقات المعقدة استوعبت مئات الالاف من اللاجئين. وحتى لو لم يكن هناك اهتمام اسرائيلي بهؤلاء اللاجئين والاكثرية منهم فلسطينيون، وذلك يوجب على كل فلسطيني في معسكر السلام داخل وخارج فلسطين أن يشير إلى الرابط بين المأساة السورية والقضية الفلسطينية. فهناك حاجة لوضع حق عودة اللاجئين للبلاد التي هجروا منها بصورتها القديمة والجديدة لمصادقة اسرائيلية كبادرة انسانية.

فحق العودة يجب ان يوضع كأولوية في اسرائيل وهناك مؤشرات مبدئية بأن اجندة النشاط السياسي في اسرائيل توجه في هذا الاتجاه. النكبة ما زالت تحدث اليوم وليس في الضفة الغربية وقطاع غزة فقط فعند انطلاق اي حوار حول المصالحة يجب اخذ هذه النقطة كاتلافة وكخطوة تمهيدية للاعتراف بحق اللاجئين الفلسطينيين بالداخل المحتل (في اسرائيل) أي ما يقدر بحوالي ٢٥٠٠٠٠ لاجئ للعودة إلى بيوتهم أو مناطق مجاورة. هناك امكانية ان يحظى حق هذا الانسان المهجر داخليا على اجماع داخل اسرائيل بمواجهة سياسات التطهير العرقي المستمر حتى اللحظة. فاللجوء الداخلي هو شهادة من الماضي على الصراع القائم حاليا وضده. أما كيف سيعود للاجئين فهي مسألة مركزية لأي حوار داخلي حول فلسطين واسرائيل في هذا القرن.

أما المحور الثالث والاخير هو غياب الخطاب الاشتراكي من الجدل حول فلسطين. وهذا الغياب هو واحد من الاسباب الرئيسية بان معسكر السلام في اسرائيل (وجي ستريت في الولايات المتحدة كمثل) لا علاقة لهم بالليبرالية الجديدة. هذا الرأي الدولي لا يعارض الانسحاب الاسرائيلي من الأراضي المحتلة ولكن لديه موقف حول الاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي الذي لا يفرق بين ساكن الضفة الغربية ومواطن اسرائيلي. للأسف حقيقة ان طبقة اليهود المسحوقة في اسرائيل، تحديدا اليهود/العرب، يتشاركون في الفكر العنصري المتطرف أو كره الذات العربية كما يصفها بعض النقاد. ولكن هذا المأزق هو سبب آخر جيد لضرورة عدم الاستسلام عن ذلك الرأي الدولي الذي يتحدى الوضع الاقتصادي الحالي وليس فقط السياسي بين نهر الاردن والبحر المتوسط.

الاصرار على هذا الرأي يستقى من تجربة جنوب افريقيا ما بعد الصراع، وتعتبر هذه التجربة مخيبة للأمال بسبب بقاء نظام اقتصادي يميز ضد المجتمع الافريقي هناك. فمن يمثل هذا الرأي مؤسسيا، وجمعيا، وفرديا يقع على عاتقه مسؤولية كبيرة في تحويل الجدل من جدل يقف عند الخط الاخضر لاطلاق جدلٍ يشمل الكل الفلسطيني في سياق الشرق الاوسط المستقبلي بشموليته. حتى عام ٢٠٢٠ سنواجه رأسمالية اسرائيلية أكبر وأكثر عنصرية منشغلة بالتطهير العرقي لفلسطين. ولكن ستعتبر هذه فرصة جيدة لأن تكون هذه الدولة منبوذة وستطالب القوى الدولية بالنظر إلى بدائل لهذا الحكم. ما لا يجب ان يسمعه هو الخطاب القديم غير المرتبط بالسياق الحالي حول الصراع والعمل على تحقيق العدالة والديمقراطية في فلسطين.

ترجمة تامي ريفيدي - منسقة البرامج والانشطة - مؤسسة ياسر عرفات

## "مفاوضات السلام"، مقاطعة إسرائيل واستراتيجية النضال الفلسطيني المطلوبة من أجل نيل حقوقنا الشاملة\*

عمر البرغوثي\*\*

لم تعد الإدارة الأمريكية والأصوات الصهيونية الأقل جنوناً تخجل اليوم من طرح حقيقة كانت واضحة لمعظم الشعب الفلسطيني لسنوات عدة وهي أن ما يسمى بـ"مسيرة السلام" هي "ضرورة وجودية" للنظام الإسرائيلي، ولذلك فلا بد من التغطية على كونها جثة هامدة بلقاءات وتصريحات لا متناهية ولا تنطلي على أبسط البسطاء في منطقتنا. حتى الرئيس الأمريكي، باراك أوباما، صرح مؤخراً بأن الولايات المتحدة لن تستطيع أن تحمي إسرائيل من تنامي عزلتها الدولية (والمقاطعة أهم مسبب لها) إذا ما فشلت المفاوضات، أي إذا سقطت ورقة التوت الذهبية التي غطت بها إسرائيل استثمارها المسعور للأرض الفلسطينية وتطهيرها العرقي لقطاعات كبيرة من شعبنا في القدس والنقب والأغوار لمدة عقدين. إن ما يُسمّى بتفاوض (negotiation) لا يعدو كونه نفيًا (negation) تدريجياً لحقوق الشعب الفلسطيني ومحاولة شرعنة ذلك بإضفاء صفة رسمية فلسطينية وعربية عليه. هذه ليست بمفاوضات حقيقية، لسببين بسيطين: أولاً، العبد لا يفاوض السيد أبداً، إما أن يستجديه أو يقاومه؛ ثانياً، المفاوضات الجدية في حالات الاستعمار المماثلة لحالتنا الفلسطينية لا تأتي إلا كجزء من استراتيجية نضالية وكتتويج لتعديل موازين القوى من خلال المقاومة بأشكالها لإجبار العدو على التراجع والتسليم بحقوق الشعب الواقع تحت الاستعمار. فما بالكم والحال هنا هو لاستعمار استيطاني إحلالي، يسعى لتشريد واستبدال الشعب الأصلي برمته، لا التوصل لتسوية معه؟

إذاً، فإن "المفاوضات" الجارية منذ ١٩٩٣، وحتى قبلها، بين الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة مع منظمة التحرير الفلسطينية هي أشبه بمفاوضات بين الحكومة الأمريكية ونظيرتها الإسرائيلية، بأجزائها؛ وما تقرّراه الأخيرتان تفرضانه على الشعب الفلسطيني. وأدى التمسك غير المنطقي بالتفاوض كوسيلة وحيدة لاسترجاع حقوقنا للتفريط بإنجازات نوعية وإمكانيات كامنة هائلة كالنصر القانوني الذي تحقق في قرار محكمة العدل الدولية في ٢٠٠٤ بتجريم جدار الضم وكل النظام الاستعماري المرتبط به. إلا أن المجتمع المدني الفلسطيني وقواه الشعبية استندت إلى هذا الإنجاز التاريخي وأطلقت حركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها (BDS) في الذكرى السنوية الأولى لقرار

المحكمة لتبدأ مسيرة نضالية مميزة، تبعث الأمل لدى شعبنا وأحرار العالم المناصرين لحقوقه بإمكانية استعادة حقوقنا المسلوبة.

لقد أدمن البعض منا على الهزيمة وعلى التكيف مع ما يسلم به كانتصار للمشروع الصهيوني. لقد ربحت إسرائيل معارك كثيرة وحقت الكثير، دون شك، ولكن معظم شعبنا وأمتنا لا يزال مقتنعاً بإمكانية النصر. إن جوهر الاستراتيجية الفلسطينية الكفاحية الجديدة لا بد أن يكون مبنياً على إيماننا الراسخ بهذه الإمكانية، وعملنا المثابر والحكيم والجماعي لتوفير الآليات النضالية المحلية والعربية والعالمية الضرورية لذلك، أي دون إسقاط التمنيات أو الغرق في مستنقع القدرية. إن أهم ما نواجهه به "الجدار الحديدي" الذي بنته الحركة الصهيونية في عقولنا، أي احتلال عقولنا بفكرة إستحالة النصر، هو موجة الأمل المبني على العمل والمثابرة والنضال المبدئي والحكيم في آن واحد.

في ذروة قوتها الاقتصادية والعسكرية، بالذات النووية، ورغم فرض هيمنتها على دوائر القرار الأمريكي فيما يتعلق بالمنطقة العربية وجوارها ككل، ورغم ضعف القيادة الفلسطينية وانهايار سقف الطموح الرسمي إلى أدنى مستوى منذ انطلاقة الثورة الفلسطينية المعاصرة، فإن إسرائيل تشعر اليوم بالتهديد على نحو غير معهود منذ زمن. لكن هذه المرة، للمفارقة، يأتي التهديد من حركة نضال شعبي ومدني تستند على القانون الدولي وتستمد مبادئها من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. ففي حزيران/ يونيو ٢٠١٣، قررت الحكومة الإسرائيلية بشكل رسمي أن الحركة العالمية لمقاطعة إسرائيل (BDS)، التي أطلقها المجتمع الفلسطيني بغالبية الساحقة في ٩ تموز/ يوليو ٢٠٠٥، باتت تشكل "تهديداً استراتيجياً" للنظام الإسرائيلي الذي يجمع بين الاحتلال والاستعمار الاستيطاني والفصل العنصري (الأبارتهايد). في ضوء ذلك، قررت الحكومة الإسرائيلية نقل مسؤولية محاربة حركة المقاطعة إلى وزارة الشؤون الاستراتيجية، بعد أن كانت وزارة الخارجية تتولى هذا الملف.

إن تنامي نجاحات حركة المقاطعة منذ انطلاقتها قبل ما يقارب التسع سنوات، وبالذات انتصاراتها النوعية مؤخراً، تؤشر لمرحلة جديدة، قد تواجه إسرائيل فيها عزلة دولية غير مسبوقه تذكر بعزلة نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا في نهايات القرن الفائت. لذلك، لا بد لأن تشكل حركة المقاطعة عنصراً رئيسياً من عناصر استراتيجية النضال الفلسطيني من أجل حقوقنا الشاملة.

في سياق المساهمة في تطوير استراتيجية فعّالة ومعاصرة للنضال الوطني الفلسطيني، وكون الاستراتيجية هي الطريق إلى الهدف، فلا بد أولاً من طرح أهداف النضال الوطني الفلسطيني ونقاش ما إذا كان هناك إجماع عليها، أو ما يقاربه. لقد تغيرت هذه الأهداف، كما عيّرت عنها قيادة منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف)، تدريجياً منذ تأسيس المنظمة في ١٩٦٤ وانطلاقة الثورة الفلسطينية المعاصرة في ١٩٦٥. فمن



تحرير كامل التراب الوطني، إلى دولة ديمقراطية علمانية على كامل التراب، إلى الحل "المرحلي" الذي يدعو إلى تأسيس سلطة فلسطينية على أي شبر يتحرر من أرض فلسطين، إلى إقامة الدولة الفلسطينية على حدود الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ والقدس الشرقية عاصمتها مع تأكيد حق العودة للاجئين، إلى دولتين لشعبين مع تبادل أراضٍ لضمان احتفاظ إسرائيل بكل "الكتل الاستيطانية" (ومعظم القدس المحتلة معها) وأهم الأراضي الزراعية وموارد المياه، إلى التلميح بإمكانية التنازل عن حق العودة من خلال تبني صيغة "العودة إلى أي مكان في الوطن" (كما كشفت الأوراق السرية للمفاوضات)، مما يؤشر للعودة إلى الضفة وغزة فقط، إلى التصريح بعدم الرغبة في "إغراق إسرائيل بملايين اللاجئين"، وصولاً إلى إبداء الاستعداد للاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية، أي لنسف المشروع الوطني الفلسطيني برمته.

رغم غياب الاتفاق بين الأحزاب السياسية الفلسطينية الأساسية حول أهداف النضال الوطني الفلسطيني، إلا أن بعض الحقوق الأساسية ربما تُعدّ القاسم المشترك، أي الحد الأدنى، في أوساط الشعب الفلسطيني وأهمها: حق تقرير المصير، حق عودة اللاجئين إلى ديارهم التي شردوا منها خلال النكبة وبعدها، والحق في التحرر الوطني من الاحتلال العسكري (عادةً يشار للأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ في هذا السياق من قبل غالبية فصائل العمل الوطني والإسلامي)، وكلها حقوق كفلها القانون الدولي.

كما إن الحق الأساسي في المساواة للفلسطينيين في أراضي ١٩٤٨، أي حاملي الجنسية الإسرائيلية، مكفول في القانون الدولي، بل يعد أهم حق من حقوق الإنسان على الإطلاق.

إن برامج م.ت.ف. وتوجهات القيادة الفلسطينية وكل فصائل العمل الوطني والإسلامي تقريباً قد أسقطت حقوق ودور الجزء من شعبنا الذي تمكن من الصمود في أرضه خلال النكبة (فلسطينيو أراضي ٤٨)، قبل حقبة أوسلو وخلالها، وكأن معظم الصف القيادي الفلسطيني، بيمينه ويساره ومثقفيه، بات مدجناً لدرجة قبول سلخ فلسطينيي ٤٨ عن نسيج الشعب الفلسطيني وترك حقوقهم بيد دولة إسرائيل وكأنها شأن داخلي لها. عدا عن الإجحاف التاريخي والتنازل السياسي الذي لا يغتفر الناجم عن هذا السلخ، فإنه ينم عن قصر نظر كبير إذ أن عدم إدراك الدور النضالي الحالي والإمكانات النضالية الكامنة لدى شعبنا في أراضي ٤٨ في معركة تقرير المصير وهزيمة المشروع الصهيوني يحرمان شعبنا من دُخر استراتيجي.

إذاً، في الحد الأدنى، لا بد من الإصرار على الحقوق الفردية والجماعية لشعبنا في أراضي ٤٨، كجزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني، بما يتضمن الحق في التخلص من نظام الأبارتهايد الصهيوني هناك، أي في التخلص من البنى والقوانين والسياسات العنصرية التي يقوم عليها نظام الاضطهاد والعنصرية الإسرائيلي، كما

سبق لشعب جنوب أفريقيا أن تخلص من نظام الأبارتهايد. وهذا أيضاً كفله القانون الدولي. وهذا لا علاقة له بحل "الدولة الواحدة" أو "الدولتين"، فحركة المقاطعة، كأوسع تحالف في المجتمع الفلسطيني، لا تتبنى أي موقف تجاه الحلول، بل تصر على الحقوق، بغض النظر عن الحل النهائي الذي يرضاه شعبنا بأجزائه.

في المقابل، فإن أي رؤية لا ترتبط بـ"ساقين" يسيران بها على الأرض نحو الأهداف المرجوة هي بالضرورة غير بناءة لأنها تبقى أسيرة التمنيّات ولا تحفّز على النضال التراكمي والفعال. إنّ بعض الأدوات المطروحة للتغيير اليوم هي ذاتها التي عفى عليها الزمن، لأنها لا تلامس الواقع ومقتضياته المتحرّكة دوماً، أو هي غير قادرة على طرح برامج عمل كفاحية تجمع الطاقات النضالية الإبداعية للقطاعات الواسعة من شعبنا وأمّتنا وشعوب العالم المتضامنة معنا، أسوأً بالنضال الجنوب أفريقيّ المدعوم عالمياً. كيف نصل من النقطة "أ" إلى النقطة "ب"؟ هذا هو السؤال الذي يفترض أن يقصّ مضاجع جميع المناضلين، لا أيّ شعار نرفعه فحسب. إنّ رؤية البعض للنقطة ب ربما تكون رائعة، لأنها تشمل حقوق كلّ الشعب الفلسطينيّ لا حقوقه في الضفة وغزة فقط؛ لكنّه من غير الواضح كيف نصل إلى هناك، إن أساس أي استراتيجية هي خطة العمل التي تتبع من الطموح والحلم والرؤية وتدرس الواقع بعمق، دون إسقاط التمنيّات، ودون التسليم به كقدر، فتطرح آليات عمل للمقاومة (مفهومها الأوسع) والتحالفات والتضامن الدولي لتغيير هذا الواقع وصولاً إلى تحقيق الطموح والحقوق الوطنية.

خلال عقدين منذ توقيع اتفاقية أوسلو، عملت إسرائيل بنجاح نسبي، وأكثر من أي وقت مضى، على تحقيق عدة اختراقات استراتيجية كادت تجهض الصراع العربي-الصهيوني، أهمها:

أ. عزل القضية الفلسطينية عن عمقها العربي؛

ب. تحويل جزء من الطبقة السياسية الفلسطينية (من مختلف الفصائل ومن المستقلين) إلى "شريك" في "إدارة الأزمة" والتغطية، بغض النظر عن النوايا، على استمرار مخطط الاستعمار الاستيطاني والإحلالي الصهيوني للوطن الفلسطيني مقابل مصالح ضيقة؛

ج. تقزيم قضية فلسطين إلى مجرد قضية احتلال ١٩٦٧، مع تحويل حق عودة اللاجئين إلى شعار "خيالي" وأحياناً "متطرف" واستبداله بشعار حل مقبول لجميع الأطراف يتم التوصل إليه "من خلال التفاوض"؛

د. حذف فلسطينيي ٤٨ من تعريف الشعب الفلسطيني والتهميش المتصاعد لفلسطينيي الشتات في الأطر "القيادية" والتمثيلية للشعب، وفي التمثيل الفلسطيني الرسمي في الأمم المتحدة، وحتى في التعريف "المقبول" و"المعتدل" للشعب الفلسطيني؛

هـ. كسر طوق المقاطعة العربية ومن قبل دول عدم الانحياز، وبدء مسيرة تطبيع العلاقات الإسرائيلية مع دول الجنوب دخولاً من الباب الفلسطيني والعربي؛

و. استغلال هيمنة القطب الأوحى الأمريكي، بالذات في سياق حربها المفتوحة "ضد الإرهاب" منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١، لبسط نفوذ إسرائيلي غير مسبوق على السياسة الأوروبية ولتحويل الأمم المتحدة وأجهزتها إلى شاهد زور في أحسن الأحوال؛

ز. تسويق إسرائيل في العالم على أنها رائدة في مكافحة "الإرهاب" وحرب المدن وتطوير أسلحة ومنظومات عسكرية وأمنية متطورة، مجربة "في الميدان" (field-tested) ويحتاجها العالم أجمع؛  
ح. إضعاف كل أشكال التضامن الفعال مع حقوق الشعب الفلسطيني تحت شعار: "لا تكونوا فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين أنفسهم!".

بناء على ذلك، لا بد لاستراتيجيتنا النضالية، أولاً وقبل كل شيء، أن تعيد الاعتبار لوحدة شعبنا، كل شعبنا، ولضرورة تمثيله في الأطر التي تدعي تمثيل الشعب؛ وأن تؤكد على حقوقنا غير القابلة للتصرف؛ وأن تعيد اللحمة مع عمقنا العربي وتسهم في تفعيل دور الشعوب العربية في التصدي لإسرائيل ومخططاتها واحتلالاتها وعدوانها المتكرر كجزء عضوي في نضال هذه الشعوب الشقيقة من أجل التحرر والكرامة والعدالة الاجتماعية؛ وأن تصعد المشاركة الشعبية الواسعة في المقاومة وتطوير حركة مقاطعة إسرائيل ومؤسساتها والشركات المتواطئة في جرائمها، محلياً وعربياً ودولياً، بما يكفل كسب غالبية الرأي العام العالمي وكسر التواطؤ العربي والدولي في انتهاكات إسرائيل لحقوق شعبنا. كما لا بد من إعادة ربط قضية فلسطين بنضالات شعوب العالم من أجل الكرامة والعدالة الاجتماعية ومحاربة الفقر والمديونية، وصيانة الحريات، والمساواة للمرأة، وإنقاذ البيئة وغيرها من القضايا التقدمية التي تجمع معظم البشر.

إن استمرار تقيد المسؤولين الفلسطينيين باتفاقية أوسلو وتوابعها -- بالذات التنسيق الأمني واتفاقية باريس التي تكرر التبعية الاقتصادية -- من طرف واحد، رغم كل انتهاكات دولة الاحتلال المتتالية والجسيمة، واستمرار سياستهم المتناغمة مع عقلية أوسلو و"المفاوضات" الأزلية العقيمة بدلاً من مواجهة إسرائيل ومقاومتها هما جوهر أزمنا السياسية اليوم كشعب وأمة، والتخلص منهما هو مفتاح الحل.

وفي ظل غياب المحاسبة والمساءلة في الأطر السياسية الفلسطينية وشلل العملية الديمقراطية والتمثيلية في م.ت.ف، لا بديل عن استعادة الشعب الفلسطيني لمنظمة التحرير، أي إعادة تشكيل م.ت.ف من الأسفل إلى الأعلى، عبر إعادة بناء قاعدة شعبية في كافة القطاعات، في الوطن والشتات، بما في ذلك في أراضي ٤٨، مع ترسيخ تقاليد الديمقراطية والتعددية السياسية وآليات المساءلة والمحاسبة، وعلى قاعدة

حقوق شعبنا الأساسية وأهمها حق العودة إلى الديار.

لقد هيا نداء مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها (BDS)، الصادر عن الغالبية الساحقة من المجتمع الفلسطيني في ٢٠٠٥، الأرضية لتجاوز السياسة الفلسطينية الرسمية التي فشلت في حماية الأرض الفلسطينية من النهب المستمر وفي حماية الإنسان الفلسطيني في الأراضي المحتلة عام ٦٧ من جرائم الاحتلال والمستعمرين.

تشير الإحصائيات الرسمية الفلسطينية إلى إن فلسطينيي غزة والضفة الغربية (بما فيها القدس الشرقية) يشكلون فقط ٣٨ في المئة من الشعب الفلسطيني، بينما يشكل فلسطينيو أراضي ٤٨ حوالي ١٢ في المئة، وفلسطينيو الشتات ٥٠ في المئة من شعبنا. لذلك، يحدّد نداء المقاطعة الحقوق الأساسية الخاصة بهذه الأجزاء الرئيسية الثلاثة المكونة للشعب الأصلي في فلسطين، والتي تشكل الحد الأدنى لمتطلبات تقرير المصير، فهو يطالب بإلزام إسرائيل بـ:

١- إنهاء احتلالها واستعمارها لكل الأراضي العربية [المحتلة عام ١٩٦٧] وتفكيك الجدار،

٢- الاعتراف بالحق الأساسي بالمساواة الكاملة لمواطنيها العرب الفلسطينيين،

٣- احترام وحماية ودعم حقوق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم واستعادة ممتلكاتهم، كما هو منصوص عليه في قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤.

يقوم نداء BDS على ما أنجزته مبادرات فلسطينية ودولية عديدة تدعو إلى مقاطعة إسرائيل و/أو سحب الاستثمارات منها، ولا سيما تلك المبادرات المنبثقة بعد انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة لمناهضة العنصرية في ديربان بجنوب أفريقيا في عام ٢٠٠١. وفي حين أن الاتساق الأخلاقي والالتزام بحقوق الإنسان العالمية هما الأساسان الجوهريان للحركة العالمية الرامية لمقاطعة إسرائيل، فإن جهود المقاطعة تقوم من الناحية العملية على ثلاثة مبادئ أساسية هي: مراعاة الحساسية للسياق، والتدرج، والاستدامة.

لقد قطعت حركة المقاطعة BDS أشواطاً كبيرة خلال السنوات القليلة الماضية على صعيد الوصول إلى التيار العام (mainstream) في المجتمع الغربي، وليس فقط في مجتمعات الجنوب الأكثر تأييداً لحقوقنا بطبيعة الحال. خلال الأشهر الماضية فقط، بدأت المقاطعة الاقتصادية تصل إلى بداية التحول النوعي. قبل أيام، نجحت حركة المقاطعة في الضغط على بيل غيتس، أغنى رجل في العالم، لبيع كل أسهمه في شركة G&S الأمنية البريطانية لتورطها في انتهاكات للقانون الدولي سواء في السجون الإسرائيلية حيث يُعذب أسرانا، بمن فيهم الأطفال، أو في الحواجز العسكرية أو حماية المستعمرات. أيضاً سحبت إحدى أكبر الكنائس البروتستانتية (United Methodist Church) كل استثماراتها في ذات الشركة. كما خسرت شركة صوداستريم، التي تنتج في مستعمرة معاليه أدوميم، ١٤٪ من قيمة سهمها خلال الربع الأول من

هذا العام. أما شركة "ميكوروت" الإسرائيلية للمياه فقد خسرت عقداً كبيراً قيمته ١٧٠ مليون دولار في الأرجنتين وعقداً آخراً مع حكومة البرتغال، كما أنهت شركة "فيتنز" الهولندية للمياه عقدها مع "ميكوروت" لتورطها في الاحتلال. وأعلنت الحكومة الألمانية أنها ستستثني من اتفاقيات التعاون العلمي والتقني مع إسرائيل جميع الشركات والمؤسسات الإسرائيلية المتواجدة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، "بما فيها القدس الشرقية". كما أعلن ثاني أكبر صندوق تقاعد هولندي (PGGM)، وتقدر استثماراته العالمية بـ ٢٠٠ مليار دولار، سحب جميع استثماراته من البنوك الإسرائيلية التي تعمل في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، مما شكل ضربة معنوية ونفسية هائلة لأحد أهم أعمدة الاقتصاد الإسرائيلي. أما أكبر بنك في الدنمارك فقد قرر مقاطعة بنك "هيوعاليم" الإسرائيلي لتورطه في الاحتلال. وصندوق التقاعد النرويجي، وهو الأكبر في العالم، وضع شركات إسرائيلية متورطة في الاستيطان على قائمته السوداء. وصندوق التقاعد اللوكسمبورغي أيضاً سحب استثماراته من بنوك وشركات إسرائيلية كبيرة.

وكشفت الصحافة الإسرائيلية قبل أشهر قليلة أن عدة شركات بناء عملاقة قد تراجعت عن المشاركة في عطاء تشييد ميناءين يديرهما القطاع الخاص في أسدود وحيفاً خوفاً من تنامي المقاطعة العالمية لإسرائيل. وتأتي هذه الخطوات انسجاماً مع إقرار الاتحاد الأوروبي في أواسط ٢٠١٣ معايير تمنع تمويل أي مشروع إسرائيلي في الأراضي المحتلة، وقد عكس هذا التحول الضغط الشعبي المتزايد لأنصار الشعب الفلسطيني بالإضافة للعمل الدؤوب لمؤسسات حقوقية فلسطينية وأوروبية عملت بهدوء وراء الكواليس.

وقد تبنى عدد كبير ومتزايد من اتحادات الطلبة في جامعات الغرب نداء المقاطعة BDS، بينما تبنت اتحادات الطلبة في عدد من الجامعات الأمريكية والكندية، بالذات جامعة كاليفورنيا، سحب الاستثمارات من شركات متورطة في الاحتلال.

وخلال ٢٠١٣، قررت أربع جمعيات أكاديمية في الولايات المتحدة دعم المقاطعة الأكاديمية الشاملة لإسرائيل، وكذلك فعل اتحاد المعلمين في إيرلندا واتحاد الطلبة الناطقين بالفرنسية في بلجيكا، ويضم ١٠٠ ألف عضواً. كما قاطع ستيفن هوكينغ، وهو أعظم عالم معاصر، مؤتمراً إسرائيلياً رئاسياً. وقفز عدد الفنانين والفرق الموسيقية العالمية الذي بات يحجم عن إقامة عروض في دولة الاحتلال والأبارتهايد.

إن حملتنا لمقاطعة شركة "فيوليا"، والتي أطلقت في تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٠٨، تثبت جدوى المقاطعة الاقتصادية أكثر من غيرها. "فيوليا" هي شركة فرنسية متورطة في مشاريع إسرائيلية في الأرض المحتلة. خسرت "فيوليا" عقودها، أو اضطرت تحت ضغط حملة المقاطعة أن تنسحب من مناقصات، بقيمة تقارب ٢٠ مليار دولار في العالم، في بريطانيا والسويد وإيرلندا ومدينتي سانت لويس وبوسطن الأمريكيتين، وغيرها.

كل هذه العوامل أدت إلى تراجع مكانة إسرائيل العالمية بشكل حاد. فاستطلاعات الرأي العام العالمي التي تجريها (BBC (GlobeScan أظهرت في السنوات القليلة الماضية أن إسرائيل باتت تنافس كوريا الشمالية على موقع ثالث أسوأ دولة في العالم من حيث الشعبية! هذا سينعكس بلا أدنى شك على التجارة الإسرائيلية مع العالم.

## التطبيع

تسترشد اللجنة الوطنية الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها بتعريف التطبيع الذي أقر بالإجماع في المؤتمر الوطني الأول لحركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها الذي عقد في تشرين ثاني/نوفمبر ٢٠٠٧، وشارك فيه ممثلو جميع القوى السياسية (وعلى رأسها حركة "فتح") وجميع الأطر النقابية والاتحادات الشعبية وممثلي شبكات المنظمات الأهلية وغيرهم. أهم ما في هذا التعريف هو أن العلاقة بين طرف فلسطيني أو عربي من جهة وطرف إسرائيلي من جهة أخرى يجب أن يتوفر فيها شرطان ضروريان كي لا تشكل تطبيعاً:

(١) أن يعترف الطرف الإسرائيلي بحقوق شعبنا حسب القانون الدولي

(٢) أن تكون العلاقة نفسها شكلاً من أشكال النضال المشترك ضد الاحتلال والأبارتهايد والاستعمار الإسرائيلي.

تميز اللجنة الوطنية للمقاطعة بين التفاوض مع العدو والتطبيع مع أحزابه ومؤسساته الصهيونية المتواطئة في إدامة مشروعه الاستعماري والعنصري. فبغض النظر عن الموقف من المفاوضات، فهي بحد ذاتها لا تشكل تطبيعاً حسب تعريف التطبيع أعلاه.

يعد التطبيع من أهم معيقات حركة المقاطعة. بغض النظر عن النوايا، فإن محاولة البعض "لاختراق" المجتمع الإسرائيلي من خلال اللقاءات والمشاريع التطبيعية أدت إلى اختراق مجتمعنا وتقويض القيم الوطنية والأخلاقية فيه وتوفير ورقة التوت للتغطية على الاستعمار الإسرائيلي الشرس لأرضنا والتطهير العرقي المستمر لشعبنا في النقب والقدس والأغوار وغيرها وعلى حصار غزة. إن اللجنة الوطنية للمقاطعة. بعد ٢٠ عاماً من فشل فلسفة "أوسلو" وما صاحبها من موجات التطبيع النسوي والعمالي والأكاديمي والشبابي والسياسي والرياضي والبيئي، الممولة من الحكومات والصناديق الأوروبية والأمريكية، باتت الغالبية الساحقة من شعبنا غير مقتنعة بإمكانية التأثير في المجتمع الإسرائيلي لصالح حقوقنا الوطنية من خلال "الحوار" وما يسمى بـ"التعايش" و"التغلب على الحواجز النفسية". لنا الحق، إذن، في التساؤل: من اخترق من، بالضبط، خلال حقبة أوسلو؟

إن كانت معايير المقاطعة ومناهضة التطبيع تَقَرُّ من خلال حوارات وجدل مجتمعي واسع وعلى مدى زمني طويل نسبياً، فإنها قابلة للتطوير والتعديل حسب تطور الوضع والوعي السياسي والنضالي لشعبنا. ولكن المهم هو أن نحافظ على هذه المرجعية الجماعية، وإلا بات كلُّ يتبع معياره الخاصة للتطبيع، والتي بالضرورة تستثني ما يقوم به من مشاريع ولقاءات مع الإسرائيليين، بحجة أنه "مختلف" و"يصر على الأجندة الفلسطينية!"

لم نرى في التاريخ مجتمعاً استعمارياً غارقاً في العنصرية يتنازل طوعاً عن استعماراه واضطهاده لشعب مقهور دون مقاومة وضغط فعال من الداخل والخارج. إن كفاحنا الشعبي والمدني داخلياً مصحوب بمقاطعة عالمية متنامية وفعالة لقادر على إحداث أعمق اختراق للمجتمع الصهيوني.

رغم التفاف الأحزاب والأطر والاتحادات الممثلة لغالبية الشعب الفلسطيني حول حركة المقاطعة BDS، إلا إن غالبية الأطر المنضوية في إطار اللجنة الوطنية للمقاطعة لم تترجم هذا التأييد بالدرجة الكافية إلى برامج واستراتيجيات تتبنى المقاطعة عملياً وفي الميدان، وهذا يفسر، جزئياً، عدم نجاحنا حتى الآن في نشر ثقافة المقاطعة شعبياً واعتبارها من جديد جزءاً أصيلاً من ثقافة مقاومة دولة الاحتلال والاستعمار والتطهير والأبارتهايد. إن نجاح المقاطعة مؤخراً في إحداث إختراقات نوعية على الصعيد العالمي وإرباك إسرائيل ومؤسساتها لا بد أن يشكل حافزاً إضافياً للتحويل من التأييد اللفظي للمقاطعة والمشاركة الرمزية في أطرها واجتماعاتها إلى التطبيق العملي، كلُّ في مجاله وإطار تأثيره.

إن المقاطعة BDS تشكل أحد أشكال النضال الفلسطيني الرئيسية وأهم أشكال التضامن العالمي مع نضالنا. لقد أثبتت حركة المقاطعة أنها قادرة على إيصال إسرائيل إلى عزلة دولية في كافة المجالات، ولكن هذا يتطلب مزيداً من تفعيل المقاطعة محلياً وعربياً ومناهضة حازمة للتطبيع بأشكاله. ولكن، في النهاية، لكي نتصر، أصبح جلياً أننا بحاجة لاستراتيجية نضالية عصرية ولقيادة مبدئية وديمقراطية وثورية تمثل شعبنا الفلسطيني، كلُّ شعبنا.

---

\* تعكس هذه المقالة آراء كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن مواقف حركة مقاطعة إسرائيل (BDS)

\*\* ناشط حقوق إنسان وباحث مستقل

## نحو ملاحقة وتجريم قوانين الفصل العنصري الإسرائيلية ضد الأقلية العربية في إسرائيل

### د. كمال قبعة

تتناول هذه الدراسة طبيعة وأبعاد التشريعات الإسرائيلية التي شرعتها الكنيست الإسرائيلية تجاه الأقلية الفلسطينية في إسرائيل، وذلك بغية إظهار الأبعاد الموعلة بالتمييز والعنصرية التي تتضمنها وتنطوي عليها، ومحاوله تبيان الأهداف والمرامي التي تتقصدها، ومواقف المنظمات الدولية ذات الإختصاص في هذا الشأن تجاه تلك التشريعات والنظام الذي يربعاها؛ كل ذلك بهدف إستنباط وإستشراف بعض آليات ملاحقة وتجريم تلك القوانين والكنيست والنظام القانوني والسياسي الذي يشكل بيئتها وحاضنتها .

والحقيقة أن المتابعة المتأنية تكشف بأن الكنيست قد شرّعت أكثر من (٤٠) قانوناً عنصرياً، وهناك ٢٤ مشروع قانون آخر على جدول أعمالها تنتظر إستكمال مراحل تشريعها. وشرعت الكنيست الماضية وحدها أكثر من عشرين قانوناً عنصرياً. وباتت العنصرية في إسرائيل تحظى بتعاطف جزء كبير من الإسرائيليين، حتى أصبحت العنصرية مقلقة جداً عليهم ولديهم، وكذلك لدى الجهات الرسمية التي لا تعمل على إخمادها والقضاء عليها .

وبعد الإطباق على أراضي العرب الفلسطينيين، وإخضاعهم لنحو أكثر من سبع وثلاثين قانوناً وتشريعاً كانت بمثابة الأداة ل "تهويد" الأراضي الفلسطينية، وفرض عديد التشريعات التي تحد وتنتقص من حقوقهم وحرّياتهم على إختلاف أنواعها؛ يقوم التحالف الإسرائيلي الحاكم في إسرائيل بمحاولات حثيثة من أجل الإنتقال ل "تهويد" التراث والهوية ومحو الرواية والذاكرة الفلسطينية، عبر إعداد وتمرير تشريعات عنصرية قهرية مجحفة . وقد وصف عاموس شوكان حملة حكومة نتنهاو بأنها تستهدف ركائز الديمقراطية الإسرائيلية، والتي ترجمت بسلسلة مشاريع قوانين إستهدفت الصحافة والقضاء ومنظمات حقوق الإنسان، والتي وصفها بأنها محاولة لإزالة العقبات الأخيرة التي تعترض طريق نظام الأبرتهايد. ويؤكد عاموس شوكان بأن "التشريعات الأخيرة، محاولة لقمع المعارضة والنقد ضد نظام الأبرتهايد وقوننته، حتى لو تم ذلك بطريقة غير قانونية وغير شرعية، إذ أن المطلوب هو تحويل العمليات غير القانونية إلى عمليات قانونية، إذا كان ذلك بتغيير القوانين



أو تغيير تفسير القوانين، وفي هذا السياق تندرج حملة التشريعات التي تستهدف وتترافق بهجوم منقطع النظير على المحكمة العليا وعلى منظمات حقوق الإنسان وعلى الصحافة، باعتبار هذه الركائز معوقات أمام إنشاء نظام الأبرتهاید".

وتتزايد النقمة والإستياء على السياسة التشريعية للحكومة والكنيست، حتى أن الوزير السابق دان مريدور، هاجم بشدة شركائه سابقاً في حزب الليكود، على خلفية قيامهم بمحاولة دفع قوانين تميز ضد العرب في إسرائيل وضد اللاجئين، واتهمهم بمحاولة سن قوانين أبرتهاید على شاكلة قوانين نظام الأبرتهاید السابق في جنوب إفريقيا. وقال مريدور أن "الأمر الوحيد الذي يهمهم هو ضم الأراضي. أما حقوق الإنسان والديموقراطية والمساواة فليست واردة في تفكيرهم".

ويرى باحثون إسرائيليون بأن نظام الإحتلال بدأ ب"تعزيز مبدئه الأساسي، ألا وهو الحكم التفاضلي على مجموعتين سكانيتين لهما مكانة مختلفة، كما باشر بتطوير التفاصيل الدقيقة التي تندرج ضمن هذا الأمر". و"الحكم التفاضلي" معناه الرئيسي الحكم على أساس الفصل العنصري بنسخته الصهيونية، إذ "يتمثل الفصل بين هذين النظامين ويدوم بوساطة وسائل قانونية، عسكرية، أيديولوجية، وبيروقراطية خالصة عبر مصفوفة من ثلاثة مبادئ فصل: فصل قومي ثنائي بين اليهود والعرب، وفصل مدني ثنائي بين مواطنين وغير مواطنين، وفصل إقليمي".

وبفعل مصفوفة الفصل المنهجي هذه "بدأ يتأسس شكل جديد من السيطرة، أساسه تقطيع الحيز المكاني الفلسطيني ورفع مستوى قابليته للإختراق، وتعزيز التحكم بالحركة داخله. وبوساطة نظام حركة جديد وشبكة من الشوارع الإلتفافية، نشأ تواصل بين جميع المناطق اليهودية في حين تحول المزيد من المناطق الفلسطينية إلى جيوب معزولة". وسياسة إصطناع "الجيوب المعزولة" والتي تتشابه تماماً مع سياسة "البتوستات" في نظام الإبرتهاید الجنوب إفريقي البائد، جاءت عبر قوانين عسكرية موغلة في الظلم والإجحاف بحق المواطنين الفلسطينيين، إذ "تمثل جل تأثير التشريع الإحتلالي في إنتاج قناع من القانونية لممارسات القمع المأسسة"، و"فرض نظام إحتلال يقوم على الفصل والاستيطان الإستعماري من الجهة الأولى، وعلى إستباحة حياة السكان الفلسطينيين من الجهة الأخرى". ويمكن تسمية ذلك ب"منظومة سيطرة [...] تنتج في الوقت نفسه ودون توقف، شروط إنعزال الواحدة عن الأخرى، وعلاقات التبعية بينهما".

والعزل من جهة والتبعية من جهة أخرى، هما وجهتا عملة الفصل العنصري والأبرتهاید الإسرائيلي، إذ أنهما يشكلان "نظام فصل من نوع يهودي"، ملامحه الرئيسية تتكون من "شوارع فصل، وحواجز وجدران، وتصاريح عبور وتصاريح عمل..". ولعل كاتبي هذا الإستنتاج يصيبان كبد الحقيقة التي

لطالما تم تزويرها وطمسها، باعتبارهما للفصل العنصري والإثني والطائفي في إسرائيل "نظام فصل من نوع يهودي" يتشابه في الكثير من تطبيقاته مع نظام الأبرتهاید البائد في جنوب إفريقيا؛ إلا أن كليهما شكل من أشكال الفصل العنصري، أي أن كلا الأيديولوجيتين والسياسيتين الرسميتين المتمثلتين بالأبرتهاید الجنوب إفريقي من جهة والصهيونية من جهة أخرى، هما شكلان لجرمة الفصل العنصري التي يتوجب العقاب عليها. ويؤكد المقرر الخاص لمجلس حقوق الإنسان المعني بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧، ريتشارد فولك، أن الغاية الإسرائيلية تستهدف "المضي لأجل غير مسمى في فرض إحتلال غاشم ينطوي على عناصر عقابية عديدة تتمثل في حمل السكان على مغادرة فلسطين، وهو ما يتماشى مع الأهداف التوسعية الإستعمارية الرامية إلى التطهير العرقي التي تتوخاها إسرائيل بشكل ظاهر"، ويؤكد أن "فلسطيني القدس الشرقية يخضعون لعملية تطهير إثني تدريجية". وبذلك فإن الفصل العنصري في إسرائيل أشد إجرامية من الأبرتهاید الجنوب إفريقي، كونه يتضمن و" يتماشى مع الأهداف التوسعية الإستعمارية الرامية إلى التطهير العرقي التي تتوخاها إسرائيل بشكل ظاهر"؛ أي أن العنصرية في إسرائيل ترتكب جرمة دولية مزدوجة ومركبة من الفصل العنصري والتطهير العرقي.

### إدانة الصهيونية كشكل من أشكال الفصل العنصري

تنبع العنصرية من صميم الفكر الصهيوني وهي مكوّن طبيعي وبنوي من مكوناته؛ وبالتالي فإن هناك علاقة عنصرية وبنوية بين الصهيونية والعنصرية، وهو ما أشارت إليه الأمم المتحدة في القرار رقم ٣٣٧٩ "باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري" بتاريخ ١٠/١٠/١٩٧٥، والذي جرى شطبه من سجلات الأمم المتحدة بتأمر وضغط غير مسبوق من قبل أطراف متنفذة في منظومة العلاقات الدولية في عام ١٩٩١.

وعلى الرغم من محاولة الإدعاء بعدم عنصرية الأيديولوجيا والسياسة الصهيونية، وبعد نحو ما يزيد على عقدين من الزمن من التأمر وشطب القرار رقم ٣٣٧٩ لعام ١٩٧٥، نشرت لجنة الأمم المتحدة المعنية بالقضاء على التمييز العنصري، إستنتاجاتها النهائية في ما يتعلق بإسرائيل، وذلك في أعقاب الاجتماع في جنيف في الفترة ما بين ١٤ و ١٦ شباط/فبراير ٢٠١٢، الذي بحثت فيه اللجنة مدى تطبيق إسرائيل لالتزاماتها تجاه الميثاق الدولي للقضاء على التمييز العنصري. وتتابع لجنة الأمم المتحدة للقضاء على التمييز العنصري امتثال الدول الموقعة على الميثاق لبنوده، علماً أن إسرائيل أقرت هذا الميثاق عام ١٩٧٩ ولذلك فهي ملزمة بتنفيذ أحكامه. وفي الاستنتاجات المركزية لتقريرها تدعو اللجنة إسرائيل إلى إتخاذ تدابير تشريعية وتنفيذية وإجرائية عديدة لعل أبرزها ما يلي:

- "بذل كل الجهود لإزالة جميع أشكال الفصل بين الجماعات اليهودية وغير اليهودية". وقد انتقدت اللجنة بشدة وبشكل خاص قانون لجان القبول الذي أقرته الكنيسة في شهر آذار/ مارس ٢٠١١ (الاستنتاج رقم ١١).

- "إلغاء جميع القوانين المميّزة ومشاريع القوانين المميّزة، وذلك كي تضمن للسكان غير اليهود الحصول المتكافئ على العمل والتحسينات الاجتماعية، وكذلك الحق في المشاركة السياسية". (الاستنتاج رقم ١٦).

- سدّ الفجوات في مجال التعليم، والإنجازات والدخل بين البلدات اليهودية والبلدات غير اليهودية، "وضمن تمتع الأقليات غير اليهودية بحقوق اقتصادية واجتماعية متساوية". "ومضاعفة الجهود من أجل الحصول المتساوي للنساء على جميع الحقوق المنصوص عليها في الميثاق". (الاستنتاج رقم ١٩).

- وأعربت اللجنة، ولأول مرة، عن قلقها الشديد من وجود أنظمة قانونية منفصلة وأجهزة مؤسسات منفصلة، للفلسطينيين والمستوطنين اليهود الذي يسكنون في مستوطنات غير قانونية في الضفة الغربية المحتلة، والتي تتلخّص بما أسمته اللجنة "الفصل كأمر واقع".

- كما لفتت اللجنة نظر إسرائيل إلى توصيتها العامّة رقم ١٩ من عام ١٩٩٥، بشأن منع وتحريم وإزالة كل أنواع السياسة والممارسة العملية الموبوءة بالفصل العنصري والأبارتهايد، ودعت إسرائيل إلى اتخاذ التدابير الفورية لمنع السياسات والممارسات العملية من هذا القبيل وإلغائها.

إن التمعن في توصيات لجنة الأمم المتحدة المعنية بالقضاء على التمييز العنصري لعام ٢٠١٢ تجاه القوانين والسياسات الإسرائيلية، تظهر بما لا يدع مجالاً للشك الأهمية البالغة لكافة هذه الإستنتاجات والتوصيات من قبل لجنة دولية مختصة بهذا الشأن، إذ أن كافة التوصيات تنطوي على إدراك المجتمع الدولي ممثلاً بتلك اللجنة الأممية، بأن القوانين والسياسات القائمة في إسرائيل هي ليست إلا "أشكالاً وأنواعاً من السياسة والممارسة العملية الموبوءة بالفصل العنصري والأبارتهايد"، وليست عنصرية الطابع والأهداف فحسب، بل هي أكثر إجرامية من ذلك بنعتها على أنها فصل عنصري أو على الأقل "الفصل كأمر واقع".

ولعل من الملفت أن اللجنة الدولية تعيد تكرار توصية سابقة تقدمت بها لإسرائيل منذ عام ١٩٩٥، والتي لفتت فيها نظر إسرائيل إلى أن "كل أنواع السياسة والممارسة العملية الموبوءة بالفصل العنصري والأبارتهايد" التي تتبعها، تستوجب الإسراع في "منع وتحريم وإزالة" تلك السياسة والممارسة، وذلك من خلال "إتخاذ التدابير الفورية" لمنعها وإلغائها. أي أن اللجنة الدولية المعنية بالقضاء على التمييز العنصري قد أقرت منذ عام ١٩٩٥، بأن السياسة والممارسة الإسرائيلية هي

شكل من أشكال الفصل العنصري والأبرتهويد، وتعيد التأكيد على إستنتاجها هذا عام ٢٠١٢ لأن إسرائيل لا تزال تمارس وتنتهج سياسة الفصل العنصري، وتطالبها بالإمتثال للاتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها في العام ١٩٧٣، علماً أن إسرائيل أقرت هذا الميثاق عام ١٩٧٩ ولذلك فهي ملزمة بتنفيذ أحكامها. وتمثل توصيات وإستنتاجات اللجنة الدولية المختصة بالقضاء على التمييز العنصري إدانة صريحة للنظام والقوانين والسياسات والممارسات التي تقوم إسرائيل على أسسها، والتي تتمثل في "الفصل المكاني(الإقليمي) وملاءمة (معالجة) مجالات مختلفة للتأطير الجيو- إثني". وفي ذات السياق يقرر المقرر الخاص ريتشارد فولك بأنه يبدو أمراً لا جدال فيه أن التدابير الإسرائيلية " تنشئ محميات منفصلة للفلسطينيين وتصادر أراضيهم".

وهكذا يتبين بأن "تسونامي تشريعات" الفصل العنصري الإسرائيلية، بات صريحاً وواضحاً، الأمر الذي يفرض متابعة وفضح وكشف وتعميم المعرفة بشأن تشريعات الفصل العنصري الإسرائيلية، بإعتبارها تغوُّلاً غير مسبوق في قوننة وتشريع العنصرية والتطهير العرقي والفصل والتمييز العنصري، بل إنها تشكل شكلاً من أشكال الإبادة الثقافية المترافقة مع جريمة إخضاع الأقلية العربية الفلسطينية الأصلية في البلاد، لظروف تستهدف القضاء عليهم وعلى هويتهم وذآكرتهم وتاريخهم ومقدراتهم المادية وغير المادية. ويتوجب العمل على إخضاع إسرائيل للمساءلة والمسؤولية الدولية من قبل كافة المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية؛ فالعنصرية المنطوية على أشبع أشكال الإستعمار الإستيطاني الإجلائي الإستئصالي للفلسطينيين والإحلالي لليهود مكانهم، باتت مفضوحة ومكشوفة ولم يعد بقدرة إسرائيل تزييف وقائعها وأبعادها الإجرامية، خاصة وإنها تنبع من أيديولوجية عدوانية بطبيعتها وأهدافها، ويجري تشريعها من أعلى الهرم التنفيذي والتشريعي بغطاء قضائي من محكمة "العدل" العليا الإسرائيلية؛ فهي إذأً رسمية ومنهجية وواعية للأبعاد المترتبة عليها، الأمر الذي يستصرخ الشرعية والمسؤولية الدولية.

### في إستحقاقات إنضمام دولة فلسطين للاتفاقيات والمعاهدات الدولية

هناك جملة من الإستحقاقات المترتبة على إنضمام دولة فلسطين للاتفاقيات والمعاهدات الدولية، والتي يتوجب السعي الدؤوب لتحقيقها وإنجازها على الصعيد القانوني الدولي وفي المنظمات الدولية ذات الإختصاص بتلك الإتفاقيات والمعاهدات، بعدما وقع الرئيس محمود عباس في الأول من نيسان/ابريل ٢٠١٤، على قائمة من الاتفاقيات والمعاهدات الدولية الهامة، وأبرز تلك الإتفاقيات والمعاهدات ذات العلاقة بالبحث هذا، تتمثل في:

• الاتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها لعام ١٩٧٣، والتي ستدخل حيز

التنفيذ بالنسبة لفلسطين في الثاني من أيار/مايو؛ وذلك لأن الاتفاقية تنص على أن العضوية تدخل حيز التنفيذ بعد مرور ٣٠ يوماً على تقديم الطلب.

• الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري لعام ١٩٦٥، والتي ستدخل أيضاً حيز التنفيذ بالنسبة لفلسطين في الثاني من أيار/مايو؛ وذلك لأن الاتفاقية تنص على أن العضوية تدخل حيز التنفيذ بعد مرور ٣٠ يوماً على تقديم الطلب.

• اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لعام ١٩٤٩ والتي ستدخل حيز التنفيذ في دولة فلسطين في الأول من تموز/ يوليو؛ لأن قواعد وأحكامها الختامية تنص على أن العضوية تدخل حيز التنفيذ بعد ٩٠ يوماً من تقديم الطلب.

ولعل من الأهمية بمكان، التركيز على أن تطبيق هذه الإتفاقيات التي باتت بحكم الملزمة لدولة فلسطين، يشكل أداة فعالة بل ومطرقة ثقيلة لمطاردة وملاحقة الأبرتهاید الإسرائيلي في المنظمات الدولية ولجانها المتخصصة بذلك، بما في ذلك ما تنص عليه المادة الثالثة من الإتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها لعام ١٩٧٣، عن المسؤولية الجنائية الدولية على الأفراد وأعضاء المنظمات والمؤسسات وممثلي الدولة، سواء بالإشتراك أو التحريض أو التواطؤ أو بالتشجيع على ارتكاب جريمة الفصل العنصري أو أزروا مباشرة في ارتكابها. ويتم إيقاع المسؤولية الجنائية الدولية على مرتكبي جريمة الفصل العنصري "سواء أكانوا مقيمين في إقليم الدولة التي ترتكب فيها الأعمال أو في إقليم دولة أخرى" - وفقاً للمادة الثالثة-. وعلى الدول الأطراف "إتخاذ تدابير تشريعية وقضائية وإدارية للقيام، وفقاً لولايتها القضائية بملاحقة ومحاكمة ومعاقبة الأشخاص المسؤولين عن ارتكاب الأفعال المعروفة في المادة الثانية من هذه الاتفاقية أو المتهمين بارتكابها، سواء أكان هؤلاء من رعايا هذه الدولة أو من رعايا دولة أخرى أو كانوا بلا جنسية" - وفقاً للمادة الرابعة، التي تُخضع جريمة الفصل العنصري للولاية القضائية الدولية لكافة أطراف الإتفاقية.

وأجازت المادة الخامسة "أن يحاكم المتهمون بإرتكاب الأفعال المعددة في المادة الثانية من هذه الاتفاقية، من قبل محكمة مختصة من محاكم أية دولة طرف في الاتفاقية يمكن أن تكون لها ولاية على هؤلاء المتهمين، أو من قبل محكمة جزائية دولية تكون ذات ولاية قضائية فيما يتعلق بتلك الدول الأعضاء التي قبلت ولايتها"، كمحكمة الجزاء الدولي التي تشكلت بموجب ميثاق روما لعام ١٩٩٨. وجاءت المادة الحادية عشرة لتزيل أي ذرائع تحول دون تسليم مقترفي جريمة الفصل العنصري لمعاقبتهم بنصها "لا تعتبر الأفعال المعددة في المادة الثانية من هذه الاتفاقية جرائم سياسية لغرض تسليم المجرمين". و"تعهد الدول الأطراف في هذه الاتفاقية بالقيام، في الحالات

المذكورة، بتسليم المجرمين طبقاً لتشريعاتها وللمعاهدات السارية المفعول". وخولت المادة الثامنة " أية دولة طرف في هذه الاتفاقية أن تطلب إلى أي هيئة مختصة من هيئات الأمم المتحدة أن تعتمد، بمقتضى ميثاق الأمم المتحدة، إلى إتخاذ إجراءات تراها صالحة لمنع ارتكاب جريمة الفصل العنصري وقمعها".

## آليات باتت ممكنة

يظهر مما تقدم من آليات باتت ممكنة وقابلة للمتابعة والملاحقة لتنفيذها وفرضها على إسرائيل، من قبل الدول المتعاقدة السامية في الاتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها لعام ١٩٧٣ والمنظمات الدولية ذات الشأن بها. وتفرض هذه القواعد والأحكام على الطرف الفلسطيني، جملة من المهام العاجلة، وأبرزها:

أولاً: بذل أقصى الجهود للحصول على قرار دولي من الجمعية العامة للأمم المتحدة، يصف إسرائيل بأنها دولة فصل عنصري، وحث جميع الدول والمؤسسات التابعة للأمم المتحدة على تطبيق الاتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها، وتطبيق ذلك على إسرائيل، من خلال مقاطعتها سياسياً وإقتصادياً وأكاديمياً وتربوياً ورياضياً، وسحب الإستثمارات منها، وفرض العقوبات عليها، إلى أن تلغي رزمة قوانينها العنصرية، وتلتزم بمبادئ وقواعد القانون الدولي وخاصة الإنساني منه وقرارات الشرعية الدولية، والتوقف عن إعتبار نفسها فوق القانون والمجتمع الدولي . وسيشكل ذلك رد إعتبار وإعادة الروح للقرار رقم ٣٣٧٩ لعام ١٩٧٥ بإعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، بل وسيرتقي به بإعتبار إسرائيل دولة فصل عنصري تستحق الملاحقة والتجريم والمعاقبة بكافة أشكالها وأنواعها.

ولعل ما يدفع بهذه الإمكانية العملية، وإنتقال التحرك الفلسطيني والصدى المؤازر على المستويين الإقليمي والدولي، من مرحلة القول إلى مرحلة التطبيق والمتابعة العملية، بدمج السياسة والممارسة الإسرائيلية بأنها شكل من أشكال الفصل العنصري، توفر ثلاثة تقارير دولية في غاية الأهمية وهي: ما يقرره المقرر الخاص فولك من أن الإنتهاكات الإسرائيلية " قد تشكل [أفعالاً لاإنسانية] لأغراض الإتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها أو نظام روما الأساسي". وفي الإستخلاصات يؤكد أن إسرائيل "تبدو جلياً في ممارساتها وسياساتها أنها تشكل عزلاً وفصلاً عنصرياً". وتقرير البعثة المستقلة لتقصي الحقائق بشأن المستوطنات لعام ٢٠١٣ التي توثق " مسائل تفتيت الأرض الفلسطينية وإنشاء محميات منفصلة ومناطق معزولة". وكذلك إستخلاصات وتوصيات لجنة القضاء على التمييز العنصري في عام ٢٠١٢، التي تؤكد فيها أنها "تسهر بقلق بالغ إزاء

السياسات والممارسات التي تشكل عزلاً بحكم الأمر الواقع، وأنه قد هالها بشكل خاص الفصل المحكم بين مجموعتين".

ثانياً: إعداد دراسات توثيقية وتحليلية لتشريعات الكنيست العنصرية، وتزويد الجهات المختصة بها، مثل: الإتحاد البرلماني الدولي، الجمعية البرلمانية الأوروبية، الجمعية البرلمانية للبحر الأبيض المتوسط، الجمعية البرلمانية الآسيوية، البرلمان العربي .. إلخ، وذلك لكشف القناع عن ما تقوم بها الكنيست من تمرير قوانين موعلة بالعنصرية، ومطاردة عضويتها في تلك الإتحادات والجمعيات البرلمانية الدولية والإقليمية.

ثالثاً: تفعيل وتنشيط أعضاء الكنيست الفلسطينيين، وبناء تحالفات وتنسيق مع الأطر اليهودية الراضة لعنصرة القوانين أيضاً، والسياسات الإسرائيلية، وخاصة: مشروع قانون تقسيم المسجد الأقصى، ومشروع قانون إسرائيل كدولة الشعب اليهودي (يهودية الدولة).

رابعاً: متابعة وفضح وكشف وتعميم المعرفة بشأن تشريعات الفصل العنصري الإسرائيلية، بإعتبارها تغوُّلاً غير مسبوق في قوننة وتشريع العنصرية والتطهير العرقي والفصل والتمييز العنصري، بل إنها تشكل شكلاً من أشكال الإبادة الثقافية المترافقة مع جريمة إخضاع الأقلية العربية الفلسطينية الأصلية في البلاد، لظروف تستهدف القضاء عليهم وعلى هويتهم وذاكرتهم وتاريخهم ومقدراتهم المادية وغير المادية.

خامساً: تفعيل وتنشيط التصدي الشعبي العارم لتطبيقات قوانين الفصل العنصري والتطهير العرقي وإفشالها، كما حدث مع قانون برافر بشأن تطهير النقب من الفلسطينيين، وكذلك كسر وإفشال تطبيق قانون النكبة، وإعادة بناء قرية العراقيب أكثر من ٦٧ مرة .. إلخ.

سادساً: ولكون أن التشريعات العنصرية الإسرائيلية في المرحلة الأخيرة والقادمة، تستهدف تزوير التاريخ وإنتحال التراث وطمس الهوية الوطنية وتهويد الممتلكات الثقافية والتراثية والتنكر ونفي الهوية التاريخية الحقيقية لفلسطين، يتوجب الإسراع بالإنضمام للإتفاقيات الدولية الرئيسية التالية: حماية التراث الثقافي لعام ١٩٧٢، حماية الممتلكات الثقافية وقت الحرب لعام ١٩٥٤ وبروتوكولها وخاصة بروتوكول ١٩٩٩، حماية التراث غير المادي لعام ٢٠٠٣؛ وذلك لتشكيل حاضنة وأدوات حماية قانونية دولية للممتلكات الثقافية الفلسطينية، بكل ما تضمنته من آليات متابعة وملاحقة وتنفيذ.

سابعاً: تجديد وتفعيل مقاطعة منتجات وبضائع المستوطنات، والإستغناء عن ما يمكن الإستغناء عنه من المنتجات والسلع والبضائع الإسرائيلية، ومؤازرة حملة المقاطعة الدولية المتصاعدة.

## الفهرس

- ١- للإستزادة بشأن الموضوع يمكن مراجعة: د. كمال قبعة، تجريم الأبرتهابد الإسرائيلي والمعاقبة عليه، مجلة شؤون فلسطينية العدد ٢٥٦ ربيع ٢٠١٤، ص ٦٧-٩٩.
- ٢- يديعوت احرونوت/ الحياة الجديدة ١٢-٣-٢٠١٣.
- ٣- د. كمال قبعة، قوننة العنصرية الإسرائيلية، مجلة "المجلس"، مجلة برلمانية تصدر عن المجلس الوطني الفلسطيني، المجلد التاسع، السنة السادسة عشرة، العدد ٤٢، كانون الثاني/يناير ٢٠١١، ص ٦٢-٦٥.
- ٤- عاموس شوكان، صحيفة هارتس/الأيام بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١
- ٥- صحيفة هآرتس/ الأيام ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٣.
- ٦- أرثيلا أزولاي و عدي أوفير، نظام ليس واحداً: الإحتلال والديمقراطية بين البحر والنهر [١٩٦٧-]. ترجمة نبيل الصالح، مدار: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، مؤسسة الأيام: رام الله- فلسطين، آذار/مارس ٢٠١٢، ص ١٥ و ٣١.
- ٧- المصدر نفسه، ص ١٦٧.
- ٨- المصدر نفسه، ص ١٠٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥.
- ٩- المصدر نفسه، ص ٣٨٧.
- ١٠- تقرير المقرر الخاص المعني بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧، ريتشارد فولك، مجلس حقوق الإنسان- الدورة الخامسة والعشرون، A/HRC/٦٧/٢٥، الصادر بتاريخ ١٣ كانون ثاني/يناير ٢٠١٤، الفقرة ٤، ص ٤، والفقرة ٣٤ ص ١٤..
- ١١- تقرير لجنة القضاء على التمييز العنصري في عام ٢٠١٢، رقم الوثيقة CERD/C/ISR/CO/١٤-١٦، وكذلك موقع عرب ٤٨ [www.arabs48.com/?mod=articles&ID=٩٠٢٥٤](http://www.arabs48.com/?mod=articles&ID=٩٠٢٥٤)، تاريخ الزيارة ٢٦ آذار/مارس ٢٠١٢.
- ١٢- أرثيلا أزولاي و عدي أوفير، نظام ليس واحداً: الإحتلال والديمقراطية بين البحر والنهر، مصدر سابق، ص ٣٢٥.
- ١٣- تقرير المقرر الخاص المعني بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧، ريتشارد فولك، مصدر سابق، الفقرة ٧١ ص ٢٥.
- ١٤- تقرير المقرر الخاص المعني بحالة حقوق الإنسان، مرجع سابق، الفقرة ٧٧ ص ٢٧.
- ١٥- المرجع السابق، الفقرة ٧٨ ص ٢٧
- ١٦- مجلس حقوق الإنسان، تقرير البعثة المستقلة لتقص الحقائق بشأن المستوطنات لعام ٢٠١٣، رقم الوثيقة A/HRC/٢٢/٦٣K.
- ١٧- إستخلاصات وتوصيات لجنة القضاء على التمييز العنصري في عام ٢٠١٢، الوثيقة رقم: CERD/C/ISR/CO/١٤-١٦



## قوانين عنصرية لمحو الوجود الفلسطيني

### رياض مصاروة

لا أريد في تعقيبي هذا أن يحصل معي، ما حصل لذلك الذي لم يقتنع بضرورة العيش في بلد معين، لقد قال: أستطيع أن أجوع في أي مكان، لكنه تجول في أحد الأيام في مدينة محتلة من قبل أعداء بلده، فداهمه أحد ضباط هؤلاء الأعداء وأجبره على النزول من الرصيف. نزل وتأكد في قرارة نفسه من استيائه تجاه هذا الرجل، وبالحقيقة ليس فقط تجاه هذا الرجل، وإنما تجاه البلد الذي ينتمي إليه هذا الرجل، حتى أنه تمنى أن يفنى بالزلازل. ثم سأل: هل أصبحت شوفينيا عندما التقيت بشوفيني؟ ولهذا السبب على المرء أن يقضي على حماقة لأنها تصنع من الذي يقابلها أحمقا..(من حكايات السيد كوينز لبرتولد بريخت)

ان التأكيد على الانتماء العرقي، وتمييز هذا الانتماء عن انتماءات الآخرين هدفه تأكيد افضلية عرق على عرق آخر. هذا النوع من التأكيد يؤدي بدوره الى العنصرية، وأسوأ هذه الانتماءات هي تلك المنسوبة الى أسطورة إلهية والعنصرية التي نتكلم عنها متشرشة في الأسطورة نفسها التي اختلقوها: لا حق وجودي لشعوب أخرى في هذا الحيز المكاني.

ان العنصرية نابعة ايضا عن عدم مقدرة مجموعة على تسمية نفسها بدلالات أخرى غير العرق، وهنا يأتي التأكيد على العرق اليهودي في دولة اليهود، وبما أن الأسطورة تحكي أن الله اختار الشعب اليهودي كأفضل الشعوب، فهذا يعني أيضا بالنسبة لهم أن الأسطورة لم تفقد معناها منذ نشأتها أو بالأصح منذ أنشأوها. وهم يلجأون الى اصطلاح "اسرائيل القديمة"، التي هي اختلاق سياسي أيديولوجي، هدفه خدمة الصهيونية وإعطائها الشرعية لسلب الشعب الفلسطيني، وفي الوقت نفسه يلجأون الى علم الآثار ودراسة التوراة لإيجاد الحجج لمحو الفلسطينيين من تاريخ فلسطين، والتوراة مرت عملية صهينة سياسية ضحاياها الأساسيون هم الفلسطينيون، وبذلك تم تزييف تاريخ البلاد الحقيقي، هذا ما تؤكد دراسة "كيت ويتليم" عن هذا الموضوع، وهذه الدراسة تتيح أيضا نقاشا حول الحقيقة التاريخية والمرسوم الأخلاقي للكتب المقدسة مقابل استعمالهما كشهادة تاريخية.

وبما أن التسمية، تسمية العرق لا تجد لها دلالات أخرى، وأهمها الدلالات الثقافية الحضارية، فإنها

تجمدت في الدلالة العرقية التي لم تستطع أن تركز على دلالات أخرى، ومن هنا علينا أن نفهم القوانين العنصرية على خلفية أيديولوجية، وأن هذا العرق المختار من قبل الله لا يسمح لعرق آخر أن يؤسس له وجوداً وأن يؤسس له تاريخاً. وبما أن هذا العصر (هذا الزمن) لا يسمح بمحو عرق بآبادة جسدية، فهم يلجأون إلى القوانين التي تمنعهم أن يمحو العرق الآخر تدريجياً، وهم يعرفون حق المعرفة أن الفلسطيني ينتمي إلى حضارة عريقة أتت لهذا الكون بإنجازات حضارية، فانهم لا يستطيعون أن يحاربوه على أساس أنثروبولوجي، أي على أساس أننا عرق "أحط" لا حق له بالوجود.

إن لديهم عقدة حضارية، فالقوانين التي سنت وتسن هي للحط من قيمة حضارية ناجزة، للحط من قيمة الإنسان الفلسطيني، وتضييق الخناق عليه والحد من تطوره كإنسان، وأن يطور هذه القيمة الحضارية.

إن الصراع القائم هو صراع على التاريخ، أو صراع على تأسيس تاريخ، وتأسيس التاريخ لا يمكن أن يتحقق إلا بالوجود، بالتواجد على موجود، على أرض، وهم يريدون أن يمحو هذا التواجد، هذا الحضور، وقد لجأوا إلى التطهير العرقي، أي إلى تنظيف هذه الأرض من شعب لا حق له بالوجود حسب أيديولوجيتهم، وهذا التطهير تحقق بواسطة التنديس بالدم، وكل تطهير جديد يضطرهم إلى أن يدنسوا أنفسهم بدم جديد، كمثال ذلك الشخص الذي سقط في الوحل ويحاول أن ينظف نفسه بالوحل.

لقد فشلت محاولتهم في سنة ١٩٤٨ بمحو الفلسطيني، وفسلوا سنة ١٩٥٦، عندما جربوا ذلك "برومو" مجزرة كفرقاسم، وفسلوا سنة ١٩٦٧. هذا الفشل أدى بدوره إلى ممارسة العنصرية التي تأتي بقوانينها لمحو تاريخ مؤسس، ولمحو ثقافة ومحو هوية، والقانون الذي يريدون سنه، "دولة إسرائيل، دولة الشعب اليهودي"، ليس باستطاعتنا التعامل معه فقط كقانون، وإنما بالأساس كمقولة التي تؤكد أن مقولة يهودي هي مقولة قانونية تتم تحت سقف المشروعية الدستورية في نظام يدعي أنه ديمقراطي.

## حول تأهيل السياسيين وتعزيز التكامل في العمل

### شعوان جبارين

شكرا لمؤسسة ياسر عرفات لتنظيم هذه الندوة، البالغة الأهمية بموضوعها. شكرا لجهودكم وحضوركم أولا جميعا، هذا شيء مهم ولكن باعتقادي هذه الندوة وغيرها يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ان توجه السياسيين وفي الدرجة الأساس سياسيينا من احزاب وقيادة سياسية ووزراء، يجب ان يتوجه لوضع برنامج من خلال ورشات عمل وندوات لتوضيح هذه الفتوى، أقول ذلك ليست مبالغة بأن الفتوى تصلح لتكون مادة لنيل درجة الماجستير كاملاً في أي جامعة، عندما يتعلق الأمر بمبادئ القانون الدولي وقواعد واحكام اتفاقيات عديدة، وفيما يتصل بالموضوع الفلسطيني.

هذا ليس من باب التبرير بل إني دائماً أقول ذلك، حيث يقولون لنا ونحن نعلم ذلك جيدا وحتى في العالم ان لدينا كنز هائل اسمه الفتوى ولم نستخدمه بعد، عندما نتوجه الى كل المحافل والى ندوات شبه دولية وغير دولية، فالشيء الأساس الذي يركز عليه المتحدثون والمتحدثات هو موضوع الفتوى، لا يمكن أن نهرب من الفتوى فهي بنيت على قواعد القانون الدولي، وبالتالي وبما انها تتعرض لموضوع القانون الدولي يجب ان تعرضها لموضوع الفتوى، فالفتوى اليوم تدرس لكل طلبة القانون الدولي في العالم، فعندما يأتوا الى موضوعات معينة، يшиروا الى الرأي الاستشاري الذي ينبثق عن محكمة العدل العليا مثل موضوع الجدار.

ومثال على ذلك موضوع الحسم بين القانون الدولي والانساني وبين حقوق الانسان كاتفاقيات جنيف وغيرها، حيث تعرضت الفتوى له وهي الوحيدة التي حسم فيها هذا الجدل، فهي قالت ان هناك التزامات على دولة الاحتلال حيث أن قانون حقوق الانسان لا يطبق فقط بالاطار الوطني للدولة وانما بالمنطقة التي تمتد وهنا ليس لها سيادة فلا نتحدث عن سيادة، ولكن الحديث عن سيطرتها على هذه الارض فعليا. النقطة الثانية انا اتفق مع ما قاله الدكتور ناصر تماما واضيف مسألة وهي ذكرت من قبل الدكتور كمال بأن المحكمة من خلال الفتوى قالت ان الموضوع ليس ثنائياً فلسطينياً اسرائيلياً، فهي ملك الامم المتحدة وهي مسؤولة عنه من زمن الانتداب وما بعد، وقرار التقسيم وغيرها من المسائل، وبالتالي أعطتنا أعلى هيئة دولية قضائية شيئاً مهماً، فهي تعرضت للموضوع الفلسطيني بمفاصله الاساسية، والشيء الآخر بردها على الاحتلال وعلى امريكا في بعض التحديات

في المحكمة، طرحت العديد من المسائل حيث فندت الرواية الاسرائيلية والحديث الاسرائيلي مما يؤدي الى تسليحنا قانونيا وسياسيا، فمثلا عندما قالوا انهم في حالة دفاع مشروع عن النفس بموجب المادة ٥١ من ميثاق الامم المتحدة، لم تأخذ المحكمة بهذا الكلام وردت بأنكم مسيطرون، دولة احتلال ومسيطرون على الأرض، وانا بالتالي ارى ان الرد شيء مهم وايضا ارى ان هذا مهم للخطاب والاطار السياسي، هناك البعض يحسب مئة حساب قبل ان يطلع الجملة او العبارة، انت مدعوم قانونيا فتصوروا ان السياسي عندنا مسلح بالموقف القانوني وما يقول القانون فالخطاب يختلف نصيح لا نخاف في أي مسألة ولا نتحدث انصاف جمل في بعض القضايا، ومنها في موضوع حق الدفاع الشرعي عن النفس حسب المادة كذا وكذا، قالت المحكمة شيئاً مهماً، كما أوكد على نقطة ثانية طلب الحديث عنها وهي كيف تم استخدام الفتوى، فأقول ان هذه الفتوى كبيرة وكل كلمة محسوبة وكاملة، وهي مادة للتدريس كبيرة جدا ونحن لم نستخدم منها شيئاً، ولو تحدثنا لمدة أربع ساعات لن نتحدث بإسهاب عن الموضوع فكل مرة نسمع متحدثين. كنا في جنيف قبل اسبوعين من اجل موضوع الأسرى واللجنة المعنية للأمم المتحدة بحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف، وهي التي نظمت اللقاء ونظمت ندوة شبيهة على مدى يومين والشئ الوحيد الذي كان حاضرا من خلال مداخلات كل الخبراء هي الفتوى، حيث قالوا شيئاً هاماً ونكتشف في بعض المرات شيئاً جديداً ومن هذه الاشياء انها رتبت مسؤوليات على هذه الدول وبرأيي ان هذا الهم، فهي قالت انه ليس فقط على الدول ان يكونوا سلبيين فقط ويعترفوا بالجريمة بل قالت عليكم فعل ايجابي وقد تطرق لها الدكتور ناصر من قبل، ولكن أوكد على انها مدخل هام جدا لقيادة سياسية لتأخذ توجهاً وتضع استراتيجية في هذا الموضوع لخطوات عملية محددة للمسائل المطروحة وفي كل المحافل وتحديدا الأمم المتحدة، ونقول ببساطة ان بعثة فلسطين تستطيع تقديم مشاريع للدول نفسها للحصول على أشياء نبني عليها، ومثلا الأمين العام حيث نستطيع القول ان الفتوى كانت مبنية في تسلسل واضح ومعروف اين الطريق، مجلس الأمن استنفد حاله وقبلها موضوع الجلسة الاستثنائية الطارئة العاشرة حيث استنفد هنا مسائل واغلق الفيتو وجمعية عامة جاءت تتكلم في الموضوع فتحدثت فيها اكثر من مرة وبعدها جاء موضوع السؤال، وهذا يدل على ان هناك نسفاً الى حد ما جيد ومفيد، ولكنه تلاشى حيث ان الكنز بين ايدينا ولكن لم نستفد منه، وهنا اعطي مثلاً واحداً أن الامين العام يعمل تقريراً ببساطة يرى كل الدول هل قامت بمسؤولياتها أم انها فقط امتنعت عن التصويت أو اعترفت بخطأ وحقائق الامر الواقع، وماذا كانت ردة فعلها على اسرائيل وكيف ضغطت عليها وكيف التزمت بموضوع الفتوى وهنا يجب ان نفحص ما هي الشركات في هذه البلدان التي قامت بوقف استثماراتها وهذا تداركناه اخيرا في مجلس حقوق

الانسان واجتماعه الذي انعقد في شهر آذار/ مارس من هذه السنة والتعاون الذي حدث بين مؤسسات المجتمع المدني والبعثة هناك هو الذي ساعدنا بالرغم من انه في لحظة من اللحظات كان موضوع تساؤل. كنا قد وضعنا أرجلنا في الحيط وقلنا ابنوا على ذلك بالرغم من أننا كنا تحدثنا عنها في السنوات السابقة ورفضت سياسيا، والسبب كان اننا لا نريد ان نتورط مع الاوروبيين وغير الاوروبيين، في الاجتماع الاخير لمجلس حقوق الانسان وضع شيء عن الشركات وطلب من الامين العام تقديم تقرير العام القادم عن دور الدول في تحذير شركائها واذا كانت هناك شركات لها استثمارات واعمال تجارية او غيرها في المستوطنات مخالفة للقانون وفتوى الجدار وغيرها.

ان النقطة الاساسية التي بنينا عليها الرأي او بني عليها الرأي من قبل المكتب هناك او بتعاون مع مؤسسات هي الفتوى، وبالتالي فإن ما قدم للمندوبين الاوروبيين هو الورقة الداعمة حيث أن جزءاً منها كان حول قرارات الاتحاد الاوروبي وقانون الاتحاد الاوروبي وبالطبع منها الفتوى، وبالتالي اقول ان لا هذه الندوة ولا اخرى تكفيها واقترح ان تأخذ مؤسسة ياسر عرفات استكمالاً لها بأن تكون ندوة مخصصة للقيادة السياسية من احزاب ومسؤولين لتوضيح الفتوى وما يترتب عليها من ايجابيات وسلبيات بكل ابعادها حول القضية الفلسطينية، فعندما نتحدث عن القرار ١٨١ او غيره او الحديث عن مسؤولية الامم المتحدة فنحن نعيد الامر الى مظلة مهمة وهي الامم المتحدة وتخرج من مضمار الولايات المتحدة المنحازة وخصوصا ان هناك جهودا في هذا المجال في عام ١٩٨٠-١٩٨١ وقد طرح عقد مؤتمر في ذلك الوقت في جنيف، وامريكا أوقفت الموضوع وهنا بالتالي لا ابالغ عندما اقول اننا نملك كنزاً وايضا لا ابالغ عند القول انها انجاز كبير ولا نريد اكبر منه، والكل كان يقول اننا نريد فتوى ثانية والكل يشير علينا بأن مثل تلك الفتوى لا تلزم، انتم اخذتم قراراً من محكمة العدل الدولية لم يقرر بهذا الشأن او الشكل واليوم لو ذهبتم الى هذه المحكمة تجدونها محافظة في موقفها من موضوع الجدار كان قراراً غير عادي وهذا لان قضيتنا عادلة والاحتلال منتهك لقواعد القانون الدولي، وبالتالي كان هناك اجماع لحد الكمال والقليل الواحد الذي امتنع خارج الاجماع امتنع لمسائل تقنية ولم يمتنع في جوهر الموضوعات فالمسائل التقنية لم نختلف معه فيها.

أما كيف نعمل اذا توفرت إرادة سياسية حقيقية في هذا المجال فكل يوم نستطيع عمل قصة ولا احد يستطيع القول أننا متطرفون سياسيا او غير سياسيا، ولكن الدور يمكن أن يخسرك فهذا شيء قانوني حيث يمكن ان يجعلك تتشابهك مع الامريكان او الاسرائيليين او غيرهم وهذا شيء مهم.

اختم بعبارة: في الرأي الاستشاري قالت اسرئيل أن ليس من المسموح للفلسطينيين ان يظلموا يضربونا ويفجروا، ونحن نعمل الجدار من اجل حماية مواطنينا، وحجتهم أنه في القانون الدولي

لا يجوز لأحد ان ينتفع بعمل باطل قام هو بعمله وبهذا لا يستطيع الفلسطينيون الهجوم علينا وينتفعوا من القانون ضد الجدار، وقد ردت المحكمة ان هذا الطرح غير صحيح وبالتالي ارى ان هناك تفاصيل في الرأي قراءتها مفيدة وهناك مساحة تبدأ ولا تنتهي بشكل يومي في كل المجالات. وأقول للمسؤول السياسي الذي يتحدث عن مواجهة الجدار، وبالنسبة لموضوع تبادل الاراضي الجواب موجود في الرأي الاستشاري لأن تبادل الأراضي هو من اجل إبقاء المستوطنات، فلا يمكنك أن تشرع الجريمة، وانا في رأيي حان الوقت للمسؤول الفلسطيني للقول أن هذا ضد القانون الدولي الانساني.

حان الوقت بالرغم من اننا رفعنا عشرين مذكرة عن هذا الموضوع واصدرنا بحثاً في هذه المسألة وقدمناه لكل المسؤولين الحكوميين.

اولا واخيرا هي ارادة سياسية والشيء الاخر أن تعطي الخبز للخباز وان تقول لكل الناس الذين لهم علاقة بالموضوع من مستشارين وممارسين وقانونيين ماذا تقترحون علينا وكيف نقوم بهذه الخطوة.



